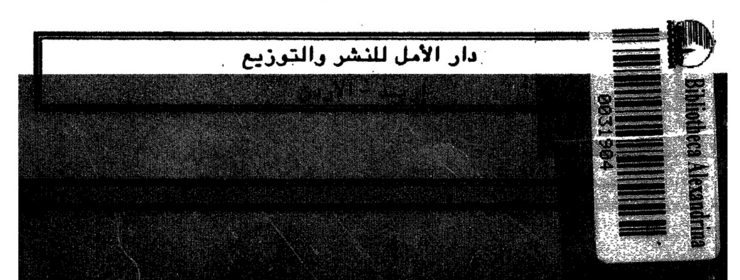
انشطار المصطلح الاجتماعي

تأليف

الأستاذ الدكتور معن خليل عمر

الطبعة الثانية

١٩٩٤م



انشطار المصطلح الاجتماعي

إنشطار المصطلح الإجتماعيّ

تأليف

الدكتور معن خليل عمر

الإهداء

أهدي كتابي إلى :

الذين يبحثون عن قرائن الأحداث

ونقائض الواقع .

وتتابع الظواهر الاجتماعية

من أجل نحت مصطلح ثنائي .

فهرست المحتويات

الفصل الثالث : ـ

المقدمة :

لكل علم سواء كان انسانيا او صرفا ـ مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة به يصكها وينحتها علمائه من اجل تحديد متون مفرداته وتقويم شروحات علمية دقيقة عن متغيرات الظاهرة وعلاقتها بعضها ببعض للباحثين والدارسين لتعريفهم على ما موجود من تطورات في علمهم .

وعلم الاجتماع كباقي العلوم الانسانية والصرفة بدأ بهده المهمة العلمية منذ ميلاده حيث كانت لدى علمائه وباحثيه مفاهيم ومصطلحات عن الفرد والمجتمع والثقافة الاجتماعية وما يحصل بينهم من علائق وارتباطات وظواهر ومشكلات وانماط وأنساق .

بيد ان هذا المؤلف اختار حالة واحدة من حالات المصطلحات الاجتماعية وهي الحالة الانشطارية . اي المصطلح الذي انقسم الى قسمين ليعبر عن وجهي الظاهرة اذ جذبت انتباه المؤلف اثناء مطالعته لادبيات علم الاجتماع منذ فترة طويلة . فقام بتجميعها لانها متناثرة بين مؤلفات هذا العلم . ومعظمها لم يشر الى الانشطار بل طرحت على انها مصطلحات فقط والقسم القليل منها كان يذكر على انها ثنائية مثل المجتمع المحلي والعام والديني والدنيوي والمستقر والدينامي والميكانيكي والعضوي والرفقي والمشاع . والباقي طرحت دون الاشارة الى الثنائية . فأخذ هذا الجهد وقتاً طويلا للبحث عنها وجمعها ومن ثم دراستها فتوصل (المؤلف) الى تصنيفها وتحليلها وتقديم خلاصات عنها .

في الواقع انها (الثنائيه الاصطلاحية) الية منهجية مهملة في علم الاجتماع والمتداولون لها لم يأخذوها اخذا جديا او لم يعطوها اهمية جديرة بل اعطوها أقل مما تستحق هذه الاسباب دفعت المؤلف الى تجميعها وتصنيفها في هذا الكتاب حسب الفصول الثلاثة المذكورة فيه . تناول الفصل الاول منابع الانشطارات الكبيرة والصغيرة . اذ بدأ اول انشطار بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر الانشطار الكبير ومن ثم ظهرت المصطلحات المنشطرة بشكل اكثر (في الفصل الثاني) اما الفصل الثالث فقد تضمن تصانيف منظري علم الاجتماع لتطور علمهم فابررت فيها اهم الانشطارات التي حصلت اثناء المراحل التطورية التي مر به فكشفت عن عدة انواع من الانشطارات وهي الانشطارات القاروية والاقليمية

والافقية والعمودية والانفلاقات المشتقة من الانشطارات الثنائية والاقتران المترادفة والمركبة والدايكرونية (ذات البعد المكاني) والسانكرونية (ذات التراتب الزمني) .

هذا واني اعد هذا الجهد العلمي المتواضع رافداً في مجرى النظرية الاجتماعية بشكل خاص وعلم الاجتماع بشكل عام

اسأل الباري عز وجل التوفيق والنجاح

المؤلف
د . معن خليل عمر
بغداد ١٩٩٠

الفصل الاول
منابع ومصبات علم الاجتماع

احاول في هذا الفصل تحديد اوسع واعمق المنابع المجتمعية التي زودت علم الاجتماع بأوفر المعلومات واغزرها . فروت مساحات شاسعة من حقوله المعرفية بحيث اثمرت نتاجات فكرية ومنهجية ونقدية ناضجة تتصف بنكهة تعكس زمانها ومكانها .

فنهايات مسارات منابع هذا العلم وصلت الى مصابات قاروية وعقائدية وتنظيرية احادية الجانب واقليمية ، سميت المصب القاروي بالانشطار الاكبر لانه فلق علم الاجتماع حسب الموقع الجغرافي للقارة . فأصبح عندنا علم إجتماع اوربي وعلم اجتماع امريكي حصل هذا الانشطار بسبب جنسية علماء الاجتماع القاروية وليس الاقليمية او الوطنية .

وهناك مصب ثان يمثل العقيدة السياسية التي فلقت هذا العلم الى نصفين كبيرين هما علم الاجتماع الاشتراكي وعلم الاجتماع الرأسمالي . اذ عكس المذهب الاشتراكي المجتمعات التي تعيش تحت مظلته وعكس الثاني المجتمعات التي تخضع للنظام الاقتصادي الرأسمالي ثم هناك المصب الاكبر الثالث الذي اوضح الانفلاق النظري للحياة الاجتماعية اذ كرس جهده العلمي بتصوير وتحليل الجانب الصراعي لها وصور الثاني وحلل الجانب الوظيفي ـ البنائي منها ، وليس بسبب العقيدة السياسية او الموقع الجغرافي . اخيراً الانشطار الكبير (الذي يمثل الانفلاق الاصغر من الاكبر) اذ شطر علم الاجتماع داخل القارة الواحدة فأصبح لدينا علم الاجتماع الفرنسي وعلم الاجتماع البريطاني وعلم الاجتماع الالماني .

وسوف أفصّل هذه الانشطارات الكبرى والكبيرة فيما بعد ، لاني اجد نفسي ملزماً بتوضيح منابع علم الاجتماع قبل الشروع بتفصيل مصباته النهائية وهي ما يأتي .

المنبع الاول : العقد الاجتماعي :

ظهر هذا المنبع في الفترة المحصورة بين ١٦٠٠ ـ ١٨٠٠ م التي اصبحت فيما بعد اسس التنظيمات الاجتماعية حيث انطوت على التنازل الكامل من جانب كل واحد عن جميع حقوقه للمجموع . اذ انه اولا لما كان كل شخص قد سلم نفسه بلا اي تحفظ فأن الحالة متساوية بالنسبة للجميع . ولما كانت الحالة متساوية بالنسبة للجميع فليس من مصلحة احد ان يجعلها شاقة للباقين . ولما كان هذا التنازل قد تم بلا تحفظ فأن الاتحاد يكون اكمل ما يمكن وليس لاي واحد اي حق قبل المجتمع لانه اذا ظل للافراد اي حقوق . ولما لم يكن هناك مرجع اعلى يفصل بينهم وبين المجتمع فأن كل واحد ـ كما هو الحكم لنفسه في بعض المسائل ـ سرعان ما سيدعي ان له الحق في ان يكون كذلك في جميع المسائل ولو ان الامر كذلك لكانت حالة الطبيعة ما برحت قائمة ولا صبح الاتحاد بالضرورة استبداديا او بلا اثر(١) .

هذه هي احدى افكار العقد الاجتماعي وقد علق عليها كدنكز قائلا انها ولدت في رحم المجتمع ونمت فيه فولدت ولادة طبيعية حاملة معها صفات العدل الاجتماعي والحرية والمساواة والاخاء(٢) . وقد تأثر بها مفكرون عديدون من مختلف الاختصاصات الانسانية الذين عاشوا تلك الفترة الزمنية . ففي فلسفة التاريخ تأثر بها كل من جارلس بيرايلت وسانت بايیروجوميني فيكو وآن توركو عندما كتبوا عن تقدم المجتمع وتأثر بها من علم التاريخ كل من سير توماس موروتوماسو كامبانيلا ودانسيوس فينيلون . اذ كتبوا في اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) الاجتماعية . ومن فلاسفة العصور الوسطى وتأثر بها كل من جورج بيركلي وديفد هيوم وجوزيف سايس وجيرمي بنثام . وتأثر بها من المفكرين في العلوم السياسية ادموند بيرك وتوم بينية(٣) .

غرضي في هذا المقام ان اشير الى تأثيرات العقد الاجتماعي على انه نظرية جمعت بين معظم العلوم الانسانية (التاريخ والفلسفة والسياسة والاجتماع) فقد عبرت عن فلسفة التقدم الاجتماعي للمجتمع الانساني وعن المباديء الانسانية الحقة المتمثلة بقيمة الحرية وفكرة الارادة لا القوة في قياس الحكم . فضلاً عن فكرة الحق وليس القوة اساساً في بناء النظام السياسي . فهي اذن نحت منحاً فكريا ومنطقيا وليس عمليا وواقعيا . وهي في هذا السياق نظرية انسانية قبل كل شيء

تهدف الى تحقيق المبادىء المثالية في علاقة الفرد بمجتمعه . لذلك وجدنا بعض المفكرين الاوربيين كتبوا في اليوتوبيا الاجتماعية مثل سير توماس مور وتوماسوكامبانيووفينيلون وهذا بدوره لم يخلق تطوراً ملحوظاً في علم الاجتماع القديم لان نظرية العقد الاجتماعي لم تستنبط من الواقع الاجتماعي الحي ، بل من خلال افكار ومبادىء مثالية خدمت وتخدم المفكرين في صياغة او تصوير رسم مثالي للمجتمع الانساني . اقول انها رياضة فكرية ومنطقية تفيد المفكرين لكنها لاتنفع المجتمع في معالجة مشكلاته التي يعاني منها وتمثل ايضاً هروباً من دراسة الواقع المتضمن مشكلات وظواهر شتى .

ونجد من المفيد ان نستضيء بقول الكسندر جيفري فيما يخص تأثيرات نظرية العقد الاجتماعي في استحداث نظريات اجتماعية تناولت التمرد الاجتماعي ضد المؤسسات الاجتماعية ذات الجذور التاريخية في المجتمعات التقليدية ولها اثر ايضاً في بروز الاتجاه العلماني بشكل جلي . ففي عصر النهضة اكد ميكافيلي (مفكر ايطالي) على علاقة الامير واستقلال نمط تفكيره لكي يميز عالمه الخاص به ، وجون لوك وهوبز (مفكران بريطانيان) من رواد نظرية العقد الاجتماعي عزلا الحرية الفردية عن التقاليد الاجتماعية من خلال نظرتهما لمفهوم النظام الاجتماعي المتطور المستند على العقد الاجتماعي الذي يخدم التفكير الفردي ، وحصلت الحالة نفسها في فرنسا ابان تلك الفترة الزمنية اذ بدت هذه المنطلقات النظرية الفردية التقليدية حاملة معها الغطاء الاجتماعي والصفة العقلانية ، حيث سلطت وركزت الاضواء على انواع جديدة من حاجات الفرد مثل مفهوم السعادة والنفوذ والسرور والامن والاستقرار والضمان الاجتماعي وكان المذهب الوحيد الذي جسّر بين الفكر الاجتماعي الفردي التقليدي والمعاصر هو مذهب المنفعة ، على ان لا ننسى ان النظرية الفردية تتضمن الجانب العاطفي اللاعقلاني بينما كانت النظرية الجمعية التي تهتم بالتجمعات الاحتماعية ضد المنطلقات الفردية التي انطوت عليها النظرية الفردية لانها (النظرية الجمعية) تؤكد وتلح على وسائل الضبط الاجتماعي وضد رغائب الفرد ودوافعه لانها تعدها انانية وضيقة الافق وغير عقلانية بل مقادة وموجهة من قبل عواطفه ووجدانه(١) .

المنبع الثاني : الثورة الصناعية :

سوف لا اتكلم عن اسبابها وطبيعتها لانها لاتمثل هدفاً من اهداف هذه الدراسة . بل ان ! ثارها شكلت انعطافات وتحولات اجتماعية في المجتمع الاوربي لفتت انتباه الباحثين الاجتماعيين وهي مايأتي ،

١ ـ هجرة الناس من الحقل الى المعمل ومن الريف الى المدينة ومن الزراعة الى الصناعة .
٢ ـ ارتفاع مستوى المعيشة لعدد كبير من السكان ارتفاعاً ملموساً بسبب استخدام الالات الميكانيكية في الزراعة كاستخدامها في الصناعة والتجارة فتضخم الانتاج الاقتصادي والتبادل التجاري تضخماً هائلاً .
٣ ـ ازداد عدد افراد الطبقتين الاجتماعيتين المتوسطة والعمالية ازدياداً كبيراً واصبح لكل منهما عمل يختلف بوجه واضح عن عمل الإخر .(٥)
٤ ـ انتشار الروح القومية .
٥ ـ نضال مرير بين الديمقراطية والدكتاتورية .
٦ ـ تقدم كبير في مركز الطبقة العمالية .
٧ ـ نمو السكان وتمركزهم في المدن وظهور مشكلات اجتماعية عديدة فيها .
٨ ـ انخفاض الامية بين السكان .
٩ ـ خفت حدة الصراع الطبقي القديم بين النبلاء والبرجوازية .
١٠ ـ ظهور بوادر صراع بين الطبقة المتوسطة والبروليتارية .
١١ ـ اصبحت الاشتراكية حركة كفاح العمال ترمي الى استخدام السلطة السياسية في الحصول على المكاسب الاقتصادية .
١٢ ـ ظهرت نقابات العمال وسيلة للمساومة الجماعية لصالح الطبقة العاملة .(٦)

١٣ ـ فاقت الالة قصد بانيها وهيمنت المادية الاقتصادية على مرافق العصر وكانت اولى وظائف الالات ان تصب سيلا دافقا من البضائع الرخصية والموحدة القياس والشكل . الا ان تأثيرها لم ينته بانتهاء وظيفتها هذه فان ازدياد المعامل اضعافاً مضاعفة ادى الى تضخم طبقات العمال في المدن .(٧)

المنبع الثالث : الثورة الفرنسية :

حققت الثورة الفرنسية تغيرات عديدة في المجتمع الاوربي . فقد حصلت صراعات اجتماعية عميقة خلال حقبة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٩ لان الثورة الفرنسية بقيادة البرجوازية دمرت نظام الانتاج القديم والعلاقات الناجمة عنه . لقد حملت الخراب الى الطبقة القديمة المسيطرة . اي الارستقراطية العقارية ولكنها حملت الدمار في الوقت نفسه بوساطة التضخم النقدي على الاخص الى اجزاء البرجوازية بالقاب مختلفة كانت مندمجة في مجتمع النظام القديم ومن جهة اخرى بعد ان امنت انتصار الاقتصادالرأسمالي بفضل الحرية الاقتصادية عجلت بفروق متنوعة بانحطاط المجموعات الاجتماعية المرتبطة بنظام الانتاج التقليدي دون ان تستطيع الرأسمالية مع ذلك ان تفرض نفسها بطريقة مقنعة وعلى الاخص في مجال الانتاج الزراعي ، فقد حصل مايلي :

١ ـ دمارالارستقراطية الاقطاعية
٢ ـ الحرية الاقتصادية
٣ ـ استفادة الطبقات الشعبية في المدن والغاء الضرائب غير المباشرة التي كانت تغني حياتهم .
٤ ـ الصراعات الايديولوجية بين التقدم والتقليد والعقل والعاطفة .
٥ ـ فصل الدولة عن الكنيسة .(٨)
٦ ـ اتساع فكرة الديمقراطية وما تنطوي عليه من صراعات لحقوق البشر والحريات العامة والمنظمات الحكومية والتمثيل النيابي .(٩)

هاتان الثورتان عملتا على تطبيع علم الاجتماع باهتمامات اجتماعية خاصة بالتحولات والتغيرات الاجتماعية التي احدثتهما في المجتمع الاوربي اذ جعلته يختلف عن علم الاجتماع في امريكا وكان هذا اول واكبر انشطار حدث في هذا العلم الفتي الذي ـ حدث مع ميلاده بيد ان هذا الانشطار لم يؤثر على درجة علميته وموضوعيته . بل اختلف في اتجاهاته واهتماماته وتياراته ومذاهبه وفكره .

المصبات والانشطارات :

الانشطار الاكبر : القاروي ..

اي علم الاجتماع الاوربي والامريكي . اذ اهتم الاول بدراسة المجتمع الانساني العام والطبقات الاجتماعية وصراعاتها والحضارة والمدنية وتطور المجتمعات والمؤسسات الاجتماعية والقوانين الاجتماعية والقانون والدولة . واهتم ايضاً بطرح مفاهيم اجتماعية مترادفة مثل التضامن العضوي والالي (الميكانيكي) (اميل دوركهايم الفرنسي) والمجتمع المحلي والعام (فرديناند تونيس الالماني) والمجتمع الصناعي والعسكري (هربرت سبنسر ـ البريطاني) والديمقراطية والبيروقراطية (ماكس فيبر ـ الالماني) سوف احدد وبشكل اوسع الفروق الجوهرية بين علم الاجتماع الذي تطبع بالطابع الاوربي فاضحى متميزاً في طرحه ومنهجه عما هو عليه في امريكا الشمالية .

فقد انصب اهتمام الباحثين الاجتماعيين الاميركان على المسألة العرقية التي كانت تمثل مشكلة اجتماعية كبيرة وطاغية على مناحي الحياة الاجتماعية الأمريكية كافة . جلبت للمجتمع الامريكي الصراعات العديدة في كل مكان وزمان .. بينما لم يهتم الباحثون الاجتماعيون في اوربا بهذه المسألة (العرقية) لانها لم تطغ على مجتمعهم كما طغت على المجتمع الامريكي فتناولوها بشكل هامشي واعطوها الاهمية الثانوية في الدراسة والتحليل .

هذا الاهتمام العرقي جعل الاجتماعيين الاميركان يهتمون بموضوع تحليل الثقافة القومية للاعراق المتنوعة في مجتمعهم لارتباطهما وتفاعلهما وتأثيرهما على سلوك الافراد الامر الذي حث الاجتماعيين الامريكان على بلورة حقل خاص بالثقافة الاجتماعية داخل علم الاجتماع لم نجد له نظير عند الاجتماعيين الاوربيين .

والملفت للانتباه حول كتابات وتحليل الاجتماعيين الاميركان انها مستخرجة من احصاءات وارقام وبيانات كمية ومحللة بشكل منطقي مقنن مبتعدة عن الوصف السردي المطنب وهذه الخاصية لم نجدها واضحة المعالم بنفس السعة والعمق عند الاجتماعيين الاوربيين بل مالوا الى وصف مشكلاتهم وظواهرهم الاجتماعية بعيداً عن الاساليب والاليات الاحصائية والكمية وبهذا الخصوص ميز بول كيسكمتي

بين علم الاجتماع الامريكي والاوربي من خلال اسلوبهما في دراسة المجتمع . فالاول استخدم وما يزال يستخدم ـ الاسلوب التطبيقي . والثاني يستخدم الاسلوب الوصفي والتفسيري الذي لايمثل نهاية او غاية الاجتماعي في دراسته بل تفسير الظاهرة من اجل كشف نسيج العلائق المستكنة داخلها ومعرفة اثر الثقافة الاجتماعية في توجيهها وتقييمها هذه المهمة المنهجية تتطلب ثقافة اجتماعية واسعة عند الباحث لكي يستطيع تحديد موقع الفرد في النسيج العلائقي ودرجة ارتباطه بثقافته .
مازلنا بصدد طرح المواضيع الاجتماعية التي جلبت اهتمام الاجتماعيين الاميركان لكونها مشكلات اجتماعية بارزة في مجتمعهم ولانها تعكس نمط تفكيرهم الاجتماعي مثل الانحرافات السلوكية (جنوح الاحداث والجرائم والادمان على المخدرات والمسكرات وباقي المخالفات القانونية) .

هذه المشكلات الاجتماعية لم تدرس من خلال الاختلاف الرسمي او الثقافي بل درست بشكل وضعي بوساطة المنهج الاحصائي لانها من المشكلات ذات الحدوث الدائم في المجتمع وان اسبابها عديدة ومتنوعة ولا تأخذ شريحة اجتماعية كبيرة الحجم (اي لاتأخذ عرقاً واحداً او قومية واحدة باكملها ـ هذه الخصوصية الاجتماعية جعلت قسماً من الاجتماعيين الاميركان ـ في تقديري ـ يستخدمون الاسلوب التطبيقي في علم الاجتماع اكثر من الوصفي ـ بسبب نوع المشكلات الاجتماعية السائدة في مجتمعهم) ومع ذلك لم يمنع هذا من تناول موضوعات اجتماعية اخرى في دراساتهم مثل السلوك السياسي وعملية اتخاذ القرار والقيادة بيد انهم لم يعطوها موقع الصدارة في عملهم وبحوثهم وقد يعود ذلك ايضاً الى ان الثقافة الأمريكية (المتنوعة) التي لاتؤكد على الدور المركزي للمؤسسة السياسية في بلورة الاحداث الاجتماعية بينما اهتم الاوربيون بشكل مركز على السلطة السياسية والمؤسسات الاجتماعية الرسمية والرموز المقدسة والصفوة والقيادة والاعتبار الاجتماعي ورجال السلطة البارزين . بمعنى اخر اهتم الاجتماعيون الاوربيون بموقع الفرد ومكوناته ومؤثراته ومنشطاته ودراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية الثابتة والدائمة الوقوع بينما اهتم الاجتماعيون الاميركان بسلوك الفرد اليومي خارج موقعه اكثر من داخله (اي داخل الموقع) ودراسة المشكلات والظواهر الاجتماعية العرضية والمؤقتة التي تفرزها الاختلافات العرقية والقومية بالدرجة الاساس .

صفة اخرى اتسم بها علم الاجتماع الاوربي هي العقلانية والعضوية (وهما من اثار الثورتين الصناعية والفرنسية) فالاولى ـ العقلانية ـ ظهرت مع مرحلة النهضة الاوربية في منتصف القرن التاسع عشر ـ فأخرجت مواضيع اهتمامه من التأملية

والتصورية الى الواقعية . فظهرت كتابات عن المجتمع الديني او الدنيوي وعن الحكومة والدولة وليس عما وراء الطبيعة او الكون وتطوراته وهذا ماوجدناه في كتابات هيكل وشيلينك وماركس وكونت .

اما العضوية . فقد ابرزت كيفية تحول المجتمعات من العضوية الى الميكانيكية وهذه نقلة علمية ظهرت مع بداية كتابات اميل دوركهايم (تضامن عضوي وميكانيكي) ـ وفرديناند تونيس (تحول المجتمع المحلي الى العام) وشبنجلر والفريد ويبر عندما طرحوا تحولات الحضارة والمدنية(١٠) هذا ولم نجد صفتا العقلانية والعضوية عند الباحثين الاجتماعيين الاميركان .
اجد نفسي في هذا المقام ان اطرح بعض المنظرين الاوربيين الذين تناولوا احداث وظواهر اجتماعية سادت مجتمعهم ابان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتي تأثرت بالثورتين ـ الصناعية والفرنسية ـ وهم كالاتي :

جبرائيل تارد (١٨٤٣ ـ ١٩٠٤ فرنسي)

الذي اشتهر بدراسته عن المحاكاة (او التقليد) اعتمد تارد في تحديد مفهوم مصطلح المحاكاة على معناه في العلوم الاخرى لكي يميزه عن باقي العلوم فقد وجد ان التقليد في الفلسفة يعني نمطاً عاماً للتكرار وفي دراسة الجملة العصبية يشير الى وظيفة الذاكرة ، وفي علم النفس يدل على حالة سير الانسان اثناء نومه (اي مشي الانسان وهو نائم) اي ان الانسان يقلد الاخر دون وعي . اما في علم الاجتماع فانه يبحث عن الاجابة حول سؤال مفاده . لماذا يتبنى الانسان عملاً ابتكارياً واحداً من مجموعة اعمال مبتكرة ؟ يجيب تارد على هذا السؤال فيقول ان الناس تبحث عن العمل والسلوك المفيد لهم ويقيسون منافعه استناداً الى خدمته لمصالحهم الذاتية ولانه عمل ابتكاري مجرب ومستخدم من قبل اخرين سبقوهم اليه ولديهم خبرة ايجابية في ممارسته وبالتالي اصبح واسع الانتشار بينهم . اي تصبح عند الافراد ثقة بأن فعلاً معيناً موثوق به اجتماعياً فلا ضير اذا تم تبنيه واستخدامه . هذا ويجب التنويه في هذا المقام الى ان الافعال والسلوكيات الذاتية والشخصية يتم تبنيها او التكيف لها من قبل الفرد بشكل اسرع من الموضوعية والعامة فافكار المبدعين واللامعين واعيان المجتمع وطرائق عيشهم يقلدها الناس من العامة بشكل اسرع من تقليدهم لنظريات ونماذج مجردة وعامة .(١)

بعد نميز تارد مصطلح التقليد وما يعني في حقول معرفية متنوعة . تقدم خطوة ثانية تجاه مصطلحه . متكئاً على مفردتين لهما علاقة مضمونية مع مصطلحه وهما التكييف والتضاد من اجل تحديد دلالاته الاجتماعية فنحت مصطلحاً اكثر رصانة . ففي المفردة الاولى « التكييف » قال عنها انها قوانين التجمع البشري التي تكون مبنية على توازن القوى الاجتماعية المتضادة والمتناحرة . اذ تكون متصارعة فيما بينها وتكون العلاقة بينها غير مستقرة وغير ناضجة فتستمر في تضاداتها الى ان تصل الى حالة الاجهاد والتعب فتخمد ومن ثم تظهر قوة اجتماعية جديدة تعبر عن حالة الاستقرار . والحالة نفسها تحدث عند ظهور ابداعات فكرية وابتكارات فنية في المجتمع فتحصل تنافسات فيما بينها لكي تكسب اقتنائها من قبل اكبر عدد ممكن من الناس وتصل هذه المنافسة الى درجة التنازع والتضاد وبالتالي تصل الى مرحلة الاجهاد. فتستقر على سيطرة ابداع واحد يمثل نمطاً ابتكارياً يكسب ثقة الاغلبية فيتبناه الناس ويتكيفون له .

فالتكييف في تعبير تارد حركة اختيار الناس لعدد قليل من النماذج الابداعية من اصل عدد كبير منها . فهي في هذا المنظور حركة تطورية تتصف بالتدريج لكي تصل الى اوسع شرائح المجتمع . وبذا فانها حركة تتقدم الى الامام ولا تعرف النكوص(١٣)

اما التضاد . فانه يكشف عن حالة التنافس والصراع بين الابداعات والابتكارات التي يطرحها افراد المجتمع . وفي اغلب الاحيان يبرز التضاد في المناشط والمجالات الاقتصادية ومن ثم ينتقل الى المناشط والمجالات الاجتماعية .

من خلال الخطوتين التي بدأ بهما تارد والتي انصبتا على تحديد الاطر المحيطة بالمصطلح . تقدم خطوة ثالثة متوجها نحو مضمونه بشكل مباشر . اي ان تارد لم يوضح مضمون المصطلح في الخطوتين السالفتين بل اقتصر على وضع الحدود الفاصلة بين ابعاد المصطلح وحدود المصطلحات القريبة منه وهذه خطوات منهجية ونموذجية الى حد ما في تحديد المصطلح العلمي , اذ بدأ تارد خطوته الثالثة بشرح واجب العلم البحث عن التباينات والتكرارات وهنا حدد مهمة علم الاجتماع بملاحظة ودراسة تكرارات السلوك الانساني ــ لانها في تقدير تارد تمثل نتاج انساني منمط وله جذور في الحياة الاجتماعية وله اسباب ودواعي لكنه لايتضمن الابداع والخلق انما مجرد سلوك مقلد بشكل مكرر وحتى الابتكار الجديد ماهو سوى تقليد للابتكار القديم والفرد لا يقلد الاخرين بدافع التقليد العقلي والفكري . لكن التكرار

السلوكي لايتم الا بعد تكييف الافراد للفعل السلوكي وتقبلهم له(١٣) ومن هنا جاءت فكرة تارد حول المجتمع الذي صوره على انه تجمع قائم على اتفاق او تضاد معتقداتهم بشد روابطهم ورغائبهم ومصالحهم الذاتية . وحتى التقدم الاجتماعي وجده تارد قائم على تقليد العلماء والنوابغ لافكار وابداعات بعضهم بعضاً على الرغم من تباين واختلاف وجهات نظرهم ومناهجهم لان الابداعات الفكرية تضم تضافر وتلاقح كفاءات وبراعات العلماء الخلاقة والمبدعة .

لان التقدم الاجتماعي يتأثر بعاملين هما الاستبدال والتراكم ، اذ ان بعض الاختراعات والابداعات تستعمل كبديل للبعض الاخر وتكون الاخرى مكملة للابداعات والاختراعات التي سبقتها فتكون تراكماً ابداعياً .(١٤)

زبدة القول حول تحديد مصطلح التقليد عند تارد هو انه ينبع من دخيلة الانسان لكي يخرج على هيئة سلوك ظاهري امام الناس عند ممارسته لها . فتقليد الناس للافكار نابع من محاكاتهم في التعبير عنها ، وتقليد الفرد لغايات ونهايات الاخرين نابع من محاكاته لوسائل الوصول اليها وتحقيقها . فالنهايات والافكار ماهي سوى اشياء داخلية تصدر من دخيلة الفرد ، بينما تشير الوسائل وطرائق التعبير عن الاشياء الخارجية ، اي التي لايتحكم الفرد فيها لانها خارجة عن ارادته ، لان الفرد في تقدير تارد يستنسخ الفرد الاخر على الرغم من ان الناس يرون هناك غايات ونهايات جديدة لكنها في واقع الحال ماهي سوى تكرار او استنساخ لنهايات وغايات قديمة تنسحب هذه الحالة على الافكار وسبل تحقيقها ايضاً .

اخيراً ان مصطلح التقليد الذي نحته تارد قد اقتبسه من المفكر الرياضي الفرنسي او غسطين كورنوت الذي حدد مصطلح التقليد من خلال تميزه لثلاثة اوجه منه وهي ١ ـ شكل التكرار ٢ ـ عادة الفرد في تقليد الاخرين ٣ ـ استكانة التقليد في حياة المجتمع .
انتقل بعد ذلك الى عالم اجتماع اوربي ـ فرنسي ايضاً وهو اميل دوركهايم ١٨٥٨ ـ ١٩١٧ لطرح ابرز اعماله الاجتماعية لنتعرف على السياقات العلمية التي سار بها من اجل ابراز اوسع واكثر اهتمامات الاجتماعيين الاوربيين .

من ضرورات المعرفة العلمية للطروحات الاجتماعية هي التعرف على الموجهات او المؤثرات الفكرية (مذاهب وتيارات فكرية) والاجتماعية (المرحلة التطورية التي يعيشها المجتمع) والموقفية (انعكاسات) احد هذه المؤثرات على المنظر او الباحث الاجتماعي ـ سلباً او ايجاباً ـ ودرجة صياغتها في تحديد موقفه منها) على مايقدمه

الباحث العلمي من افكار او نظريات او دراسات لانهالاتخرج من الفراغ اولاً ولا تعبر عن تصورات فردية بل تمثل تفاعلاً مستمراً مع التراث المعرفي المتراكم .

وما طرحه دوركهايم من دراسات عن الاسرة والتربية والجريمة والدين والانتحار ونظريات عن نظام تقسيم العمل والتضامن الالي (الميكانيكي) والعضوي ومن مفاهيم عن القيم والمعايير الاجتماعية وغيرها . لم تأت من مجرد ملاحظات عالم لها . بل من خلال تفاعلاته مع المفكرين الذين سبقوه في الدراسات الاجتماعية امثال هنري سانت سيمون واوكست كونت وكارل ماركس . وموقفه من المذهب الاشتراكي الذي ساد عصره في اوربا . وخوفه من الصراعات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي غص بها المجتمع الاوربي في القرن التاسع عشر .

هذه المؤثرات الفكرية والاجتماعية حددت موقفه من المذهب الاشتراكي اذ اتخذ موقفاً مضاداً منه واعده مخالفاً للطبيعة ومبالغاً في اوضاع الطبقة الشغيلة الاجتماعية والاقتصادية وشدد على موضوع التراتب الاجتماعي وعده مذهباً سياسياً أو نظرية سياسية تهم الساسة اكثر من الاجتماعيين الامر الذي دفعه للكتابة عن التضامن الاجتماعي (الالي والعضوي) مبتعداً بشكل واضح وجلي عن الانقسامات الطبقية وصراعاتها . ولكنه تطرق الى التغيير الاجتماعي وعده حالة جيدة تحدث في المجتمع لكنه (دوركهايم) لم يتوغل اكثر من ذلك ويصل الى دراسة الصراع وهذا يكشف لنا حقيقة موقفه الاجتماعي المحافظ وليس الليبرالي او المتطرف .
هذا من جانب ومن جانب اخر دفعه هذا الموقف المحافظ الى تأييد فلسفة اوكست كونت الوضعية لانها ابتعدت عن تناول مواضيع التدرج الاجتماعي والانقسامات الطبقية وصراعها ومشكلة النفوذ السياسي والاجتماعي والصراعات السياسية .

نستنتج مما تقدم ان المناخ الفكري والاجتماعي الذي كان يعيشه دوركهايم بلور منطلقات موقفه الفكري الذي تحدد باطارين او بعدين . الاول خوفه من النزاعات والصراعات الاجتماعية الامر الذي جعله ينتقد الفكر الاشتراكي الذي يؤكد عليها فنقد افكار ماركس وهنري سانت سيمون (اشتراكي فرنسي) ثم تناول المواضيع التي لم يتعامل معها الفكر الاشتراكي . والبعد الثاني هو الفلسفة الوضعية التي اتى بها اوكست كونت لكونها محافظة لاتؤمن بالثورة او التغير الجذري في المجتمع .
هذين البعدين جعلا من دوركهايم ان يبنى قواعد اجتماعية لمفاهيمه ونظريته

الاجتماعية اقول انه لم يطور الفكر الاشتراكي او الفكر الوضعي ولم يقف عند حد النقد لهما . بل بلوره فكراً مزيجاً من نظرته السلبية لهما .

ومن اجل ابراز هذين البعدين المؤثرين على موقف دوركهايم الفكري . ارى من الضروري والمفيد ان اوضح ماجاء به هنري سانت سيمون من افكار اشتراكية لكي تسلط الضياء على ماجاء به دوركهايم في نظريته عن نظام تقسيم العمل لانها تمثل ابرز اعماله الاجتماعية ولكونها اعتمدت اعتماداً واضحاً على البعدين (الاشتراكي والوضعي) اذ يرى سيمون ان التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحدث في المجتمع بسبب الصراعات الطبقية . تحول النظام الاقطاعي الى نظام برجوازي . وان المجتمع الصناعي الجديد المبني على التقدم العلمي يحتوي ايضاً على الصراعات الطبقية وعندما تحدث الثورة داخل المجتمع الصناعي فان الامر يتطلب الى استحداث معايير اجتماعية جديدة تختلف عن المعايير التي كانت قبل الثورة لكي تكون متناسبة مع المرحلة التطورية التي جاءت بها الثورة . والمجتمع لايعني مجرد مجموعة افراد بل مجموعة معايير وقيم اجتماعية متناسبة مع مرحلة المجتمع التطورية تربط الافراد وتنظم علائقهم وحياتهم العامة ..

لكن في المجتمع الصناعي الجديد تكون المعايير المادية مسيطرة على دوافع الناس الامر الذي يجعلهم يبحثون عن الماديات من اجل بناء نفوذهم الاجتماعي . ولا تبقى المعايير الاجتماعية والادبية والدينية ــ التي كانت سائدة في المجتمع الاقطاعي والديني مؤثرة لان الثورة الصناعية والثورة الفرنسية هدمتها واحلت مكانها معايير تتماشى مع التطور الصناعي وهي المعايير المادية هذه المعايير تختلف باختلاف مصالح الناس بحيث تدفعهم بشكل غير مباشر الى النزاع والصراع فيما بينهم فلا يتم او يتحقق التوازن الاجتماعي فيها

اما في المجتمع الاشتراكي فتكون مصالح الناس منبعثة من مصلحة المجتمع وليس من المصالح الطبقية بسبب عدم وجود طبقات فيه وهذا يؤدي الى احلال التوازن الاجتماعي بين شرائح المجتمع ويحدث انسجاماً بين مصالح الرأسماليين والصناعيين والعمال ويكون انتاج المصانع جيداً لان ادارة المعامل تكون بيد ناس يقدرون المصلحة العامة وليس الربح المالي فلا تكون هناك مصالح فئوية ولا يحدث صراع طبقي

احيراً وجد سيمون ان المجتمع الجديد لا يتحقق الا بتغير العلائق القائمة بين اصحاب ،

الاملاك وفاقديها بتعبير اخر . ان تغير نظام الملكية القديم واحلال نظام جديد بضمن العدالة والموازنة الملكية داخل المجتمع .

اما الافكار التي استقاها من كتابات ماركس عن نمو وتطور العلم والصناعة التي لاحدود لتقدمها الامر الذي يقود الى تغيير في البنية الاساسية للعلائق الانتاجية لان العلائق الوظائفية فيها لاتكون مترابطة ترابطاً متوازنا ومتكافئا فاحدثت بنية متخلخلة في روابطها ومواقعها لانها تبلور نظاماً قلقاً لتقسيم العمل حجب العدالة الاجتماعية داخل المجتمع بينما استقى دوركهايم فكرة الشعور المعنوي من اوكست كونت الذي قال فيه ان من اولى الشروط الاساسية لوجود النظام الاجتماعي هو الشعور المعنوي .

هذه هي ابرز الافكار التي تأثر بها (دوركهايم) نأتي الان لطرح ماجاء به عن نظام تقسيم العمل اذ يرى انه يمثل ظاهرة اجتماعية سائدة في كافة المجتمعات الانسانية وانه يتطور مع تطور المجتمع الذي يعيش فيه ولا يعيق مسيرته التقدمية . فضلاً عن كونه يقدم للمجتمع درجة عالية من التضامن الاجتماعي بين افراده لذلك فانه لايساعد على بروز نزاعات وصراعات اجتماعية او طبقية بيد ان هناك متغيرات غير معنوية تخلق الصراعات (هذه فكرة مقلدة بشكل معكوس لفكرة كونت) وان مايحصل من تطورات علمية وصناعية داخل المجتمع . فانها تعمل على ترصين التضامن الاجماعي بشكل جديد ولا حاجة لاعادة بناء العلائق الاجتماعية والاقتصادية . او ان تكون هناك حاجة لاحداث ثورة لتغير البناء الاجتماعي . بل يمكن ان تتم اصلاحات اقتصادية او اجتماعية وهذا ممكن (وهذه الفكرة تمثل رد فعل نقدي لما جاء به ماركس عن صراع الطبقات) لان الثورة او الصراعات تؤدي الى الفوضى الاجتماعية وازالة الحكومة واخلال في التوازن الاجتماعي وهذا لايخدم العلم والصناعة ولا يمثل احد اهدافها .

اقام دوركهايم نظام تقسيم العمل على التضامن الالي (الميكانيكي) الذي يعبر عن تماسك علائقي من نوع عال جداً . وعلى التضامن العضوي الذي يعبر عن تماسك اقل من الالي وحدد ابرز شروط التضامن الا وهي وجود الشعور الجمعي بين الافراد الذي يكون قوياً في الالي واقل قوة في العضوي بسبب قوة المعايير والقيم الاجتماعية في تأثيرها على الناس في الاول وضعفها في الثاني لذلك قال دوركهايم ان المجرم يقوم بفعله الجرمي بسبب ضعف انتمائه الشعوري الى الشعور الجمعي السائد في مجتمعه . فلو كان ملتصقاً مع مشاعر مجتمعه الجمعية لما خالفها او

تصدى لها . وبذا عد دوركهايم الفعل الجرمي مؤدياً الى تصديع التضامن الاجتماعي وفي ضوء هذا الاعتبار قال ان العقوبة القانونية للمجرم تخدم الشعور الجمعي والتضامن الاجتماعي الامرالذي يعزز من الوحدة الاجتماعية بين افراد المجتمع . لكن في الان ذاته يعترف دوركهايم بأن ليس كافة العلائق الاجتماعية المتضامنة تخدم وتعزز الوحدة الاجتماعية الداخلية للمجتمع اذ هناك علائق سلبية وخاصة المتعلقة بحقوق الفرد حيث تختلف من واحد لاخر لانه اذا اراد تحقيق حقوقه فاحتمال كبير بأن تتقاطع او تتعارض مع حقوق البعض الاخر وهنا يتوجب ان يكون قانون يمنع هذه التقاطعات او التجاوزات الحقوقية . ولما كانت العلائق في التضامن العضوي عقدية ـ رسمية فان جود القانون يكون ضرورياً جداً لتنظيم ارتباطاتهم وتحقيق حقوق المجتمع والافراد على السواء دون اهدار حق احد منهما فيتحقق الالتزام المتبادل بين الناس في ظل تطبيق القانون . يرى دوركهايم اذن ان نظام تقسيم العمل يقوم بوظيفة التضامن الاجتماعي ، انما هناك حالة طرحها مفادها ان التطورات التي تحصل في التخصصات العلمية والصناعية والادارية تؤدي الى تطور في نظام تقسيم العمل وتضعف درجة التضامن الاجتماعي وتزيد من فردانيته الفرد وهذا ماحصل في التضامن العضوي ، لكنه لم يحصل في التضامن الالي بسبب قوة الشعور الجمعي فيه الذي لا يسمح للتفرد والانانية بل المصلحة الجمعية واذابة الانانية الفردية في البودقة الجمعية .

ويضيف دوركهايم الى ماتقدم فيقول ، لكنه على الرغم من اختلاف وتباين وتنوع الاختصاصات العلمية والصناعية داخل نظام تقسيم العمل فان ذلك لا يؤدي الى احداث صراعات طبقية او اجتماعية ، بل يؤدي الى تضامنهم وتكافلهم وتنظيم وظائفهم واعمال اصحاب الاختصاصات المختلفة . وان التدرج الهرمي القائم فيه لا يقود الى سيطرة الواحد على الاخر بل تفوق قدرة العلم والتصنيع والقدرة الوظيفية على الرغبات الفردية فيتم التعامل داخله على اساس اختلاف التخصصات والقدرات الابداعية فالتسلسل في الاختصاصات (الادق تقود وتوجه الاقل دقة واهمية منها) وليس في الافراد لذلك لا يحصل ان يسخر نظام تقسيم العمل لصالح القائمين في قمته بل لصالح المجتمع والاعمال والمهام التي يقوم بها النظام لاتسير حسب سيطرة الاعلى على الادنى.. بل من خلال تكافل وتعاون الاعمال المتخصصة حسب اهميتها وتسلسلها على السلم التنظيمي فضلاً عن ذلك يقول دوركهايم في المجتمع الصناعي الجديد لا يوجد فيه قادة تلزم وتجبر الناس على طاعتها بل هناك مواقع قيادية تقود من خلال حقوقها وواجباتها الاختصاصية والعلمية ومن خلال هذه الطروحات دعا دوركهايم

الى الحرب على المذهب الانوى الفرداني (القائل بأن الفرد ومصلحته الذاتية اساس السلوك كله) لذلك لايرى (دوركهايم) فرض نظام تقسيم العمل على الطبقة العاملة بل ترغيبهم له وعدم ترهيبهم هذه هي ابرز افكار دوركهايم حول نظام تقسيم العمل التي جاءت باقتباسات (مضادة) (اي عدم اخذ الفكرة بشكلها الاصلي بل كرد فعل عكسي لها) من بعض افكار سيمون وماركس وكونت في عمله عن تقسيم العمل مزيجاً من الطروحات الاشتراكية والوضعية .

اما موضوع الانتحار عنده فانه اختلف عما كتبه في موضوع نظام تقسيم العمل اذ طرحه بشكل مستقل وبعيد عن التأثيرات الفكرية او المذهبية فجاء معبراً عن منهجية اجتماعية علمية وليس رد فعل عكسي او ايجابي . فقد استخدم متغيرات اجتماعية ـ ثقافية لتغيير ظاهرة ذات بنية مزاجية مفرطة في حسها وزعمها الا وهي الانتحار . اختار دوركهايم هذه الظاهرة لمعرفة التوافق السيء عند الفرد الاوربي الذي يعوزه الانسجام مع بيئته لعجزه عن تحقيق التوافق بين رغائبه الذاتية وبين اوضاع حياته اذ باتت ظاهرة الانتحار تشكل مشكلة كبيرة في مجتمع اوربا ابان القرن التاسع عشر لذلك دعا دوركهايم الى ضرورة تطوير معايير ادبية تتناسب مع حياة الانسن الاوربي الجديد تضمن له الطمأنينة والراحة وتساعده في توافقه مع الحياة المتطورة .

يقول دوركهايم ان الانسان الاوربي (الذي عاش في نهاية القرن التاسع شر) يقتل نفسه نتيجة لسببين هما ، فقدان التماسك الاجتماعي في المجتمع الصناعي الحديث وغياب القواعد الادبية ـ المعنوية التي تتناسب مع تطلعاته الجديدة الامر الذي اصبح فيما بعد فرداً انوياً وواهناً في نوازعه القيمية لذلك فان المجتمع المتمتع بالتضامن الاجتماعي العالي يكون فيه معدل الانتحار واطئاً . والمجتمع المتمتع بتضامن اجتماعي واطيء يكون فيه معدل الانتحار عالي لذلك وجد دوركهايم ان المجتمعات البدائية والتقليدية يكون فيها معدل الانتحار واطيء بسبب قوة التضامن الاجتماعي فيها . لكن دوركهايم اغفل حقيقة توضح انه في حالة الازمات الاقتصادية يزداد معدل الانتحار في المجتمع الصناعي الحديث بسبب فقدان الاثرياء ثرواتهم وان معتقدات وعقائد الافراد في الطبقة الدنيا في المجتمع الصناعي الحديث تمنع انتحار العمال والفقراء .(١٠)

بعدها اذهب لاتناول عالم اجتماع ـ ايطالي فلفريدو باريتو (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣) قصد التعرف على ابرز اعماله الاجتماعية التي جاءت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لاجد بعض السمات القاروية الاوربية في ذلك الحين .

يبدأ باريتو كلامه عن الفرد باعتبارد صنيعة المجتمع ، اذ يرى سلوكه وتفاعله وعلاقته الاجتماعية لاتصدر من تأثيرات عقله وتفكيره (لان باريتو يعد الفرد غير عقلاني في تصرفه الاجتماعي) بل من خلال احاسيسه ومشاعره ووجدانه المؤثرة بشكل مباشر على سلوكه وتفاعله وعلاقته الاجتماعية وانها لاتخضع لسلطان العقل وتحكماته، انما يقيم ثقافته لهذا السبب تركزت اهتمامات باريتو على متغير الاحاسيس الوجدانية اكثر من اهتمامه بمتغير المنطق العلمي واثره على سلوك الانسان في الحياة اليومية العملية لكن هذا لايعني انه اهمل متغير المنطق العلمي ، بل تناوله في المجالات العلمية اذ انه يتضمن الخبرة الموضوعية والتجارب المنطقية لتعبر عن الحقيقة الواقعية من اجل صياغة قوانين اجتماعية تكشف عن مضامينها واشكالها . فالعالم في نظر باريتو يلاحظ الظاهرة الاجتماعية بشكل دقيق ويسجل درجة تكرارها ودوام وقوعها وانتشار ابعادها في المجتمع وعلاقتها مع الظواهر الاجتماعية الاخرى ومن ثم ينسقها ويرسم لها مرتسماً او مخططاً لكي تقترب الى الصياغة المجردة ليضعها على شكل قانون اجتماعي . هدف باريتو من هذه النظرة تقليد العالم الفيزيائي عندما يكون في مختبره لدراسة حالة فيزيائية . لكن مع ذلك فأن باريتو يعترف بأن الظاهرة لا يمكن استجلاء كوامنها او اوجهها كافة بل تبقى جزءاً منها غير معروف عن العالم لتعقدارتباطاتهالكنه يبذل جهداً كبيراً للتعرف على اوسع مساحة من شكلها ومضمونها .

هذا من جانب ومن جانب آخر فأن باريتو دخل الى علم الاجتماع من الباب النقدي اذ تناول المذهب الاشتراكي والنظرية الماركسية وانتقدها بشكل حادوجاد لانه مقتنع كل القناعة بأن الانسان غير عقلاني بل عاطفي وإن عواطفه تتحكم في معظم تصرفاته اليومية وقليلاً من تفكيره العقلي تؤثر فيه وهذا يعني انه لا يوجد مجتمع مثالي في قيمة العقلانية وفي معاييره السلوكية . ولما كانت العقيدة الاشتراكية تصور الناس بمثالية المجتمع وبالتجانس الاجتماعي بين شرائحه المتنوعة وتوازن فئاته الاجتماعية في نفوذها وسلطتها فأن باريتو دخل في نقدها اذ قال عنها بأنها غير منطقية وغير واقعية لان كفاح الطبقات لاينتهي بتغير مواقع الطبقات واستلام الطبقة العمالية لزمام الحكم والانتاج لان الصراعات الاجتماعية لاتنتهي بل تستمر

عالم هناك مجتمع حيث لايوجد مجتمع مسجم في فئاته وشرائحه الاجتماعية ولا يمكن ان يكون في تأريخ الانسانية مجتمعا مثالياً بعيداً عن الحركات الاجتماعية والصراعات فيما بينها لكن نوع الصراع يتبدل ويتغير. بيد ان جوهره باق وثابت ثم اردف قائلاً : اذا افترضنا جدلا بنشوء الاشتراكية ونموها في المجتمع وأزيلت الرأسمالية فأن الصراع قد يختفي لكن سوف يحل محله صراعاً اخر بين فئات جديدة مختلفة في نوعها عن الصراع السابق فتظهر صراعات بين العمال والدولة الاشتراكية او بين المثقفين وغير المثقفين او بين الساسة انفسهم او بين الساسة والاداريين او بين المبدعين والمحافظين وهكذا. اي ان كفاح وصراع الطبقات هو نوع واحد من الصراعات وفي حالة انتهائه او اختفائه لايمنع او يوقف باقي الصراعات الاخرى وذلك بسبب اختلاف وتنوع مصالح الناس وظهور مصالح جديدة مع كل مرحلة تطورية يصل اليها المجتمع. فضلاً عن الشرائح الاجتماعية التي تكافح من اجل اثبات وجودها وتركيز كيانها في البناء الاجتماعي فتحتاج الى ان تتصارع مع شرائح اخرى لتحقيق ذلك. وهذا بدوره يفتح مجالات عديدة ومتنوعة للصراعات الاجتماعية وهذا يعني ان الصراعات الاجتماعية تمثل حالة طبيعية في الوجود الانساني من وجهة نظر باريتو.

هذا من جانب ومن جانب آخر فأن باريتو يرى ان مايسميه ماركس بالقاعدة الاقتصادية في العقيدة الاشتراكية ماهي سوى قاعدة وجدانية اطلق عليها مصطلح القاعدة الاقتصادية لان تغير النظام الاقتصادي من رأسمالي الى اشتراكي يعني تغير النظام الاجتماعي. لكن الثابت هو ان احاسيس وعواطف ووجدان الافراد لاتتغير بتغير النظام الاقتصادي والاجتماعي بل تتأثر بها بشكل بسيط لانها تمثل الوجود الانساني. وان تقبل الناس في المجتمع الاشتراكي التغيرات التي تحصل في الطبقة العمالية يكون منطلقاً من تعاطفهم مع وضعهم الاقتصادي البائس والاجتماعي الضعيف لكنهم (اي الاشتراكيين) يبررون تعاطفهم بالقول المنطقي والتفسيرات العقلانية.. وحتى صفوة المجتمع الاشتراكي التي تدافع عن مصالح الطبقة العمالية منطلقة من الوجدان والاحاسيس الانسانية التي تمثل متغيراً غير عقلاني. اذ ان دفاع الصفوة يمثل الدفاع المصطنع والمقنع او الزائف ولا يمثل التفكير العقلاني بل يمارسونه. من اجل تثبيت مواقعهم السلطوية العليا والبحث عن مدد لزيادة نفوذهم السياسي والاقتصادي وحتى الصراعات التي حدثت في التاريخ كان اساسه صراعا بين الارستقراطيين او الحاكمين الذين يمثلون اقلية المجتمع لكي يعززوا من سلطتهم ونفوذهم ولم يكن دفاعاً عن المحرومين

والمعدمين . واذا حصل ان بعض المؤرخين كتبوا عن الصراعات من اجل الفقراء فأن ذلك ضربا من ضروب المغالطة لان معظم الثورات التي حدثت في تاريخ البشرية كان انتصاراً للبرجوازية على الاقلية من الاقطاعيين ولم يقدموا انجازات ومكاسب لعامة الناس وهذه الحقيقة يسحبها باريتو على الصراعات المستقبلية اذ ان الثورات والصراعات سوف لاتحرر الناس من القيود التي يفرضها ويحددها الحكام ولا يمكن ان يظهر مجتمعاً بدون طبقات وخال من التناحرات والنزاعات الاجتماعية انها حقيقة اجتماعية ثابتة يتنكر لها الفكر الماركسي ويبررها بمنطق عقلاني . لذلك فأن نظرية ماركس في نظر باريتو ــ لاتمثل النظرية العلمية بل هي ادنى درجة منها ولم تصل الى نموذجها ..

هذا النقد الصريح والواضح من قبل باريتو لنظرية ماركس يسحبه الى علم الاجتماع ايضاً اذ قال بأن دراسة السلوك الانساني لايمكن ان يتجاوز احاسيس وعواطف ووجدان الانسان لانه مستكن في وجوده وان تفاسير علماء الاجتماع له على انه يمثل الانعكاسات الاقتصادية والعقلانية والعلمية فهو كلام غير واقعي بل الصحيح والواقعي هو انه منطلق من عواطف الانسان لاغير . لكنهم اطلقوا لفظة العقلانية عليه شكلاً بينما مضمونه غير عقلاني بل وجداني قائم على الرواسب ويشتق لفظاً وتبريراً الصفات والتفاسير المنطقية والعقلانية . وما حصل من اختلاف وتباين بين علماء الاجتماع حول هذه النقطة هو اختلاف في العقائد الفكرية

اخيراً وضع باريتو معادلة رمزية توضح السلوك الاجتماعي للفرد هي مايأتي :

أ ــ العاطفة والوجدان
ب ــ السلوك غير المنطقي
جـ ــ العقلانية

قال فيها ان الناس تتصور بأن تدفعهم للتصرف السلوكي لكن واقع الحال ان أ هي التي تحدد سلوكهم غير المنطقي ب وتفكيرهم العقلاني جـ وان العلاقة السببية بين عواطفهم وسلوكهم المنطقي أ و ب والعلاقة السببية بين عواطفهم وتفكيرهم العقلاني أ و جـ تحاول دائماً التأثير بشكل واخر على تفكيرهم العقلاني اذ ان عقلانيتهم تسحب الى عواطفهم واحاسيسهم ووجدانهم

وصف زيتلن منهجية باريتو بأنها علمية وبرهانية تبحث عن الاسانيد والدلالات المنطقية الملموسة بشكل موضوعي وترفض بشدة التفاسير الماورائية (ميتافيزقية) وتبتعد عن السرد الوصفي والتفسير العام لذلك عدة باحثاً علمياً رصيناً وليس ظرفياً او كاتباً او محللاً طوبائياً خيالياً . هذه الآلية المنهجية ـ في تقدير زيتلن ـ جاءت به (بباريتو) الى علم الاجتماع ولم يأت مصادفة او دفعته احد المصالح الذاتية فضلاً عن اطلاع ثقافته الاجتماعية على نتاجات وكتابات كل من ارسطو وميكافيلي وماركس وداروِن وتأثره (سلباً وايجاباً) باعمالهم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية(١٦) تناولنا علماء اجتماع من فرنسا وايطاليا واطلعنا على مواضيع اهتماماتهم العلمية نذهب الآن الى المانيا ونأخذ ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) تناول فيبر مصطلح التنظيمات الديوانية (البيروقراطية) الذي تضمن فيه مفهوم السلطة الشرعية ـ القانونية في التنظيمات الرسمية (الحكومة او

الشركات او الاتحادات المهنية او النقابات او المستشفيات او الحزب السياسي او الكنيسة) موضحاً سلوكها في تفاعلها واتصالاتها مع الواقع التي ادنى منها والمتصلة بها بشكل مباشر ، ثم حدد صلاحياتها الادارية في الوظيفة التنظيمية القائمة على الالزام الاداري والتقني وكيف تتبوء موقعها داخل هيكل التنظيم مستهدفاً من كل ذلك خدمة اهداف التنظيم وليس اهدافه الشخصية. لذلك وصف فيبر هذا الفعل الاجتماعي بالتصرف العقلاني لانه لايجاري او يجامل الاشخاص الذين يتعامل معهم بل تخدم صلاحيات موقعه وسياسة التنظيم الداخلية والخارجية ، لذلك يكون مالك السلطة التنظيمية ملتزماً بقوانين وقواعد التنظيم الداخلية ويتوقع من اعضاء التنظيم في مستويات ادنى من موقعه بأن يدركوا هذه المسؤولية المتفق عليها والمنصوص عليها في التعاقد الوظيفي الذي يتم بين الموظف والتنظيم . اذ ان الموظف يتم من خلال مؤهلات وكفاءات وخبرات متخصصة لها صلة بعمل واهداف التنظيم . فأذعان وطاعة الموظفين في التنظيم الاجتماعي لايكون لشخص رئيس التنظيم ، بل لموقع الرئاسة وخضوع رئيس التنظيم لاهداف التنظيم لايكون اعتباطاً بل التزاماً منه بمسؤولية الموقع الذي يشغله المحدد والمنصوص على شروط وواجبات في لوائح التنظيم قبل اشغاله للموقع الاداري القيادي . فهي اذن سلطة عقلانية (في نظر فيبر) وليست وجدانية بل مبنية على الالتزام والتخصص والكفاءة المهنية وبذا يكون نظام تقسيم العمل ممثلاً لشبكة ارتباطات لمواقع ادارية محددة سلفاً قبل اشغالها من المختص او التقني او الاداري ويكون ارتباط هذه المواقع بعضها ببعض

بشكل عضوي اي لها القدرة على التصرف حسب مسؤوليتها المحدودة مسبقا والمتفق عليها من قبل مجلس ادارة التنظيم ولوائحه الادارية والقانونية

هذه المسؤولية لاتمنح صاحبها النفوذ الشخصي بل الفوذ الاداري الذي يزول حال خروجه او انتقاله من موضعه الاداري

هذا من جانب ومن جانب اخر . فأن هناك تدرجاً وظيفيا متسلسلا يمثل اعتماد المواقع والوحدات الادارية الواحد يلي الاخر وبالوقت ذاته يوضح ترابطها وتكاملها التنظيمي التي تخدم شرعية سلطة التنظيم وكفاءته التقنية والادارية . فالفرد الذي يريد ان يشغل احد هذه المواقع يخضع لاختبارات ذات صلة باختصاص الموقع المراد اشغاله (فنية او ادارية او قانونية) مضافاً اليها سنين الخبرة في ادائها والدورات التدريبية التي دخل فيها والشهادات التقديرية والاكاديمية التي حصل عليها وهذه المؤهلات تساعده على التنافس مع افراد آخرين يحملون (بشكل متباين نسبياً) هذه المؤهلات ومن ثم تحصل المفاضلة بين المتنافسين لاشغال احد المناصب المدرجة على الهيكل الوظيفي المعتمد من قبل التنظيم الاجتماعي وهذا يعني ان شاغلي مناصب التدرج لاعلاقة لهم بوسائل انتاج التنظيم او الانتاج نفسه وان صلتهم بالتنظيم تكون رسمية وقانونية صرفة وان المخصصات المالية مثل الرواتب او الاجور يتقاضاها الفرد في التنظيم تكون حسب مؤهلاته وخبراته التي يتطلبها الموقع الذي يشغله لذلك تحدد (اجوره او رواتبه) قبل شروعه بالعمل او اشغاله للمنصب المتعاقد عليه . وتخضع لزيادات حسب فترات زمنية يحددها التنظيم نفسه استنادا الى تقدمه في العمل وانجازه وتطور قدراته الفنية والتزامه بتعليمات او قواعد العمل الداخلية ولشاغل الموقع الخيار بالاشتغال في اي وقت يشاء من موقعه .

اما عملية اتخاذ القرار داخل التنظيمات الرسمية فأنها تخضع لاسس موضوعية لها صلة مباشرة بالمواقع العليا في هيكل التنظيم ويتم اتخاذها بعيداً عن المؤثرات الشخصية او الذاتية وقريبة من خدمة اهداف ومصالح التنظيم . لذلك تدون القرارات ولاتتخذ شفاهة او ارتجالاً . وهناك حالات يكون رئيس التنظيم معيناً او منصباً عن طريق الوراثة (في الشركات او مشاريع اهلية خاصة) وفي مثل هذه الحالة تكون صلاحياته اوسع من رئيس التنظيم المنتخب

هذه الحالة الديوانية تكون موجودة في اجهزة الدولة والشركات والنقابات والاتحادات المهنية والكنسية والجمعيات ذات النفع العام او المستشفيات التي تديرها الجمعيات الخيرية او الدينية لانها تملك اهدافاً خاصة بها وليس باشخاص معينين وان اوضح جهاز ديواني قال عنه فيبر يعكس دراسته هذه هي الكنيسة الكاثوليكية والمشاريع الرأسمالية والجيوش العصرية .
اخيراً ان للتنظيم الحق في اقالة او طرد كل عضو من اعضائه او اعفائه من العمل اذا لايلتزم بالقواعد والقوانين المعمول بها والمنصوص عليها في لوائحه الداخلية وكلما تطور التنظيم في مواصفاته التقنية والفنية زادت اجراءاته الديوانية وتعقدت اتصالات مواقعها الوظيفية (المهنية) وكلما خدمت ماديات الحياة او وضعت اهدافاً مثالية(٧) .

ما قدمه فيبر في هذا الخصوص يمثل وصفاً دقيقاً وشاملاً للتنظيمات الرسمية التي تسود المجتمعات الحضرية والصناعية ابان عصره في اوربا وانها تمثل المراحل الاولى للتنظيمات الديوانية التي تركز بشكل مكثف على الاداء والانجاز الوظيفي وتهمل المشاعر الانسانية والوجدانية اذ تتحيز للموقع الاداري او التقني اكثر من شاغله (الانسان) وتركز على ادامة وتطوير التنظيم اكثر من العلائق الاجتماعية هدفها التنظيم وليس الانسان . فهي تنظيمات انانية محتكرة ومسخرة طاقات ومؤهلات اصحاب القدرات الابداعية لصالحها لقاء اجور مادية لا تساوي طاقاتهم ونجد من المفيد ان نتناول عالم اجتماع الماني عاش في نفس الفترة الزمنية التي عاشها زملاؤه الاجتماعيون في اوربا وهو ويرنر سومبارت (١٨٦٣ ــ ١٩٤١) الذي استخدم القيم المادية ــ الكمية المتحكمة في المجتمعات الرأسمالية ــ اساساً في تفسير وتحليل العلاقة القائمة بين مالكي المشاريع الاقتصادية والصناعية والعاملين فيها من عمال وفنيين وموظفين والافراد الذين يستهلكون الانتاج (الزبائن) .

تركزت نظرة سومبارت على ابرز قيمة مادية ــ كمية هي « قيمة التملك » عند الانسان في المجتمع الرأسمالي مشبهاً ذلك ولع الاطفال بتملك الاشياء المتأثر بالمتغيرات الآتية : ــ

١ ــ حجم الشيء وضخامته .
٢ ــ حركته الدائمية
٣ ــ ميله لاقتناء الاشياء الجديدة
٤ ــ المتانة والرصانة .

شبه سومبارت نزعة التملك عند اصحاب رؤوس الاموال ورجال الاعمال الادارية واصحاب المشاريع التجارية والصناعية الى غريزة الاطفال في تملكهم للاشياء . ثم سحب تشبيهه هذا على باقي افراد المجتمع الرأسمالي الذين يميلون وينجذبون للاحجام الكبيرة لاعتقادهم بأن الحجم الكبير يمثل القوة والفخامة والعظمة والاهمية فتجذب اهتمامهم . فحجم السكان الكبير والجبال الشاهقة والانهر العريضة والعدد الكبير من حالات الانتحار والعدد الهائل من المسافرين في القاطرة وحجم الباخرة الكبيرة والعدد العالي من العازفين في الجوق الموسيقي يجلب انتباه الافراد في المجتمع الرأسمالي . ليس هذا فحسب بل انهم يمنحون الافراد الذين يملكون رأسمال كبير وثروة هائلة اهمية اجتماعية عالياً بينهم .

هذه الخاصية الاجتماعية ذات القيمة المادية لا الاعتبارية انتبه اليها اصحاب رؤوس الاموال واصحاب المشاريع التجارية والصناعية في المجتمع الرأسمالي فاندفعوا نحو البحث عن مصادر ذكية لزيادة ثرواتهم وانتاجهم وارباحهم داخل مشاريعهم الذي بدوره يزيد من اهميتهم ونفوذهم الاجتماعي . بيد ان هذه الحالة سببت حالات اجتماعية مرضية داخل الشرائح الاجتماعية التي لا تملك المال والثروة اذ اصبح الجميع يبحث عن المال الذي لا يأتي الا من خلال العمل والمثابرة والمنافسة فاصبحوا يضحوا بصحتهم وراحتهم وحتى علائقهم بأسرهم في سبيل عدم اضاعة فترة زمنية لا ينتفعون منها او لا يربحون منها فاصبحوا عبيد لطغيان العمل ـ (اطلق سومبارت على هذا الاندفاع نحو المال والثروة عن طريق العمل مولوخ في العمل الذي يعبر او يشير الى الاله مولوخ كان يعبد عن طريق تضحية الاطفال على مذبحة) لدرجة اجهدوا عضلياً وفكرياً من اجل الحصول على المال الامر الذي ادى بالعمل ان يسحقهم قيمياً وانسانياً فابعدهم عن ابنائهم وزوجاتهم وعواطفهم وتمتعهم بالحياة الاجتماعية والحياة الطبيعية فاصيبوا ـ معظمهم ـ بالامراض النفسية او العصبية وابتعدوا عن المشاعر الوجدانية والعاطفية .
هذه المقدمة الوجيزة توضح درجة الاستغلال والابتزاز والاستحواذ البشري في مجتمع بالغ بشدة في احترامه لقيمة العمل ووضعها فوق قيمة الانسان وحياته الاجتماعية .

هذه المبالغة تأتت من اسناد القيمة الاجتماعية الى القاعدة المالية فتشكلت المعادلة الآتية : ـ

مبالغة في احترام العمل ← من اجل الحصول على مال وفير ← لكي يحصل على تقويم اجتماعي مرموق ← لكنه مقتطع اسرياً ومريض عصبياً او صحياً .

هذه المعادلة المجردة من المشاعر الانسانية والقائمة على تقديس المال والعمل جعلت من الباحثين عنها ومالكيها ان يكونوا اذكياء جداً في تجميعها واستثمارها وتكديسها وان يتصفوا بالصفات الآتية -

١ - ان يكونوا مهيمنين على مصالح ومقدرات العمال والموظفين العاملين في مشاريعهم التجارية او الصناعية . اي ينتزعون او يستولون على حقوق وارزاق العاملين عندهم وهذا لايتم الا اذا كان ذكياً وله القدرة على تصميم خطط لتحقيق هذا الغرض وان تكون له القابلية في تطبيقها بكل قناعة والدفاع عنها واقناع اتباعه او العاملين معه .

٢ - ان يكون ذا عقلية منتظمة في تفكيره واصدار تعليماته وخططه لانه يتعامل مع اصحاب الكفاءات والمهارات العالية والمتقدمة في اختصاصاتها وان التعامل معهم بعبثية او بتعسف يجعل منهم اداة معوقة في زيادة - انتاجه وثروته ، لذلك يتعامل معهم بذكاء يحمل في طياته الحنكة والدهاء الامر الذي يجعله غير منقاد لهم . بل قائداً وموجهاً لاعمالهم .

٣ - التمتع بعقلية تجارية ، اذ ان العمل وحده غير كاف لتنمية ثروته اذا لم تتسق معه عقلية تفكر باسلوب تجاري تبحث عن منافع مالية مربحة وايجاد سبل متنوعة في استغلال واستثمار الطاقات البشرية التي تعمل في مشروعه الامر الذي يتطلب منه ان يكون مفاوضاً في تعامله التجاري ومماحكاً في سياسة التسويقية ويحسب كلفة التعامل التجاري في اسواق البورصة وبيوت المال قبل الاقدام في التعامل وان لايتقاطع مع العاملين معه . بل ان يكون مرناً معهم يأخذ ويعطي في الرأي والمشورة لان المال والثروة لايمثلان الهدف الا بعد عقدة . بل تمثله زيادة ثروته والاكثار من كميتها . لذلك نجده يرحب بكل تقدم تكنولوجي يظهر في الاسواق الصناعية اذا كان يخدم هدفه الا بعد (وهو زيادة ثروته) .

فضلاً عما تقدم . عليه ان يبحث عن فرص متنوعة من اجل رفع حصص ارباحه ضمن حسابات دقيقة وهذا لايتم الا من خلال جذب عدد كبير من الزبائن لشراء سلعة وانتاجه ثم انه لايكتفي بهذا . بل يذهب الى الاستحواذ على الاعمال التجارية

عند الاخرين ليضمها الى ثروته وهذا لايتم الا اذا كان ذلك من اجل اكتساب
اجتماعية عالية عن طريق جمع المال والثروة . بيد ان اسلوب جمعها يكون ب
واساليب بعيدة عن القيم الاخلاقية والادبية .

من هنا جاء ربط سومبارت بين قيمة التملك عند الطفل وقيمة التملك
الباحثين عن المال والثروة في المجتمع الرأسمالي . فالحجم الكبير من المال ي
لان يبتز ويحتكر ويستغل ويغش الآخرين . ولان الناس في المجتمع الرأس
لايهتمون بكيفية حصوله على الثروة بقدر مايهتمون بكميتها وكبر حجمها وقد
سومبارت هذه الحالة بحالة مشاهدة الناس للسباقات الرياضية اذا انهم لايه
بمن هو الفائز بقدر من حصل على نقاط اكثر من غيره ثم ان قيمة السر
الحصول على المال تتساوق مع كمية المال المجمع . ومن الطبيعي ان هذه ا
لاتتحقق الا اذا كان صاحب المشروع ذكياً ومتمتعاً بعقلية تجارية تستطيع است
الناس وابتزاز اموالهم والاهتمام بتصريف الانتاج والربح باقرب فرصة فلا
بنوعية الانتاج لانه يفضل ان يكون لديه سلعة رديئة لكنها سريعة البيع
الربح على ان تكون لديه بضاعة او سلعة جيدة. لكنها بطيئة البيع وقليلة الر
وهنا يظهر عامل سرعة تصريف السلع او تسويقها وان يضرب رقماً قياس
تسويق سلعة من اجل جني ارباحاً طائلة ترتبط مع قيمة العمل نزوع ا
الرأسمالي الى اقتناء السلع الجديدة والغير مألوفة وهذا يخلق حالة عند اص
المشاريع الصناعية والتجارية ان يعجل في تسويق السلع القديمة ليحل
الجديدة غير مبالي بنوعها لان هدفه تحقيق قيمة التجديد عند الناس من
خدمة اغراضه التجارية والمالية .

هذه الحالة تجلب له المال والثروة الامر الذي يرفع من قيمته الاجتما
مجتمع يحترم الثري ويمنحه نفوذاً اجتماعياً عالياً . هذه القيم المادية الاربعة
طرحها سومبارت تمثل في نظره روح الرأسمالية .

اخيراً وضع سومبارت خمسة قوانين وجدها تتحكم في مناشط رجال الا
والتجارة والصناعة في المجتمع الرأسمالي وهي مايأتي : —

١ ــ العقلانية المطلقة في التعامل التجاري والصناعي والاداري مع الاخرين
٢ ـ ان يكون غرض الانتاج التبادل التجاري من اجل جني ارباح كثيرة وا
على الربح السريع اذ ان مفاضلة بيع سلع رديئة في نوعها [illegible]
الكثيره وعدم بيع السلع الجيدة في نوعيتها [illegible]

كثيره ار العدو اللدود للرأسمالية في نظر سومبارت ـ المشاريع الصناعية او التجارية التي تنتج السلع الجيدة .

٣ ـ البحث عن ربائن وزيادة عددهم الذي يتم بوساطة جذب انظارهم واسماعهم لشكل ونوع السلعة ثم اقناعه بالوسائل الدعائية بانها سلعة جيدة ومن بعد تحميله اثمانها بالسعر الذي يحدده مالك انتاجها .
٤ ـ بيع السلع بأبخس وارخص سعر ممكن عن طريق تخفيض سعرها الى الحد الادنى من اجل جذب وكسب اكبر عدد ممكن من الزبائن .
٥ ـ التحرر من اكبر عدد ممكن من القيود سواء كان في الانتاج ام التسويق ام البيع(١٨)

من خلال استعراض كتابات علماء الاجتماع الاوربيين السالف ذكرهم نستخلص الصفات المميزة التي ميزتهم عن علماء الاجتماع الاميركان وهي مايأتي : ـ

١ ـ استخراج قوانين اجتماعية توجه وترشد الافراد داخل مجتمعهم مستنبطة من سلوكهم العام لا الخاص والدائم ليس الظرفي او المؤقت من نمط معيشتهم الطبيعية (الطبيعية البشرية) لا من خلال ظواهر اجتماعية طارئة . فتارد تناول المحاكاة او التقليد كنمط سلوكي في تصرف الفرد كل يوم وليس في وضعية اجتماعية طارئة او مؤقتة وزائلة بل سلوك في جميع المواقف والظواهر والمشكلات الاجتماعية العامة من اجل الوصول الى قانون سلوكي اجتماعي في تكييف الفرد وتعارضه مع الاحداث الاجتماعية .

وقد اتجه دوركهايم نحو نفس الهدف الذي توجه اليه تارد من حيث البحث عن قوانين اجتماعية فكتب في موضوع التضامن الاجتماعي وماله من موجبات في تعزيز وحدة المجتمع وتماسكه ولم يتطرق الى التضامن الاجتماعي في حالة شاذة او مؤقتة بل كطبيعية بشرية في المجتمع التقليدي (عندما تكلم عن التضامن الآلي) والحضري والصناعي (عندما تكلم عن التضامن العضوي) .

وقام باريتو بذات العمل العلمي عندما كشف نمطاً ثابتاً في سلوك الفرد من حيث كونه لايتصرف بشكل عقلاني في طريقة عيشه وعلاقته مع الآخرين بل من خلال احاسيسه ومشاعره التي تلزمه بالتصرف والتفكير واعتبرها قانوناً اجتماعياً .

بينما استخدم فيبر التصرف العقلاني للفرد داخل التنظيمات الرسمية في المجتمع الصناعي الحديث ولم يتناول المؤثرات الوجدانية والعاطفية وفاعليتها على سلوك الفرد وعده قانوناً اجتماعياً أيضاً بينما ركز سومبارت على القيم المادية الكمية وما تلعبه من اهمية بالغة في تصرفات وتفكير الافراد في المجتمعات الرأسمالية .

٢ ـ التصرف العقلاني وما له من تأثيرات على سلوك الافراد وهذا ماقدمه فيبر حول البيروقراطية وباريتو حول السلوك غير العقلاني خارج اطار المؤسسة الرسمية .

٣ ـ استخدام المعايير المادية ومالها من تأثيرات على المجتمع وهذا ما جاء به دور كهايم عندما تكلم عن المجتمع الصناعي الحديث وسومبارت عندما تناول دراسة المجتمع الرأسمالي .

٤ ـ درسوا المجتمعات الحاضرة . اي المدينية وليس الدينية او الما وراثية او المدن الفاضلة . فقد درس دوركهايم المجتمع الصناعي وسومبارت المجتمع الرأسمالي وباريتو المجتمع الاشتراكي وفيبر المؤسسات الرسمية في المجتمعات الحديثة وتارد عندما درس مؤثرات التقدم الاجتماعي في الاستبدال والتراكم من حيث عد الاختراعات والابداعات تستعمل بديلاً لبعضها الآخر وتكون الاخرى مكملة للابداعات والاختراعات التي سبقتها فتكون تراكماً ابداعياً .

٥ ـ لم يمثلوا القطيعة المعرفية ، اي انهم تفاعلوا مع نظريات ومفاهيم وفكر اسلافهم من المفكرين والمبدعين ولم يدعوا بأن عطاءهم العلمي اتى من بناة افكارهم الخاصة وهذا ماوجدناه عند تارد عندما تفاعل مع الفكر الرياضي الفرنسي اوغسطين كورنوت ودوركهايم عندما نقد واقتبس من سيمون وكونت وماركس ، ووجدنا باريتو ايضاً قام بذات الشيء عندما نقد ماركس (اقتباس ضدي ـ عكسي) وبنى عليه نظريته في الرواسب والمشتقات وحتى فيبر عندما نقد ماركس بنى نظريته في البيروقراطية لدرجة سمي (بالماركسي الرأسمالي) وسومبارت الذس اضاف الى النظرية الماركسية بعض الاوجه حول المجتمع الرأسمالي التي لم يتناولها ماركس فيما يخص القيمة المادية عند اصحاب رؤوس الاموال وتأثيرها على المستهلكين .

- درسوا السلطة. وهذا ماظهر في دراسة فيبر ودور كهايم (الاول في البيروقراطية والثاني في نظام تقسيم العمل) وباريتو عند دراسته للمجتمع الاشتراكي وتارد في السلوك الاقتدائي وسومبارت في المجتمع الرأسمالي .

هذه ابرز السمات المشتركة التي ميزت عطاءات علماء الاجتماع الاوربيين التي (سوف نجد) تختلف عن السمات المشتركة التي ميزت عطاءات علماء الاجتماع الاميركان .

ان سياق البحث يلزمني ان لا اغفل بهذ الصدد ان اوضح واربط كيف حفزت نتائج الثورتين (الصناعية والفرنسية) وما جاءت به من ظواهر ومشكلات وصراعات اجتماعية علماء الاجتماع الاوربيين فكتبوا كل حسب منطلقه ورؤيته . فهجرة الناس من الحقل الى المعمل ومن الريف الى المدينة وارتفاع مستوى المعيشة وانخفاض الامية بين السكان وظهور صراعات طبقية وفكرية وبين الديمقراطية والدكتاتورية والالة والانسان والعمال والبرجوازية (اثار الثورة الصناعية) وما جاءت به الثورة الفرنسية من اتساع في فكرة الديمقراطية والحرية والمساواة والاخاء . جميع هذه المتغيرات عملت على تغير المجتمع الاوربي ودفعه الى حالة تطورية نامية جذبت انتباه علماء الاجتماع الى دراسة بعض اوجه التغيير الاجتماعي . فاذا اخذنا جبرائيل تارد وجدناه يتناول كيف يعالج الفرد في مواجهة التغيرات العديدة والمتنوعة من خلال كتابته عن التكييف والتضاد (اي كيف يتكيف الفرد للظواهر الاجتماعية التي ظهرت في مجتمعه . وكيف يتنازع معها) اذ عد التكييف حركة اختيار الناس لعدد قليل من النماذج الابداعية من اصل عدد كبير منها . فهي حركه تطورية تتصف بالتدرج لكي تصل الى اوسع شرائح المجتمع . ثم اردف قائلاً ان تكييف الفرد للاوضاع الجديدة يكون مبنياً على توازن القوى الاجتماعية المتضادة اذ تكون متصارعة فيما بينها وتكون العلاقة بينها غير مستقرة وغير ناضجة فتستمر في تضاداتها الى ان تصل الى حالة الاجهاد والتعب فتخمد ومن ثم تظهر قوة اجتماعية جديدة تعبر عن حالة الاستقرار اما التضاد فأنه يكشف عن حالة التنافس والصراع بين الابداعات والابتكارات التي يطرحها افراد المجتمع وفي اغلب الاحيان يبرز التضاد في المناشط والمجالات الاقتصادية ومن ثم ينتقل الى المناشط والمجالات الاجتماعية .

اما دوركهايم فقد وجد المجتمع الاوربي يغص بالصراعات (التي ذكرتها سلفاً) جعلته يجد مخرجاً لها ويعالجها عن طريق طرح نظرية نظام تقسيم العمل

المبني على التضامن الاجتماعي لكي يوازن بين التصارعات الحادة والسائدة بين الطبقات والافكار العقائدية والمذاهب الفكرية لانه يعتقد ان نظام تقسيم العمل يكون خالي من الصراعات والنزاعات. اقول ان دوركهايم اراد ان يخلص المجتمع الاوربي من النزاعات والصراعات التي ولدتها الثورتين (الصناعية والفرنسية) فشرح نظام تقسيم العمل في المجتمع الصناعي الجديد. اذ قال عنه « ان نظام تقسيم العمل سائد في كل مجتمع وانه يتطور مع تطور المجتمع الذي يعيش فيه ولا يعيق مسيرته التقدمية. فضلاً عن كونه يقدم للمجتمع درجة عالية من التضامن الاجتماعي بين افراده لذلك فأنه لايساعد على بروز نزاعات او صراعات اجتماعية او طبقية بيد ان هناك متغيرات غير معنوية تخلق الصراعات وان ما يحصل من تطورات علمية وصناعية داخل المجتمع فانها تعمل على ترصين التضامن الاجتماعي بشكل جديد ولا حاجة لاعادة بناء العلائق الاجتماعية والاقتصادية او ان تكون هناك حاجة لاحداث ثورة لتغيير البناء الاجتماعي بل يمكن ان تتم اصلاحات اقتصادية او اجتماعية وقد تفاعل باريتو مع المنبع المجتمعي الاوربي (اثار الثورتين) اذ وجد ان الافكار الاشتراكية والنظرية الماركسية .ماهما سوى ضرب من ضروب المثالية البعيدة عن الواقعية ولا تمثل الجانب العلمي والمنطق الموضوعي بل التبريري وهذا ماوجدناه في النص الاتي : ــ

« ان الانسان غير عقلاني بل عاطفي وان عواطفه تتحكم في معظم تصرفاته اليومية وقليلاً من تفكيره العقلي تؤثر فيه هذا يعني انه لايوجد مجتمع مثالي في قيمه العقلانية في معاييره السلوكية ولما كانت العقيدة الاشتراكية تصور للناس بمثالية المجتمع وبالتجانس الاجتماعي بين شرائحه المتنوعة وتوازن فئاته الاجتماعية في نفوذها وسلطتها فأن باريتو يقول في ذلك بان هذا التصوير غير واقعي لان كفاح الطبقات لاينتهي بتغير مواقع الطبقات واستلام العمالية لزمام الحكم والانتاج لان الصراعات الاجتماعية لاتنتهي بل تستمر طالما هناك مجتمع حيث لايوجد مجتمع منسجم في فئاته وشرائحه الاجتماعية ولا يوجد في تاريخ الانسانية مجتمعاً مثالياً خالياً من الصراعات والحركات الاجتماعية.

لكن ماكس فيبر وجد ازدياد عدد التنظيمات الاجتماعية الرسمية (نقابات عمالية واتحادات مهنية واحزاب سياسية وانفصال سلطة الدولة عن الكنيسة وظهور سلطة رسمية مركزية) وكان هذا الظهور بسبب تأثيرات الثورتين (منبع مجتمعي اوربي) حفزه على دراسة النظام الديواني (البيروقراطي) حيث قال ان مالك السلطة التنظيمية ملتزما بقوانين وقواعد التنظيم الداخلية ويتوقع من اعضاء التنظيم

في مستويات ادنى من موقعه بأن يدركوا هذه المسؤولية المتفق عليها في التعاقد الوظيفي الذي يتم بين الموظف والتنظيم لان تعيين الموظف يتم من خلال مؤهلات وكفاءات وخبرات متخصصة لها صلة بعمل واهداف التنظيم. فاذعان وطاعة الموظفين في التنظيم الاجتماعي لايكون لشخص رئيس التنظيم بل لموقع الرئاسة وخضوع رئيس التنظيم لاهداف التنظيم لا يكون اعتباطاً بل التزاماً منه بمسؤولية الموقع الذي يشغله.

قد يجد القاريء نوعاً من التضارب بين معالجة باريتو مع معالجة فيبر للظواهر الاجتماعية التي افرزتها الثورتين. بيد ان واقع الحال لا يوجد تقارباً بين معالجتيهما لان الاول (باريتو) كان واقعيا في مجال استمرارية وجود الصراعات الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي وغيره من المجتمعات، فهي كائنة ومستكنة فيه طالما هناك شرائح اجتماعية مختلفة في مستويات معيشتها وامتلاكها للسلطة والثروة، وان المشاعر والاحاسيس تؤثر على تصرفهم أكثر من العقل وهذا تحليل سليم جداً خارج المؤسسات الرسمية. لكن معالجة فيبر كانت واقعية ايضاً في دراستها للهيكل الوظيفي للمؤسسات الرسمية الذي تطغى عليه القوانين واللوائح العقلانية الملتزمة الامر الذي يوجب الموظف ان يتعامل مع زملائه من الموظفين بشكل عقلاني من خلال قنوات رسمية وليس شخصية من اجل خدمة اهداف التنظيم الذي يعملون فيه.

يعني ذلك ان كل من العالمين (باريتو وفيبر) قد اختلفا في اختيار موضوع دراستهما فاختلفا في معالجتها ولكنهما لم يختلفا في درجة واقعيتهما الرؤية والمنهجية. اما كيف تعامل سومبارت مع اثار الثورتين على المجتمع الاوربي، فأنه استخدم القيم المادية ـ الكمية وتأثيراتها على عقول وسلوك الاوربيين وبالذات وجد تأثير الالة وهيمنة المادة الاقتصادية على مرافق الحياة الاجتماعية ونمو السكان وتمركزه في المدن وما لهذه الظاهرة من مشكلات اجتماعية عديدة ومتنوعة وما حصلت عليه الطبقات الشعبية في المدن وما حدث من صراعات بين الطبقات والافكار والعقائد، جميع ذلك دفعه لتفسير سلوك الناس في المجتمع الرأسمالي لا الاشتراكي من خلال تأثيرات القيم المادية ـ الكمية، حيث قال ان الثروة الطائلة عند اصحاب رؤوس الاموال تدفعه لان يبتز ويحتكر ويستغل ويغش الاخرين، ولان الناس في المجتمع الرأسمالي لايهتمون بكيفية حصوله على الثروة بقدر مايهتمون بكميتها وكبر حجمها، ثم ان قيمة السرعة في الحصول على المال تتساوق مع كمية المال المجمع ومن الطبيعي ان هذه القيمة لاتتحقق الا اذا كان صاحب

المشروع ذكيا ومتمتعاً بعقلية تجارية تستطيع استغلال الناس وابتراز اموالهم والاهتمام بتصريف الانتاج والربح منه بأقرب فرصة فلا يهتم بنوعية الانتاج لانه يفضل ان تكون لديه سلعة رديئة لكنها سريعة البيع وكثيرة الربح على ان تكون لديه بضاعة جيدة لكنها بطيئة البيع وقليلة الربح

بعد ان انتهيت من استعراض بعض اعمال علماء الاجتماع الاوربيين التي تفاعلت مع المنابع المجتمعية (الثورتين الصناعية والفرنسية) واستخلصت ابرز الصفات التي ميزت اعمالهم فجعلتها ذات طابع خاص بالقارة الاوربية . اتحول الان لاستعرض بعض اعمال علماء الاجتماع الامريكان لاستخلص ابرز الصفات التي ميزت علمهم ابان الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أي نفس الفترة الزمنية التي ظهرت فيها اعمال علماء الاجتماع الاوربيين لكن اجد من الضروري تقديم صورة اولية عن ابرز مشكلة عانى ويعاني منها المجتمع الامريكي هي المشكلة العنصرية اذ ميزت وطبعت اعمال الاجتماعيين في امريكا بشكل غير مباشر

يتضمن المجتمع الامريكي ثلاث جماعات رئيسية تمثل اقلياته هي (جماعة رسية وجماعة اثنية وجماعة دينية) ولكل جماعة من هذه الجماعات مكانة اجتماعية خاصة بها تعكس موقعها على السلم الاجتماعي الامريكي التي هي في الاساس ليست مستقلة في ارتباطها الطبقي الذي يربط كافة المواقع الاجتماعية في المجتمع الامريكي والجماعات كافة من مختلف الارساس والاثنيات والديانات

ان المشكلة الرئيسية التي تواجه هذه الجماعات هي التمييز بينهم . أي التمييز المبني على التفرقة والمفاضلة في علاقاتها مع الاغلبية الامريكية فهناك تمييز ومفاضلة في مجال التعليم والتطبيب والحصول على الوظائف والاسكان أي ان الاغلبية (من البيض) يفضلون قبل غيرهم في الحصول على مكاسب في المجالات المذكورة . وفي ضوء هذه المفاضلات تظهر مشاكل لايستهان بها في المجتمع الامريكي وهي ان اسهامات الافراد الاميركان لاتكون مساهمة بشكل كامل او متساو في جميع اوجه الحياة الاجتماعية . بل متباينة حسب تباين الاغلبية والاقلية ففي حالة الاقلية الرسية يلعب الجانب البايولوجي (المظهر الجسمي الخارجي) دوراً فعالاً للتميز بين الاقلية والاغلبية فالزنوج يختلفون لوناً وشكلاً عن البيض وفي حالة الاقليات الاثنية تلعب الثقافة الاجتماعية لجماعة متميزة بلغتها وطريقة لبسها واكلها وتفكيرها دوراً حيوياً في تميزها عن الاغلبية التي تمتلك ثقافة خاصة تختلف

في لغتها وطريقة عيشها . فعلى سبيل المثال لا الحصر واجه الايطاليون والارلنديون والبولنديون الذين هاجروا منذ بداية هذا القرن تمييزاً أثنياً من قبل الاغلبية الاميركية الا ان جيلهم الثاني ـ الذي هاجر معهم او ولد في امريكا وعاش فيها ـ لم يواجه نفس المواقف السلبية او التعالي الاجتماعي والحضاري من قبل الاغلبية الاميريكية لكن بقيت بعض الامور الصور الاثنية عالقة في ذهن الاخرين مثل ان الايطاليين متعاطفين أو منتمين الى منظمة المافيا وان البولنديين اغبياء او سذج .

وظهرت اقليات جديدة في المجتمع الاميركي مثل البورتيريكا الذين استوطنوا في مدينة نيويورك والمكسيك الجديدة ولوس انجلس . هاتان الجماعتان مختلفتان عن الاقليات الاخرى لانهما ليستا من جنس الانكلوسكسوني الذي هاجر من اوربا في بداية هذا القرن .

اما الاقليات الدينية فهناك ثلاثة جماعات دينية رئيسية في المجتمع الامريكي هي كاثوليكية ويهودية ومسلمة(١٩) للزيادة من المعلومات عن الاقليات في المجتمع الامريكي راجع جدول رقم (١) وجدول رقم (٢) اللذان يوضحان عدد وأصل الاقليات في امريكا من عام ١٨٢٠ لغاية ١٩٦٠ .

ان الكلام عن الاقليات في مجتمع الولايات المتحدة الامريكية يدعنا تناول موضوع العادات المتشابهة والتقاليد واللغة والدين والصفات الجسمية . اذ تختلف هذه الجماعات عن الاغلبية ، وأن هذه الاختلافات تحدده الاغلبية من زاوية استعلائية لان بعض الاقليات تبحث عن المحافظة على خصوصيتها واخرى تفضل التخلص منها وبغض النظر عن المفاضلات فأن هذه الجماعات تكون عادة موضوع التمييز والتفرقة العنصرية . فالتمييز العنصري مثلاً يحدد من خلال الموقف في الاقليات الدينية والاثنية والرسية المتميزة لكن في الواقع ان التمييز العنصري لا يمثل موقفاً انما شكلاً من اشكال السلوك الذي تتعامل معه الجماعة الاقلية بشكل مختلف وبشكل غير مرغوب فيه ، ومهما يكن فأنّ لكل اقلية مكانة وسمعة اجتماعية خاصة بها في المجتمع الامريكي .

إن التشكيلة الاثنية والرسية التي يتصف بها المجتمع الامريكي تخضع لما يسمى بالثقافة الجامعة الذي يتضمن الفكرة القائلة بانه يجب على الاقليات الاثنية ان تحافظ على ذاتيتها بشكل خاص ومنعزل مع الاشتراك بقيم المجتمع الاميركي العامة والاسهام او المشاركة في مناسبات تعكس بنائه العام .

فالمهاجر الى امريكا عليه ان يمتثل لعناصر الثقافة الاميركية الجامعة . اضافة الى محافظته على ثقافته الاثنية التي جلبها معه من بلده الام وان مشاعره وولائه يجب ان يكونا للوطن الجديد (امريكا) والهدف من هذين المطلبين هو ان المهاجر الذي يأتي الى مجتمع صناعي يمارس على افراده سياسة الاستلاب والانعزال والتفرد يتطلب من هذا المهاجر الاستمرار في احتضانه لثقافته الاثنية التي تعد بمثابة حصن يتحصن به المهاجر الجديد الى المجتمع الاميركي وهذا يعني ان الثقافة الاميركية (الجامعة) تمثل الانتماء الخاص والانتماء العام اي الانتماء الاثني لثقافة مجتمع الام والمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكبيرة في المجتمع الكبير (الامريكي)(٢٠) وهناك احصائية جديدة تشير الى ان هناك (٢٠) مليون اسود وهذا يمثل (١ / ١٠) عشر سكان اميركا ويمثل المكسيكيون مليوناً واحداً وهناك ثلاثة ملايين ونصف هندي وهناك (٣٠٠,٠٠٠) ياباني وصيني وأسيوي اما الاقليات الدينية فيضم المجتمع الاميركي خمسة ملايين يهودي(٢١) ولا اجد ضيرا من الكلام عن طبيعة الجيرة بين الاقليات والاغلبية لكي اعرف القاريء بنوع علاقتهما الاجتماعية والثقافية اذ تنقسم الجيرة الاميركية بشكل عام الى قسمين الاولى جيرة بيضاء بكاملها واخرى سوداء بكاملها ايضاً وقد تضم الجيرة البيضاء اليهود والبولنديين وبقية القوميات الاخرى التي تتفق بأن تعيش بمعزل عن الزنوج وهناك ظاهرة غريبة هي انه اذا اشترت عائلة زنجية بيتاً في حي يسكنه البيض فأن العوائل البيضاء تنزح الواحدة تلو الاخرى من ذلك الحي وبالوقت ذاته تأتي عوائل سوداء لتحل محلها وبالتالي يتحول الحي من عوائل بيضاء الى سوداء(٢٢)

جدول رقم (١)

جدول يمثل المهاجرين من اقطارهم الاصلية من عام ١٨٢٠ ـ ١٩٦٠

الاقطار الاصلية	العدد
النمسا وهنكاريا	٤,٢٧٥,٨٤٧
بلجيكا	١٨٨,٩٦٩
جيكوسلوفاكيا	١٢٩,٢٧٨
الدانيمارك	٣٥١,٤٠٢
فنلندا	٢٧,٠٢١
فرنسا	٦٨٤,٩٢٨
المانيا	٦,٧٢٦,٢٩٤
انكلترا	٣,٧٨٤,٥٦٥
اليونان	٤٨٧,١٨٩
ايرلندا	٤,٦٧٦,٤٠٧
ايطاليا	٤,٩٦٢,٣٧٥
هولندا	٣٢٠,٨٩٦
النرويج	٨٣٧,٨٩٠
البرتغال	٤٣٢,٣١١
اسبانيا	٢٨٣,٠٥٥
السويد	١٨٠,٩١٥
الاتحاد السوفيتي	١,٢٤٩,٨١٠
يوغسلافيا	٣,٣٤٤,٤٧٩
الصين	٦٦,٥٨٨
اليابان	٣٢٥,٥٣٩
امريكا اللاتينية	٣٢٥,٣٩٦
كندا	٥,٧٥٣,٢١٤
المكسيك	٣,٥٥٥,٣٩٨
الهند الغربية	١,١٣٨,٦٥٥

تابع جدول رقم (١)

الاقطار الاصلية	العدد
افريقيا	٦١٩,٧٨٧
استراليا ونيوزلندا	٤٧,٥١٩
جزر الباسفيك	٢١,٢٨٠
المجموع الكلي	٤١,٨٤٠,٩٦١

اخذ هذا الجدول من كتاب Social Problems لراسل دينس ص ٣٠٩

جدول رقم (٢)
الجماعات الرسمية في الولايات المتحدة من عام ١٨٦٠ ــ ١٩٦٠

	نوع الرس			
السنة	الزنوج	الهنود	اليا بانيون	الصينيون
١٩٦٠	١٨,٨٦٠,١١٧	٥٠٨,٦٧٥	٢٦٠,٠٥٩	١٩٨,٩٥٨
١٩٥٠	١٥,٠٤٢,٢٨٦	٢٤٣,٤١٠	١٤١,٧٦٨	١١٧,٦٢٩
١٩٤٠	١٢,٨٦٥,٥١٨	٣٣٣,٩٦٩	١٢٦,٩٤٧	٧٧,٥٠٤
١٩٣٠	١١,٨٩١,١٤٣	٣٣٢,٣٩٧	١٣٨,٨٣٤	٧٤,٩٥٤
١٩٢٠	١٠,٤٦٣,١٣١	٢٤٤,٤٣٧	١١١,٠١٠	٦١,٦٣٩
١٩١٠	٩,٨٢٧,٨٦٣	٢٦٥,٦٨٣	٧٢,١٥٧	٧١,٥٣١
١٩٠٠	٨,٨٣٣,٩٩٤	٢٣٧,١٩٦	٢٤,٣٢٦	٨٩,٨٦٣
١٨٩٠	٧,٤٨٨,٦٧٦	٢٤٨,٢٥٣	٢,٠٣٩	١٠٧,٤٨٨
١٨٨٠	٦,٥٨٠,٩٩٣	٦٦,٤٠٧	١٤٨	١٠٥,٤٦٥
١٨٧٠	٤,٨٨٠,٠٠٩	٢٥,٧٣١	٥٥	٦٣,١٩٩
١٨٦٠	٤,٤٤١,٨٣٠	٤٤,٠٢١	—	٣٤,٩٣٣

اخذ هذا الجدول من كتاب المشكلات الاجتماعية Social Problems لراسل دانيس ص ٣٣١

غرضي من عرض الاقليات في المجتمع الاميركي هو انها حصلت بسبب الهجرة من اوربا وآسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر والعشرين وهناك تأثيرات الثورة الصناعية والفرنسية دفعت ببعض المهاجرين بالهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية الامر الذي جعل من سكان المتحدة مجتمع مهاجرين متكوناً من عدة جماعات وأرساس وقوميات وأديان . وهذا يجعل مهمة عالم الاجتماع الاميركي عسيرة ومتشعبة يصعب عليه معالجتها بشكل عام بل اتجه نحو الدراسات الجزئية التي تمثل مشاكل الاقليات في المجتمع الجديد وبالذات الهجرة والتمييز العنصري منها نظرية ادماج التنوع الاقلي .

يتصف المجتمع الامريكي بتنوع الجماعات القومية والعرقية والدينية اذ هاجر اليه في القرن التاسع عشر عدد هائل من سكان العالم . فأصبح زاخراً بجماعات تتصف بعدم التجانس الثقافي والبايولوجي الامر الذي دفع قسماً من علماء الاجتماع ان يتناول هذه الظاهرة المخيفة وطرحها في ادبيات علمه من اجل تطبيع هذه الاقليات بالسمات العامة للمجتمع الاميركي . فكان اسرائيل زانكول احد الذين كتبوا عن هذا الموضوع على شكل مسرحية تعرض الاختلافات والتباينات الثقافية والدينية والعنصرية التي عكست خصوصيات المهاجرين . فاراد منهم ـ على الصعيد النظري ـ ان يتركوا ما جاءوا به من هذه الخصوصيات (السلوكية والمعتقدية) خارج حدود امريكا والتطبع بالقيم والمعتقدات الامريكية الجديدة ويتأمركوا بقيم وطرائق العيش الامريكية اي ان يتكيفوا للثقافة الاميركية من اجل ان يكونوا مجتمعاً متجانساً في ثقافته وقوميته ووطنيته . وان يكون ولاءهم لاميركا وان تكون قوميتهم امريكية وتكون ثقافتهم اميركية ايضا . فسمى مسرحيته او نظريته « بأدماج التنوع الاقلي » التي تفضي باستبدال الميراث الثقافي للمهاجرين بالتقاليد والقيم الامريكية

لكن هذا الطرح وجد وجهات نظر مؤيدة ومعارضة في آن الوقت . عبّر الفريق الاول عن تأييده بالسؤال الاتي . من هو الامريكي ؟ أجاب عنه هيتورسانت جونا كريفيكور (عالم زراعة عاش في القرن الثامن عشر) هو الاوربي النازح من اوربا او ان اجداده هاجروا منها ليستوطنوا في امريكا فأمتزج دمه مع دماء المهاجرين الاخرين وكان ناتج هذا الامتزاج ظهور المواطن الامريكي . اذ توجد عائلة في المجتمع الامريكي جدهم من اصل بريطاني وزوجته هولندية وزوجة ابنه فرنسية وأحفاده الاربعة تزوجوا من زوجات مختلف القوميات فأنجبوا احفادا . هؤلاء الاحفاد يمكن ان نسميهم بالامريكان الحقيقيون لانهم تركوا وراءهم تعصبهم الثقافي

المتعدد والمتنوع وعاشوا تحت نمط جديد من الحياة وأطاعوا قوانين الحكومة الامريكية دون تذمر او تمرد . واندمجت اعراقهم بعرق واحد وهو العرق الامريكي واصبحوا ممثلين لكافة الاعراق التي هاجرت الى امريكا .

وهناك رالف ,والداميرسون الذي طرح في واخد الصحف الامريكية عام ١٨٤٥ اذ قال فيها بأن المستقبل القريب سوف يكون في امريكا دين واحد وعرق واحد وأدب واحد ودولة واحدة تجمع طاقات الالمان والسويديين والبولنديين والافارقة كافة بشكل يختلف عما هو سائد في العصور المظلمة .

وكان المؤرخ فردريك جاكسون تيرز الذي قال بأن التباين القومي والعرقي يتم امتصاصه عن طريق التزاوج فيما بين الجماعات الاقلية داخل الحدود الامريكية لدرجة ان الجميع يتشرب في الثقافة الامريكية العامة ولاتبقى تمايزات واختلافات فيما بينهم فتتحلل الخصوصيات الاثنية والقومية في البودقة الامريكية وتتطبع بالطابع الامريكي العام .

وهناك فريق اخر قال ان اول مايحصل مثل هذا الامتصاص هو في مراكز المدن الحضرية تجذب الاقليات كافة للعمل فيها الامر الذي يجعلهم التخلي عن خصوصياتهم الثقافية والعرقية لتذوب فيها ومن ثم تنتشر من مركز المدينة الى ضواحيها لان المجتمع الامريكي لايخدم الخصوصيات القومية بل المجتمع الامريكي ككل توضح هذه الافكار المطروحة في هذا المقام مبدأ التخلي والاستحلال . اي التخلي عن ماجاء به المهاجر من مجتمعه الاصلي من قيم ونمط عيش قديمة ويحل مكانها قيما ونمط عيش جديدة ليتأمرك بالثقافة الامريكية . وعن هذا الطريق يحصل الاندماج الثقافي وعن طريق التزاوج بين الاقليات يحصل الانـدماج العرقـي . ان هـذه الفكرة ممكنة عـلى الصعيد النظـري . لـكن عـلى الصعيد العملي لم يحصل التزاوج بين الجماعات الاقلية بل حصل تخلي واستحلال ثقافي .

اما الجماعة التي نقدت نظرية ادماج التنوع الاقلي فقد طرحت مصطلحا اسمته « التنوع الثقافي » وكان اول من طرحه هو جارلس ماردين اذ وجد ان الانتماء للتنظيمات الرسمية الامريكية (مدارس حكومية وجمعيات خيرية واحزاب سياسية ونقابات واتحادات مهنية) ساعد على التشرب في الثقافة الامريكية والتخلي - نسبيا - عن بعض قيم ونمط العيش القديم الذي اتى به المهاجر من مجتمعه

الاصلي اذ وجد ماردين ان المجتمع الصناعي (الامريكي) قد بلور بعض الظواهر مثل التفرد والعزلة الاجتماعية والاستلاب وشعور الفرد بأنه لا يملك نفوذاً اجتماعياً . جميع ذلك دفعه للانتماء الى التنظيمات الرسمية ليعوض او يعالج هذه الظواهر التي يعيشها في مجتمع صناعي حرمه من دفء وحنان العلائق الاجتماعية التي كان يعيش في وسطها قبل مجيئه الى المجتمع الامريكي الامر الذي حثه بالبحث عن الاستقرار والاطمئنان والضمان النفسي والاجتماعي في التنظيمات الرسمية وحتى غير الرسمية . اذ حصل تقارب بين الجماعات الاقلية المتشابهة في ثقافاتها مثل تقارب الارلنديين مع الالمان .

هذا من جانب ومن جانب اخر فأن نمو النفوذ السياسي ادى الىاتساقه مع نمو المشاعر العرقية اذ بدأوا يطالبون بالحرية والمساواة والاخاء والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والاحترام المتبادل . مثل هذه الشعارات دفعت الاقليات ان تتفاعل من خلالها لأن هدفها واحد ومصلحتها السياسية واحدة الامر الذي جعلها تتقارب ـ فضلا عن انتماءاتها للتنظيمات غير الرسمية ـ مماجعل الفواصل بينها اقل والتعصب بينها اضعف .

ومن خلال القنوات الاعلامية (صحف ومجلات ومذياع وتلفاز) تم التعبير عن الاراء ـ السياسية لكافة الاقليات اذا اصبحت هذه القنوات قاعدة اساسية ترتبط من خلالها الاقليات لكي تتفاعل وتتقارب في وجهات نظرها السياسية والقومية (٢٣) وعن هذا الطريق تم سحب الاقليات المتنوعة الى النسق الاجتماعي الامريكي ولم يتم عن طريق التزاوج كما جاء بـه اسرائيل زانكول ومؤيديه فالتجانس والتقارب بين الاقليات الامريكية حصل عبر الوسائل الحضرية (مراكز مدن وتنظيمات رسمية ووسائل الاتصال المرئية والمقرؤة والمسموعة) وليس عن طريق التزاوج والاستحلال القيمي القسري . واصبح التأمرك القيمي طواعية وليس عنوة وهـذا التقارب اطلق عليه بـالتنوع الثقافي وليس الادمـاج للاقليات المتنوعة اذ ان الاول يعبر عن الترابط القومي والعرقي ويعبر الثاني عن انصهارها . فجاء الاول اقرب الى الحياة العملية لان المهاجر لايستطيع ان ينبذ قيمه الاجتماعية كافة خارج الحدود الامريكية ويتبنى قيما جديدة . بل يستطيع وعبر الزمن ان يتكيف لبعضها ويترك بعض قيمه الاصيلة . وعن هذا الطريق استطاع التعايش مع باقي القوميات الاخرى داخل المجتمع الامريكي . وقد اكد روبي جوريفس كنيدي ان الزواج بين الجماعات العرقية قد زادت نسبته عبر الزمن وبخاصة في الفترة الواقعة بين ١٨٧٠ ـ ١٩٤٠ بيد ان الزواج بين الجماعات الدينية بقى كما هو

لم يتغير . اي لم يحصل زواج بين الكاثوليك واليهود او العكس او البروتستانت واليهود او بالعكس وهذا يعني ان الزواج بقى دخلياً محصوراً في الجماعة الدينية الطائفية لكنه حصل بين الجماعات الثقافية . واكد ميلتون جوردون على ان الانقسامات الدينية واللونية في المجتمع الامريكي لم تساعد على ادماج الاقليات داخل المجتمع الامريكي بل هناك اندماجات مستقلة داخل كل جماعة دينية وليس بين الجماعات الدينية المنقسمة فسماها بالاندماج الاقلي الثلاثي (اندماج داخل الكاثوليك واندماج داخل البروتستانت واندماج داخل الجماعة اليهودية) ولم يحصل اندماج بين الجماعات الثلاثة المذكورة اعلاه(٢٤)

اما وليم جراهام سمز (١٨٤٠ ـ ١٩١٠) فقد طرح مصطلحين يعكسان بعض اوجه الحياة الاجتماعية في المجتمع الامريكي ابان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وهما التعصب العنصري وعواطف الفرد داخل جماعته (القومية او العرقية او الدينية) وخارجها وكيف يتعامل مع الاخرين الذين لاينتمون الى نفس الجماعة التي ينتمي اليها ففي المصطلح الاول (التعصب العنصري) حدد سمنر مضمونه قائلاً بأن الفرد هنا يتطابق بشكل مبالغ فيه مع الطرائق الشعبية التي تمثل عرقه او عنصره فينظر الى العالم من حوله بمنظور عالمه الصغير (عرقه او عنصره) ويقيس الامور بمقياسه ومعايير عالمه العرقي لكي يميز نفسه عن باقي الناس الذين ينتمون الى اعراق وقوميات اخرى تختلف عن عرقه وقوميته . هذا التطابق المهول يجعله (اي الفرد) مرتبطاً وملتصقاً بجماعته اشد التصاقاً ومتماسكاً مع افراد جماعته لدرجة انه لايرى او لايعتقد بأن طرائق الشعوب الاخرى افضل او احسن من طرائق جماعته الشعبية . اما في المصطلح الثاني فأنه وجد ان عواطف الافراد داخل جماعتهم (العرقية اوالقومية او الدينية) تجعلهم متماسكين ومتعاضدين ومتماثلين مع قيم جماعتهم موالين لاهدافها ومضحين من اجلها هذه التماثلات الداخلية لجماعتهم تجعلهم يكرهون بشكل غير مباشر ـ الافراد الذين لايمثلون او لايتعاملون مع جماعتهم . اي كلما زاد تماسك الجماعة الداخلي دفعهم الى ان يتميزوا ويتنازعوا مع باقي الجماعات الاخرى التي تختلف معهم في اهدافها وقيمها . فالتعصب الداخلي للجماعة الواحدة يخلق عندهم تنازعاً خارجياً مع الجماعات الاخرى(٢٥) لقد طرح سمنر هذه المصطلحات في كتابه « طرائق الشعوب » عام ١٩٠٦ .

مثل هذه المصطلحات تناولها سمز لكي يحلل بعض الظواهر والمشكلات التي حصلت في مجتمع مليء بالجماعات الثقافية والعرقية والدينية ولكي يعالج ابرز مشكلة يعيشها المجتمع الامريكي في تلك الفترة الزمنية وهي التعصب العنصري والنزاعات الاجتماعية بين الاقليات التي هاجرت اليه .

ننتقل بعد ذلك الى عالم الاجتماع الامريكي جورج هربرت ميد (١٨٦٣ ـ ١٩٣١) في كتابه عن الذات عند الانسان . يختلف ميد عن باقي المهاجرين المنظرين الاجتماعيين الذين يطرحون مفردات تعبر عن ظاهرة او مشكلة اجتماعية يقوم بها عدد كبير من الناس من خلال وصفهم لسلوكهم والمؤثرات المباشرة وغير المباشرة عليها . فقد طرح مصطلحاً ينطلق من الذات عند الانسان محددا قسميها الرئيسيين وهما الذات الفردية والذات الاجتماعية . اي انه لم ينحت المصطلح من خارجه بل من داخله لكي يعرف مضمونه وماله من ارتباطات بخارجه اقول انه شطر المصطلح الى شطرين متناظرين متصليين الواحد بالاخر دون الاعتماد على مفردات اخرى لها صلة بالذات (كالشخصية او الثقافة الاجتماعية او القومية او الرس) فعل ميد ذلك لكي يعرف كيف يتصرف الفرد عندما تؤثر به مؤثرات الاخرين الذين يتفاعل معهم بشكل مستمر فلم يدرس الجماعة نفسها او المجتمع المحلي بل نحت مصطلحاً دقيقاً جداً لكي يصل الى الكل (وهو حكم او موقف الافراد المحيطين بذات الانسان) .

يبدأ ميد كلامه عن ذات الانسان فيقول بأنها متطورة بسبب تفاعلها المستمر ولا علاقة لها بموضوع الوراثة لان الذات الانسانية تتبلور من خلال خبرات ومناشط ألانسان الاجتماعية التي يكتسبها عبر الزمن . فهي اذن في هذا التحديد ابنة محيطها الاجتماعي وزمانها ومكانها ولما كانت كذلك فأنها (اي الذات) بحاجة الى ان تتكيف للمحيط الاجتماعي التي تعيش في وسطه ولاتحتاج الى الذكاء او اي جهد عقلي بل تحتاج الى التلقائية الذاتية لكن الحاجة الماسة التي يطلبها الانسان ـ في هذه الحالة ـ هي القدرة على تنظيم الخبرات والمناشط الاجتماعية التي يكتسبها . لان قسماً من خبراته لاتمثل حالات من اللذة والسرور واخرى عقابية وغير مسرة واخرى بين بين . فتتسجل على صفحات ذاكرته . وهذا لا يتم الا من خلال تنظيمها لكي لاتتبعثر او لاتتلاشى في حياة الانسان وان استرجاعه لها لا يعتمد على قوة ذاكرته فقط بل يعتمد على درجة تنظيمها على صفحات ذاكرته. فاذا حصلت اثارة لخبرة شخصية فأن استرجاعها كصورة كاملة تعتمد على تنظيمها في ذاكرته وهذا

يعني ان الخبرة الاجتماعية الشخصية ماهي سوى مشاعر واحاسيس وملاحظات للواقع التي عاشته الذات الانسانية . لكن اذا هرب الانسان من واقعه فأن ذاته لاتتضمن خبرة واقعية ودراية بمحيطه الاجتماعي . او اذا اراد الانسان ان يفكر بعيدا عن ذاته او خارجها فأنه سوف لايكتسب خبرة ودراية اجتماعية ذاتية .

لكن الخبرة الاجتماعية لاتكتسب الا من خلال وجود اخرين لهم حضور اجتماعي في حياة الفرد . اي ان الفرد يتفاعل معهم من خلال الرموز والاشارات واللغة والافكار والاراء ومن خلال الاتفاق والاختلاف بالرأي والمواقف تتبلور خبرة معينة عن موضوع معين . بيد ان تفاعل الفرد مع الاخرين يحتاج منه ان يتصور او يتخيل او يحدد في تفكيره اراء واحكام الذين سيتفاعل معهم حول الموضوع المثار بينهم ومن ثم يحدد رأيه او موقفه .

وهذا يعني ان موقفه لم يتبلور من بناة افكاره الذاتية بل من خلال مواقف الاخرين الذين سيتفاعل معهم ومن هنا تبرز نواة الذات الانسانية فهي اذن نتاج محيطها الذي تتفاعل معه وتنفعل به وبهذه الطريقة يستدل الفرد على سبل ذاته من داخل المحيط الاجتماعي وليس من خارجه .

وان تصور او تخيل او تقمص مواقف وآراء الاخرين لاتتم الا بوساطة محفزات تثير الفرد فيستجيب لها (سلباً او ايجاباً) لكنه لايستطيع تقمص ادواراً او مواقف الجميع مرة واحدة بل يستجيب لمثيراتهم الواحدة تلو الاخرى . فلاعب كرة القدم ـ على سبيل المثال ـ لايأخذ بنظر الحسبان ادوار اللاعبين المتنافسين معه مرة واحدة ، بل يأخذها بشكل متسلسل او متواتر ، فيكون تصرفه داخل الملعب متأثراً بتصرف اللاعبين المتنافسين معه في الفريق الثاني .
بشكل ادق ، عندما يتخذ الفرد موقفاً معيناً داخل جماعته ، فأنه يفكر بما يفكر به اعضاء الجماعة حول موقفه وموقف كل منهما نحو مواقف الاخرين ومن ثم يفكر بمواقفهم مجتمعة على شكل موقف موحد ومنظم مكوناً اتجاههم نحو موقفه المرتقب ، هذه الحالة يطلق عليها ميد عبارة « تعميم حكم الاخرين » او « تقويم مواقف الاخرين » الذي يكون بمثابة موقف الجماعة التي ينتمي اليها . في الواقع هذه العملية ـ في رأى ميد ـ تساعد الفرد على بلورة ذاته الاجتماعية لتكون خبرة مضافة الى خبره السابقة .

اي هناك مرحلتين لكي تتبلور الذات الاجتماعية عند الانسان وهي في هذه المرحلة الاولى يتم فيها قيام الفرد بتنظيم مواقف الاخرين الذين يتفاعل معهم حول موضوع معين تجاهه فضلا عن ذلك يقوم الفرد بتركيب او تشكيل مواقف الاخرين كل منها تجاه الاخر (اي فيما بينها) في حالة اجتماعية مخصصة يشتركون جميعهم فيها

وفي المرحلة الثانية يقوم الفرد بتوحيد جميع مواقف افراد جماعته الذين يتفاعل معهم ليكون موقفاًموحداً يعكس جميع مواقفهم (او اغلبها) وعن طريق هاتين المرحلتين تصل الذات الانسانية الى مرحلة نضجها الاجتماعي لانها تكون قادرة على توليف او تشكيل عدة مواقف في موقف واحد او صهر عدة آراء في رأى واحد .

اما الذات الفردية فانها تمثل الجانب الثاني لذات الانسان ـ كما اسلفنا ـ فتقوم بتقويم ما قامت به الذات الاجتماعية عندما تفاعلت مع احكام الاخرين او بعدما اخذت ادوارهم الاجتماعية فيتقمصها ثم يحكم عليها سلباً او ايجاباًوهذا الحكم يعتمد على ذاكرة الانسان لانه يتطلب استرجاع ذاكرة الحدث الاجتماعي وان استرجاع الذاكرة يعتمد على درجة تنظيم الحدث الاجتماعي على صفحات الذاكرة . اي كلما كانت منتظمة تم استرجاعها بشكل سهل وبسيط ويتم الحكم عليها الا بشكل واضح والعكس صحيح

فالانا الفردية في هذا التصوير تمثل الناطق الشخصي للفرد عن سلوكه او مواقفه التي قام بها قبل فترة وبذا فأن الفردية لاتتحول الى الذات الاجتماعية لانها وجهان لذات الانسان الواحدة . ويستطيع الانسان التحدث والتحاور مع ذاته الفردية والاجتماعية لكنه لا يشاهدها

باختصار تأخذ الذات الاجتماعية مكانها عندما يأخذ الفرد باحكام الاخرين وآرائهم وتأخذ الذات الفردية مكانها عندما يحكم الفرد على اسلوب اداء ذاته الاجتماعية لاراء واحكام الاخرين الذين يتفاعل معهم(٢٦)

هذه هي مكونات مصطلح الذات الانسانية عند ميد الذي كشف عن التصوير الدقيق للذات الانسانية من خلال جزئيها ومن خلال تأثير الاخرين بها في بلورة القسم الاول منها (الذات الاجتماعية) .

هذا ولابد لي بعد هذا الاستطراد ان اوضح بشكل اكثر الاختلاف الجوهري بين علم الاجتماع الاوربي والامريكي . الا وهو الاختلاف المنهجي . فالاول استخدم في دراسات عديدة المنهج غير الرقمي (اي التأريخي او المقارن واصفاً وموضحاً الظاهرة او المشكلة بشكل عام وشامل بعيداً عن استخدام الارقام والبيانات

والمعادلات) والثاني ـ الامريكي ـ استخدم المنهج الاحصائي الرقمي ـ ولعل من الضروري ان اشير في هذا السياق الى ان قسماً من الاجتماعيين الاوربيين استخدموا المنهج الرقمي الاحصائي . والحالة نفسها عند الاميركان حيث هناك بعضا منهم قد استخدم المنهج غير الرقمي . لكن الصفة الغالبة على الاوربي هو المنهج غير الرقمي والامريكي المنهج الرقمي .

هذه الميزة الجوهرية ضمن العلم الواحد لم تعرض منهجه وبناءه النظري وهدفه للخطر بل طبعته بمشاكل مجتمعات متباينة فلم تخرجه من علميته وموضوعيته وهذه ميزة حيوية داخل علم الاجتماع لانها تعطيه ابعاداً جديدة ومتنوعة وتغذية بمصادر دافقة بالعطاء المعرفي والانساني .

وبهذا الخصوص نستضيء بحديث المنظر الامريكي المعاصر ـ صاحب المنهج غير الرقمي راندل كولنز عند ما قال « ان علم الاجتماع يملك جناحين الاول رقمي والثاني غير رقمي الذي لايستخدم الاساليب الاحصائية بل الافكار والنصوص المجردة . بينما يستخدم المنهج الرقمي الاساليب الاحصائية والافكار الوضعية والتجريبية . لكن هناك بعض الاجتماعيين الاميركان هاجموا المنهج الاحصائي امثال رايت ميلز ١٩٥٩ ولويس كوسر ١٩٧٥ وفي الاعوام الاخيرة ازداد عدد المعارضين والمناهضين للمنهج الاحصائي واصبحت لهم مكانة ووزن كبيرين في امريكا بحيث شكلوا اتجاها بارزا في امريكا لدرجة اتهموا المنهج الاحصائي بانه احد افرازات النظام الرأسمالي وقد ارجع كولنز هذا الاتجاه الجديد الى جاذبية البنيوية الفرنسية والى الاتجاه الفينوفيولوجي وباقي الاتجاهات التي تدعم الاتجاه القديم في علم الاجتماع[٣٧] لكن المنظر الامريكي جيفري الكسندر اوضح حقيقة عدم جدوى المفاهيم النظرية والنصوص المجردة في المجتمع الامريكي الامر الذي دعا المذهب الوضعي الى كسرها ـ بعد الحرب العالمية الثانية ـ واخراج مفاهيم ونصوص تطبيقية تعبر عن مشاعر واحاسيس ومواقف وافكار الاميركان في حياتهم اليومية[٣٨] ومما لايمكن تلافيه هو نقد بيترم سروكن للمنهج الاحصائي في الدراسات الاجتماعية وأجد من المفيد ان نستضيء بما جاء به من ادلة وبراهين في هذا الشأن اذ قال « هناك العديد من الظواهر والمشكلات والانساق الاجتماعية لاتتوفر الامكانية والقدرة عند المنهج الاحصائي والرياضي في تناولها او التوغل الى عمقها او سبرغورها وتقديم حلول ناجعة لها واذا استطاع في بعض الحالات فأنه لايستطيع ان يطرح تنبوءا حول مستقبلها لعدم قدرته في بسط قاعدة منطقية

سطلق منها في تحديد رؤية تنبؤية لها' فضلا عن انه لايستطيع ان يتوصل الى خلاصات واستنتاجات لكافة الحالات الاجتماعية بل لبعضها

هذا من جانب ومن جانب اخر فأن لبعض الاشكالات الاجتماعية جذور وعروق في تاريخها الاجتماعي بحيث لايمكن دراستها ميدانياً واحصائياً لانها لاتخضع للملاحظة الامر الذي يتعسر على الباحث الاحصائي تناولها ودراستها

وهناك اشكالات يمكن للباحث الاحصائي دراستها بيد انه لايستطيع ان يخرج بنتائج تدل على اعماقها وخواصها كافة بل سطحها وظاهرها لذا لاتجيب على تساؤلات الباحث المعروفة مثل ماهو وكيف ولماذا حصلت الظاهرة الاجتماعية وبخاصة الظواهر ذات الجوانب المركبة (النفسية والاجتماعية والفلسفية)

وخليق بنا هنا ان نشير الى ان المنهج الاحصائي قد حقق تقدماً ملموساً وبارزاً ـ الكلام مازال مع سروكن ـ في مواضيع الجريمة والجنوح والسكان والهجرة لدرجة انه استطاع ان يطرح نماذجاً رياضية لها تمكن الباحث فيها الى التنبؤ بنتائج مستقبلية في ضوئها

وهناك استخدامات احصائية رتيبة تستخدم باستمرار مثل النسب المئوية والارتباطات والعلاقات بيد ان هذه الاستعمالات محدودة الامكانيات القياسية اذ لا يطاوعها العديد من المتغيرات الاجتماعية في دراستها فتتركها بدون قياس . الامر الذي يتقيد استعمالاتها مع كافة الظواهر والمشكلات الاجتماعية الواقعية . اذ يلزم مستخدمها التقيد بشروطها وخواصها وليس بشروط الواقع الاجتماعي المدروس

وحري بنا ان نقول بهذا الشأن انه على الرغم من كل هذه التقيدات والمعوقات فأن استخدامات آليات احصائية باتت في ازدياد مطرد في العلوم الاجتماعية وقد تكون احدى معوقات المنهج الاحصائي تكمن في اساءة استعماله . الامر الذي يقود مستخدمه الوصول الى نتائج مضللة فتتبعه تنبوءات مغلوطة . او ان المستعمل لهذا المنهج بلور نموذجاً رياضياً مختلفاً عن واقع الدراسة فيقوده الى اغلاط في النتائج والاستخلاصات والتنبوءات وبذا يكون النموذج الرياضي مرشداً سيئاً او موجهاً مغلوطاً وغير دقيق في حساباته وبالتالي يشوه واقع الدراسة . لكن هذا لايعني ان الدراسات الاحصائية كافة تقع تحت هذه الاغلاط حيث هناك دراسات سكانية رصينة في بياناتها وتصانيفها للفئات العمرية والجنسية والزواجية والسكنية والمهنية والدينية وباقي الفئات الاخرى يستفاد منها الباحثين في مجالات شتى بيد انها لاتفيد الباحث الاجتماعي الذي يستقصي عن الاجوبة السببية او الاجابة عن لماذا

فضلاً عن المعلومات حول منطقة سكنية معينة او مجتمع محلي معين لايمكن سحبها الى منطقة اخرى او مجتمع محلي اخر هذا من جانب ومن جانب اخر فقد تكون عينة الدراسة غير ممثلة لمجتمعها وبخاصة اذا كان (مجتمع الدراسة) غير متجانس في فئاته الاجتماعية (كماً ونوعاً) جميع ذلك يؤثر في نظر سروكن – على جدية موضوعية المنهج الاحصائي(٢٩)

اما انحصار المنهج الاحصائي فأنهم يوضحون الامور الآتية ، فقد اوضح جورج ليند بيرك الحقيقة الآتية « اننا نستعمل الاسلوب الكمي لتحديد درجة ومعدل نوع الظاهرة الاجتماعية المدروسة من خلال ارقام ومعادلات احصائية التي يمكن شرحها وتفسيرها وتحليلها بشكل موضوعي . اي استخدام الطرق الكمية لمعرفة الظواهر الاجتماعية النوعية . فضلاً عن استخدام الاسلوب الكمي لمقاييس رياضية واحدة للتعبير عن حالة اجتماعية مثل المكانة الاقتصادية – الاجتماعية من اجل وصفها وتحليلها ، وبذا يكون مقياس المكانة واحداً لمعظم الباحثين الذين يستخدمون المنهج الاحصائي . اذ هناك مفردات احصائية مشتركة بين الباحثين الاجتماعيين التطبيقيين مثل « اقل من » و « اكثر من » و « اقوى من » و«اضعف من» و « ابسط من » و « اعقد من » و « احسن من » و « أسوا من » وما شابه . مثل هذه المفردات تستعمل كرموز لتحديد حالة اجتماعية دقيقة(٣٠) .

وفي مكان آخر ينكر ليندبيرك حقيقة المتغيرات التي لاتخضع للقياس حيث قال « بأنه لاتوجد متغيرات لاتخضع للقياس ، بل جميعها تخضع له لانه لايقوم بتحديد مضامين المتغيرات وان ذلك يتم بعد قياس المتغير . فمفهوم الذكي – على سبيل المثال – لايمكن تحديده الا بعد قياس مواقف وسلوك الفرد بمقياس I. Q. ويقول برايد غمان ان قياس المتغيرات يكون بشكل غير مباشر ، فتحديد مفهوم « الجمهور » يتم من خلال عدد الافراد الذين منضمين اليه فعلاً وهذا يعني ان المتغيرات يتم تحديدها من خلال مضامينها وان اي تغير يحصل في تحديد المضمون ينعكس مباشرة على تحديد المفهوم نفسه لذلك تكون التحديدات الاجرائية متبدلة حسب مضامينها التطبيقية وهذا يتطلب تبديل العبارات والمفردات الدالة عليها . فضلاً عن ذلك فأن في المنهج الرقمي هناك مفاهيم محددة بالافتراض بسبب عدم قدرة الباحث بملاحظة بعض اجزاء الحدث او الظاهرة الأجتماعية او انها غير خاضعة للملاحظة فيضطر الباحث ان يربط بين الاجزاء التي لاتخضع للملاحظة او التي يصعب ملاحظتها) كل ذلك يجعل مفاهيم المنهج الرقمي غير

مستقرة على مضمون واحد اي متباينة ومختلفة في المحتوى ولكنها تشير الى حدث اجتماعي واحد وهذا بدوره خلق كماً هائلاً من المفاهيم بعيدة عن التنظير الامر الذي حصلت فجوة منهجية بين المفاهيم والنظرية(٣١) ولكن هبرت بلالوك قال « بأن مثل هذه الفجوة يمكن ملؤها او سدها من خلال استخدام مقياس الصدق والثبات . اي من خلال التحقق من مصادقية المفهوم في اكثر من حالة واحدة على ان تكون النتيجة ثابتة على الرغم من تكرار قياسها في عدة حالات وقد سمى بلالوك هذين القياسين (الصدق والثبات) بـ « قياس الخطأ » علماً بان هذين القياسين لا يخضعا للاختبار الرقمي ـ الاحصائي(٣٢) .

لم يكتف اصحاب المنهج الرقمي ـ الاحصائي بدراسة السلوك الاجتماعي بل توصلوا الى استخدام الآليات الاحصائية بدراسة ظواهر اجتماعية كبيرة الحجم مثل التمييز العنصري في المجتمع الامريكي . ففي العقد التاسع من هذا القرن تم استخدام مقياس النزعة المركزية في تحديد مضمون التمييز العنصري معتمداً على متغيرات عديدة مثل عدم العدالة الاجتماعية والاختلاف في الدخل الفردي . والموقع الجغرافي للمدرسة ومن خلال هذه المتغيرات استخدم مقياس التشتت لمعرفة التوزيع التكراري للمدارس الخاصة بالسود في المناطق التي يقطنونها ولمعرفة التوزيع التكراري ايضاً للمدارس الخاصة بالسود في المناطق التي يقطنونها ولمعرفة التوزيع التكراري ايضاً للمدارس الخاصة بالبيض والمناطق التي يقطنونها وكذلك لمعرفة المدارس المختلطة (بين البيض والسود) من اجل التوصل لمعرفة التمييز العنصري بينهما وهناك من الباحثين من استخدام مقياس النسبة المئوية لمعرفة التمييز العنصري(٣٣)

فضلاً عما تقدم فأن المنهج الاحصائي يستخدم الارتباطات السببية التي تضم ما يأتي

١ ـ اطراد الارتباط . الذي يقيس المسافة القائمة بين الخط المستقيم والمسار المنحني في الحدث الواحد . اي يقيس علاقة متغيرين في حدث واحد لمعرفة فيما اذا كانت علاقتهما مباشرة وبشكل مستقيم او بمسار منحني . اذ كلما كانت المسافة بينهما (بين المتغيرين) قصيرة . استطاع المقياس ان يكشف اطراد ارتباطهما والعكس صحيح بمعنى اخر يقيس معدل نمو ارتباط المتغيرين

٢ ـ تساوق الارتباط ، الذي يقيس ارتباط المتغير أ مع ب في اكثر من حدث اجتماعي واحد لمعرفة فيما اذا كانت الارتباط بينهما مباشراً او غير مباشر . مستقيماً او منحرفاً .

٣ ـ رتابة وتيرية ، اذ يتم فيها حساب وقياس عدد المرات التي يؤثر فيها متغير أ (سلباً او أيجاباً) على متغير ب خلال فترة زمنية محددة لمعرفة وتيرة التأثيرات ورتابتها .

٤ ـ ثبوت وعدم التغير في ارتباط متغير أ مع ب بعد ادخال المتغير جـ من اجل التوصل الى معرفة هل الارتباط بين أ و ب يبقى ثابتاً ام يتغير بعد ان يدخل المتغير الجديد على ارتباطهما(٣٤)

يهدف جالتون من قياس الارتباط السببي بين المتغيرات لمعرفة ثبوت او انتظام او تساوق او رتابة العلاقة بين متغيرات الحدث الواحد وهذا تحديد دقيق جداً في علاقة اسباب حدوث الحدث .

هذه بعض ايجابيات هذا المنهج ونرى من المفيد ان نضيف بعض السلبيات التي لم نشر اليها سابقاً لكي نقترب من الموضوعية اكثر يضيء لنا الطريق في هذا المقام راندل كولنز عند قال « ان المنهج الكمي لم يعد مؤثراً بشكل كبير في الناس غير المتخصصين في علم الاجتماع لانه لايشبع حاجاتهم او اهتماماتهم المعرفية لانه يبدو لهم منهجاً غامضاً لايوضح شيئاً ولا يبرهن على صحة نظريته . لذلك تأتي مصداقية نتائجه مبهمة ومشكوك فيها . فضلاً عن الشعبية المتنامية للمعارضين لهذا المنهج الذي يكشفون نقائضه باستمرار . الامر الذي يزيد من تمسكهم بالمنهج التأريخي يوماً بعد يوم

هذا من جانب ومن جانب اخر يدعى اصحاب المنهج الكمي ان ذواتهم مستبعدة من خلال استخدام المعادلات الاحصائية وان نتائج الواقع تظهر دون تحيز . لكنهم نسوا ان بعض النتائج تخرج عن طريق الصدفة بسبب عدم ضبطها بوساطة المعادلات او من قبل الباحث نفسه وهذه الحالة تؤدي الى اضعاف موقف المنهج امام الموضوعية العلمية المطلوبة منه . فالحراك الاجتماعي ـ على سبيل المثال ـ تؤثر فيه متغيرات عديدة ابرزها المستوى التعليمي والاقتصادي والعلائق الصداقية وغيرها . وهناك عامل الصدفة الذي يلعب دوراً مهماً في بلورة الحراك الاجتماعي اذ لايستطيع الباحث ضبطه او السيطرة عليه او التحكم فيه وهذه النقيضة المنهجية تقلل من اهمية المنهج الكمي(٣٥)

ويضيف كولنز الى ماتقدم فيقول « هناك مواضيع اجتماعية يصعب على المنهج الكمي تناولها ودراستها مثل نشأة الدولة والظواهر الاجتماعية المحلية التي يفرزها النظام العالمي مثل التنمية الاقتصادية والتضخم المالي والسوق العالمي او دراسة التغيرات السياسية ،او الثورة او النفوذ السياسي المرتبط بالجيوبولتيك جميع ذلك لايستطيع المنهج الكمي اخضاعها لاختباراته ومقاييسه . فضلاً عن ان المقاييس الاحصائية لايمكن اخضاعها للمقاييس الاحصائية . فالتوزيع التكراري ـ على سبيل المثال ـ لايمكن قياسه عن طريق توزيع تكراري ثان او مقياس احصائي اخر ، لكن بامكاننا ان نقارنه مع توزيع تكراري اخر وليس قياسها .

ثمة حقيقة مفادها ان المنهج غير الكمي (التأريخي) يعتمد على عدد قليل من الاحداث ذات اتساق زمني متكامل . وفي ضوء ذلك يستطيع التوصل الى تعميمات ذات مصداقية اوسع واعلى من الباحث في المنهج الكمي الذي يستخدم عدد كبير من الاحداث الاجتماعية الجزئية لانها لاتساعده بالوصول الى تعميمات رصينة . فدراسة ولبرت مور للثورة الفرنسية قدمت تفاسير عامة ومجردة لبناء اسس النظرية الاجتماعية في الثورة اذ استفاد منها المنظر الفرنسي بياجه عندما درس ثورة الفلاحين عام ١٩٧٥ . وافاد ايضاً الباحث سكوبول ١٩٧٩ عندما درس نظرية الثورة الاجتماعية . اي ان الباحثين الذين يستخدمون المنهج غير الكمي يستطيعون استخراج قاسم مشترك بين دراساتهم .

ان المشكل الرئيسي في المنهج الاحصائي هو عدم قدرته في بناء نظرية ، بل يهرب من التزامه بضوابط البناء النظري ولكن بالوقت ذاته علينا ان لاننغفل تطور آليات هذا المنهج عبر الزمن اذ انها ليست ثابتة بل متطورة . ففي العقد الرابع من هذا القرن استخدم المقاييس الشائعة (مثل الاستبيان ومقياس المواقف والاتجاهات والمكانة الاجتماعية والاقتصادية واستخدُم ايضاً التحليل العاملي وبعده استخدم تحليل المتغيرات المتعددة) . وهنا يستطيع الباحث التوسع في التحليل واكتشاف علائق عديدة بين اسباب الظاهرة او المشكلة وفي هذه المرحلة التطورية ابتكر بناء النموذج التخطيطي لتوضيح ارتباطات اسباب الحدث الاجتماعي . بعدها استخدام التحليل الانحداري الذي يزيد في قوة وقدرة الباحث في تحليل عدد اكبر من حالة الارتباطات المتعددة . ثم استخدم تحليل تقاطع المقاطع الذي يساعد الباحثين في دراسة ظواهر اجتماعية ذات المدى البعيد مثل الحراك الاجتماعي . اذ درس دنكز عام ١٩٦٦ عدة ظواهر سكنية من خلال استخدامه هذا التحليل(٣٦) .

٢ ـ المصب الثاني الذي يمثل العقيدة السياسية

التي فلقت علم الاجتماع الى نصفين كبيرين هما علم الاجتماع الاشتراكي الذي اتخذ من افكار هنري سانت سيمون وهيكل وماركس اساساً للتغيير والتحليل المادي للاحداث الاجتماعية موضحا الصراعات الطبقية القائمة بين الطبقة البرجوازية (مالكة الانتاج) والعمالية (فاقدة الانتاج) وقد انتشر هذا العلم في دول اوربا الشرقية . اما علم الاجتماع الرأسمالي فقد انحسر في الولايات المتحدة الامريكية موضحاً التفاسير النفسية والاجتماعية المؤكدة على النظرة الجزئية للحدث او الظاهرة الاجتماعية ومستخدما الوسائل الاحصائية في الوصول الى نتائج دراسته مؤكداً على المشكلات الاجتماعية مثل الطلاق والجنوح والجريمة والادمان على المخدرات (للمزيد من المعلومات راجع مؤلفي نقد الفكر الاجتماعي المعاصر) .

٣ ـ المصب الثالث يوضح الانغلاق النظري للحياة الاجتماعية

اذ كرس جهده العلمي بتصوير وتحليل الجانب الصراعي لها . وقد برز في هذا الجانب كل من راتزنهوفر وجوميلوفش وزمل وكوسروجيتا نوموسكا وبوتومور ودارندروف وروبرت مايكل وفيليب سيلينك والفن كولدنر وميلفيل دالتون ولينسكي واتزيوني وبراين وفولد وسيلين وغيرهم (يمكنك الرجوع الى مؤلفي نحو نظرية عربية في علم الاجتماع للتعرف على مضامين نظرياتهم الصراعية) . اما الشطر الثاني من علم الاجتماع فقد حلل الجانب الوظيفي البنائي الذي عكس توازن وتكافل اتساق البناء الاجتماعي وقد برز في هذا الاتجاه دوركهايم وفيبر وبارسونز ومرتن وغيرهم . (يمكنك الرجوع الى مؤلفي الفكر الاجتماعي المعاصر للاستزاده عن هذا الاتجاه) .

لقد اكتفيت باعطاء لمحة لهذه الانشطارات لاني تناولتهم باسهاب في مؤلفاتي السابقة ولكي لا يحصل تكرار في مضامين مؤلفاتي اقتصرت هنا على التنويه فقط ومبتعداً عن التكرار

٤ ـ الانشطار الكبير (الذي يمثل الانغلاق الاصغر من الاكبر) اذ شطر علم الاجتماع داخل القارة الواحدة ، فأصبح عندنا علم اجتماع قطري داخل القارة الاوربية فضلاً عما

تقدم فأن من جملة آثار الثورتين (الصناعية والفرنسية) هو ظهور اهتمامات في علم الاجتماع ـ سماها روبرت نسبت ـ ردود فعل تجاه التحرر الفردي الحاصل في اوربا وانهيار النظام الاجتماعي القديم وظهور نظام اجتماعي جديد يدعو الى المساواة والحرية والديمقراطية

هذه التحولات الاجتماعية الجذرية دفعت علم الاجتماع الاوربي بأن يذهب لدراسة ظواهر اجتماعية جديدة من خلال رؤى فكرية خلاقة وكانت هذه النقلة العلمية (التي تعتبر في الوقت الراهن تراثاً فكرياً سوسيولوجياً) تتضمن شقين مترادفين غير منسجمين وهما الفردانية ، القائلة بأن مصالح الفرد فوق كل اعتبار وان جميع القيم والحقوق والواجبات تنبثق من الافراد وان المصالح الفردية يجب ان لاتخضع لسيطرة الحكومة او المجتمع او مراقبتهما. والشق الثاني هو الجمعي القائل بسيطرة الدولة او المجتمع ككل على جميع وسائل الانتاج والمناشط الاقتصادية .

ان هذين الجناحين او الشقين من التراث الفكري السوسيولوجي لم يظهر بسكل واحد وبنفس العمل والاتساع في كافة مجتمعات اوربا . بل ان آثار الثورة الصناعية في بريطانيا كانت اوسع من باقي الدول الاوربية . فقد استلمت المانيا كافة الابتكارات التكنولوجية الجاهزة من بريطانيا التي بدورها حفزت خبرات وقدرات المبدعين الالمان من الاستفادة منها فيما بعد . وكذا الحالة مع الثورة الفرنسية التي جاءت بالمباديء والافكار الديمقراطية والمطالبة بالحرية والمساواة التي حفزت باقي الافراد في المجتمعات الاوربية الاخرى .

وفي ضوء ذلك فان الثورتين (الصناعية والفرنسية) لم ترسيا تراثاً سوسيولوجياً متناغماً بشكل واحد او متراصاً . بل ظهر بشكلين مختلفين لدرجة التناقض . في الواقع مثلت بريطانيا المذهب الفردي المدعم من قبل المذهب البروتستانتي المسيحي السائد في المجتمع البريطاني . ومثلت فرنسا المذهب الجمعي المدعم من قبل المذهب الكاثوليكي المسيحي السائد في فرنسا . وهذه الحقيقة توضح لنا شطرين من علم الاجتماع وطبعاً هذا العلم ببصمات دينية لم يكونا فقط من خلق

الثورتين . بل كان مزيجا من نتائجهما مع التوجهات الدينية المسيحية والتراث الديني المسيحي

هذه الحالة الانشطارية توضح خصوصية علم الاجتماع الاوربي التي قد لا تعكس خصوصيات علم الاجتماع خارج القارة الاوربية التي لا تدين بالمذاهب المسيحية فضلاً عن ذلك فأن هذه الصورة تعكس ايضاً تطبع النظرية الاجتماعية بالعقائد الدينية بشكل غير مباشر يفتقد اليها علم الاجتماع في العالم الاسلامي .

وبهذا الخصوص يعتقد تالكوت بارسونز ان علم الاجتماع الحديث قد زاوج بين شطرين ـ الفردي والجمعي ـ وبرز هذا التزاوج بشكله الجلي في نظرياته الحديثة ثم اخذ استقراره ـ هذا التزاوج بعد مرور فترة من الزمن ـ . بيد أن هذا الاعتقاد هاجمه جورج هومنز وألفن كولدنر في العقد السابع من هذا القرن اذ قالا « ان هذا التزاوج لم يكن سعيداً على طول الخط حيث واجه معوقات واشكالات ومفترقات الامر الذي جعله ارتباطاً مفككاً وهذا ما حصل فعلاً في نظرية التبادل الاجتماعي التي ربطت بين المذهبين الفردي والجمعي . فقد عبر ليفي ستراوس عن المذهب الجمعي وعبر جورج هومنز عن المذهب الفردي ولم يكن هناك تزاوجاً في نظريتهما بل كان عندها ترابطاً منسجماً في مفاهيم نظريتهما .

فضلا عما تقدم . فقد ميز تالكوت بارسونز في الفترة الواقعة بين ١٩٦١ ـ ١٩٦٨ بين الشطرين الجمعي (الفرنسي) والشطر الفردي (البريطاني) في علم الاجتماع من خلال عقدة المقارنة بين هذين الشطرين مع الشطر المثالي(الالماني) واكد على ان علم الاجتماع الحديث ما هو سوى انعكاس للجدل العنيف المناظر والمتضاد مع الاتجاه الجمعي والفردي . وان التمييز الذي يفرد المثالية الالمانية في علم الاتجاه الذي تطور من خلال ابتعاده عن الشطرين المذكورين (الفردي والجمعي) ولم يتأثر بمؤثراتهما . وافاد ايضاً . فقال انه من النادر ان نجد نظرية اجتماعية فرنسية تصاغ دون ان تقف موقف التضاد او التعارض من الشطر البريطاني ـ الفردي ـ ونفس الحالة وجدها عند الشطر الفردي البريطاني الذي يتعارض مع الشطر الفرنسي ـ الجمعي . حيث وجد نظرية هربرت سبنسر وما بعده من المنظرين البريطانيين عند صياغتهم للنظرية الاجتماعية لم تتردد في مهاجمة المفاهيم والقضايا التي صاغها المنظرون الفرنسيون . علاوة على ما تقدم . فقد انتقد كل من موريس جانوتز وتالكوت بارسونز ما جاء به روبرت ـ نسبت حول تصنيفه لشطري علم الاجتماع (فردي وجمعي) اذ قالا ان نسبت سلطة الضياء بشكل

خافت وقليل على التباينات القومية القائمة في المجتمعات الاوربية فكشف تسليطه على جماعات صغيرة فقط من المفكرين الالمان والفرنسيين الكلاسيكيين وهذا لا يمكن الاخذ به في علم الاجتماع لانه مبني على اسهامات الشطر الجمعي فقط وترك اسهامات الشطر الفردي . واضاف بارسونز الى ما تقدم فقال « لقد اهمل نسبت الاهمية الايجابية لمذهب المنفعة الذي كان سائداً في بريطانيا ابان القرن التاسع عشر . فضلاً عن اغفاله لاثار الفكر الاقتصادي والحيوي (البايُولوجي) وكيفية بداية ظهور علم الانسان كحقل معرفي رصين اذ ان الحديث عن التراث الفكري الاجتماعي يتطلب عدم الاهمال او الاغفال لاحد الجوانب الفكرية . بل يتوجب الاحاطة بكافة الاتجاهات والمذاهب الفكرية وعرضها كما نعرض باقي الاتجاهات والمذاهب(٣٣) .

ان مثل هذا الجدل المتناظر لعب دوراً جوهرياً بارزاً في تطور النظرية التبادلية اذ كانت نظرية ليفي ستراوس ١٩٤٩ (منظر فرنسي) قد بنى وصاغ نظريته كرد فعل لنظرية العالم البريطاني فريزر ١٩١٩ (ذات الاتجاه الجمعي) التي تناولت زواج اولاد العم وقد بنى جورج هومنز ١٩٥٨ ـ ١٩٦٧ (منظر امريكي متأثر بالاتجاه البريطاني الفردي) وكذلك شنايدر ١٩٥٥ نظريتهما في التبادل الاجتماعي كرد فعل لنظرية ستراوس الفرنسي المبنية على الشطر الجمعي .

لكننا كلما دلفنا الى مدار علم الاجتماع الاوربي وواجهنا فكره المتراوح بين الفردانية والجمعية تواجهنا حالات فريدة لا نستطيع اغفالها او اهمالها لانها تعكس بعض التفاعل الفكري وتقدم صورة اجتماعية جديرة بالتناول وخاصة عندما تطرح من قبل منظر لامع مثل الفن كولدنر (منظر امريكي معاصر) اذ لاحظ عام ١٩٧٠ ان المدرسة الوظيفية في علم الانسان (الانثروبولوجي) البريطانية وبالتحديد عالم الانسان البريطاني رادكليف براون قد استعار العديد من مفاهيم وقضايا المنظر الفرنسي اميل دوركهايم . ولما كنا نعلم بأن الفكر البريطاني مبني على المذهب الفردي ومستقل عن الفكر الجمعي الفرنسي ويوجد بينهما تنافراً فأن مثل هذه الاستعارة التنظيرية تثير الانتباه والملاحظة والبحث عن اسبابها ودواعيها وحيثياتها . لذلك اندفع كولدنر لمعرفة اسباب الاستعارة غير المتوقعة بل والمفاجئة فقد وجد ما يأتي : ان الفكر الفردي كان يعكس المحيط الاجتماعي

البريطاني داخل الجزيرة البريطانية ولكن بعد ان استعمرت بريطانيا العديد من مجتمعات افريقيا التي تختلف عنها اجتماعياً وثقافياً وعرقياً بدت لها الحاجة

(سياسيا) لمعرفة كيف يتم لها الاستمرار في السيطرة على هذه المجتمعات من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية . فوجدت الفكر الاجتماعي الفردي السائد في مجتمعها لا يسعفها في هذه المهمة الجديدة التي تتطلب فهما واستيعاباً لطرائق شعوب عالم اخر يختلف عنها ثقافيا واجتماعياً وسياسياً . فأول من استعان بالفكر الجمعي الفرنسي هو راد كليف براون لافتقار الفكر الاجتماعي البريطاني لهذا الشطر الفكري المهم(٣٨)

هذه الحالة الظرفية التي كان منظرها براون لم تكن ممثلة لتزاوج فكري بين الفردي والجمعي . بل تمثل استعارة ظرفية لم تستمر ولم تبقى في بريطانيا ، ودليل كولدنر على ذلك هو ان الفكر الجمعي الفرنسي بقى مهملاً خارج حاجة الادارة البريطانية لمستعمراتها ولم تستخدم من قبل علماء الاجتماع او الانسان البريطانيين . اي ان الاستعارة الفكرية لم تكن ممثلة للافتقار الثقافي الفكري . بل الحاجة الظرفية . لكن عندما اشبعت الحاجة الظرفية من قبل دائرة حكومية (دائرة المستعمرات البريطانية) انتهت اهمية الفكر الجمعي الفرنسي في بريطانيا .

دليل اخر قدمه كولدنر هو ان الفكر الجمعي الفرنسي لم يستخدم في دراسة المجتمع البريطاني اذن كانت هناك حاجة سياسية ـ وليست فكرية ـ وحاجة ظرفية وليست حاجة ملحة . اي حاجة انتهازية ليست اصيلة مكملة للفكر الانساني او الفكر البريطاني . اي حاجة نفعية سياسية لصالح هيئة حكومية وليست شعبية او معرفية انسانية تخدم العلم والفكر .

٣ ـ المنبع الثالث الازمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠ :

اذ « انفجرت الازمة الكبرى في ايلول عام ١٩٢٩ واصاب نتائجها المحزنة جميع اقطار العالم واندلعت الحرب العالمية الثانية بعد عشر سنوات ـ ايلول عام ١٩٣٩ ـ حصلت البطالة وانخفاض في مستوى المعيشة وضاق الاستهلاك وزادت الرسوم الكمركية كي تواجه طلب المواطنين نحو استهلاك السلع الوطنية واغلقت بعض المصانع وحصلت اضطرابات عمالية وزاد الكساد الاقتصادي وانخفض الدخل الوطني وانخفضت اسعار الجملة وهبط حجم الانتاج الصناعي وانخفضت اسعار المواد الزراعية واسعار الاوراق المالية (٣٩) اثرت هذه الازمة على تفكير المنظرين الاجتماعيين امثال تالكوت بارسونز . فقد كان تفكيره قبل ظهور هذه الازمة ...

مدهب المنفعة البريطاني ومع نظرية القيمة الاجتماعية لذلك دعا الى التزام الفرد بقيمه الاجتماعية بشكل اكثر لكي لايكون متمردا وانانيا بل متعاونا مع افراد مجتمعه من اجل المحافظة على تماسك وتوازن المجتمع
فضلاً عن ذلك فان دعوة بارسونز هذه دعمتها الحكومة الامريكية وطالبت الاجتماعيين من الامريكان ان يؤكدوا على الوحدة الاجتماعية والى تسليط الاضواء على تكامل البناء الاجتماعي وكان هناك عاملاً اخرا عمل على تعزيز دعوة بارسونز (التضامنية والتكاملية) وهي آثار الحرب العالمية الاولى اذ حصلت الطبقة الوسطى (في المجتمع الامريكي) على مكاسب مادية جعلتها مرفهة وكذلك حصلت الطبقة العمالية على مكافأت مادية مجزية بحيث ابعدتهم عن اثارة النزاعات والصراعات مع النقابة هذا الانفراج الاقتصادي زاد من رفاهية الطبقتين الاجتماعية والاقتصادية الامر الذي ادى الى اختفاء العداء المستتر بين المصالح الحكومية ومصالح عامة الناس

جميع ذلك ساعد بارسونز على ابراز طرحه المؤكد على دور واهمية قيمة التضامن والتوازن الاجتماعي في المجتمع الامريكي والى اضعاف دور واهمية حوافز ورغائب الفرد . لكنه في الوقت ذاته اوضح بشكل جلي كيف تئونس وتنشيء الاسرة (كمؤسسة اجتماعية) افرادها وتوجههم نحو مجتمعهم عن طريق تعليمه اخلاقه وادابه ومعاييره وقيمه وجعلت هذا التعليم مهمة اساسية من مهام الاسرة لكي تحقق هدف النسق الاجتماعي المتمثل في ادماج الفرد به وان يكون مراة له

ان هذه المهمة الاسرية الاجتماعية هي احدى اساسيات التضامن الاجتماعي التي الح عليها بارسونز في طرحه بعد الازمة الاقتصاديه العالمية وبعد الحرب العالمية الاولى(١٠)

خليق بي ان اشير في هذا السياق الى مفهوم بارسونز للمجتمع . اذا ميز بين ثلاثة انواع رئيسية هي المجتمعات البدائية التي تدرسها عالم الانسان (الانثروبولوجست) والوسيطة التي يدرسها علماء الاثار والتاريخ واللسنيون والحديثة التي يدرسها علماء الاجتماع هذا التباين لايؤدي الى اختلاف هؤلاء العلماء - في نظر بارسونز - في تحديدهم للمجتمع لانه (أي المجتمع) يمثل احد انواع الاتساق الاجتماعية المرتبطة بالبيئة التي تساعده على الاستمرار في العيش والاكتفاء الذاتي وان كل مجتمع في نظره سواء كان بدائيا أو وسيطاً أو حديثا يتضمن المكونات البنائية الاتيه -

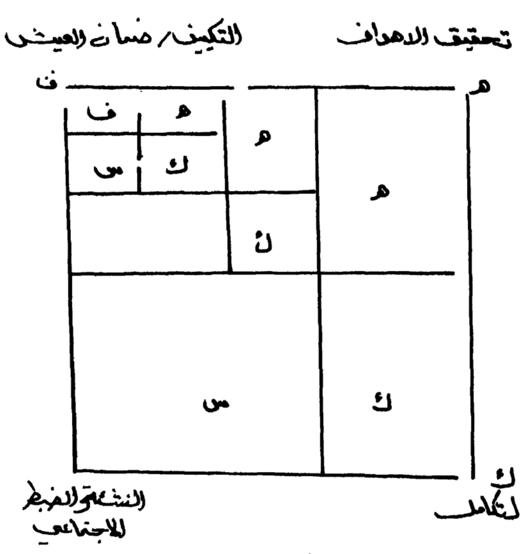
١ ـ القيم ، التي تحافظ على وظيفة النسق الثقافي
٢ ـ المعايير ، التي تنظم العمليات المساهمة في بلورة نمط القيم الاجتماعية
٣ ـ الجماعات الاجتماعية ، التي تهتم بتحقيق اهداف المجتمع
٤ ـ الادوار الاجتماعية ، التي تساعد الافراد على تحقيق تكييفهم الاجتماعي للمحيط الذي يعيشون فيه .

ان الاكتفاء الذاتي الذي يحققه المجتمع يتم من خلال توازن الانساق الاجتماعية الاتية

١ ـ النسق الواقعي .
٢ ـ النسق الثقافي .
٣ ـ النسق الشخصي .
٤ ـ النسق السلوكي .
٥ ـ النسق البيئي .(٣١)

اما النسق الاجتماعي في نظر بارسونز فأنه يتبلور من خلال تهذيب وتوجيه وارشاد رغائب وحاجات وحوافز الفرد (التي تمثل قاع الذات الفردية) من قبل المعتقدات الثقافية العامة والقيم الاجتماعية والمعايير الخلقية السائدة في المجتمع عن طريق عملية التأنيس او (التنشئة الاجتماعية الاسرية) هذه المعتقدات والقيم والمعايير تمثل مكونات الدور الاجتماعي للفرد وبالوقت ذاته تكون بمثابة منظمات سلوكية تقوم بتوجيه وارشاد وتقويم فعل الفرد في تصرفه اليومي وتكيفه الاجتماعي للوضعيات الاجتماعية والظروف القائمة والمحتملة من اجل تحقيق التوازن والاستقرار الاجتماعي وعدم ارباك مقومات المجتمع او زلزلة قيمه الاجتماعية .

هذه المقومات تقوم اذن بمساعدة الفرد في تكيفه الاجتماعي لوضعه وظروفه التي يعيش ضمنها وبالوقت ذاته تساعده في تكيفه للاخرين من خلال تفاعله معهم (تفاعله اجتماعيا) هذا الفعل الاجتماعي يقوم بتنشيط دوره الاجتماعي وان استمراره بالعمل ـ على مر الزمن ـ يعني تحوله الى مؤسسة اجتماعية . واذا توازنت مقوماتها واستقرارها تتحول الى شكل اخر من التنظيم فتأخذ شكل النسق الاجتماعي(٣٢) انظر الشكل التوضيحي رقم (١) بعد ان اوضحنا كيف يتبلور النسق الاجتماعي عند بارسونز ننتقل الى ركائزه الاساسية التي بدونها لا يستطيع الاستمرار في الوجود الاجتماعي وهي كما يأتي :



شكل رقم (١)
مخطط بارسونز للنسق الاجتماعي

١ ـ التكييف أو ضمان العيش ، من اجل حماية المجتمع وصيانته يجب ان تتوفر مصادر بيئية (طبيعية وبشرية) كافية وموزعة على مقومات النسق الاجتماعي كافة . يحصل التكيف الاجتماعي بعدئذ :

٢ ـ تحقيق الاهداف : التي تشير الى انجاز اوليات ونهايات او غايات النسق وبالوقت ذاته يتم تحريك مصادر النسق من اجل انجازها وتنفيذها .

٣ ـ التكامل اي تحقيق التعاون بين وحدات النسق والحفاظ على علاقتها المتبادلة

٤ ـ الاستتار أو الكمون ، هذه الركيزة تبنى على فقرتين هما التحقق من حاجات ودوافع ومهارات الفرد ومدى تطابقها مع مقومات الدور الاجتماعي الذي يمارسه وهذا التحقق يعني المحافظة على النسق وصيانته من الانحراف او الزلل . والفقرة الثانية هي كيفية معالجة القلق أو الاضطراب الذي يحصل للافراد

هذه الركائز النسقية موجودة في الانساق الفرعية والرئيسية ، فالرئيسة تتألف مما يأتي :

١ ـ النسق الثقافي
٢ ـ النسق الاجتماعي
٣ ـ النسق الشخصاني
٤ ـ النسق العضوي

ومن اجل ان يكون النسق الاجتماعي ممكنا في المجتمع يجب ان تتوفر حاجتان هما وجود عدد كاف من الافراد ممن يتميزون بدوافع منسجمة ومتسقة مع متطلبات النسق الاجتماعي والثانية ضرورة تجنب النسق من التزامه وتنفيذه للانماط الثقافية التي لاتتحقق اوالتي تفشل في الوصول الى الحد الادنى من حاجات الافراد الثقافية . وكذلك الابتعاد عن مطالبة الناس فوق طاقتهم او تحملهم او وضع واجبات عسيرة يستحيل على الافراد القيام بها لان ذلك يخلق عندهم انحرافا عن معاييرهم الامر الذي يدفعهم الى النزاع معها وهذا لا يرغب النسق بتحقيقه او وقوعه او مواجهته هذا من جانب ومن جانب اخر . فقد اوضح بارسونز حقيقة ضبط الفرد داخل النسق الاجتماعي من اجل عدم جنحه او انحرافه عن اهدافه ومن اجل تحقيق التوازن . والاستقرار الاجتماعي داخله ووضع هذه النقاط الاتية :

١ ـ ان تقوم المؤسسات الاجتماعية بتوضيح توقعات ادوارها وازالة الغموض عنها من اجل ممارسة الافراد لها بشكل سليم ومنسجم دون ارباك أو اضطراب
٢ ـ أن يتماثل الفرد مع متطلبات الدور الذي يمارسه وهذا لايتحقق الا من خلال معرفته لرموز وتوقعات الدور
٣ ـ ان تكون هناك مناشط تتصف بالقدسية والاحترام يقوم بها الفرد دون تردد أو تفكير

٤ ـ ان تكون هناك معايير خلقية تمثل صمام الامان داخل المؤسسة الاجتماعية لضبط سلوكية الفرد .
٥ ـ التأكد من تكامل متطلبات المؤسسة الاجتماعية بين فترة واخرى .
٦ ـ استخدام القوة والالتزام والقهر عند الحاجة .

جميع هذه المستلزمات تقوم بربط وضبط الفرد بالنسق الاجتماعي ولكن هذا لايمنع من وجود جانحين عنه أو خارجين عن متطلباته وقوانينه(٣٣)

وفي هذا المقام يقول المنظر الامريكي المعاصر جيفري اليكسندر « ان كتابات بارسونز في النسق الاجتماعي تجمع بين المثالية والمادية من اجل توضيح علاقة الفرد بمجتمعه ولكنه (أي بارسونز) فشل في الوصول الى تحقيق هدفه التنظيري ، بيد ان عمله التنظيري بقي في الاطار الفكري والثقافي ، فقد كان عطاؤه الفكري الاجتماعي منطلقا من عملية تأنيس الفرد اجتماعياً قابعاً في ظل النسق الاجتماعي ، وقد بذل ـ بارسونز ـ جهداً كبيراً في توصيف معايير ضبط الفرد اجتماعيا واضحى هذا الطريق مدخلا للمنظرين الاجتماعيين لما بعد الحرب العالمية الثانية(٣٤)

منظر ثان برز في هذه الفترة الزمنية وهو وليم اوكبرن (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩) طرق مصطلح التغير الثقافي . انطلق اوكبرن في نحت هذا المصطلح في اربعة حقائق ملتصقة بمضمون الثقافة وهي :
آ ـ التراكم　　جـ ـ الانتشار
ب ـ الاستمرارية　　د ـ المعوقات

تقوم هذه الحقائق بانماء واخصاب الثقافة الانسانية بشطريها المادي والمعنوي وعدها ركائز ثابتة وعامة تنطبق على الثقافة البشرية دون اخضاعها الى قومية معينة أو عرق خاص او اقليم محدد . اذ استخدم الامثلة التاريخية والاحداث المادية للدلالة على مصداقية حقائق الثقافة .

ففي مجال التراكم ارجع هذه الحقيقة الى الادوات الاولى التي استخدمها الانسان في حياته اليومية التي صنعها من الحجر ثم استبدلها بعظام الحيوانات ومن ثم صنعها من النحاس والحديد .

هذا الاستبدال سماه اوكبرن بالاستبدال الاضافي . أي ان الالة تبقى محافظة على شكلها ووظيفتها . انما الذي استبدل فيها مادة صنعها . فالذي حصل من تطور

في صنع الالة هو اضافة مادة لتحل محل مادة اخرى في عملية صنع الفأس أو السكين أو المحراث وما شابه هذا الاستحلال الاضافي لم يحصل اعتباطاً عند الانسان بل كانت هناك حاجة ناقصة في قوة أو متانة الالة الامر الذي دعته الى احلال مادة جديدة بدل المادة القديمة وهذا يعد ابتكاراً مادياً في انتاج أو اختراع البشر في حينه .

في الواقع ان ابتكار مادة جديدة او شكلاً جديداً للالة يعني ان الابتكار القديم قد ازيح من واقع الاستعمال عند الانسان ليحل محلها ابتكار جديد ليكون تحت تصرف واستعمال الانسان وهذا يعني ان الابتكار الجديد يزيح الابتكار القديم الى الخلف لايجعله يفقد الابتكار القديم ـ موقعه من الثقافة المادية للانسان بل تبقى محافظة على موقعها الابتكاري ، الا ان استعمالها ينسحب ولا يبقى تحت تصرف واستعمال الانسان .

وقد استخدام اوكبرن مثال الحصان والعربة اذ قال لقد كان الحصان يحتل مكاناً مهما في نقل الانسان وحاجاته وكان الواسطة المهمة في تنقله لكن عندما اخترعت العربة السيارة فانها حلت محل الحصان في تنقلات الانسان وحاجاته فلم يبقى الحصان كوسيلة نقل مهمة داخل المدينة وشوارعها بل حلت محله العربة السيارة ، ولكن هذا لايعني ان الحصان قد انزاح من استخدامات الانسان في مواصلاته وتنقلاته بل بقى في القرية فقط وحلت العربة في المدينة هذا الاستحلال في مجالات التنقل والمواصلات لم يؤد اختراع العربة الى طرد الحصان كليا في مواصلات الانسان بل ازيح استعماله الى حياة القرية . فالانزياح لايعني الطرد الكلي بل الابعاد من اجل الاستحلال مكان الذي كان يستحله القديم .

يضيف اوكبرن الى ماتقدم فيقول ان الحالة لاتكون هكذا على كافة الصعد بل تختلف حيث المكائن في المصانع لاتبقى اذا حصل اختراع جديد للالات . أي اذا ظهر اختراع جديد في مكائن الانتاج داخل المعمل فأن الالات الجديدة تزيح الالات القديمة لتحل محلها وذلك لكلفة انتاجها وصعوبة صيانتها ولحاجة المجتمع الى حاجات وسلع متطورة اكثر وهنا لا يحصل تراكم آلي ميكانيكي . بل يحصل تراكم ابداعي في مجال الاختراع . مثل هذا التراكم يمكن ملاحظته بشكل جلي وواضح .

.مر اوكبرن الى مجال الثقافة المعنوي ويقول تحصل تبدلات وليس تحولات في عادات الانسان الاجتماعية بسبب التغير الاجتماعي بحيث لايمكن تراكمها ـ ـ سنحلال عادة محل عادة اخرى فالعادة القديمة لاترى لانها اندثرت مع جيلها لذلك لايمكن للملاحظ او المشاهد ان يرى تراكماً ثقافياً في مجال العادات الاجتماعية

ننتقل بعد ذلك الى الحقيقة الثانية التي توضح التغير الثقافي وهي استمرارية الثقافة التي ارجعها ـ اوكبرن ـ الى تاريخ الانسان وقد ضرب مثال نصب النصر في باريس الذي لايشير فقط الى انتصارات نابليون العسكرية . بل الى الذوق الفني الرفيع للفرسيين وتاريخهم في تشييد النصب الوطنية بمعنى ان العطاء الثقافي لاي مجتمع لايخرج من الفضاء بل يبزغ من تفاعل تاريخ المجتمع في ابداعات وابتكارات افراده وان دلالاته لا تكشف على ماهو كائن في الحياة المعاصرة . بل ترجع جدوره الى خلفيات وتاريخ المجتمع كحالة مستمرة اذ لايوجد انقطاع ثقافي وهذا الاستمرار يوضح حالة التغير الثقافي

. الحقيقة الثالثة وهي الانتشار الثقافي الذي قصد به انتقال الصفات الثقافية او الابداعات والاختراعات الجديدة من منطقة الى اخرى ومن جزء ثقافي الى اخر داخل الثقافة الواحدة أو من ثقافة الى اخرى على الرغم من وجود اسس محلية لكل ثقافة اجتماعية التي تشكل جزءاً اصيلاً في كيانها العام . مكونة احد صفاتها الجوهرية وقد ضرب اوكبرن مثالا على ذلك فقال ان الفرد الامريكي استلم ابتكارات معنوية ومادية من ثقافات اخرى غير امريكية ترجع جذورها الى عمق التاريخ لكنها تستعمل من قبل الفرد الامريكي في الوقت الراهن.فزجاج النوافذ كان جزء من ثقافة مصر القديمة والمظلة المطرية كانت جزءاً من ثقافة جنوب شرق اسيا وكانت بجامة النوم موجودة اساساً في الثقافة الهندية . والفخار الصيني جزءاً من اصالة الثقافة الصينية . وملعقة الطعام كانت من ابتكار الثقافة الرومانية . وشرب الشاي مع السكر اقتبس من الثقافة الحبشية والمعجنات اقتبست من الثقافة الاسكندنافية والتدخين بعد اخذ وجبة الطعام كانت من ابتكار الهنود الحمر في البرازيل وهنود فيرجينيا والمكسيك لذا فأن معظم الابتكارات الثقافية كانت جزءا من التراث الانساني الذي ذاع وانتشر عبر الزمن وعبر التلاقح الثقافي اذ هناك العديد من الابتكارات الثقافية المعاصرة أتت الى امريكا عبر الثقافة البريطانية والفرنسية والابطالية وقد اقتبست الثقافة الابطالية العديد من الابتكارات الثقافية

من اليونان والاخيرة اقتبستها أو استعارتها من جزيرة كريت التي بدورها اخذتها من ثقافة ما بين النهرين ومصر القديمة والهندية والصينية . هذه الوقائع توضح التغير الثقافي في المجتمع الانساني

الحقيقة الاخيرة للتغير الثقافي هي معوقات التغير الثقافي او مقوامته التي حصرها اوكبرن بالنقاط الاتية ،

١ ـ التقدم العالي للابتكار ، أي ان الاختراع الجديد متقدم جداً على مجتمع معين لايملك القدرة الابداعية على تفهم واستيعاب واستخدام ذلك الاختراع الامر الذي يجعل منه اختراعا غامضا او مبهماً او لاقيمة له في مرحلة معينة بل يستفاد منه فيما بعد عندما تتوفر القابلية والقدرة على تفهم واستيعاب الاختراع الجديد وهذا معوق كبير يمنع انتشار الابداع
٢ ـ الابتكار الجديد يحدث تشرذم وتباعد اجتماعي بين افراد المجتمع وبين فئاته فاذا كان المجتمع متماسكاً في روابطه وصلاته واستيطانه وظهر ابتكاراً جديداً يعمل على تبعثر سكني او اقامة الناس او يؤدي الى تمزق علائقهم وروابطهم فأن الافراد يقاومون استخدام الابتكار الجديد
٣ ـ صعوبة تكييف الناس للابتكار الجديد اذ يكون استخدام الاختراع الجديد اسهل من استعمالات الجديد لان الناس الفوا او تعودوا على استخدامه بينما يتطلب الجديد ممارسة وخبرة جديدة في استعمالاته والى وقت وجهد جديد ايضاً وهذا يشكل احد مقوامة التغير الثقافي
٤ ـ عدد الوظائف التي يقوم بخدمتها الابتكار الجديد ، اذ كلما زاد عدد الوظائف التي يقدمها الابتكار الجديد مال الناس لاستخدامه وكلما قل عدد الوظائف التي يطرحها قل ميل الناس لاستخدامه . وهذه احد مقوامة التغير الثقافي

٥ ـ الكلفة الاقتصادية للابتكار الجديد ، حيث كلما زادت الكلفة المالية للابتكار الجديد قل ميل الناس لاستخدامه والعكس صحيح .
٦ ـ العادات الاجتماعية ، أي اذا كان يتعارض الابتكار الجديد مع عادات المجتمع التي الفها فأنه من الصعب ترك العادات المتعود عليها وممارسة عادات جديدة وغريبة عليه .
٧ ـ خوف الناس من استعمال كل شيء جديد الذي يجعلهم يتمسكون باستخدام الابتكارات القديمة .

٨ ـ يميل الناس بالعادة الى التمسك باستخدام الابتكارات القديمة . هذا المعوق مرتبط بالمعوق الذي قبله

هذه هي اهم العوامل التي تعمل على إعاقة التغيير الثقافي عنداوكبرن. بقي شيء واحد وهو ان العزلة الجغرافية والجبال والبحار قد تكون عاملاً مساعداً في تأخير التواصل الحضاري والتغير الثقافي فضلا عن فقدان مستلزمات الابتكار الجديد . أي اذا تطلب الابتكار الجديد مستلزمات اساسية في استخدامه وهي غير موجودة في المجتمع او يتعذر او يكلف وجوده أو استحضاره جهداً أو مالا كبيراً فأن ذلك يجعل استخدام الابتكار الجديد متعذراً مثل استخدام الطائرة يتطلب وجود الكازولين . هذا المتطلب اذا تعذر وجوده فأن استخدامه الطائرة يكون متعذراً(٣٥)
جميع هذه المعلومات تضمنها مصطلح التغير الثقافي الذي حدده وليم اوكبرن .

٤ ـ المنبع الرابع : الحرب العالمية الثانية :

انتقل بعد ذلك الى المنبع المجتمعي الرابع الذي رفد علم الاجتماع بمعرفة علمية جديدة عملت انعطافاً واضحاً في مواضيع اهتماماته وبلورت نمطاً جديداً في نظرياته فاستخرجت طرقا في البحث الاجتماعي تختلف عما كانت مستعملة قبل ظهوره إذ احدثت الحرب العالمية الثانية احداثاً اجتماعية متنوعة في المجتمع الاوربي والامريكي بشكل يلفت الانتباه من بعض هذه التغيرات هي « النمو والاستهلاك بالجملة اللذان يتساندان ويعزز احدهما الاخر وظهر في جميع انحاء اوربا نوعا من المجتمع يدعوه بعضهم تقنيا ويدعوه غيرهم علميا مزق نظام العلاقات الانسانية الموروث في النظام القديم أو الموروث حتى من مجتمع القرن الماضي المجتمع البرجوازي الموجه بمبدأ الملكية

وجدير بالذكر ان علماء الاجتماع الن توريں (فرنسي) ورالف داريدروف (الماني) وس م ليبست (امريكي) ركزوا في بحوثهم على استخراج المفاهيم التي حدثت في مجتمعهم وحللوا اثارها على العلاقات الصناعية مثل النمو الصناعي والحركية المتزايدة وتوسيع نطاق الفرص التعليمية وضعف الموقف الثوري للبروليتارية وريادة عدد الاشخاص الذين يتمتعون بمستوى عيش برجوازي وانتشار البضائع الاستهلاكية والسعي وراء النجاح والرفاهية .(٣٦)

نبدأ حديثنا مع ألن تورين (عالم اجتماعي فرنسي معاصر) اذ تكلم عن الهوية الاجتماعية فقـال عنها ـ ان عـلم الاجتماع عـدو الا لنا فـالوعـي الـذي يعـي الفاعل الفردي أو الجماعي به ذاته لايقدم معنى وضعه ولا علة ضروب سلوكه ان الهوية الاجتماعية ليست سوى اضفاء الداخلية على القيم وهذه لايمكن فصلها عن الايديولوجيا السائدة للمجتمع فالعامل اليدوي سواء كان شابا أم كهلاً . عضو اقلية عرقية ام مجتمع مسود يمكنه ان يشعر بأنه هامشي وان يعترف بأنه يشغل مكانة دنيا على سلم الدخول أو مستويات المهنة أو التربية أو النفوذ ... الخ فماذا يعني هذا الشعور غير الاعتراف بنظام قائم واخفاء اسس هذا النظام وصلات السيطرة أو السلطة أو الاستغلال ؟ ان هذا النظام لايمكن التعبير عنه بالتدرج الاجتماعي الا ضمن الحد الذي يكون فيه مغطى بجهاز مراقبة اجتماعية تخلع عليه طابع القواعد المؤسسية . فطرائق اضفاء المجتمعية تكمل عمل المؤسسات ، فهي تعلم الفاعل ان يتلاءم مع المجتمع . وان يتعرف مكانه فيه ، وأن يفهم قواعد العمل فيه . في سبيل الانتفاع بها احسن انتفاع ممكن . لقد كان في العصر الوسيط نوع من اللاهوت يعلم كل فرد واجبه حيال الدولة ووظيفته في الهيئة الاجتماعية ، لقد كان يقوم على هذا النمو بدور قريب جدا من الدور الذي غالبا ماتقبله إليوم العلوم الاجتماعية . التي اصبحت بحسب كلمة جاك لاكان تقنيات تجريبية . وخلافا لذلك لقد اضحى الموضوع الرئيس لعلم الاجتماع هو نقد اوهام الهوية . معترفا اولا بفقدان الهوية وحتى بفقدان الشعور في ضروب السلوك الاجتماعي .

فكلما تحدد الفاعل بممارساته وعلاقاته الاجتماعية لاحقه الشعور بالحرمان والتبعية وفقدان التواصل .

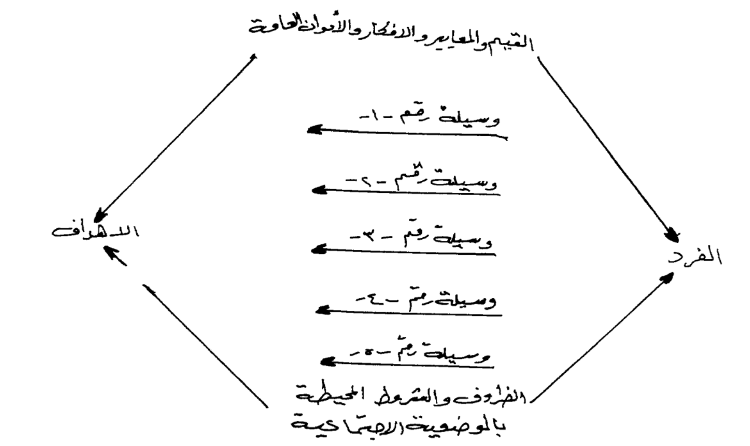
فالهوية تفرض من الخارج ، وهي لاتقول لي من اكون ، ولا معنى ما اقوم به ، بل تقول لي من يجب ان اكون . وضروب السلوك المنتظرة مني ، تحت طائلة الجزاء . فالهوية لايمكن ان تكون غير الخضوع الى السلطة . خضوع تابع ، غير مستقل ومضيع .

ففي المجتمع ذي التحولات البطيئة كان الفاعل يتحدد بانتمائه الى جماعات وبادواره الاجتماعية في الوقت ذاته كان هذا الشعور بالهوية يلغم فيه بالتذكير العائم بالتناقض في صورة الافكار المسيحية مثل عن السقوط والخطيئة والفداء مثلاً .

ـه في المجتمع ذي التحولات السريعة حيث يفقد ترث الاجتماعي من اهميته بسرعة متزايدة وفي المجتمع المحدد بمستقبله اكثر مما هو بماضيه المحدد بتغيره اكثر مما هو محدد بقواعده فان الهوية الاجتماعية تفقد من مضمونها بازدياد (٣٧)

اما في الولايات المتحدة الامريكية فكانت ابرز اعمال علماء الاجتماع بعد الحرب العالمية الثانية هي عمل تالكوت بارسونز في مؤلفه الشهير « بناء الفعل الاجتماعي » الذي كشف فيه مثالب ومناقب وقوة وضعف ثلاثة مذاهب فكرية رئيسة في العلوم الاجتماعية وهي المذهب النفعي والمذهب الوضعي والمذهب المثالي. اذ استخرج مفاهيم اساسية مشتركة من هذه المذاهب الثلاث لكي يصل الى وضع لبنات اساسية وجوهرية لنظريته في الفعل الاجتماعي التي اجابت على السؤال الذي كان يتردد على لسان معظم المفكرين والباحثين في تلك الحقبة الزمنية وهو. هل يتصرف دائماً الانسان بشكل عقلاني ؟ وأين يستطيع الانسان ان يكون حراً في تصرفه وفي اي وضعية وتحت ظرف لايكون مقيداً بقيود اجتماعية ؟

استطاع بارسونز ان يلخص اجابته على هذه الاسئلة من خلال قوله الاتي : ان سلوكية الفرد وقراراته الفعلية تخضع للقيم الاجتماعية من خلال انتمائه الى جماعة اجتماعية معينة والى الوضعية الاجتماعية التي يعيشها والى الصفات الاخلاقية التي تربى عليها من خلال هذه الاجابة المبتسرة نستطيع ان نقول بأن الفرد لايمكن ان يكون حراً في تصرفه وقراره الفعلي . بل يخضع لمؤثرات اجتماعية يرتبط بها بشكل عضوي . اما الفعل الاجتماعي . فان بارسونز جزءه الى مكوناته الاصلية وهي أ ـ الفرد ب ـ الهدف جـ ـ الوسائل او البدائل التي يستخدمها لكي يحقق اهدافه د ـ الظروف والشروط المحيطة بالوضعية الاجتماعية هـ ـ القيم والمعايير والافكار السائدة في الجماعة التي ينتمي اليها الفرد لكي توجه وترشد تصرفه وقراراته و ـ التصرف او الفعل الذي يتضمن قرار الفرد باختيار احد الوسائل لتحقيق هدفه (او اهدافه) المنشود او المراد وهذا الاختيار بطبيعة الحال يخضع للظروف والشروط المحيطة بالوضعية الاجتماعية والافكار التي يحملها الفرد
وقد ترجم بارسونز محتوى النص الانف الذكر بالشكل التوضيحي الاتي
وفي عام ١٩٤٥ (اي بعد ثمانية سنوات من نشره كتاب بناء الفعل الاجتماعي) وجد انه يحتاج الى التحليل الوظيفي فادخل فكرة الحاجات في التحليل وسماها الحاجات الوظيفية في التكامل الاجتماعي » (٣٨)



* طرح بارسونز هذا النموذج عام ١٩٣٧
شكل رقم - ٢ -

في الواقع ان نظرية الفعل الاجتماعي منصبة على تحليل سلوك الفرد اليومي الهادف الى تحقيق غايات معينة تعيش في وضعيات اجتماعية محددة تتحكم بها معايير اجتماعية لكي تنظمها طبقاً لاقيستها من اجل توجيه وارشاد طاقات وقدرات الفرد .

هذه النظرية استطاعت التوصل الى تفكيك مكونات السلوك الاجتماعي للفرد الى عناصره الاساسية الاتية ، ـ

١ ـ اهداف وغايات تمثل نهايات كل تصرف فردي .
٢ ـ تعيش هذه الاهداف والغايات في وضعيات اجتماعية خاصة بها .
٣ ـ داخل هذه الوضعيات معايير اجتماعية ذات اقيسة تعكس طبيعتها ونوعها تقوم بتنظيم طاقات الفرد وقدراته .
٤ ـ تقوم دوافع الفرد بتحفيز طاقاته لكي توجهها نحو اهداف وغايات تكمن في وضعيات اجتماعية معينة .

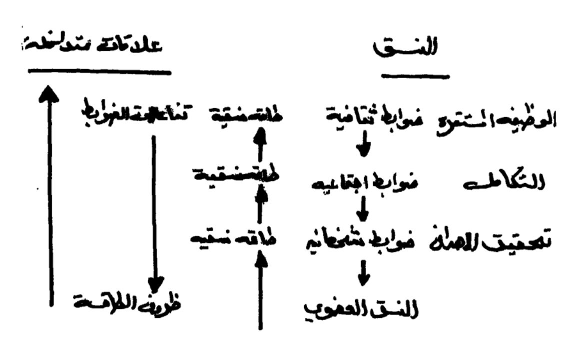
فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما يروم الفرد باصدياد سمكة من بحيرة معينة عليه الذهاب الى بحيرة معينة بوساطة عربته (سياعته) فالذهاب الى البحيرة من اجل صيد السمكة يعد غاية السلوك الفردي ويكون مكان البحيرة ممثلاً لوضعية اجتماعية معينة وتكون طاقته في قيادة العربة ومراقبته لسير الطريق وملاحظة اشارات المرور بمثابة معايير تتحكم في سيره على الطريق .

جميع ذلك يمثل الفعل الاجتماعي لذلك لايوجد فعل اجتماعي بدون فرد وان هذا الفعل يخضع لثلاثة انساق وهي النسق الاجتماعي والنسق الشخصاني والنسق الثقافي ففي النسق الاول يدخل الفرد فيه من خلال تفاعلاته مع الاخرين فيتحرك داخل وضعية اجتماعية مع المتفاعلين معهم من اجل الوصول الى او تحقيق غايات يهدف اليها وتحت ظروف هذه الوضعية التفاعلية يخضع الفاعل (الفرد) الى قيم مشتركة ومشاعر عامة تمثل المعايير الاجتماعية . هذه المعايير تمثل اهدافاً جمعية .

اما النسق الشخصاني فانه يحمل الصفات الاتية ، أ ـ تضمنه افعال الفاعل الاجتماعي ب ـ هذه الافعال تكون منظمة من خلال ارتباط حاجات الفاعلين التي يبحثوا عنها جـ ـ لذلك تأتي في نهاية المطاف حاجات متكاملة .

بينما يكون النسق الثقافي متضمناً القيم والمعايير والرموز التي توجه وترشد فعل الفاعل الاجتماعي (سلوك الفرد) نحو غاياتهم واهدافهم وتعمل عملها بشكل منظم ومنسق وليس بشكل اعتباطي او عبثي .(٣٩)

وقد نجد من المفيد ان نستخدم المرتسم التوضيحي الخاص بعلاقة المخارج والمداخل وما يدور بينهما في نسق الفعل الاجتماعي في تصرف الفرد اليومي كما صورها لنا بارسونز وهو كما يأتي :



شكل رقم ـ ٣ ـ

تقوم الضوابط الثقافية بتوجيه وارشاد ظروف وشروط ضوابط النسق الاجتماعي الذي بدوره ينظم بشكل توجيهي الضوابط الشخصانية التي تحدد وتقود مناشط النسق العضوي بعبارة اخرى تقوم المعايير والقيم والرموز الثقافية بتحديد وتقنين سبل الفرد في النسق الاجتماعي بحيث تصبح بالنسبة له (هذه الضوابط) مقاييس اخلاقية يستضيء بموجبها في تعامله مع الافراد ويتصرف بموجب تعليماتها وتكشف له توقعات الادوار الاجتماعية التي يريد ممارستها في سيج المواقع الاجتماعية التي يشغلها لذا فانها تعطى له الحيوية والفاعلية في اتخاد قراراته الشخصية وكل دلك يؤثر على حيوية اعضاء جسمه فالفرد الدي يمتع باعضاء جسمانية حيوية وحركية

يعني ان المعايير والقيم والرموز الثقافية السائدة في مجتمعه متمسك بها ومؤثرة عليه. فضلاً عن ان لكل ضوابط الانساق (الثقافية والاجتماعية والشخصانية والعضوية) لها طاقة نسقية تغذى وتمد النسق الذي يليه بالحيوية الضرورية من اجل بقائه في الوجود الاجتماعي واستمراره في البقاء وبالوقت ذاته من اجل ان يرتقى الى طاقة نسقية اعلى ولنسق متقدم. فالنسق العضوي يغذى ويمول النسق الشخصاني بالطاقة الضرورية. والنسق الشخصاني يغذى ويمون النسق الاجتماعي بالطاقة الحيوية والنسق الاجتماعي يغذى ويمون النسق الثقافي بالطاقة الحيوية.

تمثل هذه الحالة علاقة المداخل بالمخارج في انساق الفعل الاجتماعي في تصرف ـ الفرد التي اوضحت العملية التبادلية في التغذية والتوجيه. فالانساق في المرتبة الاعلى تنتفع من الطاقة الموجودة في المرتبة النسقية التي ادنى منها. بينما تقوم المرتبات النسقية الدنيا بتغذية وتموين مصادر الطاقة الضرورية للفعل في المراتب النسقية الاعلى.

فالضوابط الثقافية تحافظ على النسق الثقافي خلال اخضاع الفرد للقيم الاجتماعية وضوابط النسق الاجتماعي تنظم العمليات التي تقوم بتنميط القيم الاجتماعية من خلال اخضاء الفرد للمعايير الاجتماعية والضوابط الشخصانية تعمل على تحقيق اهداف الفرد من خلال انتمائه للجماعة الاجتماعية الصغيرة.
والنسق العضوي يقوم بتحقيق التكييف الاجتماعي عن طريق التزام الفرد بدوره الاجتماعي يأتي الان روبرت مرتن (١٩١٠ ـ) الذي اشتهر بشطر مصطلح الوظيفة الاجتماعية الى شطرين هما الوظيفة الظاهرة التي قصد بها الاثار الموضوعية التي تساهم في تكييف النظام بشكل مقصود ومتيز من قبل المشاركين فيه. والشطر الثاني سماه بالوظيفة المستترة التي قصد بها الاثار الموضوعية التي تساهم في تكييف النظام بشكل غير مقصود او متميز وظاهر للعيان مثل الرقص الجمعي عند بعض القبائل البدائية معتقدين انها تجلب المطر. اذ ان الوظيفة الظاهرة لهذا الرقص الجمعي هو جلب المطر. لكن الوظيفة المستترة هي التضامن الاجتماعي بين افراد القبيلة بسبب خوفهم من الجفاف والمجاعة. كذلك ايقاد الشموع بقصد الاستهلاك الظاهري حيث ان الوظيفة الظاهرة لها هي الجانب الاناري او الاضائي لكن الوظيفة المستترة هي الجانب الجمالي وتقليد بعض السلوكية الارستقراطية والتعبير عن المكانة الاقتصادية للاسرة كذلك العقوبة القانونية التي تقع على المجرم اذ تكون وظيفتها الظاهرة عقوبة كل من يخالف القانون الجنائي بيد ان وظيفتها المستترة

هي اشعار المجتمع بالطمأنينة والامان وحماية السلطة له ورجال القانون والحالة ذاتها في تطبيق المحرمات اذ تكون وظيفتها المستترة التأكيد على زيادة التضامن الاجتماعي داخل المجتمع

في الواقع استعار مرتن شطري المصطلح (الظاهر والباطن) من فرويد وفرانسيس بيكون عندما تكلما عن الصورة الظاهرية والباطنية لسلوك الانسان وكان هدف مرتن من شطر المصطلح ـ الوظيفة الاجتماعية ـ بناء جسراً موصلا بين المعلومات وبناء النظرية الاجتماعية . اما معنى الوظيفة الاجتماعية فقد حددها بأنها الاثار الموضوعية للحدث الاجتماعي ومالها من قدرة في تكييف الناس لمستجدات الحدث . علماً بأن أول من استعمل مصطلح الوظيفة الاجتماعية هو ماير توبن اذ حددها بأنها التجمع العام للناس بينما حددها ماكس فيبر على انها التعبير عن المهنة لكي يشير الى نموذج التخصص المهني للفرد (اي تحديد اقتصادي) ثم استعملها لايبنز بطريقة رياضية للدلالة على وجود علاقة جوهرية بين السبب والنتيجة لكي يقول بأن هناك علاقة وظيفية قائمة بين المتغير أ والمتغير ب . بعدها استخدمها كارل مانهايم على ان لكل حقيقة اجتماعية وظيفة زمانية ومكانية . فمعدل الولادات على سبيل المثال له وظيفة المكانة الاقتصادية ثم استعملت بايولوجيا على أن لكل عضو له فاعلية في حيوية باقي الاعضاء ومن اجل المحافظة على الجسم ككل بعدها استعمل ريدفيلد براون ليعبر عن مفهوم الحاجة (الظروف الضرورية للبقاء) ودرجة مساهمتها في المحافظة على مناشط الحية مثل العقوبة القانونية على سلوك المجرم او مراسيم دفن الميت . كذلك استعملها مالينوفسكي بشكل مختلف عن استعمال براون حيث استخدمها من خلال مساهمة الجزء بالكل (الجزء يعني عنده وحدة ثقافية او اجتماعية) ومدى مساهمة الجزء في التكامل الثقافي من خلال علاقته المبادلة مع الكل .

اخيراً اصبحت للوظيفة الاجتماعية معان عديدة مثل المنفعة والهدف والغرض والدافع والمحفز والاثار . جميعها متقاربة من بعضها في المعنى .(١٠)

وفي مجال اخر حدد مرتن الدور الاجتماعي للفرد بشكل دقيق اذ عزله عن المكانة الاجتماعية والنفوذ الاجتماعي والسلطة الاجتماعية ثم ربط علاقة ادوار الفرد المتنوعة فكان دقيقاً في ذلك فنحت نحتاً واضحاً اذ قال في هذا الخصوص ان البناء الاجتماعي لا يمنح المكانات الاجتماعية مرتبة واحدة بل يوزعها على سلم [illegible]

متدرج . فالمجتمع الامريكي ـ على سبيل المثال ـ يمنح الاسرة والتزامات العمل مكانه اجتماعية رفيعة اكثر من العضوية في منظمة الدفاع عن حقوق المرأة . وبناء على ذلك فان نفوذ كل دور ومكانته تختلف عن الاخر وان ثقافة المجتمع هي التي تحدد كمية وحجم النفوذ وسلطة كل دور ومكانته .

هذا من جانب ومن جانب اخر فان لكل دور خصوصيات وعموميات وهذا يعني انه لايمكن الافصاح عن الاولى لصالح الثانية فالطبيب والممرضة والقس يكشفون عن خصوصيات مرضاهم للاخرين وهذا يشير الى قدرة شاغل الدور على عزل كوامن الدور عن ظواهره علاوة على ذلك فان الادوار المتشابهة تدفع شاغليها بالتقارب والتزامل . بينما تباعد المختلفة شاغليها . فاذا كانت ادواره متشابهة عند شاغلها شاغلها فانه يحاول تجسيرها وتوحيدها . اما اذا كانت متنافرة فانها تؤثر على سلوكه وتفكيره اذ تجعل منه انساناً متنوع السلوك ومتنازع معه .(١١)

وفي مجال آخر حاول مرتن ان يستخرج مصطلح التحلل الخلقي (اللامعياري) من مؤثرات البناء الاجتماعي فوضع مرتسماً يوضح خمسة سبل سلوكية تستعمل الوسائل المؤسسية لكي يحقق اهدافاً ثقافية تمثل طموحه ومعاناته في تحقيق هدف يتمنى ان يصل اليه وقد اوضح مرتن ذلك عندما لايستطيع الفرد تحقيق طموحه وآماله فانه من الجائز ان ينحرف في سلوكه او تفكيره فيخرج عما رسمته له ثقافته من معايير سلوكية فوضع السبيل الاول وسماه بالمطابقة او المماثلة الذي يوضح مطابقة وسائل الفرد المؤسسية مع طموحه الثقافي . فلا يجعل في هذه الحالة انحرافاً او انحلالاً خلقياً او معيارياً . اما في السبيل الثاني وهو الابداع او الابتكار الذي يوضح فيه عدم مطابقة وسائل الفرد المؤسسية مع طموحه واهدافه الثقافية . فقد يكون النجاح او الحصول على ثروة او جاه او نفوذ احد اهدافه لكن وسيلة الحصول عليها لاتؤهله لتحقيق هدفه فيستخدم السبيل المنحرف عن الوسائل التي حددتها المؤسسة الاجتماعية (الاسرة او الشركة او الجامعة او الحزب) وهذا لايوصله الى تحقيق هدفه بشكل سوى فيكون سلوكه معبراً عن التحلل الخلقي وعن التصرف المعياري .

وفي السبيل الثالث سماه مرتن الطقسي الذي يقتنع به الفرد اجتماعياً بسهولة حيث يكون مالكاً للوسائل المؤسسية من اجل تحقيق هدفه الثقافي لكنه لايقدر او يستطيع ان يصل الى هدفه المنشود فيتشبث بالاحكام القيمة التي تكون بمثابة كلائش روتينية جاهزة يستخدمها لتبرير خوفه من التنافس في تحقيق اهدافه فيهرب

من حقيقة التنافس ومن حقيقة تحقيق هدفه فيتشبث بالقيم والوسائل القريبة من الحياة الروتينية الرتيبة ويستخدم الامثال الشعبية لدعم فشله مثل القناعة كنز لا يفنى او انا قنوع بما عندي ولا اطمح باعلى ماالستحق لكي لااحبط .

ان هذا الاسلوب يقتل عنده الطموح والابداع بيد انه يساعده على التواقف مع المواقف التي يمر بها فتمنحه القناعة والرضا والاستقرار النفسي وبالوقت ذاته تقلل عنده القلق والاضطراب النفسي والفزع .

السبيل الثالث سماه مرتن بالانسحابي . اي انه ينكمش في استخدام الوسائل المؤسسية وبالتالي لايستطيع تحقيق اهدافه الثقافية وآماله وطموحاته الشخصية . اي يكون انهزامياً من مسؤوليات المجتمع ومتطلبات المرحلة التطويرية التي يعيشها المجتمع وقد تكون هناك معوقات اجتماعية مثل المحرمات والممنوعات التي تكون عديدة ومتنوعة بحيث لاتساعده على تحقيق آماله وطموحاته الامر الذي تخلق عنده شعوراً بانه غير قادر على تحقيق ذلك فيقوم بالانسحاب من المجتمع ومن تفاعلاته مع الآخرين وهذا يؤدي الى انعزاله عنهم فيصبح مجهولاً في المجتمع ومدركاً بعدم جدواه في المجتمع اي يكون فرداً هامشياً غير منتجاً فتتوجه انتقادات وسهام الناس اليه على انه غير متماثل معهم وانه اشبه بالغريب عنهم فهو اذن في نظرهم منحرف عنهم

اما المسلك الخامس فسماه بالعاصي او المتمرد وهذا يعني انه يرفض القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعه لكنه يحل محلها قيماً جديدة بديلة عن الاولى سواء كان ذلك على صعيد الوسائل المؤسسة او الاهداف الثقافية وهنا يبحث الفرد عن تحديد موقفه بشكل خاص يعكس خصوصية الثقافية والشخصية ولكي لايتكيف مع مجتمعه الحالي بل يحاول تغيير بناء مجتمعه فالتمرد يعني التحدي السافر لقيم مجتمعه بقصد تغييرها فهو ينظر الى وسائل المؤسسة التي يعيش فيها على انها احد معوقات تحقيق آماله وغاياته فيطرح وسائله الخاصة واهدافه الشخصية بشكل علني ليتحدى الواقع الاجتماعي الذي يعيشه وهذا انحراف عن ماهو سائد في مجتمعه(٤٢)

اخيراً مصطلح مرتن في الجماعة المرجعية الذي اشتهر فيما بعد اكثر من غيره من المصطلحات التي تناولها ففي البداية كتبه مع ألس روسي ثم كتب عنه منفصلا عندما درس حالة جندي في الجيش الامريكي اذ قال عنه « ان الجندي الامريكي يكون سعيداً او تعيساً عندما يقارن نفسه مع جماعة ثانية هذه المقارنة تكون

الخطوة الاولى للتماثل او الارجاع لقياس حالة اجتماعية واحدة لكنها في جماعتين اجتماعيتين مختلفتين اذ تكون الجماعة الثانية له مرجعاً او اطاراً يرجع اليه ليتماثل معه بيد ان هذا التماثل الراجع صنفه الى مرتن الى ثلاثة انواع هي ما يأتي :

١ ـ عندما يكون الفرد المتماثل مشاركاً فعلاً في الجماعة الثانية .
٢ ـ عندما تكون له نفس المكانة او المنزلة الاجتماعية في الجماعة التي يتماثل معها بشكل راجع .
٣ ـ عندما تكون مكانته الاجتماعية مختلفة وقيمته الاجتماعية مختلفة مع مكانته وقيمته في الجماعة التي يتماثل معها بشكل راجع .

نموذج التكييف	الاهداف الثقافية	الوسائل المؤسسية
١ ـ المطابقة والمماثلة	+	+
٢ ـ الخلق والابداع	+	–
٣ ـ الطقسي (القنوع اجتماعياً)	–	+
٤ ـ الانسحابي	–	–
٥ ـ المتمرد او العاصي	+	+

+ (+ مقبول) (– مرفوض) (– يرفض القيم ويحل محلها قيماً جديدة بديلاً عنها)

شكل رقم ـ ٤ ـ

يوضح انواع نماذج تكييف الافراد

وقد طرح مرتن امثلة توضيحية على الانواع الثلاثة للتماثل الراجع وهي الحالة الاولى يكون الصديق الذي يتماثل مع اصدقائه ممثلاً للحالة الاولى . وفي الحالة الثانية تشبه القبطان الذي يمثل نفسه مع قبطان اخر وفي الحالة الثالثة يشبه الجندي عندما يماثل نفسه مع الضابط .

ولم ينس مرتن بان هناك حالات يقارن الانسان نفسه ويتماثل مع جماعات يكون فيها عضواً وفي حالات اخرى لا يكون فيها عضوا .

ولم ينس مرتن بأن هناك حالات يقارن الانسان نفسه ويتماثل مع جماعات يكون فيها عضوا وفي حالات اخرى لا يكون فيها عضواً

اما علاقة الفرد بالجماعة المرجعية التي يستخدمها للتماثل معها فأنها تتوقف ـ في نظر مرتن ـ على النقاط الآتية :

١ ـ درجة الالتزام الاعضاء بجماعتهم (اي درجة التماسك الداخلي للجماعة)
٢ ـ المدة الحقيقية التي مضت على عضوية الفرد في جماعته .
٣ ـ المدة المتوقعة للحصول على العضوية داخل جماعته .
٤ ـ مدة دوام واستمرار بقاء الجماعة في الوجود الاجتماعي .
٥ ـ المدة المتوقعة لبقاء ودوام الجماعة في الوجود الاجتماعي .
٦ ـ اقسام وفروع الجماعة ومدى حجمها الاكبر
٧ ـ الحجم النسبي للجماعة .
٨ ـ صفات الجماعة المفتوحة والمغلقة .
٩ ـ عدد الاعضاء الفاعلين والناشطين فيها
١٠ ـ درجة التباين الاجتماعي داخل الجماعة
١١ ـ شكل ونوع التدرج الاجتماعي داخل الجماعة
١٢ ـ انواع ودرجات التماسك الاجتماعي لاعضاء الجماعة
١٣ ـ طاقة وحيوية الوحدة الداخلية لاعضاء الجماعة
١٤ ـ درجة اتساع التفاعل الاجتماعي داخل الجماعة
١٥ ـ صفات العلائق الاجتماعية السائدة في الجماعة
١٦ ـ درجة اتساع تماثل الاعضاء مع جماعتهم
١٧ ـ نسق المعايير الطبقية داخل الجماعة
١٨ ـ درجة الضبط وملاحظة اعضاء الجماعة داخلها .
١٩ ـ نوع البناء البيئوي للجماعة .
٢٠ ـ درجة استقلال الجماعة نفسها عن باقي الجماعات الاجتماعية الاخرى .
٢١ ـ درجة استقرار وتوازن الجماعة نفسها في العمل والوظيفة .
٢٢ ـ درجة استقرار بناء الجماعة نفسها .
٢٣ ـ كيفية المحافظة على استقرار الجماعة ذاتها .
٢٤ ـ نفوذ الجماعة وطاقته(١٢) .

اخيراً نذهب الى العالم الامريكي المعاصر ايرفنك كوفمان (١٩٢٢ ـ) الذي بدأ تنظيره الاجتماعي من تحديد الفعل الاجتماعي الذي يقع بين فاعلين او مجموعة فاعلين في اربعة انواع من الحياة الاجتماعية ـ السوية والمنحرفة وداخل المؤسسة الاصلاحية الرسمية وخارجها ـ واضعاً قواسم تفاعلية مشتركة بين الانواع الاربعة بحيث يمكن اعتبارها خارطة الدراسية الاساسية في عملية التفاعل الاجتماعي التي تحصل بين المتفاعلين وهي : ـ

١ ـ اساليب التعبير الذاتي : اي اوجه عرض ذوات الفاعلين اثناء تقابلهم او اجتماعهم وطرح نماذج من صور انويتهم اثناء التفاعل . تسجل هذه النماذج الانوية كما يعرفها المتفاعلين وكما يراها كل منهم للآخر وليس كما يراها متفاعل واحد او ملاحظ واحد .

٢ ـ ظرفية التفاعل : اي زمن التفاعل وما يتضمنه من مؤثرات وشروط تتحكم في وضعية التفاعل وما يخرج او يستخرج منها من مفاهيم اجرائية لها الاثر الناشط في توجيه سلوك المتفاعلين .

٣ ـ استراتيجية التفاعل : اي ماتتضمنه عملية التفاعل من مداهنة ومماحكة ولف ودوران وزوغان واستغفال واستنكار بين المتفاعلين .

٤ ـ تعابير الوجه التي تشمل حركات العيون والحاجب والجبهة والشفة والرأس فضلاً عن التعابير الصوتية واللفظية عند تقويم او رفض او قبول او تعجب او استنكار لموقف معين او لشخص معين .

٥ ـ الكنية الاجتماعية (الوصم الاجتماعي) التي تعني خلاصة التقويم المتمثلة في تحديد واطلاق رمز اجتماعي يصل اليه الفاعل عندما يصف ماهية او اخلاقية او سلوكية المتفاعل معه(٤٤) .

تجدر الاشارة في هذا المقام الى توضيح شطر مصطلح التفاعل الاجتماعي عند كوفمان وهو شطر التفاعل الادراكي الذي يتأثر بالمحيطين بالفاعل وتقاليد واعراف جماعته التي ينتمي اليها والى مكانته ودوره الاجتماعيين وهذا الشطر النصفي شطرة كوفمان الى شطرين اخرين هما التفاعل الادراكي المخاتل الذي يعطي انطباعاً لايعبر عن حقيقته بل يخفي بعضاً من جوانب سلوكه ويكشف عن الاخر . والشطر الاخر هو التفاعل الادراكي المتصنع او الادعائي الذي يعطي انطباعاً عن نفسه لااساس لها في شخصه او دافعه .

وهذه الانشطارات الاربعة لمصطلح التفاعل تسود تفاعلات المؤسسات الاصلاحية الرسمية ـ في نظر كوفمان ـ اي تفاعلات تحصل بين الافراد الذين يرتبطون بروابط مهنية واجتماعية ويتفاعلون بشكل مستمر وليس بشكل عابر

اما الشطر الثاني فهو التفاعل السببي الذي يعكس التفاعل الاجتماعي السائد في الحياة الاجتماعية الصناعية المتقدمة او في المدن الحضرية ذات التركيب العمراني والحياتي المركب اذ تحصل فيها تفاعلات بين افراد مجتمعها لاتربطهم روابط مهنية او قرابية بل تفاعل الغرباء او تفاعل المتلاقين في اجتماع طاريء او المتعارفين حديثاً . لذا فأنه يكون تفاعلاً عابراً ومؤقتاً ولفترة زمنية قصيرة يخضع للمجاملة بعيداً عن خصوصيات المتفاعلين .

هذا الشطر المصطلحي شطرة كوفمان الى شطرين وهما تفاعل سببي مواجه . اي الذي يحصل وجهاً لوجه بين الغرباء مثلما يحصل بين البائع والمشتري في المحلات التجارية او بين الطبيب والمريض في العيادة الطبية او بين المسافرين في المطار او محطة القطار او بين المستطرقين في الشارع او بين الافراد في المحلات العامة الذين يخضعون لضوابط وتعليمات موقعية عامة توجه سلوكهم داخلها لاتربطهم معرفة سابقة . وبين الافراد الذين يرتادون الاماكن المقدسة لاداء فرائض دينية .

اما الشطر الاخر فهو التفاعل السببي الاحياني الذي يخضع لعاملي الزمان والمكان مثل حفلة الكوكتيل او الاجتماعات الرسمية او المؤتمرات او الندوات العامة(٤٠)

هذا على صعيد شطر المصطلح الاجتماعي اما على صعيد الدراسات التي رفدت ودعمت مضامين مصطلحات وبرهنة فروضة . فقد سلط اضواء اهتماماته على الانسان المنسي او الضعيف او القلق او الخائف او صاحب المشاعر الذاتية وعلى الحالات البشعة وزلات السلوك الاجتماعي والامراض العصبية والمدمنين على المخدرات والمنتحرين والمسجونين . والراقصات والعاريات وكافة السلوكيات التي تتعارض مع معايير المجتمع او التي تنحرف عنه او التي يتم تجاوزها او كسرها لذلك وجدناه جمع معلومات كثيرة عن هذه النماذج الاجتماعية المنحرفة لكي يبني نظريته الاجتماعية في الوصم الاجتماعي هدف نظريته هو الاستضاءة بمعرفة تأثيرات المجتمع على انحراف آنوية (ذات) الفرد عن معايير وقيم المجتمع من

خلال ما يلصقه المحيط البشري بالذين تتزلزل ذاتهم او سلوكهم عن معاييرهم من كلام كثير وثرثرة مستمرة الامر الذي يكون من الزلة البسيطة صورة مهولة يبتعد عنها الناس بحيث تجعل من المتزلزل سلوكاً شخصياً يشار اليه بالبنان بوصمة يعاب عليها افراد المجتمع ويتعامل معه من خلال تلك الوصمة وبالتالي يصعب على الموصم الدفاع عن نفسه وازالة الوصمة التي اشيعت وانتشرت بين محيطه البشري. فيضطر ان يعيش مع تلك الوصمة وهو مكره ومن ثم يتآلف معها وينخرط بشرورها وبشاعتها ـ طالما لايرحمه الناس ولا قدرة له على التخلص من تلك الوصمة ـ فينحرف عن معايير المجتمع ويصل الى درجة المنحرف المحترف لذلك جاءت هذه النظرية بشكل مختلف عن النظرية الاجتماعية التي تعتمد على الثقافة الفرعية الخاصة بالمنحرفين في تحفيز الفرد المنتمي الى مجموعة معينة بالانحراف مثل مجموعة اسر تعيش في منطقة سكنية ذات دخل واطيء وتتضمن زمراً وعصابات متمرسة في السلوك المنحرف. فالفرد السوي الذي يعيش في هذه المنطقة يحتمل احتمالاً كبيراً بأن يصبح منحرفاً بسبب عيشه وتفاعله ومعهم.

هذه النظرية لا تشبه النظرية الوصمية لانها ـ اي الوصمية ـ توضح حقيقة الفرد السوي او الوديع الذي يعيش في منطقة سكنية خالية من الانحرافات السلوكية لا تدفعه للانحراف بل قد تحصل متغيرات تدفعه بشكل غير مباشر لان ينحرف عندما تحصل متغيرات تدفعه بشكل غير مباشر لان ينحرف عندما يزل سلوكه عن معاييرهم الاجتماعية فيحصل لغط كلامي وتركيز نظري على تلك الزلة الامر الذي يجعل تفاعلهم معه متعثراً ومليئاً بالنظر الشكاك واطلاق العبارات المغلفة او التي تكشف عن زلة سلوكه بشكل غير مباشر وهذا بدوره يجعل تفاعله معهم غير سوى او تدفعه لعدم الاستمرار بتفاعله معهم والانزواء في عالمه الخاص والاستمرار في ممارسة تلك الزلة.

تضفي هذه النظرية الى التمييز بين شطرين من الانحرافات. هي الانحراف الاولي والانحراف الثانوي وهذا الانشطار في مصطلح الانحراف قدمه كوفمان عنى بالشطر الاول (الاولي) الخروج المباشر عن المعايير الاجتماعية. بيد انه لا يؤدي الى تغير في الدور الاجتماعي للخارج عن المعايير (المنحرف الاولي) وبالوقت ذاته لايؤذ النظام الاجتماعي القائم في المجتمع لانه لا يمثل انحرافاً جوهرياً في سلوك الجانح بل بسيطاً ولا يؤثر على الذات الاجتماعية للجانح او المنحرف ولا على مفاهيمه الاجتماعية للحياة لكنه يكون مستنكراً ومستهجناً من قبل المجتمع.

بينما الشطر الثاني من مصطلح الانحراف (الثانوي) فأنه يعني محاولة الاخرين في الصاق الوصمة المنحرفة بالفرد الذي خالف المعايير الاجتماعية والحاقه بها في كل مجال ومكان وزمان على انه منحرف او جانح التي تكون ـ بالتالي ـ انطباعاً منحرفاً عن ذاته في نظرة التي تبلورت بالاصل في نظرة وحكم الاخرين المحيطين به عليه فتصبح اداة موجهة ومرشدة يستخدمها الجانح لسلوكه او فعله في الادوار الاجتماعية التي يمارسها وتصبح هذه الاداة الوصمية ملتصقة بتفكيره وتصوره وبالتالي تكون اداة يستخدمها للدفاع او للهجوم او للتكيف لكافة الحالات الاجتماعية التي يعيشها او يواجهها الموصم كرد فعل للزلل الذي وقع به في اول الامر ويهولها الاخرون فيما بعد .

فالمريض عقلياً خير مثال على هذا الشطر المصطلحي الذي يكون مرضه اساساً لوصمة طيلة حياته حتى بعد شفائه . ففي كتاب « الملجأ » لكوفمان كتب عن المرضى في مستشفى الامراض العقلية فتوصل الى نتيجة ان ذات المنحرف تتبلور من خلال تأثيرات المحيط الاجتماعي الذي يعيشه المنحرف لانها تمثل انعكاسات ذوات الاخرين تجاه ذات المنحرف .

وقد شبه كوفمان المجتمع بمسرح للتمثيل وذلك لانه يرى ابناء الطبقة الثرية يكشفون عن ثروتهم ونفوذهم امام الاخرين من اجل ابراز موقعهم داخل المجتمع العام ولاجل ممارسة مصالحهم والدفاع عنها . وان ابناء الطبقة الوسطى يكشفون عن قابليتهم ومهاراتهم ليميزوا انفسهم عن ابناء الطبقة الدنيا والعمالية

هذا من جانب ومن جانب اخر . فأن الامور لا تكشف عن مضامينها بسهولة وبساطة بل تحتاج الى من يكشف عنها ويفك رموزها لكي يسهل التعبير عنها وان الرباط الاساس بين ابناء الطبقة الواحدة هو جوهر تماسكهم وتضامنهم وتآلفهم وفي ضوء هذا التصوير وضع كوفمان حدود اقليمية ـ ان جاز التعبير ـ لعلاقة الفرد بمجتمعه او حدود بين الممثل (الفرد) والجمهور (المجتمع) اي شطر مصطلح الى شطرين هما الاقليم العلني او الصريح الذي يخفي فيه الفرد العديد من خصوصياته وسرياته والشطر الثاني سماه بالاقليم الخفي او المستتر الذي يعرض فيه خصوصياته وسرياته كافة وبكل حرية .

يرى كوفمان ان الرباط الاجتماعي يكون قوياً جداً بين الافراد الذين يشتركون في خصوصيات الاقليم المستتر التي لا يريدون الافصاح عنها امام

الاخرين طالما هناك ثقة متبادلة بينهم من اجل حماية مصالحهم الخاصة وخصوصياتهم الشخصية وعدم ـ عرضها امام الاخرين خارج حدود عالمهم المستتر(٤٦)

خليق بي ان اشير الى اندراج مفهوم الهيمنة المؤسسية ضمن مفاهيم نظرية الوصم الاجتماعي لكوفمان التي تعني عزل الفرد كلياً عن العالم الخارجي لدرجة تكون حياته اليومية جزءاً من نظام المؤسسة العام مثل السجن ومستشفى الامراض العقلية والعصبية ومراكز الحجر الصحي والسيرك والباخرة الكبيرة الحجم والاديرة ومعسكر الاعتقالات والمعتقلات السياسية اذ تقفل ابوابها بشكل دائم تقريباً ـ وتحاط بجدران عالية ومسيجة باسلاك مكهربة او تحفر خنادق خلفها او شق انهار عريضة او اختيارها في وسط غابة كثيفة او قرب اجراف (منحدرات صخرية شاهقة وبخاصة عند الشواطيء او المستنقعات)

تضم هذه المؤسسات الانواع الاتية من النزلاء : ـ

ـ العجزة والمعمرين والمهملين والمتروكين واليتامي الذين لا يضرون المجتمع .
٢ ـ مرضى الامراض العصبية والعقلية والسل
٣ ـ المضرين بالمجتمع مثل المساجين والمعتقلين
٤ ـ المتدربين لاغراض غير صناعية مثل معسكرات العمل والثكنات العسكرية والبواخر العملاقة
٥ ـ رجال الدين في الاديرة الخاصة بالرهبان والراهبات حيث تعد محطات عمل تدريبية

يكون نمط الحياة اليومية داخل هذه المؤسسات الاصلاحية من النوع الرتيب والمقنن اذ ينام النزيل ويأكل ويعمل في مكان يختلف كل الاختلاف عن مكانه الاصلي ويتعامل مع نزلاء يختلفون عن زملائه خارج المؤسسة ويخضع لسلطة تختلف عن سلطة المجتمع اذ لانها تخضع لضوابط صحية وارشادية مقننة . ان تقوم هذه المؤسسات بممارسة اساليب وقائية صحية ونفسية واجتماعية وطبية من اجل اعادة تنشئه النزيل او المريض بشكل ينسجم مع المجتمع الخارجي العام لذلك يعد النزيل جيداً وسوياً اذا طاع وانصاع لاوامر وتعليمات المؤسسة الاصلاحية او العقابية ويعد النزيل سيئاً اذا تمرد او عارض اوامر المؤسسة . لذلك يحصل على احتقار العاملين فيها فيذل بشكل متعمد (باستثناء المستشفى) .

تتصف حياة المستشفى عادة بالرقابة الروتينية المتمركزة في مكان واحد او بناية واحدة يخضع النزلاء فيها لنفس الادارة والتفاعل مع نفس الاشخاص مما يسبب مللاً مقرفاً عند النزلاء لان المناشط الترويحية والترفيهية والعلاجية تتم بين نفس الافراد اذ يحصل التقابل اليومي مع ذات الوجوه التي تلتقي كل يوم حسب جدول زمني مرصوص بنفس المناشط علماً بأن جميع المناشط متعلقة بالاخرى وبنفس المواعيد والتواريخ . فضلاً عن حقيقة ان تضع هذه المناشط ادارة المؤسسة وليس بترغيبه رغبة وهواية النزلاء هذه السيطرة السلوكية اليومية للنزلاء ـ علاوة على عزلهم عن العالم الخارجي ـ تخلق فجوة كبيرة بينهم وبين المسؤولين والمشرفين داخل المؤسسة الاصلاحية فتتبلور جماعتين غير متآلفتين داخلها . تكون الاولى خانعة ومدانة ومتذبذبة وتكون الثانية استعلائية وغير مدانة . اي ان المسافة الاجتماعية بينهما شاسعة جداً والحراك الاجتماعي يكون ثابتاً غير قابل للحركة افقياً او عمودياً(٤٧) .

وقد نجد من المجدى ان نشير الى ان وسيلة كوفمان في دراسته لتفاعل الافراد هي المحادثة الكلامية بين افراد الجماعة الاجتماعية الصغيرة اذ يجلس معهم ويراقب اساليب وطرائق مساجلتهم وحديثهم ليتوصل الى الافراد الذين يبالغون في كلامهم عن موضوع الحديث ومن منهم الخجول اثناء الحديث امام الاخرين ومن هو الذي لا يعير اهمية لموضوع النقاش . ومن هو الجارح في عباراته . او الفظ في حديثه . ومن يكون مسروراً في حديث مع الاخرين .. وهكذا .

ولا بد لنا قبل ان نفرغ من هذا الموضوع ان نخلص الى ان انشطارات كوفمان للمصطلح الاجتماعي تتسم بالسمات الاتية .

١ ـ الانشطار الرئيس :

الذي يشطر المصطلح الى شطرين اساسيين يتفرعان من المصطلح مباشرة مثل. مصطلح التفاعل الاجتماعي الذي شطره الى تفاعل ادراكي وتفاعل سببي ومصطلح الانحراف الذي شطره الى اولي وثانوي .

٢ ـ الانشطار الفرعي :

الذي يشطر الشطرين الاساسيين او احدهما الى انطلاقات متفرعة . كما فعل مع الشطر الثاني من التفاعل السببي اذ فلقه الى فلقتين هما التفاعل السببي الموجه والتفاعل السببي الموجه والتفاعل السببي الاحياني وفلق ذات المنحرف (انفلاق فرعي ايضاً) الذي فلقه الى فلقتين متفرعتين من مصطلح الانحراف الى الاقليم الصريح والاقليم المستتر .

لاحظ هنا ان ذات المنحرف لم تستخرج من مصطلح الانحراف بشكل مباشر بل ان الانحراف يقوم به الفرد المنحرف وان ذاته تعني كيانه الداخلي . لذلك قد نجد الانفلاق الفرعي قد لا يتفرع بشكل آلي ميكانيكي من احد الانشاطارات انما يستخرج منه ضمناً او قد يتعلق به متناً

المنبع الخامس / الاقتداء العلمي :

نذهب الان الى منبع معرفي اخير غذى علم الاجتماع باهتمامات جديدة ورؤية لم يتناولها علماء الاجتماع في المنابع الاربعة السالفة الذكر وهو الاقتداء العلمي . فاذا رجعنا قليلاً الى تاريخ العلوم الانسانية وعلاقتها بالعلوم الصرفة . نجد هناك محاولات قديمة اقدمت على جعل الدراسات الاجتماعية مسايرة او متساوقة لمنهجية العلوم التطبيقية وذلك لان منهجيتها معتمدة على سياقات استقرائية اتفق عليها معظم باحثيها وعلمائها

ففي عام ١٨٦٩ طرح عالم الاحياء الالماني ايرنست هيكل مفهوم البيئة البشرية باعتبارها نسقاً متطوراً في رؤيته المتكاملة والمتضامنة بين اجزاء الحياة الطبيعية والحيوانية . انتبه الى هذا المفهوم كل من روبرت عزرا بارك وارينست برجس عام ١٩٢١ من جامعة شيكاغو اذ كانا مهتمين بنمو المدن وتطورها وعداها احدى الظواهر الطبيعية فاستعاروه من علم الاحياء كأساس نظري في علم الاجتماع فطبقوه في دراسة المجتمع المحلي(٤٨) وهناك رائد اجتماعي امريكي اخر اعتمد على الاقتداء العلمي في دراسة المجتمع الانساني وهو اموس هاولي الذي يرى البيئة على انها صورة مورفولوجية (فرع من علم الاحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبنيتهما) جامعة بين الوجه الحركي والوجه السكوني . ويقول هاولي في هذا الخصوص ان المجتمع المحلي عبارة عن استجابة جمعية طبيعية للقاطنين في

منطقة جغرافية محدودة الابعاد وبالوقت ذاته تمثل تكييف اعضائه للمحيط الذي تخضع له منطقة سكناهم وان الثقافة الاجتماعية لاتعني اكثر من كونها مؤشرات لتقنيات يستخدمها سكان المنطقة من اجل حماية انفسهم ومن اجل بقائهم في الوجود الاجتماعي . بينما حدد كوين البيئة البشرية بانها تأثر علائق الافراد بمصادر البيئة التي تحيط بهم . في حين حددها دنكن على انها سبل عيش الانسان المنسقة عاكسة وظائف وشروط العيش والمتضمنة المؤسسات الاجتماعية المتكيفة للشروط والظروف المستجدة المتأتية من التحولات والتغيرات البيئوية او من التطورات التكنولوجية . بينما يوضح شنور على ان البيئة الطبيعية تتحول بوساطة التكنولوجي اكثر من ان التكنولوجي يتحول بسبب البيئة الطبيعية(٤٩)

طبقاً لرؤية هاولي في الشكلية البنائية (المورفولوجية) انها تعتمد على تحليل بناء المجتمع الانساني المحلي من خلال معرفة تنظيماته الاجتماعية التي تعينه وتساعده على عيشه واستمراره في الوجود في كفاحه من اجل بقائه وعدم زواله وغرض هاولي في ذلك هو الوصول الى معرفة العمود الفقري للمجتمع المحلي وهو النسق البيئوي الذي يتضمن سكان المنطقة المحلية المستجيب لمثيرات الموطن الذي يعيشون فيه المتمثلة في مكونات البناء المتكاملة والمتضامنة بحيث تمكن الملاحظ ان يشاهد هذه الحقيقة من خلال سلوك اعضاء المجتمع المحلي الذي يظهر متشابهاً ومنمطاً ومتصنعاً بالعلائق/المتقاربة والمتضامنة (لا المتصارعة) ومالكا رموزا واشارات واحدة يعبر فيها عن حاجة الافراد ـ الضرورية والاجتماعية ـ فضلاً عن ذلك فأن افراد المجتمع المحلي يجتمعون على شكل جماعات اجتماعية صغيرة يبحثون عن حاجاتهم الجمعية ذات الصفة التطورية المتفاعلة مع مؤثرات محيط موطنهم المحدد جميع هذه المناشط الاجتماعية تمارس ضمن الابعاد الجغرافية المحدودة لوطن المجتمع المحلي(٥٠) .

العمل الذي قام به هاولي اذن هو دراسة مجتمع صغير محلي (منطلقاً من رؤية حياتية معتمداً على التحليل المورفولوجي (شكلي بنائي) (ذات النظرة الشاملة والمتكاملة للمجتمع المحلي الذي يعيش ضمن حدود موطنه الجغرافي ومتفاعلاً مع ما فيه من مثيرات ومؤثرات بيئية ومحيطية باحثاً عن تفاسير بيئية لمناشط انسانية) مقتدياً بالباحثين الاحيائيين في دراساتهم .

وما دمنا بصدد المجتمع المحلي فأننا لانغفل تحديد هاولي الذي مفاده " مجموعة افراد يقطنون منطقة جغرافية معلومة الابعاد يستجيبون بشكل جمعي

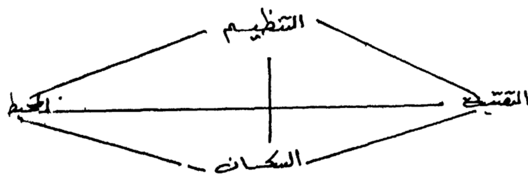
وطبيعي لمؤثرات منطقة سكناهم ويتكيفون لها طواعية وتقوم ثقافتهم الاجتماعية ـ قيمهم واعرافهم ونواميسهم ومعاييرهم ورموزهم ـ بتنظيم تفاعلاتهم وتزيد من تماسكهم من اجل بقائهم في الوجود الاجتماعي(٥١) .

وهناك رائد اجتماعي اخر اسمه جوليان ستيوارد مفهوماً جديداً في ادبيات علم الاجتماع وهو مفهوم « البيئة الثقافية » الذي عنى به « مراحل تكوين مقومات الثقافة الاجتماعية التي تعيش في موطن المجتمع المحلي وما تواجه من مثيرات ومحفزات ومؤثرات يومية او موسمية تساعد افراد المجتمع على تكيفهم للاحداث الجديدة التي تحصل داخل موطنهم المحدود وبالوقت ذاته تشمل تفاعل مؤسسات المجتمع مع البيئة الطبيعية وردود فعلها وتكيفها » جميع ذلك يعكس مفهوم البيئة الثقافية في المجتمع المحلي

اما ثيودورسون فانه حصر مناطق البشر البيئية بالصفات الاتية :

١ ـ الصفة الجغرافية : التي تتضمن المناخ والطوبوغرافيا والمصادر الطبيعية .
٢ ـ الصفة الاقتصادية : التي تتضمن الصناعات المحلية ـ نوعها وطبيعتها ـ والمهن التي تعتمد عليها ومستوى عيش الناس .
٣ ـ الصفة الثقافية : التي تتضمن الاداب والفنون والمحرمات الاجتماعية والاخلاقية المؤثرة على توزيع الافراد داخل موطنهم
٤ ـ الصفة السياسية والادارية : التي تتضمن الهيكل الاداري وقوانين الهجرة ـ الداخلية والخارجية ـ والانظمة والشرائع التي تسنها الدولة .

لكن اذا تناولنا علماء الاجتماع المعاصرين الذين اهتموا بالبيئة امثال اوتس دادلي دنكن وليوشنور نجدهما يختلفان في منظورهما الحديث عما سبقهما في هذا المضمار اذ انهما تعاملاً مع المجتمع كتنظيم وظيفي يقوم بالمحافظة على خواص السكان وكيفية تكيفه لمحيطه وتفاعله الاجتماعي وتحليل ابرز المشكلات الثقافية التي تظهر من خلال تغيره وتطوره . فقد حدد دنكن اربعة فقرات بنائية اساسية تميز النسق البيئي وهي التنظيم الاجتماعي والبيئة الاجتماعية والتكنولوجي والسكان . وقد اشار الى هذه المفاصل بالرموز انظر المرتسم الآتي :



شكل رقم ـ ٥ ـ يوضح النسق البيئوي

تتضمن هذه المفاصل الاربعة علائق متبادلة بشكل مستمر فيما بينها معبرة عن تكافلها الوظيفي وعدم استغلال احدهما عن الآخر سواء كان من الناحية الوظيفية او العلائق الامر الذي يؤدي الى المحافظة على توازن حركتها كنسق بيئوي متكامل في بنائه ومتناغم في حركته . هذا من جانب ومن جانب آخر . فقد وضع كل من دنكن وشنور صفات السكان البشري التي تميزهم عن باقي الاحياء وهي :

١ ـ الامتلاك الثقافي (الذي يتم من خلاله اكتساب العديد من العادات والقيم والفنون والافكار وما شابه) ولكنهما (دنكن وشنور) لم يستعملا الثقافة كمتغير حتمي في تفسير سلوك الافراد كما يعتمدها علماء الانسان في تفسيراتهم وتحليلاتهم للثقافة الانسانية لانها لاتمثل كلا يميز الناس عن باقي المجتمعات الاخرى (هذا من وجهة نظرهم) او انها عامل موحد يقوم بتوحيد سلوكهم وتنميط فكرهم .

٢ ـ العلائق البيئية ، اي ان افراد المجتمع يبلورون انماطاً عديدة من العلائق النابعة من بيئتهم تقدم لهم النفع العام دون تمييز .

٣ ـ التنظيم الاجتماعي ، الذي يساعد افراد المجتمع على التفاعل مع الظواهر الاجتماعية السائدة في محيطهم الاجتماعي واكتسابها من اجل تنشيط حيويتهم الاجتماعية لكي تتناسب مع حجمه (حجم السكان) الامر الذي يؤدي الى المحافظة على حياتهم الجمعية في ظل ظروفه البيئية . وهذا يعني ان التنظيم الاجتماعي لا يمثل الارث الثقافي ولا الصياغة النفسية لذوات الافراد بل يمثل نسيج العلائق الاجتماعية النابع من البيئة الاجتماعية .

مفصل التكنولوجي ، الذي يضم تشكيلة فنية وتقنية منمطة بشكل رصين تتصف هذه التشكيلة بالتراكم والانتشار السريع . انه مفصل منبثق من المحيط لكي يقوم بتسهيل عيش الناس وخدمة مصالحهم وانجاز مناشطهم وبالوقت ذاته يقوم الناس باستخدامه من اجل السيطرة على المحيط ومهددات الطبيعة التي تكون على شكل كوارث تهلك قسماً كبيراً منهم(٥٢) مفاصل النسق البيئوي هذه تعبر عن ارتباط الانسان ببيئته من خلال ماهو سائد في ظواهر اجتماعية وطبيعية،واثرها على نشاط المنظم الذي لايمثل سلوكاً اعتباطياً . بل سلوكاً منظماً يخدمه في تكيفه لمحيطه وما يدور فيه من مستجدات طبيعية واجتماعية وبالوقت ذاته يحميه من مخاطر ومهددات الطبيعة . الملاحظ على طرح كل من دنكن وشنور انهما لم يشيرا الى مفهوم دور ومشاعر الفرد اللذان يمثلان احد مفاهيم علم النفس بل ركزاً على النشاط الحيوي الذي يكون تجمعاً بشرياً له فائدة جمعية للكل والذي يحمل الصفة البيئية (اي المتأثر بالبيئة المحيطة بالسكان) وقد اعتبر كل سلوك يقوم به الفرد صادر كرد فعل من مؤثرات البيئة فضلاً عن انهما لم يركزا على السلوك الفردي الفريد ، بل السلوك الاجتماعي المنمط المرتبط بشكل قوي بالبيئة الفيزيقية والمنشد مع باقي الانماط الاجتماعية التي تكون جزءاً من النسق البيئي لذلك ربط كُل نشاط اجتماعي بسلسلة ارتباطات بيئية وتكنولوجية .

فضلاً عما تقدم . فهناك اتجاه آخر يمثل الاقتداء العلمي في علم الاجتماع اذ ظهرت اسهامات احصائية ورياضية عديدة فيه لدرجة انها اصبحت مشكلة فرعاً خاصاً من فروع علم الاجتماع تدعى بالاحصاء الاجتماعي بسبب نموه المتزايد خلال العقود الاربعة الماضية على ايدي باحثين لهم خلفية رياضية امثال هربرت سايمون وهاورد رايفا ودنكن لوس وجيمس كولمان وليوكودمان ون . راشيفسكي لازارسفيلد واناتول رابورت ولويس كوتمان وهبرت بلالوك وفردريك موستسيلر . وقد اطلق على اعمالهم الاحصائية الرياضية بالعلم الجاد او الصلب متشبهين بالطرق والاساليب الفيزيائية عند اكتشافها للاشياء بالوسائل الرياضية الامر الذي جعل هؤلاء الباحثين الاجتماعين الذهاب لاستنتاج نماذج رياضية خاصة في دراسة الظواهر الاجتماعية تظهر نموذج سلسلة ماركوف ونموذج تحليل التسارق المتوازي(٥٣) .

واجد من المفيد والمجدي ان اطرح هذا الاقتداء العلمي من خلال احد النماذج الرياضية المعاصرة لكي يطلع عليها دارس علم الاجتماع على هذا التوظيف العلمي المبدع وسوف اختار سلسلة ماركوف التي تعني آلية منهجية مبنية على نظرية

الاحتمالات المتعددة التفرعات ومتنوعة الاتجاهات . يبحث عن خطوط مسارات الظاهرة المدروسة ومفاصل تحولاته المختلفة في سرعة تحركها . مكونا ترابطات متنوعة ومتشابكة اشبه بتفرعات اغصان الشجرة المتفرعة من ساق واحد .

فهو ادن انتشاري متوغل الى قاع الظاهرة وجوانبها . يستخدم هذا التحليل في دراسة الظواهر الاجتماعية التي تظهر في المجتمع المتجانس في شرائحه او طبقاته او فئاته ولا يدرس الظواهر المتصارعة فهو يهتم بدراسة التطورات والتغيرات الاجتماعية للافراد والفئات من خلال المراحل المتدرجة الانتقالية التي عاش فيها ومر منها الفرد او الفئات وسبب تطبيقه في المجتمع المتجانس يرجع الى مساعدة الباحث باعطاء او تقديم احتمالات متكافئة لكل حالة دراسية (فرد او فئة او شريحة او طبقة) في كل مرحلة انتقالية للحالات المستقبلية دون تحيز او ارباك . مركزاً على النقاط الاتية :

١ ـ الوضع الراهن للمبحوث داخل الظاهرة المدروسة .
٢ ـ الفترة الزمنية للمبحوث في كل مرحلة انتقالية يبقى فيها او يمر منها .
٣ ـ البدائل التي يواجهها المبحوث قبل انتقاله من مرحلته الراهنة الى الاخرى .
٤ ـ الاحتمالات او البدائل المشتركة التي واجهها المبحوث .
٥ ـ البدائل المتقاطعة التي واجهها المبحوث
٦ ـ طريقة حسم المبحوث للموقف الذي يتطلب اتخاذ قراره امام بدائل متنوعة ومشتركة ومتقاطعة .
٧ ـ قدرة المبحوث في اختصار الوقت والجهد في انتقاله من مرحلة الى اخرى
٨ ـ احتساب طول المسافة بين مرحلة واخرى .
٩ ـ احتساب الوقت الذي استغرق للانتقال من مرحلة الى اخرى .

اما المواضيع التي استخدمت تحليل ماركوف فهي : البطالة وارتفاع الدخل الشهري والحراك الاجتماعي والحراك الجغرافي والمكانة الاجتماعية .

اما الباحثون الذين استخدموا هذا التحليل فهم كيمني وسنيل وفبلير وبارتون ومتراس وبيشيرز(٥١) .

في الواقع ان تحليل ماركوف يجزء او يفكك الظاهرة المدروسة الى اجزائها المكونة لها من اجل معرفة مفاصلها ووصف وتفسير كل جزء على جانب ومن ثم البحث عن القاسم المشترك بين اجزاء الظاهرة من خلال كشف المتغيرات الزمانية

والمكانية المؤثرة في كل جزء لكي يصل الى كيف يتم انتقال المبحوث من جزء الى اخر او من مرحلة الى اخرى وما هي الظروف التي يخضع لها في كل جزء وحالة وكيف يواجه البدائل ويتخذ القرار في تحوله . وبذا فأن تحليل ماركوف يفكك الظاهرة المدروسة الى اجزائها عبر مراحل زمنية متصلة الواحدة بالاخرى هاملاً بذلك ماضي او تأريخ المبحوث الخاضع للدراسة . بيد انه يركز على تكرار الحدث الواحد في كل جزء ومرحلة تطورية حاسباً عامل الزمن والمسافة بين مرحلتين متتبعاً حالته المدروسة الى اخر مرحلة تستقر فيها . اي الى ان تصل الى حالة التشبع بحيث تتكرر في كل مرحلة وتحت نفس الظروف والشروط دون تغيير او تبديل انذاك يقتنع المحلل بأن حالته المدروسة قد استقرت وتشبعت دون تطور فينتهي تحليل الباحث او يقف عند هذه المرحلة .

استخدم هذا التحليل كل من هربوت بلومر لكنه انتقده لانه وجد (بلومر) انه من الممكن ان يبقى المبحوث في نفس الحالة او المرحلة التي يعيش فيها ولا ينتقل الى الثانية او الثالثة . لذا اقترح بلومر ان يقسم المبحوثين الى نوعين الاول يسمون بالمتحركيين او المتحولين . والثاني يسمون بالباقين لكي لايخلط بين النوعين ونفترض ان كافة المبحوثين ينتقلون من مرحلة الى اخرى .

كذلك استخدم هذا التحليل ماير لكنه انتقده ايضاً لانه وجد معدل انتقال المبحوثين من مرحلة الى اخرى يرتفع مع تقدم عمره . لذا يرفض افتراض ثبوت او سكون المبحوث في كل مرحلة انتقالية . اي يشترط ان يكون الاحتمال يتضمن نوعاً من المرونة والليونة في بدائله وتطلعاته المستقبلية وعدم تحجره في مرحلة واحدة .

هذا النقد لايتقاطع مع نقد بلومر بل يتقارب منه بعض الشيء . كذلك انتقد دنكن هذا التحيل اذ قال « ان قوة العمل اثرت على المرحلة العمرية لزواج المبحوث وانجابه لان مجموع عمر المبحوث عند زواجه وانجابه للوليد الاول عند ميلاده لايتعدى (٣٠) عاماً وفي هذه الحالة لايمكن استخدام تحليل ماركوف لان المرحلة العمرية لزواج الفرد وانجابه قد تبدلت في الوقت الراهن بسبب قوة العمل .(••)
زبدة القول ان تحليل ماركوف تحليل احتمالي يفسر المسالك المتنوعة التي تمثل البدائل التي يواجهها المبحوث عند انتقاله من حالة اجتماعية الى اخرى او من مرحلة تطورية الى اخرى ومعرفة ماهي المتغيرات التي تعيق انتقاله او بقائه في مرحلته القائمة . بعد هذا الاستطراد الواسع نصل الى نهاية الفصل الذي يحتم ان نوجز

ماجاء به من معلومات وآراء وافكار وهي ان الثورتين (الصناعية والفرنسية) احدثتا اكبر واوسع انشطار في علم الاجتماع اذ فلقتا هذا العلم الى نصفين مختلفين في مواضيع اهتمامه ومناهجه وذلك راجع الى التحولات والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي احدثتهما في المجتمع الاوربي والامريكي وهذا يعني ان علم الاجتماع ابن المجتمع ينشيء حسب نمط عيش الاسرة الاجتماعية الكبيرة (المجتمع العام) واستناداً الى ماهو سائد من ظواهر ومشكلات وانساق داخل المجتمع . فهو اذن متطبع بما يحدث داخل المجتمع وليس مطبع المجتمع بما يريد منه ان يكون وهذا هو جوهر الموضوعية في علم الاجتماع ـ على الرغم من انفلاقاته العديدة الا انها حافظت على حياده وعدم تدخله في تطبيع مايحدث داخل المجتمع وهذا يوضح لنا ايضاً بأنه علم تطوري يتطور مع تطورات المجتمع ولا يمكن ان يقف عند مرحلة تطورية معينة . لكن من الجائز ان تكون سرعة مسيرته تتأخر بتأخر تحولات المجتمع وهذه ليست بنقيصه يقوم بها علم الاجتماع . انه مرآة او مرواز المجتمع (بارومتر المجتمع) فقد عرضنا بعضاً من الاعمال الاجتماعيين الاوربيين امثال تارد ودوركهايم.وبارتيو وفيبروسومبارت الذين درسوا ماهو سائد في المجتمع الاوربي الذي كان انعكاساً للثورتين بحيث برز بشكل مختلف عما ظهر من مشكلات وظواهر في المجتمع الامريكي نتيجة الثورتين وهذا ماجاء به كل من زانكول وسمز وجورج ميد .

هذا من جانب ومن جانب اخر . فان من اثار الثورتين على علم الاجتماع هو انفلاق جزئي داخل الانشطار الكبير وهو الفرادية في بريطانيا والجمعية في فرنسا وهذا الانفلاق ولد منطلقات متباينة في التفسير والتحليل الاجتماعي .
اللفت للانتباه ان المنبع الثالث (الازمة الاقتصادية العالمية) لم تولد انشطاراً في علم الاجتماع بل اكدت على التضامن والتكامل والتكافل الاجتماعي . ولم تحدث انشراخات وتشققات في الابنية الاجتماعية الاوربية والامريكية بل كان اثرها بسيطاً ولم يدم لفترة زمنية طويلة ـ كما حصل لاثار الثورتين ـ لذلك لم) تحصل زيادة في انشطارات علم الاجتماع بل بقت عما كانت عليه بعد الثورتين .

وتأكيداً على استنتاجنا هذا فان الحرب العالمية الثانية احدثت تغيرات عديدة وعميقة في المجتمع الاوربي والامريكي . فبرزت ظواهر ومشكلات متناقضة الامر الذي زاد ووسع من ظهور مصطلحات اجتماعية منشطرة ومنفلقة وهذا ماوجدناه عند مرتن وكوفمان . بينما اكد الاقتداء العلمي على عدم حدوث تغيرات في المجتمع بل انشغل

بتقليد ومحاكاة الدراسات العلمية الصرفة وتوظيف المناهج الرياضية والبيئية في الدراسات الاجتماعية وتناول مواضيع مشابهة في الفيزياء والرياضيات . فلم يركزاً على تناقضات المجتمع وبالتالي لم يجلبوا مصطلحات منشطرة بل دراسات مقلدة ومحاكية للعلوم الصرفة .
خلاصة استنتاجي هي ان الاحداث المجتمعية القوية مثل الثورتين والحرب العالمية الثانية هي التي احدثت تغيرات هائلة في المجتمع الاوربي والامريكي فأفرزت حالات وظواهر ومشكلات اجتماعية متناقضة الامر الذي دفع علماء الاجتماع بتحديد ونحت مصطلحات منشطرة ومنفلقة بينما كان العقد الاجتماعي والاقتداء العلمي والازمة الاقتصادية لم يحدثوا ظواهر ومشكلات اجتماعية متناقضة او متصارعة وبالتالي لم يطرح علماء الاجتماع الذين ساروا وراء هذه المنابع المجتمعية او تأثروا بها بمصطلحات منشطرة او منفلقة وهذا امر طبيعي ـ كما اسلفت لان علم الاجتماع ماهو سوى مرآة او مرواز المجتمع . فما يحصل داخل المجتمع من احداث فانها تنعكس مباشرة على كتابات وتحاليل وتفاسير علماء الاجتماع .

هذه الاحداث توصلني لخلاصة مفادها ان الوقائع الاجتماعية هي التي خلقت مصطلحات ونظريات علم الاجتماع (المنشطرة والمنفلقة والمتوحدة) وليس المدارس الفكرية او العلمية او علماء الاجتماع انفسهم او انتماءاتهم العقائدية اذ جميع ذلك اتى كتحصيل حاصل بعد ان ظهرت المشكلات والظواهر والانساق الاجتماعية داخل المجتمع بسبب الثورتين والحرب الكونية الثانية .

بعد هذا الاستطراد عن منابع المعرفة الاجتماعية التي التي وجدتها وحددتها اقدم طرحاً مختلفاً عما سلف يمثل وجهة نظر عالم الاجتماع الامريكي جارلس هرتن كولي الذي جعل واتخذ من الباحث الاجتماعي العلمي مصدراً اساسياً في المعرفة الاجتماعية ولم يضعها بعد مصادر المعرفة الاخرى لانه عد المختبر العلمي والتراث الفكري العالمي وتاريخ الانسانية تأتي بعد قدرات الباحث العلمية . اذ حصر قدرات الباحث في حواسه ومشاعره وعقله التي تدربت واكتسبت الملاحظة الدقيقة للحدث التي تساعده في الوصول الى استخلاصات واستنتاجات عنها . لان المعلومات وحدها (في نظره) غير كافية في بناء المعرفة . بل تحليلها والتعليق عليها والتنبؤ بمستقبلها هي التي تكوّن المعرفة الاجتماعية .
لذلك فصل كولي بين نوعين من المعرفة هما ، المعرفة المجالية التي تشير الى كل مايدور حول الانسان من ظواهر ومؤثرات التي يدركها ويحس بها ويستطيع

رؤيتها ويسمعها ويفكر بها ويفك رموزها هذه القدرة الاحساسية تسهل عليه عملية الاتصال بالاخرين .

اما النوع الثاني فهي المعرفة الاجتماعية التي تنتج من خلال التفاعلات الفكرية عبر وسائل الاتصالات البشرية وهي ثمر من خلال احاسيس الباحث . هذا النوع من المعرفة ينصب على التعرف بكيفية تصرف وتعاون وتصارع وتواشج الافراد فيما بينهم وتوصل الباحث الى اطلاق احكامه على خواص وصفات شخصياتهم ومعرفة من منها متعاونة او متصارعة او ذكية او غبية او كريمة او لئيمة او خبيثة او قلة او ماشابه . واعتبر كولي هذه الاحكام تمثل المعرفة الشخصانية الاجتماعية .
ولما كانت المعرفة الاجتماعية تعكس الواقع الاجتماعي فانها لاتتضمن الالغاز الغامضة او الظواهر غير المألوفة ، بل ماهو متكرر وعام وشامل يشترك فيه معظم الافراد في فعله لذلك تمثل التراكم الكمي لا النوعي لما يقوم به الانسان وما ينتجه من ماديات ومعنويات فهي اذن معرفة واقعية مترجمة على شكل نصوص فكرية مجردة وليس الحدس الماورائي (الميتافيزيقي) وهذه المعرفة للقياس الرياضي الاحصائي .

في حين لاتخضع المعرفة المجالية للقياس الاحصائي والمنطقي لانها نابعة وخاصة لحواسنا ومشاعرنا التي تستجيب للمؤثرات الذاتية والجملة العصبية بدءاً بما تقع عليه انظارنا وما نلمسه بأيدينا وما نسمعه باذاننا وما نستجيب اليه من رموز وأشارات. هذه المعرفة تعمل على تطوير عقلنا وحواسنا لانها تنشط حيويته . فتغذيه بالمعرفة الفنية والمفيدة فضلاً عن ذلك يسمي كولي هذه المعرفة بالمعرفة الداخلية لانها تكشف عن كوامن العقل البشري ووظيفة الجملة العصبية وحواس الانسان . ويسمي معرفة الباحث عن المجتمع وما يدور فيه من ظواهر ومشكلات بالمعرفة الخارجي ، اي التي يعيشها الباحث ويلاحظها وتعمل على اثارة انتباهه وفكره .

لكن سواء كانت المعرفة داخلية او خارجية مجالية او اجتماعية فانها تتضمن التنبؤ بمستقبل التصرف والتفكير الانساني وهذه الالية المعرفية (التنبؤ) لاتعتمد على اذكاء الباحث بقدر ماتعتمد على قوة ودقة ملاحظته للحدث او للظاهرة والى استمراريته في التقدير الحدسي لانها تتعامل مع خبرة الباحث في الملاحظة واستمراريته في ذلك وليس الى ذكائه(٥٦)

هذا الجذر المعرفي الذي استخدمه كولي حدد وقنن فيه المعرفة الاجتماعية وحصرها في قدرة ونشاط الباحث نفسه وهذا حصراً ضيقاً جداً لانه اقتصر على طاقة

محدودة . على الرغم من تفاعل قدرات العلماء وتراكم اعمالهم المعرفية ، فان انكار اهمية الحدث او الظاهرة في تقديم معلومات وبيانات من حالات اجتماعية امر غير وارد ـ فـي تقديـري ـ لان هناك حاجة ضرورية ومتكاملة بين قدرة الباحث ونوع وطبيعة الظاهرة المدروسة . وهما اللذان يكونان المعرفة الاجتماعية وليس الاكتفاء بقدرة الباحث او بحواسه . فضلاً عن حواسه وتفكيره لاتخلو من محدودية او خضوعها لنوازع فردية التي بدورها تجعل من المعرفة الاجتماعية معرفة جزئية وغير شاملة .

ان الاكتفاء بجانب واحد لايوصلنا الى بناء المعرفة الناضجة ، بل تفاعل الباحث مع التراث الفكري والاجتماعي مع قدراته وحواسه تساعده على التغلغل الى جوهر الظاهرة المدروسة واستخراج منها مايفيد ويغني المعرفة .
وفي مكان اخر اخر وجدت الباحث الامريكي جورج ليندربرك يلتقي مع كولي في هذا الخصوص اذيري ان الواقع الاجتماعي لايمكن فهمه الا من خلال رموزه بوساطة قوة حواس الباحث اذ ان ادراك جوهر وطبيعة الاشياء الكونية ـ في نظر ليندربرك ـ لايمكن الوصول اليه مباشرة بل من خلال مؤشرات ثقافية متصلة بجوهر الكون الذي يمثل نظاماً متناغماً ومتصلاً بثقافة الفرد الاجتماعية لان طاقة الفرد الثافية مأخوذة من طاقة الكون وكل ذلك لايمكن فهمه الا من خلال رموزه وغير ذلك امر محال(٥٧)

وقد وجدت العالم الفرنسي جورج غروفتش قد توسع اكثر من كولي وليندربرك اذ ميز بين عدة مستويات للمعرفة الاجتماعية وحصرها بالانواع الاتية : ـ

١ ـ المعرفة الادراكية الحسية .
٢ ـ معرفة الاخرين ونحن .
٣ ـ المعرفة الروتينية للحياة اليومية .
٤ ـ المعرفة التكنولوجية .
٥ ـ المعرفة السياسية .
٦ ـ المعرفة العلمية .
٧ ـ المعرفة الفلسفية .

يمثل كل نوع من الانواع السبعة رباطاً وظيفياً يشد الاشكال المختلفة للمجتمع مع نموذج التجمع البشري فهناك مثلاً مجتمع تسود فيه المعرفة المألوفة الروتينية

للحياة الاجتماعية وفي مجتمع اخر تطغى المعرفة العلمية . وفي مجتمع ثالث تنتشر المعرفة السياسية وفي اخر تكون المعرفة التكنولوجية وهكذا .(٥٨)

اخيراً قدم الينا الباحث الامريكي جوزيف هايمس نمطاً جديداً لمصادر المعرفة الاجتماعية اذ قال تتنوع المعرفة الاجتماعية بتنوع واختلاف نوع وحجم الظاهرة المدروسة لان قسماً منها يتسم بالعمومية داخل المجتمع مثل دراسة حياة الاسرة اليومية او حقوق وواجبات الفرد في موقعه ودوره الاجتماعي والقسم الثاني يتسم بالمحدودية لانه يعتمد على نتائج واستخلاصات واستنتاجات مستخرجة من دراسة جانب واحد من جوانب الظاهرة مثل ربة الاسرة فقط او الاسرة الممتدة فحسب او طموح الطلبة الجامعيين . مثل هذه المعرفة تكون ضيقة بسبب محدودية الشريحة الاجتماعية او هف الدراسة المحدد الذي بدوره لايساعد الباحث على تعميم نتائجه على كافة شرائح المجتمع .

فضلاً عن ذلك . فان هناك ظواهر مرئية يمكن ملاحظتها بشكل مباشر مثل ملاحظة المدمنين على المشروبات الكحولية او المخدرات او ملاحظة جنوح الاحداث في الازقة والطرقات وفي الوقت ذاته هناك ظواهر لايمكن ملاحظتها بشكل مباشر بل من خلال استخراج مؤشرات دلالية تحدد قبل الدراسة من اجل الوصول الى معرفة اصل الظاهرة المراد دراستها . هناك مثال على ذلك لايستطيع الباحث ان يلاحظ الاداب العامة في المجتمع لكنه يستطيع ان يضع بعض الدلالات التي تشير اليها مثل طاعة الافراد للنظام الاجتماعي او معرفة ثقة الافراد بقادتهم . او معرفة التزام الافراد بتطبيق المحرمات الاجتماعية مثل هذه الدلالات يمكن ملاحظتها التي بدورها تساعد الباحث بالوصول الى معرفة الاداب الاجتماعية التي لايستطيع الباحث ملاحظتها بشكل مباشر . هذه الدلالات تشبه الزئبق داخل المرواز الحراري (البارومتر) الذي يشير الى ارتفاع او انخفاض درجة الحرارة . فالحرارة تمثل الاداب العامة في المجتمع والزئبق يمثل امتثال الافراد للمحرمات الاجتماعية .(٥٩)

مصطلحات الفصل

Accumulation	التراكم
Adaptation	التكيف
Anomie	التحلل الخلقي (الامعياري)
Asylums	ملجأ الأيتام
Back stage region	الأقليم المستتر
Bureacratic organization	التنظيم الديواني
Class cleavage	انقسام طبقي
Conscience collective	الشعور الجمعي
Cultural change	التغير الثقافي
Cultural pluralism	التنوع الثقافي
Diachronic correlation	الأرتباط الأمتدادي عبر حقب زمنية
Dispersion	التشتت
Division of labor	نظام تقسيم العمل
Egoistic	الأناني
Encounter causal interaction	تفاعل سببي مواجه
Epistemology	نظرية المعرفة
Ethnocentrism	التعصب العنصري
Front stage region	الأقليم العلني
I	الذات الفردية
In - Group	داخل الجماعة
Imitation	التقليد او المحاكاة
Labeling theory	النظرية الوصمية
Latent function	الوظيفة المستترة
Maladjustment	التوافق السيء
Manifest function	الوظيفة الظاهرة
Me	الأنا الاجتماعية
Mechanical solidarity	التضامن الآلي
Molock of work	مولوخ العمل

Monlogical conduct	تصرف غير منطقي
nonquantitative	المنهج غير الرقمي
Occusion causal interaction	تفاعل سببي احياني
Opposition	التضاد
Organic solidarity	تضامن عضوي
Out - Group	خارج الجماعة
Primary deviance	انحراف اولى
Quentitative	المنهج الرقمي
Quantitative value	القيم المادية الكمية
Rationale	عقلاني
Reliability	الثبات
Saychronic	البعد المتزامن والتجاور والفورية. اللحظة الحاضرة
Secondary deviance	انحراف ثانوي
Self	الذات الأنسانية
Sentiment	الأحاسيس (وجدان وعواطف)
Social solidarity	التضامن الاجتماعي
Sociology of knowledge	علم الاجتماع المعرفة
Stigma theory	النظرية الوصمية
Substitution	الأستبدال
Suicide	الأنتحار
The melting pot	ادماج التنوع الأقلي
Total institution	الهيمنة المؤسسية
Triple melting pot	ادماج التنوع الأقلي الثلاثي
Validity	الصدق

مراجع الفصل

١ ـ لوك . جون . وآخرين ١٩٦١ العقد الأجتماعي « ترجمة عبدالكريم احمد . دار سعد . القاهرة . ص ٩٠ ـ ٩١

2. Barnes, Herry E., 1967 "Social Thought in Early Modern Times" (ed.) Barnes, H. E., An Introduction to the History of Sociology" The University of Chicago, Chicago. p. 29.
3. Ibid., pp. 30 - 35.
4. Alexander, Jeffrey, 1988. "The New Theoretical Movement" (ed.) Semelser, Neil. Handbook of Sociology, SAGE Pub. London. p. 85.

٥ ـ هيز كارلتون . ١٩٦٢ « الثورة الصناعة » تعريب احمد عبدالباقي . منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد . ص ١٦ .
٦ ـ شنايدر . لويس ١٩٦٠ « العالم في القرن العشرين » ترجمة سعيد السامرائي . منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص ٢٣ و ٣٢ .
٧ ـ برون . جفري ١٩٦٣ « الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر » ترجمة عبلة حجاب . منشورات المكتبة الأهلية ـ بيروت ص ١٤٩ .
٨ ـ سوبول . البير ١٩٧٧ «تاريخ الثورة الفرنسية » ترجمة جورج كوسي منشورات عويدات ـ بيروت ص ٥٣٤ ـ ٥٦٧ .
٩ ـ شنايدر . لويس ١٩٦٠ ص ٢٨ .

10. Kecskemeli, Poul. 1979. "Interpretive Sociology Culture and Social Character, (eds.) Lipsel, Symour M. and Lewenthal, Leo, The Free Press of Glencoe, Inc. New York, p. 12.
11. Timasheff, N. S. 1967. "Sociological Theory" Random House, New York, p. 106.

12. Ibid., p. 107.
13. Tared, Gabriel. 1963. "Social Laws" Ruitnbook, H. M. (ed.) Varieties of Classic Social Theory, E. P. Outton Co. Inc. New York, p. 99.
14. Clark, Terry. 1969. "Gabrel Tard" The University of Chicago press, Chicago., pp. 177 - 180.
15. Zeitlin, Irving. 1969. "Ideology and the Development of

Sociological Theory" Prentice-Hall Inc., Englewood, pp. 234 - 275.
16. Ibid., pp. 159 - 171.
17. Weber, May. 1969. "Bureaucratic Organizations", (ed.) Elzioni Amitoi, Readings on Modren Organizations, Prentice-Hall Inc., Englewood, pp. 27 - 31.
18. Sombart, Werner. 1963. "The Sociology of Capitalism" Varieties of Classic Social Theory (ed.) Ruitenbeek, Hendrik, E. P. Dutton and Co. Inc. New York, pp. 164 - 191.
19. Mackee, James, B. 1969. "Introduction to Sociology" Holt Rinehart and Winston Inc. New York, pp. 269 - 273.
20. Dynes, Russull. 1964. "Social Problem" The Free press, New York. pp. 306 - 316.
21. Kirson, Weinbergs. 1970. "Social Problem in Modern Urban Sociology" Prentice Hall Inc. Cliffs. N. J. p. 110.
22. Paul, Mott. 1965. "The Organization of Society" Prentic-Hall Inc., Englewood N. S. p. 248.
23. Dynes, Russell and others. 1964. "Social Problems" Oxford Unive. press., New York., pp. 319 - 325.
24. Mercer, Blaine and Wanderer, Jules. 1970. "The Study of Society" Wadsworth Pub. Inc. Belmont, Calf. p. 206.
25. Sumner, William, G. 1940. "Folkways" Amentor Book. New York, pp. 27 - 28.
26. Strauss, Anselur. 1956. "George Herbert Mead" The Univ. of Chicago press, Chicago. pp. 200 - 233.
27. Collins, Randall. 1985. "Statistics Versus Words" Sociological Theory (ed.) Collins, Randall, Jossey. Bass Inc., Pub. Calif. pp. 329 - 331.
28. Alexander, Jeffrey. 1982. "Positivism Presuppositions" Routledge and Kegan Poul, London, p. 5.
29. Sorokin, Pitirim. 1965. "Fads and Foibles in Modern Sociology" Henry Regnery Co. Chicago, pp. 131 - 140.
30. Lundberg, G. A. 1939. "Foundation of Sociology" The Macmillan Co. New York. p. 76.
31. Ibid., p. 77.
32. Blalock, Hubert. 1968. "The Measurement Problem" Methodology in Social Research (eds.) Blalock and Blalock, McGraw-Hill Book Co. New York. pp. 9 - 13.
33. James, Davcid and Taeuber, Karle. 1985. "Measures of Segregation" Sociological Methodology (ed.) Tuma, Nancy. The Jossey-Bass San Francisco. p. 3.

34. Galtung, Johan. 1975. "Diachronic Correlation" Blalock, H. M. and others (eds.) Quantitative Sociology Academic press Inc. New York., p. 44.
35. Collins, Randall. 1985. p. 334.
36. Ibid., pp. 329 - 347.
37. Ekeh, Peter. 1974. "Social Exchange Theory" Heinemann London, pp. 3 - 4.
38. Ibid., pp. 4 - 8.

٣٩ ـ البيرماني . خزعل ١٩٦٨ « التاريخ الأقتصادي » شركة الطبع والنشر الأهلية ـ بغداد ـ ص ٣٠٠ و ٣١٢ .

40. Gouldner, Alvin. 1971.. "The Coming Crisis of Western Sociology" Equinox Boooks, New York, p. 138.
41. Parsons, Talcott. 1966. "Societies" Prentice - Hall Inc., Englewood Clif., pp. 18 - 19 .
42. Turner, Jonathan. 1974. "The Structure of Sociological Theory" The Dorsey press, Homewood, III. p. 35.
43. Gouldner, Alvin. 1971. p. 139.
44. Alexander, Jeffrey. 1988. p. 83.
45. Ogburn, William F. and Nimkoff, Meyer. 1958. "Sociology" Houghton Mifflin Co. Boston, pp. 636 - 662.

٤٦ ـ ارون . ريون ١٩٦٨ « امم قديمة واوربة جديدة » اوربة الجديدة (تحرير ، ستيفن جروبارد ـ ترجمة حسن صعب . مكتبة لبنان ص ٥٠ .
٤٧ ـ تورين . الان ١٩٧٩ « من اجل علم الاجتماع » ترجمة تيسير شيخ الأرض . منشورات وزارة الثقافة والأرشاد القومي ـ دمشق ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

48. Gouldner, Alvin. 1971. p. 157.
49. Parsons, Talcott. 1962. "Toward a General Theory of Action" Harper and Row Pub. New York, pp. 53 - 55.
50. Merton, Robert. 1967. "Social Theory and Social Structure" The Free press. New York. pp. 20 - 22, 51.
51. Merton, Robert. 1969. "The Role-set" Coser, Lewis and Rosenberg-Bernard (eds.) Sociological Theory. The Macmillan Co. London, pp. 367 - 370.
52. Merton, Robert. 1969. pp. 140 - 157.
53. Biersted, Robert. 1981. "American Sociological Theory" Academic press. New York. p. 480.
54. Schwartz, Howard and Jacobs, Jarry. 1979. "Qualitative Sociology" The Free Press, New York. p. 193.

55. Leslie, Gerald and et al. 1973. "Order and Change" Oxford Univ. press, New York, pp. 277 - 278.
56. Collins, Randall and Makowsky, Micheal. 1972. "The Discovery of Society" Random House, New York, pp. 202 - 207.
57. Goffman, Erving. 1961. "Asylums" Double-day and Co. Inc. New York. pp. 4 - 7.
58. Alexander, Jeffrey. 1988. "Sociological Theory" Aldine Pub. Co. Chicago, pp. 17 - 18.
59. Wallace, Walter. 1969. "Sociological Theory" Aldine Pub. Co. Chicago. pp. 17 - 18.

60. Abraham, Francis. 1982. "Modern Sociological Theory" Oxford Univ. Press. P. 287.
61. Wallace, Walter. 1969. p. 18.
62. Abraham, Francis. 1982. p. 288.
63. Goode, William. 1973. "Explorations in Social Theory" Oxford Univ. Press. New York. pp. 23 - 24.
64. McFarland, David. 1970. "Intragenerational Sociological Mobility as a Markov process" American Sociological Review" Feb - Jan. pp. 144 - 147.
65. Eaton, Curtis. 1969 - 1970. "Studying Mass Layoff Through Markov Chains" A Journal of Economy and Society" No. 9 Octo., pp. 94 - 99.
66. Cooley, Charles H. 1968. "The Roots of Social Knowledge" McNall, Scott (ed.) The Sociological Perspective, Little Brown and Co. Boston, pp. 5 - 8.
67. Lungberg, George. 1964. "Foundations of Sociology" David McKay Co. Inc., New York. pp. 4 - 6.

٦٨ ـ مانهايم . كارل ١٩٦٨ « الأيديولوجية والطوبائية » ترجمة عبد الجليل الطاهر . مطبعة الأرشاد ـ بغداد ص ١٩ .

69. Himes, Joseph. 1967. "The Study of Sociology" Scott, Foresman and Co. New York, pp. 7 - 10.

الفصل الثاني
المصطلحات المنشطرة

المقدمة :

يعني المصطلح مفردة دالة تشير الى مدلول الذي يتم نحته من سياق الواقع الاجتماعي او التطورات الاجتماعية . اي الكلمة تجسد مفاهيم الحياة الاجتماعية العلمية بمعنى ادق . يكون نحت وصك المصطلح من خلال متغيرات الحدث الاجتماعي وعلاقتها ببعضها والمؤثرات الداخلية والخارجية والضاغطة عليها .

يتناول هذا الفصل المركبات المزدوجة المتضادة والمتضادة المشتركة التي تقضي التزاماً بأحد الضدين او المترادفين . غير متساويين بالقيمة .بل مكملة بعضها بعضاً .

وان كل مركبة مزدوجة تمثل انشطار المصطلح الاجتماعي الى مزدوجتين مترادفتين او متنافيتين او متناقضتين . اذ تم انشطاره بموجب حكم الظاهرة او المشكلة المدروسة او التطورات الاجتماعية او العلمية لعلم الاجتماع وليس استناداً الى رغبة المنظر او الباحث الاجتماعي .

وقبل ان ابدأ نقاشي وطرحي للمركبات المزدوجة اقدم معنى المصطلح الفارغ ـ لما له صلة بالمركبات ـ الذي لايحتوي على ترابطات بين متغيراته وخواصة التي عبر عنها او احتواها الامر الذي يجعله خالياً من المعنى والدلالة الرصينة . فيتحول الى مصطلح فارغ من المعنى لعدم وجود ترابطاً بين دلالاته . وقد لايشترط المصطلح على انسجام محتوياته الفكرية او الدلالية او الوصفية . بل قد يتضمن تناقضاً متضاداً لان محتويات الظاهرة الاجتماعية متناقضة او متضادة وهذه ليست بنقيصة اصطلاحية . لذا فأن الثنائية المتناقضة او المترادفة لاتعني انقطاع الصلة بين مصطلحين . بل تكون معرفة متساوقه ومكملة الواحدة للاخرى . وان غياب الرديف يعني بتر المعرفة عن ذلك المصطلح ان قسماً قليلاً جداً من الثنائيات في علم الاجتماع استدركت من قبل علمائه فكونت معرفة جديدة في

مصطلحات علم الاجتماع . والقسم الاكبر ترك متناقصاً لم يصل الى حالة المصطلح الجديد . بل ترك مطلقاً ولم يستدركه صاحبه او زملائه من الاجتماعيين الذين عاصروه او الذين اتوا بعده وهذه حالة غير كاملة او ناضجة في مجال المصطلحات الاجتماعية .

فمثلاً ماهو المصطلح الثالث للتضامن الآلي والعضوي او المجتمع المستقر والديناميَ او المجتمع الديني والدنيوي او الدور المكتسب والموروث أو المجتمع الصناعي والعسكري ؟ اذ هناك حالة ثالثة مرتبطة بالمركبة المزدوجة او سترتبط بهاداخل المجتمع. اين هي؟ومحتمل ايضاً ان هناك حالات متدرجة بين المصطلحين المترادفين لم تسجل وتوضح من قبل عالم الاجتماع . بل جعل مصطلحه مستقطباً نهايتين او رأسين فقط خال من الدرجات بينهما . وهذا تذبذب قطبي (بين قطبين) لايمثل الحركة المستمرة في اتجاه واحد . بل حركة رقاصية (نسبة الى رقاص الساعة) تذهب وتجيء بين رأسين فقط وبمسافة محدودة جداً لاتمثل تطوراً مصطلحياً في علم الاجتماع ولا تمثل الوفاق والانسجام والتصافي في الحياة الاجتماعية . في حين هناك حالات تمثل ذلك وان النظام الاجتماعي يطرح ذلك ولا يتوقف عند حد القطبين فقط لانه متطور واذا وقف عند نقطتين فأنه سوف يستقر في مجال محدود جداً ويقضي على ذاته وينهي نفسه . لكنها لم تكشف من قبل العالم او الباحث . وان الحالات الاستدراكية التي تناولها بعض الاجتماعيين عبرت عن دينامية الحياة واتحاد القطبين المتنافيين او المتناقضين والذي عبر عن حالة او مستوى راقي ورفيع من التنظيم في الحياة الاجتماعية . وهذا يعني ان الاستدراك لايعني وحدة الاضداد فحسب بل التعبير عن تنظيم جديد لما حصل في الحياة الاجتماعية المستمرة في النمو والتطور . فضلاً عن كشف وظيفة المنظَر او الباحث الاجتماعي تجاه المصلح الذي يربط بين المصطلحات المتنافية او المتناقضة وهذه مهمة عقلية ومنهجية اساسية في عمل وتفكير المنظَر او الباحث الاجتماعي وبالوقت ذاته يشير الى ان المنظرين الاجتماعين الذين استخدموا الثنائية الاصطلاحية لم يبلغوا حالة التطور الاجتماعي المستجدة في المجتمع . ولم يوصلوا المصطلح الاجتماعي الى انضاجه واكماله البنائي الدقيق . بل بقي متذبذباً ومتأرجحاً بين حالتين متنافرتين .

لان الباحث الاجتماعي عندما يلزم نفسه بتجديد مصطلح او نحت مصطلح مضاد له او رديف له . يتوجب عليه ان يصل الى المصطلح الكلي الذي يعبر عن حالة جديدة وليس الوقوف بين مفترق الطريق او ابقاء المصطلح مغلقا (الشيء

ونقيضه) او (الشيء ورديفه) وهذا ركود اصطلاحي يجعل من مصطلحات ومفاهيم علم الاجتماع مسبته في مرحلة تطورية واحدة وثابتة لاتقوده الى التغير او التطور .

ولما كانت حياة المجتمع متطورة ، فأنه يتطلب من علم الاجتماع ان يطور مصطلحاته وبغيرها حسب حالات تطور المجتمع لانه يمثل مرآة عاكسة للمجتمع ولحالاته التطورية وان الوقوف او الركود في حالة تطورية واحدة لايعطي الحيوية لعلم الاجتماع ، بل يجعله مستقرا في مرحلة علمية واحدة وليس مواكباً لمراحل تطور المجتمع . اذ هل يعقل ان الحياة الاجتماعية لم تصل في نموها وتطورها الى حل التناقضات او التباينات التي سادت المجتمع في مراحل تطورية سالفة ؟ اقول ألم يحدث تضامناً اجتماعياً تجاوز الالي والعضوي ليعبر عن تضامن ثالث يختلف عن السابقين ؟ ألم يوجد دوراً اجتماعياً متطوراً متجاوزاً الدورين المتناقضين للدور المكتسب والوراثي في المجتمع ؟ نعم هناك تحولات وتطورات وتغيرات عديدة وكثيرة حصلت وستحصل في المجتمع بيد ان الباحث الاجتماعي لم يصل اليها . بل وقف عند حد التناقض ولم يواكب تطورات تطورات مجتمعه . وهذا يعني ان الباحث الاجتماعي قد تخلف في مهمته العلمية فلم يواكب تطورات مجتمعه . مجتمعه . في حين المطلوب منه ـ علميا ـ ان يكشف عن احداث التطورات الاجتماعية . والشيء المحزن والمؤسف يطالب الباحث الاجتماعي ان يتنبأ عن مستقبل الاحداث او الظواهر الاجتماعية . كيف يستطيع تحقيق هذا المطلب العلمي وهو غير قادر على مواكبة ومساوقة التطورات الاجتماعية ورفد علمه باستدراكات قويمة وناضجة .

هذا ولابد لي بعد هذا الاستطراد ان اشير الى رؤية رينهارد بندكس (عالم اجتماع امريكي معاصر) الذي يرى ان المصطلحات الاجتماعية لاتعبر عن الواقع الاجتماعي بشكل تام وكامل وذلك راجع للفترة الزمنية التي كتبت فيه وما يترتب على تطور المجتمعات من تحولات وتغيرات الامر الذي يتطلب معالجة المصطلحات ومتونها بين الفينة والاخرى . فضلا عن اختلاف المنظرين الاجتماعيين في نظرتهم للحقيقة الاجتماعية فمثلاً يرى دور كهايم . الحقيقة الاجتماعية من خلال التصاق الفرد بجماعته الاجتماعية وخضوعه والزامه لضغوطها واعرافها ونواميسها بينما يراها جورج زمل من خلال تفاعل الفرد مع زملائه الاخرين المحيطين به ويجدها ماكس فيبر من خلال التصاق الفرد بفعله الاجتماعي .

هذا من جانب . ومن جانب اخر فأن الحياة الاجتماعية غير منسجمة في ضوابطها . فهي تارة تدفع الفرد الى التفاعل مع الاخرين وتارة اخرى تسحبه منها . واول من انتبه الى هذه الحقيقة في علم الاجتماع جورج زمل وتبعه روبرت بارك عندما تكلم عن المنافسة والاتصال بين الافراد في الحياة العصرية اذ تطلب منه ان يبذل جهداً كثيراً لكي يتفوق على زملائه في تحقيق اهدافه الخاصة . بينما تلح عليه تنشئته الاسرية أن يكون تعاونياً في تعامله مع الاخرين .

علاوة على ذلك فأن الباحث الاجتماعي لايستطيع ان يغط جوانب الحياة الاجتماعية كافة اذ نجد فردين يعيشان في مجتمع واحد يخضعان لثقافة واحدة لكنهما يختلفان في سلوكهما وتفكيرهما .

فضلا عن ذلك فأن هناك ظروف موضوعية جعلت علماء الاجتماع استخدام المزدوجات الاصطلاحية في علمهم ويمكن تلخيص هذه الظروف بالنقاط الاتية :

١ ـ عدم تملك الانسان حريته الكاملة وبالوقت ذاته عدم اعتماده على المجتمع بشكل تام وكامل .

٢ ـ امتلاك الانسان نوعين من العلائق الاجتماعية الاولى اولية والثانية ثانوية . لايستطيع الاستغناء عن احدهما في تعامله مع الاخرين .

٣ ـ استحالة تغطية الظاهرة الاجتماعية من كافة محتوياتها ومضامينها .

٤ ـ تناقض الحياة الاجتماعية وعدم انسجامها .(١)

٥ ـ الازدواجية المتناقضة والمتنافية : قدم هذا الظرف روبرت مرتن (منظر امريكي معاصر) اذ قال ان المجتمع يتضمن تناقضاً مزدوجا بشكل مستديم أت اليه من بنائه الاجتماعي وليس من الصفات الشخصية للفرد . ولما كان البناء الاجتماعي مؤلفاً من عدة ادوار اجتماعية فقد صنفها ـ مرتن ـ الى خمسة انواع تعكس الازدواجية المتناقضة والمتنافية وهي مايأتي : ـ

١ ـ الازدواجية الصغيرة : التي تعني نواة الازدواجية المتناقضة المتمثلة في الميول المعيارية المتعاكسة في الدور الاجتماعي . مثل مطالبة المكانة الاجتماعية للفرد بالتعامل مع بعض الناس بشكل رسمي ومع بعضهم الاخر بشكل غير رسمي .

٢ ـ تنازع مصالح وقيم المواقع الاجتماعية المشغولة من قبل شخص واحد فتنعكس على سلوكه ومواقفه واحكامه وعلائقه . مثل اشتغال الام العاملة خارج الدار اذ لاتتساوق مصالح موقعها كزوجة مع مصالحها كعاملة مع قيم الام ومصالحها كربة بيت وهكذا . فتتنازع مصالح مواقعها الاجتماعية الشاغلة لها

٣ ـ تنازع عدة ادوار مرتبطة بموقع اجتماعي واحد ومتعلقة به وهذا بدوره يخلق عنده ازدواجية موقفية وقيمية وسلوكية متنافية غير متصافية في حياة شاغل الموقع مثل الشخص الذي يشغل موقع الاستاذ الجامعي ومرتبط مع مواقع اخرى في المؤسسة البحثية والاشراف على دورات تدريبية ، والتدريس في معاهد اكاديمية عليا واستشارات اختصاصية في مراكز بحوث وما شابه .

٤ ـ ازدواجية القيم الثقافية داخل المجتمع ، حيث تكون هناك قيما تمجد شرف العمل وبجانبها تسمع او تبرر انحراف الفرد عليها .

٥ ـ تنازع البناء الاجتماعي مع البناء الثقافي اذ ان القيم البنائية تغرس في ضمير الفرد الاجتماعي بيد ان القيم الاجتماعية لاتقدم له البدائل في حالة عدم امتثاله للقيم البنائية فيضطر تحت هذا الضغط الانحراف عنها فيحصل التنازع بين البنائين (الاجتماعي والثقافي) .

٦ ـ الازدواجية الثقافية والاجتماعية عند الذين يعيشون في مجتمعين او ثقافتين مختلفتين مثل المهاجرين من مجتمع الى اخر او عند الرجل الهامشي (على حد تعبير روبرت بارك) الذي يعيش على هامش مجتمعين او ثقافتين وليس في مجتمع واحد او ثقافة واحدة .(٢)

نستنتج مما قدمه مرتن ان الازدواجية المتنافية كائنة بشكل بنائي في المجتمع ولايمكن تجاوزها او الابتعاد عنها وهذا بدوره يخلق سلوكاً مزدوجاً ومواقف متناقضة عند الانسان الذي بدوره يبلور ظواهر ومشكلات اجتماعية متنافية ومتناقضة الامر الذي يدفع علماء الاجتماع الى تناولها ودراستها الغريب في طروحات مرتن انه شخّص اسباب الازدواجية المتناقضة في المجتمع لكنه لم يطرح او يقدم او يدرس اية مزدوجة اجتماعية ظهرت في المجتمع الامريكي او غيره باستثناء ماكتبه عن الوظيفة المستترة والظاهرة التي لم تمثل ظاهرة او مشكلة اجتماعية بل مصطلحاً متناقضاً هدفه مصطلح الوظيفة الاجتماعية الذي يمثل ـ مرتن ـ احد مفكريها وعلمائها ولم يكن هدفه او مراده ـ استخراج مزدوجة متناقضة من المجتمع . مع ذلك فأن ماقدمه مرتن من تشخيص لاسباب الازدواجية كان عملا علميا يصب في المجرى الاجتماعي العلمي ولم يخرج عن موضوعية واهتمامات علم الاجتماع .

في تقديري يعود سبب عدم استخراج مزدوجة متناقضة من المجتمع الى ان مرتن قد استعار مصطلح « المزدوجة المتناقضة » من علم النفس اذ أول من استخدم هذا

المصطلح كان « بلولير » الذي طرحه قبل خمسون عاماً قال فيه « هناك ثلاثة انواع من الازدواجية عند الانسان الاولى ، ازدواجية عاطفية وتضم المشاعر السلبية والايجابية التي تتمثل في عواطف الابوين لابنائهم . ثم الازدواجية الاختيارية التي يحصل فيها صراع الرغبات في اختيار الانسان الصعب او اتخاذ قرار عسير او الازدواجية الثقافية التي تمثل حمل الانسان لافكار متضاربة . وكان فرويد قبل بلولير قد استعمل هذا المصطلح عندما وصف الحب والكراهية عند الانسان تجاه الشخص الواحد . ان علم النفس يؤكد على ميل الخبرة الذاتية في اتجاهات متضاربة مثل الجب والكره والقبول والرفض لنفس الموضوع او التأكيد والانكار .
انتبه مرتن الى هذا المصطلح فاستعاره من علم النفس ثم وظفه في علم الاجتماع بشكل نظري وليس عملي اذ لم نجد توظيفه بشكل تطبيقي .

لكن الشيء الغريب في طرح مرتن انه ميّز بين ثلاثة انواع من الادوار البنائية هي الشكلية ـ الصورية والترسيمة الاجتماعية والتحليلية . يتضمن الاول التوقعات البارزة والمعروفة للجميع ولايختلف عليها احد مثل دور ربة البيت او رجل الاعمال . فالقاص والمؤرخ والمسرحي وعالم الاجتماع يستطيعون ان يستدلوا على توقعات ربة البيت او رجل الاعمال .

اما مضمون دور الترسيمة الاجتماعية فأنه مركب نوعما لانه يتطلب معرفة علاقته بالادوار الاخرى المجاورة له والمتعلقة به والمتفاعلة معه اذ لايمكن معرفة توقعاتها الا من خلال الحياة الاجتماعية اليومية العملية فهي ليست بعامة او مجردة . اما الدور التحليلي فأنه يفكك مكونات الدور الاجتماعي من اجل معرفة خواصها وعلاقة بعضها ببعض(٢) في الواقع هذا تمييز جميل للادوار البنائية التي قدمها مرتن بيد ان التساؤل يفرض نفسه هنا وهو . ماهو نوع الدور البنائي الذي يكون متناقضاً بشكل مزدوج مع الادوار الاخرى في الحياة الاجتماعية بحيث يخرج بمزدوجات اجتماعية متناقضة ؟ ان مرتن لم يربط انواع الادوار الازدواجية ولم يوضح ايضاً اي نوع منها بسبب الازدواجية واي ـ منها لايسبب ذلك .

فضلا عن ذلك . المعروف عن مرتن انه من اقطاب النظرية البنائية ـ الوظيفية التي تجاهل وتتجنب قدر الامكان التناقضات والنزاعات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع كيف اذن يثير مسألة الازدواجية والنزاعات الدورية الدائمة في المجتمع ؟ ولو انه قام بتوظيفها بشكل سطحي واولي . فأن الاستفهام يبقى مرفوعاً ضده في

هذا الخصوص ننتقل بعد ذلك الى منظر امريكي معاصر اخر قدم لنا ظرفين يؤكد عدم تصافي المجتمع وهما .

٦ ـ عدم تجانس افراد وفئات المجتمع اذ ان المجتمع يتكون من افراد موزعين على مواقع اجتماعية مختلفة ومتباينة في اهدافها ومصالحها ووظائفها وهذا يشير الى ان عدم التجانس الاجتماعي الذي يعني توزيع الافراد على جماعات مختلفة . وكلما كانت الجماعة كبيرة الحجم باعضائها وصغيرة الحجم بين الجماعات الاخرى في المجتمع الذي يعيش فيه . زاد عدم تجانسها فالمجتمع يتضمن جماعات عرقية ودينية وقومية وسياسية واقتصادية ومهنية وماشابه . هذا التباين وعدم التجانس الاجتماعي يخلق نوعين اساسيين من العلائق الاجتماعيةتكون الاولى داخلية (داخل الجماعة) والثانية خارجية (خارج الجماعة) الامر الذي تخلق حواجز ومواقع في اتصالات الجماعة وتفاعلاتها الاجتماعية وهذا بدوره يزيد من عدم التجانس .
هذه الحقيقة التي اوردها بلاو تفرز ظواهر ومشكلات غير متجانسة ايضاً مترادفة ومتضادة ومتصارعة بحيث لايستطيع الباحث الاجتماعي تجاوزها او تركها او تجاهلها بل تناولها ودراستها لانها احدى معطيات عدم تجانس المجتمع

٧ ـ عدم تساو او تكافؤ مكانات الافراد الاجتماعية على السلّم الاجتماعي اذ يوجد افتراق ذا مدايات متباينة في مسافاته الاجتماعية اذ تتحدد وتتقرر من قبل الدخل الاقتصادي والثروة والنفوذ الاجتماعي والتحصيل الدراسي والانتماء السياسي للفرد فمكانات الافراد لاتتساوى داخل المجتمع بل تتدرج حسب مكوناتها (دخل وثروة ونفوذ وماشابه) وهذا يعني ان علائق بعضها ببعض لاتكون من مستوى واحد بل مختلفة باختلاف درجات وضعها على السلّم الاجتماعي وبالوقت ذاته لاتكون ادوارها واحدة بل تتأثر بموقعها (على السلم الاجتماعي ايضاً فتوزع المكانات الاجتماعية يحدد ويقرر حجم الاختلافات الاجتماعية ودرجتها فكلما كانت المسافة الاجتماعية بعيدة بين المواقع الاجتماعية زادت حجم ودرجة الاختلافات الاجتماعية وعدم التكافؤ الاجتماعي والعكس بالعكس .(١)

بعد ان فرغنا من تحديد ظروف تبلور المزدوجات المتناقضة والمتنافية في علم الاجتماع نتحول الى تحديد ايجابياتها وسلبياتها لكي ننهي او نصل الى نهاية المقدمة لهذا الفصل

ايجابيات المزدوجات :

١ ـ انها تمثل احد منهاجية علم الاجتماع في الاستقصاء والبحث الاجتماعي .
٢ ـ انها الة بحثية وقائية ضد التحيز الكائن في كل مفهوم او مصطلح اجتماعي .
٣ ـ كشف ماهو مفقود ومهمل في الظاهرة المدروسة .
٤ ـ التعمق لا التسطح في دراسة الظاهرة الاجتماعية .
٥ ـ انها اسلوب لغوي يتضمن صفات مترادفة ومتساوقة لبعض اوجه الحياة الاجتماعية
٦ ـ انها تمثل الحدود العليا في توضيف الظاهرة الاجتماعية .
٧ ـ انها حالة اصلاحية لمصطلحات علم الاجتماع(٠)
٨ ـ توضح هدف الباحث في ازالة الغموض والابهام في بعض اوجه الظاهرة المدروسة الامر الذي يسهل تفسير وتوضيح الوجه الثاني لها . لكي تكتمل الصورة نسبيا ـ عند القارىء .
٩ ـ تحدد محاور اساسية للظاهرة ثم البحث عن تفاسير لها في وجهي الظاهرة من اجل معرفة درجة تكرارها وعمق وشدة علاقتها في كلا الوجهين
١٠ ـ تفسير احد اوجه الظاهرة من خلال نقيضها
١١ ـ اعطاء تصور اولي لدرجة موضوعية الباحث او العالم في دراسته للظاهرة من خلال طرحه وتفسيره للنقيضين او للمتنافيين او للوجهين
١٢ ـ استخدام الاسلوب المقارن في منهجية الباحث او العالم .
١٣ ـ انه احد اوجه النقد الذي يمكن ان نسميه بالنقد المستتر او غير المعلن لانه يحاول طرح النقيض او العكس للظاهرة من الجانب الاخر لها دون نقدها من خلال مضمونه
١٤ ـ انها الية تصنيفية ترتب الذات والعلائق والجماعات والمكانات والادوار والمجتمعات حسب انواعها واسبقيتها
١٥ ـ انها احدى مؤشرات التغير الاجتماعي . اذ تبرز التحولات الاجتماعية التي ظهرت في العلاقات والجماعات والمجتمعات

سلبيات المزدوجات :

انه لاتخضع للاختبارات الافتراضية
٢ بعضها ممثل التكرار والسجع فمثلا ماقدمه هنري مين في تمييزه للمجتمع

العافدي والمكاني (المنزلة الاجتماعية) كانت مضامينها منسوخة ومكررة او مسوخة لمضامين ماجاء به دوركهايم في التضامن الالي والعضوي ومسوخ ايضا لما قدمه تونيس في المجتمع العام والمحلي ومكرر ايضا لمضمون ماطرحه ماكيفر عن الثقافة والمدنية وشبيه تمييز ريدفيلد بين المجتمع الريفي والحضري(٦) .

في الواقع من ابرز سلبيات المزدوجات تكرار مضامين بعضها وعدم اثباتها باضافات جديدة من خلال ماقدمه بندكس نستنتج ان المزدوجات الاصطلاحية لاتخلو من فائدة في الوصف والتحليل لبعض جوانب الظاهرة الاجتماعية او الحياة الاجتماعية حيث هناك مزدوجات اصطلاحية عير منسوخة او متكررة غطت بعض تطورات الحياة الاجتماعية والى المزدوجات (سواء المنسوخة او غيرها) جاءت الى علم الاجتماع من خلال تطورات الحياة الاجتماعية ولم تأت بشكل عشوائي او ارادي بشكل متعمد او يقصد اليه الباحث الاجتماعي . بل بسبب الظروف الموضوعية التي فرضت على علم الاجتماع وقد اوردنا ذلك في الفصل الاول عندما تناولنا الثورتين (الصناعية والفرنسية) والحرب العالمية الثانية ولما كانت المزدوجات تمثل اسلوباً لغوياً وكالية منهجية تحصن المضمون الاصطلاحي ضد التحيز الكائن في المصطلح نفسه . فانها تستخدم من قبل الباحثين في فترة زمنية وفي كل مجتمع حسب دقة وملاحظة الباحث للظواهر المزدوجة او للمتغيرات المزدوجة في الظاهرة الواحدة وسوف لانجد توقف استعمال هذه الالية المنهجية في أية فترة زمنية او اي مجتمع انساني لان الظواهر الاجتماعية يمكن التوغل اليها من خلال مزدوجات متناقضة او مترادفة او متنافية من اجل تغطية اكبر مساحة منها وشمول اكبر عدد ممكن من متغيراتها ..

ان هدف هذا الفصل لايمكن في طرح عدد من الثنائيات في علم الاجتماع ومناقشة مضامينها بل استخراج القاسم المشترك بينها ومن ثم التعرف على اساليب المنظرين او الباحثين في طروحاتهم ومعالجاتهم لموضوع الثنائية والمقارنة بينها لامن اجل النقد او التقويم . بل من اجل حصر اكبر عدد ممكن من الثنائيات البارزة في علم الاجتماع كعينة لوحدات تحليلية وليس تجميعية (اي من اجل جمع المعلومات منها) انما استخدام الثنائية الواحدة كوحدة تحليلية بقصد الحصول على مسارات بارزة في الثنائيات من خلال آلية المقارنة لكي نخرج بمدى القيمة العلمية للثنائية ومدى نجاحها او فشلها كأداة استقصائية في البحث الاجتماعي استخدمت من قبل الاجتماعيين على الرغم من اختلاف انتماءاتهم النظرية (بنائي او وظيفي او صراعي

او تبادلي) ـ والاهتمامات الحقلية (صناعي او حضري او اسري) ومعتقداتهم الايديولوجية (رأسمالي او اشتراكي) من جانب اخر هناك محاولات لعلماء الاجتماع المحدثين استدركوا ما اغفله او اهمله بعض المنظرين الاجتماعيين الذين سبقوهم .

ففي ادبيات علم الاجتماع الحديث نظريات صورت وحللت الواقع الاجتماعي من زاوية واحدة متأثرة في ذلك بتراثها النظري والايديولوجي الذي بنيت عليه او استفادت منه في التأطير الفلسفي والمنطقي والمنهجي وتأثرت ايضاً بمنهجية الباحثين والمنظرين الذين ينتمون الى مدارس نظرية في علم الاجتماع . لكنهم لم يستدركوا الاهمال والاغفال الذي اصاب المفاهيم والمصطلحات الثنائية المتناقضة التي طرحها الرواد او المحدثين بل تناولوا استدراكات اوسع من ـ ذلك وهو ردم الهوة الكبيرة الحاصلة بين النظريات الاجتماعية السائدة في ميدان علم الاجتماع . فمثلاً هناك النظرية الصراعية التي تؤكد على تناقضات الحياة الاجتماعية وتنازعاتها ولم تتناول الجوانب الايجابية للصراع ـ مثلاً ـ او لم تربطه مع البناء الاجتماعي .

وهناك النظرية البنائية ـ الوظيفية التي تؤكد على التضامن والتعاون والتوازن بين مكونات البناء الاجتماعي ولم تدرس الصراعات الحاصلة بينها . بل اعتبرتها حالة اعتلال يجب معالجتها او ازالتها .

وتوجد النظرية التفاعلية الرمزية التي تدرس السلوكية الاجتماعية اليومية الدائرة بين الافراد في الشارع والمدرسة والتنظيمات الاجتماعية الرسمية وما لها من آثار في بناء العلائق الاجتماعية دون الاهتمام بالبناء الاجتماعي وأثره على تشكيل التفاعلات او دراسة الصراع بين الافراد .

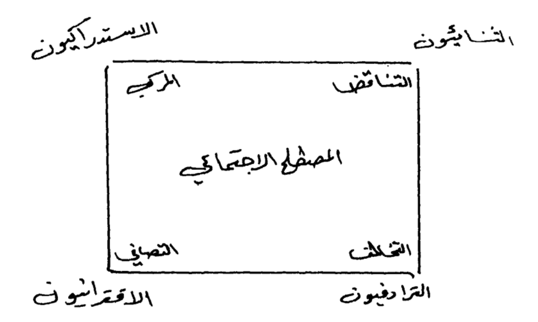
والنظرية التبادلية المبنية على المنفعة المادية والمعنوية الحاصلة بين الافراد في حياتهم اليومية دون ابراز الجوانب النفسية والاقتصادية في عملية تبادل منافع الافراد .

هذه الأهمالات والاغفالات جذبت انتباه المنظرين الاجتماعيين المحدثين لاستدراكها وجعل النظرية الاجتماعية متكاملة في نظرتها وتحليلها . فهي محاولة استدراكية تكميلية مثل محاولة جبرها رد لينسكي للنظرية الصراعية والوظيفية واستدراك جورج هومنز للنظرية البنائية الوظيفية واستدراك بيتر بلاو للنظرية

الوظيفية واستدراك روبرت مرتن للنظرية [illegible] وفردريك [illegible] و [illegible] [illegible]
للنظرية البنائية ـ الوظيفية واستدراك رالف داريندروف في النظرية الماركسية

مرتسم الثنائيات او التثنيات :

لهذا الفصل مرتسماً تخطيطياً يوضح علاقة مفاصلة الاساسية من اجل توضيح مضمونه شكلاً ونصاً .



ففي الشكل التوضيحي اعلاه . الثنائيون هم الباحثون الذين طرحوا مفاهيم ثنائية متناقضة في دراستهم .

والترادفيون :

طرحوا مصطلحات اجتماعية ذات رؤية عامة للحياة دون تغطية كافة اجزائها ومن ثم شطروا المصطلح الى شطرين مترادفين متخالفين في المتن

اما الاقترانيون :

فقد طرحوا مصطلحات ثنائية بشكل متصافي لاتتضمن التخالف في المتن وقد لايأخذ الجانب المقارن بينهما . بل عندما يحدد المصطلح الاول . يذهب فيما بعد الى تحديد وتوصيف او تحليل المصطلح الثاني الذي يكون متنه متصلاً بمتن الاول ومتساوق معه لكن لايمثل نقيضه بل يمثل امتداداً له .

والاستدراكيون :

هم الذين انتبهوا الى نقائص وثغرات النظريات الاجتماعية وفسروها دون الاخذ او الاستعارة من مفاهيم او قضايا او نصوص منها بل ركبوا المصطلح من ثلاثة مفردات

ان سياق البحث يلزمني ان لا اغفل بهذا الصدد ان اقول اننا سوف نجد ان المنظرين يذهب معهم الاستدراكيون لانهما من اصحاب النظريات ولهم دراية بنقائص النظريات الاخرى . وسنجد ايضاً توقف عمل الاستدراكيين العلمي على الثنائيين لانه لولا الثنائية المتناقضة لما تمكن الاستدراكيون بطرح استدراكاتهم

اما المنظرين فان علاقتهم تبادلية مع الثنائيون لان النظرية الاجتماعية تطرح ـ في بعض الاحيان ثنائيات في مفاهيمها وقضاياها النظرية . وبالوقت ذاته فان الثنائية المتناقضة تشكل نظرية اجتماعية او علم اجتماع كامل .

اخيراً سنجد كذلك الثنائي المتناقض يرفض المستدرك لانه لايريد ان يبتز او يستغل نتاجه من قبل باحث او منظر اخر يعمل منه عملاً علمياً جديداً يحمل اسم وشهرة المستدرك

مفاصل التثنيات (الثنائيات)

حدد هذا الفصل اربعة مفاصل ادرجت تحت كل مفصل عدة مفاهيم تثنيئية وهي ماياتي

أ ـ تثنيئية متناقضة بشكل منفصل :

التي تشير الى تحديد مصطلحين متخالفين ومتدافعين بالنوع والطبيعة، لايرتبطان بأي شكل. لانهما لايجتمعان بوجه واحد. فضلاً عن ذلك يمكن تسمية هذا المفصل من التثنيات بالاطراد المقترن، اي ان ماموجود من صفات في المفردة الاولى يكون نقيضه من صفات في متن المفردة الثانية لكن لاتوجد من صفات المفردة الاولى مع الثانية، انما توضح تباين صفات المفردتين العاكستين للظاهرة الاجتماعية اذ ان نفس الصفات الموجودة في متن المفردة الاولى نجد نقيضها في متن المفردة الثانية. وذا يعني في المنطق التجريبي ان المفردة الثانية تكون بمثابة مفردة ضابطة للاولى والعكس صحيح، وبالوقت ذاته فان وجود صفات متناقضة بين المفردتين لاتعكس المضاهاة المنهجية اي تشابه الصفة الواحدة عند المفردتين الامر الذي لايساعد الباحث على استخراج او استنتاج تعاميم على الظاهرة المدروسة اذ لم يقدم لنا دوركهايم تعاميم عن التضامن الاجتماعي بل فصله الى قسمين ولا هربرت سبنسر او تونيس او بيكر عن المجتمع بل ميزوا بين نوعين فقط وذلك راجع الى عدم تساوق صفات متون المفردتين.

وهذا يدعنا الى القول بأنه لما كانت الحياة الاجتماعية غير متساوقة في ظواهرها واحداثها فان التثنيات الاجتماعية سوف تكون تحصيل حاصل فهي اذن لاتمثل او تعكس محاكاة المنظرين بعضهم لبعض في هذا الخصوص، بل تمثل خضوعهم لطبيعة ونوع الظاهرة الاجتماعية على ان لانغفل حقيقة وجود ظواهر اجتماعية متساوقة داخل المجتمع بل ان بعض المنظرين الذين طرحوا مصطلحات ثنائية قدموا في آن الوقت مصطلحات متساوقة مثل دوركهايم (نظام تقسيم العمل) جورج ميد (التفاعل الاجتماعي) باريتو (صفوة المجتمع) روبرت مرتن (البناء الاجتماعي) وغيرهم.

نقدم الان بعض الثنائيات المتناقضة بشكل منفصل وهي ما يأتي :

١ ـ المجتمع التقليدي والحضري.
٢ ـ المجتمع المحلي والعام.
٣ ـ المجتمع الديني والدنيوي.
٤ ـ المجتمع المشاع والرقي.
٥ ـ المجتمع الصناعي والعسكري.

٦ ـ المجتمع الاستبدادي والحر .
٧ ـ المجتمع الصناعي والرأسمالي .
٨ ـ المجتمع الاقطاعي والتقاليدي .
٩ ـ المثالية والمادية .
١٠ ـ البدو والحضر .
١١ ـ الشيخ والافندي .
١٢ ـ التعاون والتكوين الشكلي .

ب ـ تثنية مترادفة في تفرعها ، لكنها متصلة في اصلها :

(اي ذات منشأ احادي) تشير الى اشتقاق المصطلح الاجتماعي الى شقين مترادفين لكنهما متخالفين في المعنى من اجل تصوير وجهي المصطلح . لكنهما مرتبطين من خلال قاعدتهما الاساسية مثل : ـ

١ ـ التضامن الميكانيكي والعضوي
٢ ـ جماعة اولية وثانوية
٣ ـ الجماعة الثنائية والثلاثية
٤ ـ علاقة مكانية وعقدية
٥ ـ مؤد الدور واخذ الدور
٦ ـ علم الاجتماع الجاد والسلس
٧ ـ علم الاجتماع الدينامي والمستقر
٨ ـ علم الاجتماع الشكلي والعام
٩ ـ علم الاجتماع العلمي والاصلاحي
١٠ ـ نظريات قريبة المدى وبعيدة المدى
١١ ـ النظرية الواقعية والتصورية
١٢ ـ النظرية الشاملة والجزئية
١٣ ـ المنهج الطبيعي والتأريخي
١٤ ـ البحوث الكلية والجزئية
١٥ ـ الوظيفة المستترة والعلنية
١٦ ـ القيم العربية السلفية والمعاصرة
١٧ ـ مواقف انوية ونحنوية

١٨ ـ الاتجاه الفردي ونحو الاخرين
١٩ ـ الثقافة الفرعية والمضادة لها .
٢٠ ـ العلاقة الاجتماعية المفتوحة والمغلقة
٢١ ـ العلاقة الاجتماعية الاولية والثانوية

جـ ـ تثنية ـ اقترانية :

التي تمثل ترادف مع متصافي لامتنافي في الاسم والمتن اذ هما مفركتان متساوقتان وممتدان معاً نحو اتجاه واحد غير متقاطعتين بل هما متلازمتان مثل .

١ ـ المواقف والمصالح
٢ ـ القيم والمعايير
٣ ـ الادوار والمكانات
٤ ـ البيروقراطية والديمقراطية
٥ ـ النفوذ والسلطة
٦ ـ الرواسب والمشتقات
٧ ـ الايديولوجية واليوتوبيا

د ـ استدراكات نظرية :

تشير الى طرح اضافات سوسيولوجية جديدة لما اغفل او امل في اعمال بعض المنظرين من اجل تقديم عمل تنظيري ناضج غير متناقض مع موحد بشكله ومتصل في مضامينه مثل ،

١ ـ استدراك لينسكي (بين النظرية الوظيفية والصراعية)
٢ ـ استدراك كوسر (بين النظرية الوظيفية والصراعية)
٣ ـ استدراك هومنز (بين النظرية الوظيفية والتبادلية)
٤ ـ استدراك بلاو (بين النظرية البنائية والتبادلية)
٥ ـ استدراك سنكلمان (بين النظرية التبادلية والتفاعلية)
٦ ـ استدراك دنزن (بين النظرية الرمزية والاثنوميتودولوجي)
٧ ـ استدراك فان دنبرك (بين النظرية الماركسية والوظيفية)
٨ ـ استدراك الكعبي (بين النظرية اتفاعلية والصراعية)
٩ ـ استدراك بيترم سروكن (نظرية التخلف الثقافي)

اذهب الان الى تقديم المصطلحات المنشطرة التي تمثل التثنية المتناقضة وشرح متون كل مفردة منها حسب ماجاء به المنظر الذي نحتها او صاغها وحدد صفاتها

أ ـ المجتمع التقليدي والحضري

تناول هذه الثنائية المتناقضة المنفصلة روبرت ريدفيلد (عالم امريكي ١٨٩٧ ـ ١٩٥٨) وصف المجتمع الاول (المجتمع التقليدي **Folk Society**) بالصفات الاتية : ذو حجم سكاني صغير . ويعرف كل فرد منهم الاخر معرفة قديمة من خلال العلاقة القرابية او الجيرة او المجتمع المحلي . لذا فانه لايضم الغرباء (اي الخارجين عن الدائرة القرابية او السكنية) . وملتزمين جداً بتقاليدهم ومعتقداتهم الاجتماعية وروابطهم القبلية ولا يسمح لهم الخروج عنها . واذا حصل ذلك فالنبذ الاجتماعي مصيرهم لان ذلك يعني الخروج عن الضوابط الاجتماعية العرفية . والنبذ الاجتماعي يمثل اعنف عقاب يقع على الفرد في مثل هذا المجتمع ولما كان الفرد كذلك . فانه يكون مستسلماً للظروف والشروط الاجتماعية التي يفرضها مجتمعه او يكونوا وهذا بدوره لايحفز افراده لان يكونوا نقاداً لواقعهم او لظروفهم او لقيمهم الاجتماعية او يكونوا تجريبيين في سلوكهم اليومي (اي يقومون بتصرف مخالف لما هو مألوف في مجتمعهم لكي يعرفوا ايجابيات التصرف الاخر وسلبيات التصرف الذي فرضه عليهم مجتمعهم) بمعنى اخر . ان جميع تعاليم مجتمعهم فيما يخص سلوكهم اليومي لايمكن الطعن فيها أو نقدها لانها نابعة من تقاليد مجتمعهم . ومن هذا المنطلق تجدها تمارس وبشكل عفوي وتلقائي ـ ذاتي دون نقاش وهذا يقتل عندهم الابداع الفكري والمنطقي لانه خارج تعليمات تقاليدهم الاجتماعية ويعزلهم اجتماعياً وثقافياً عن باقي المجتمعات الاخرى . فلا نستغرب اذا قاوموا عوامل التغيير الاجتماعي ويجعلهم ينظروف الى المجتمع والطبيعة شيء واحد .

فضلا عما تقدم . تكون الاسرة في مثل هذا النسيج الاجتماعي وحدة اجتماعية تنشيء الفرد على نمط الحياة التقليدية وتدفعه لان يعكس قيم واعراف ونواميس مجتمعة وان يلتزم بعلائقه القرابية اولاً ـ والقبلية والعشائرية ثانياً . والمكانية ثالثاً وبذا فان الفرد في هذا المجتمع ينشأ تعاونيا مع الاخرين في سلوكه وتفكيره ولا تقف مهمة الاسرة في غرس هذه التعاليم الاجتماعية بل مراقبتها ومحاسبة ابنائها على

محالفتها وهذا يعني انها وحدة اجتماعية ضابطة لسلوك افرادها توجههم نحو الاندفاع والتماثل الاجتماعي مع مجتمعهم الذي يبلور تضامن اجتماعي قوي ومتجانس اجتماعياً ونفسياً وثاقيا

هذا من جانب ومن جانب اخر . فان المجتمع التقليدي يكون مستقلا اقتصاديا ولا يميل للافاضة في انتاجه وان نظام تقسيم عمله يكون قائما على الجنس والعمر بسبب سيادة تقاليد المجتمع وبسيادة الامية فيه .(٧)

اما صفات المجتمع الحضري Urban Society فانها نقيض ماورد من صفات المجتمع التقليدي تماماً فلا داعي لذكرها وفي هذا المقام. لابد من الاشارة الى ان أهم عامل في تغيير المجتمع وتحوله من التقليدي الى الحضري في نظر ريدفيلد ـ هو العامل التكنولوجي ومع عدم تجاهل فاعلية العوامل الاخرى . لان التطور العلمي والمعرفي والتكنولوجي يقلل من معدل الوفيات فيزيد من حجم السكان وان تطورات الزراعة التقنية الغت الحاجة الى الايدي العاملة اليومية في الحقول الزراعية . وادت بشكل غير مباشر الى نمو المدن وخلقت التكنولوجيا الصناعية الحضرية اعمالاً وفرصاً جديدة للناس فبلورت صناعات جديدة لكي تجعل الحياة الحضرية العصرية ممكنة للمواطنين في المناطق الحضرية وتضمن بالوقت نفسه عملا للمهاجرين اليها من المناطق الريفية .(٨)

أ ـ ٢ ـ المجتمع المحلي والمجتمع العام :

طرح هذه الثنائية العالم الالماني فيرديناند تونيس (١٨٥٥ ـ ١٩٣٦) التي تشبه ثنائية ريدفيلد في مضمونها . انما اختلف في تسميته . فالمجتمع المحلي Gemenschaft يقابل المجتمع التقليدي حيث تكون الاسرة فيه موجهة ومسيطرة من قبل الرجل وبالتحديد من المتقدمين بالسن وتكون ـ الاسرة ـ من النوع الممتد) الاجداد والابناء والاحفاد في مسكن واحد) ويكون اختيار شريك الحياة عن طريق اهل الشريكين . وتكون الوحدة الزواجية ثابتة ومستقرة طيلة حياة عمر الزوجين . والفرد في هذا المجتمع يستلم تميزاً اجتماعيا من خلال عضويته الاسرية وبالوقت ذاته اذا قام الفرد بعمل منحرف او خاطيء فان الذنب والاثم يقع على كافة افراد اسرته وقد تعاقب على ذلك ـ في بعض الحالات بسبب التضامن الاسري القوي الذي تتمتع به .

اما اقتصاده . فيكون زراعياً يخضع لمؤثرات المناخ . والى طرائقه الشعبية وأساطيره وتقاليده وأرثه التاريخي . فالافراد يكتسبونه بشكل شفوي لانه مجتمع امي . اضافة الى ان كافة المهارات تكتسب من خلال الممارسة والتقليد المتأتية من اجيالهم السالفة فالذاكرة الانسانية وبالذات ذاكرة المعمر ـ المتقدم بالسن ـ تلعب دوراً مهماً في نقل تراثهم من الاجيال السالفة الى الحاضرة .

فضلاً عن ذلك ، يسود هذا النوع من المجتمعات التضامن الاجتماعي القوي بسبب الروابط الدموية والقرابية وبتأثير وسائل الضبط الاجتماعي الشديد التأثير عليهم وخاصة النفاق واللغط الاجتماعي وان قانون مجتمعهم يكون قائماً على التقاليد والاداب العامة والدين لذلك لا يتجزأ الفرد على ان ينتقد او يوجه اسئلة او يستفسر عن بدائل لتقاليده او اعرافه او ادابة . فالافراد يشعرون بالمعية ويعتقدون بأنهم من نوع واحد من الناس . ويتصفون بالطيبة وان شخصيتهم من النوع العاطفي وتلقائية في اتخاذ قرارها اكثر من كونها عقلانية او احصائية تزن الامور بمعايير القيم الرياضية او التفكير الاستنباطي .

اما النوع الثاني من المجتمعات فهو المجتمع العام **Gesellschaft** الذي يقابل المجتمع الحضري او الصناعي الحديث الدينامي في طبيعته الذي يتمتع بدرجة عالية من التحضر . مؤكداً على قيمة الانتاج والدقة والكفاءة . وانه متغير بشكل سريع ويتصف بتنوع ثقافي غير منسجم في تركيبه وتسوده الجماعات المتنافسة .

اما الاسرة فتكون مسيطرة موجهة من قبل الرجل (الزوج او الاب او الاخ الكبير) اما اختيار شريك الحياة فيتم من قبل الشريكين انفسهم منطلقاً من التجاذب الرومانسي ومدرك من قبل الطرفين ويكون عدد افراد الاسرة قليلاً وحالات الطلاق عديدة ومعدلها عال .

اما اقتصاده فيكون قائماً على اساس نظام تقسيم عمل متخصص ومتفرع في اعماله . لذا يكون من النوع المركب . وان معظم افراده يعرفون القراءة والكتابة ويكون تراثهم مكتوب ويخضعون لقانون رسمي وان عقلائقهم الاجتماعية سطحية ونفعية ومصلحية لانها زمالية وغير قائمة على الروابط القرابية لذا لاتتميز بالمتانة لانها علائق انعزالية ولها مصالحها الخاصة(٩) .

أ ـ ٣ ـ المجتمع الديني والمجتمع الدنيوي

طرح هاورد بيكر (بحاثة امريكي ١٨٩٩ ـ ١٩٦٠) ثنائية جديدة سمى المفردة الاولى بالمجتمع الديني Sacred Society الذي يتضمن التضامن الاجتماعي القوي المبني على المحبة والمودة والاخاء بسبب مؤثرات القيم التقليدية المقدسة التي تعمل على تمتين الروابط الاجتماعية . حيث ينشأ الفرد في هذا المجتمع على اساس ذلك . ويكون النفاق والسخرية والزجر والخوف من عقاب الدنيا والآخرة من وسائل الضبط الاجتماعي

علاوة على ذلك . فأن احدى قيمه الاجتماعية لاتستسيغ الاتصال بالعالم الخارجي لكي تضمن السيطرة الدينية وتوجيه افراده للتركيز على تعاليمه وشؤونه الدينية اكثر من بقية الامور وهذا يجعل منه مجتمعاً منعزلاً (اجتماعياً ونفسياً وجغرافياً) وهذا يعني ان التفكير العقلاني غائباً بسبب تفسير وتحليل الظواهر الطبيعية والاجتماعية بقوى خارقة عليها خارج عن قدرة البشر . وبذا فأن الاعمال الابداعية والمبتكرة نادرة جداً وان المجتمع يعارض اي تغييرات من خارجه . واذا حصل فأنه يكون من النوع البسيط جداً .

اما علاقة الافراد فتكون قائمة على الروابط القبلية . ويعمل الفرد لصالح قبيلته ولا توجد علاقة عقدية او قانونية ويكون العرف الاجتماعي حاكماً بين الافراد عند حدوث مشكلات بينهم(١٠)

اما النوع الثاني من المجتمعات فهو (الدنيوي)
فتكون صفاته مغايرة لصفات المجتمع الديني تماماً

أ . ٤ ـ المجتمع المشاع والمجتمع الرفقي او الزمالي

قدم هذه الثنائية المتناقضة الي جنوى (بحاثة امريكي) (١٩٠١ ـ) سمى المفردة الاولى بالمجتمع المشاعي Communal Society المتسم بالادوار الاجتماعية الافقية مثل دور الشاب الذي يمثل دور جميع الرجال في المجتمع (باستثناء المتزوجين) وجد (جنوى) هذه الظاهرة في مجتمع ينيفاك في الاسكيمو ووجد

ايضاً الادوار العمودية مثل الفصل العام في العمل الاقتصادي بين دور المرأة ودور الرجل الذي يقوم عليه نظام تقسيم العمل .

فضلاً عن ذلك . تكون مكانة المعمرين في هذا المجتمع عالية ومؤثرة على باقي الاعمار الاوطأ منها . وهذا يعني ان الادوار والمكانات الاسرية والجماعات الصغيرة تلعب دوراً مهماً في حياة ابناء هذا المجتمع ويصل تأثيرها الى درجة اعتماد المجتمع على احكام وقرارات المعمرين والشيوخ اكثر من احكام بقية افراد المجتمع . لذا لاتوجد عندهم قوانين رسمية . بل يتماثلون مع احكام اعرافهم وآدابهم العامة وقيمهم الاجتماعية اما علائقهم الاجتماعية فتكون مبينة على الروابط القرابية والرحمية وليس الرسمية او المصلحية وتكون من النوع الدائم والثابت .

غير ان المجتمع الرفقي **Associational Society** فيتصف بالادوار الجزئية المتنوعة والمتفرعة . منها ماهو مترابط مع الاخرى ومنها ماهو غير مترابط معها . ومن خلال اشغال الفرد لها تتحدد مكانته الاجتماعية وتتحد في ذلك اجوره اليومية او رواتبه الشهرية وحالته الاجتماعية ايضا وفي هذه المجتمعات تكون علائق الافراد الاجتماعية مؤقتة ونفعية ومصلحية بسبب ارتباط الافراد فيها من خلال اهداف محدودة ويخضع تفاعلهم الاجتماعي لمصالحهم الخاصة . وهذا يعني ان هذا النوع من العلائق يكون وسيلي غايته الوصول الى اهداف ذاتية وهذه الصفة تلغي الجانب العاطفي في العلاقة ويرجع ذلك الى ان الاسرة لاتمثل النواة المركزية في البناء الاجتماعي فلا تلعب دورا حيويا في غرس وانماء الشعور العاطفي والتعاون العلائقي

اما تنظيماته الاجتماعية فتكون متخصصة بأهداف خاصة بها تخضع لاجراءات ديوانية (بيروقراطية) ومتسمة بالمنافسة الفردية وينتمي اليها الرجال والنساء على السواء وطالما كانت صفة التنظيمات الاجتماعية هكذا فأن التقاليد الاجتماعية والاعراف الاجتماعية يكون دورها ضعيفاً في التأثير على الافراد . ويكون القانون المكتوب (الرسمي) الضابط الرسمي الذي يفصل في شؤون وقضايا الناس اخيرا يتقبل الافراد في معظم الاعمال الابتكارية والمخترعات الحديثة ويتكيفون بسرعة للتغيرات الاجتماعية العصرية(١١)

أ ، ٥ ـ المجتمع الصناعي والمجتمع العسكري

تناول هذه الثنائية هربرت سبنسر (عالم بريطاني ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) الذي وصف المجتمع الصناعي بالتعاون الاختياري والفيض في الانتاج والرخاء الاقتصادي والاعتراف بالحقوق الشخصية للفرد واستقلالية المؤسسات الاقتصادية عن السياسة ويكون البناء الطبقي فيه مرناً وعلائق افراده تكون عقدية بينما يتصف المجتمع العسكري بالتعاون الالزامي وتمركز السلطة وانضباط اجتماعي عال ويكون القائد العسكري رئيساً سياسياً وتدرج اجتماعي حاد لايعترف بالحقوق الشخصية للفرد . ويكون بناؤه الطبقي من النوع الصلب او الجامد(١٣) .

أ / ٦ المجتمع الاستبدادي والمجتمع الحر

ميز البحاثة الالماني المعاصر رالف دارندورف بين المجتمع الاستبدادي (او الكياني Totalitarian Society وهو مجتمع ذو علاقة بنظام سياسي مبني على اخضاع الفرد للدولة وعلى السيطرة الصارمة على جميع مظاهر حياة الامة وطاقتها (المنتجة ومؤيدة للدكتاتورية) والمجتمع الحر Free Society استخدام دارندروف منطلقات ثابتة لكي يقارن منها بين المجتمعين وهي كما يأتي :

١ ـ التنوع والتوحد : حيث يتصف المجتمع الحر بتنوع واختلاف تنظيماته ومؤسساته وفئاته الاجتماعية التي تعمل على اذكاء روح المنافسة العالية بين الافراد من اجل تحقيق اكبر قدر من الحرية والديمقراطية . فلا يوجد تماسك او تضامن بين تنظيماته ومؤسساته بل التنافس في الاغلب وربما الصراع بينما يتصف المجتمع الاستبدادي (الكلياني) بتوحيد تنظيماته ومؤسساته وفئاته الاجتماعية لدرجة تصل الى حالة التطابق بينهم . الامر الذي لايؤدي الى ظهور اية حالة تنافس او صراع فيما بينهم لانهم متماسكون ومتضامنون من اجل تعزيز وجودهم وكفاحهم في سبيل تقدمهم وتطورهم .

٢ ـ طبيعة الصراع : ان تعدد وتنوع التنظيمات السياسية والاجتماعية في المجتمع الحر يخلق اساليب متنوعة لدفاع التنظيمات عن اهدافها ومصالحها وبالوقت ذاته تصرف الاختناقات والضغوط التي تفرضها الظروف القاسية الامر الذي

لايؤدي الى خلق او ظهور تنظيمات سرية مناهضة للتنظيمات العلنية بسبب حرية التعبير عن الرأي والفكر وتعدد التنظيمات المتباينة والمختلفة في اهدافها وفلسفاتها

اما في المجتمع الكلياني . فبسبب غياب تعدد التنظيمات السياسية وكثافة الضغوط والزامية وقسرية التعليمات التي لاتسمح للافراد والتنظيمات التعبير بحرية والتفكير بانفتاح . كل ذلك يؤدي الى غلق كافة قنوات تصريف التوتر والقلق والاعتراض والمعاناة فتتولد تنظيمات سرية مناهضة للتنظيمات العلنية . فتحدث صراعات سرية غير معلنة فيما بينها الامر الذي يقود بالنهاية الى انتصار علني او انهزام علني وهذا غير وارد في المجتمعات الحرة لان الضغوط والمعاناة السياسية والاجتماعية تنصرف حالما تنشأ عن طريق القنوات العلنية التي خلقتها التظيمات المتعددة والمتنوعة .

بيد ان هناك نوعاً اخر من الصراعات الاجتماعية في المجتمع الكلياني وهو صراع داخل التنظيمات الحاكمة . مثل صراع داخل المؤسسة العسكرية او الصناعية او الادارية او بين افراد النخبة الحاكمة . هذا الصراع اللاطبقي ناتج عن التوزيع غير العادل للسلطة على الافراد . فهو اذن صراع الشريحة السياسية او صراع الشريحة الصناعية او صراعات اقليمية او صراعات المدن مع الريف او صراعات دينية او عنصرية . كل هذه الصراعات تقود بالنهاية الى صراعات سياسية .

الفرق الواضح بين المجتمعين هو غياب الصراع السياسي في المجتمع الكلياني وحضوره في المجتمع الحر . والصراع من النوع الثاني يكون فاقد الشدة او الحدة وغير متسم بالعنف بسبب عدم عدوانية مكونات الصراع . بينما يتصف الصراع في المجتمع الكلياني بالعنف بسبب الضغوط الشديدة والاوامر القسرية والممارسات السلطوية المتحيزة والمتعصبة . كل ذلك يولد فيما بعد صراعات عنيفة وقاسية تؤذي افراد المجتمع .

٣ ـ الحراك الاجتماعي : في المجتمع الحر يتم حراك الافراد اجتماعياً حسب انجازهم التربوي والعلمي وليس الوراثي او الانتسابي (الانتساب الى طبقة او فئة او طائفة أو عائلة او ماشاكل) والتحرك على السلم الاجتماعي يكون حسب كفاءات وخبرات وتخصصات الافراد

بينما في المجتمع الكلياني يتم الحراك الاجتماعي بعيداً عن الانجاز التربوي والعلمي بل معتمداً على الانتماء الطبقي او السياسي والعائلي .

٤ ـ التدرج الاجتماعي ، يعتمد هذا المحور اساساً على الكفاءة والانجازية وامتلاك الثروة والمال والاعتبار الاجتماعي في المجتمع الحر وليس للسلطة او الدولة الحق بالتدخل في توزيع السلطة على الافراد داخل التنظيمات وان تسلق افراد المجتمع الحر على السلم السياسي لايكون مقصوراً على فئة معينة واستبعاد الفئات الاجتماعية الاخرى . والفرد الذي يشغل موقعاً سلطوياً لايبتز موقعه للتكسب المادي والمالي والمعنوي وليس بالضرورة ان تتزايد ثروته وماله مع تزايد نفوذه السلطوي وتسلقه اعلى المواقع السلطوية . والسبب في ذلك يرجع الى ان اشغال المواقع السلطوية يكون عن طريق المنافسة القائمة بين اصحاب الكفاءات والاختصاصات والمهارات المكتسبة .

في حين يكون في المجتمع المستبد (الكلياني) تحرك الفرد على السلم الاجتماعي محدوداً ومقننا من قبل السلطة الحاكمة بسبب حداثة السلطة الحاكمة التي تحتكر كافة انواع السلطات (السياسية والاقتصادية والتربوية) لافرادها ولا تسمح لغيرهم بالصعود على السلم الاجتماعي الارتقائي بالوقت ذاته لاتستعمل المقاييس المتبعة في المجتمع الحر او الصناعي المتقدم في تسلق افرادها او تسلق الآخرين من غير اتباعها بالوصول الى المواقع الطبيعية المناسبة في كفاءاتهم وخبراتهم وجداراتهم .

اما التسلق السياسي فلا يخضع في هذا المجتمع للصراعات السياسية لعدم وجود تنظيماً معارضة للسلطة الحاكمة . بل يخضع لتدرجه في تنظيمه السياسي فقط . لذا فأن موقعه السلطوي يجلب له المال والثروة والجاه . فكلما ارتقى على السلم السلطوي زاد ماله وجاهه وسلطته وقيمته الاجتماعية وضماناته الاجتماعية وازدادت ثروته .اما النخبة في المجتمع الاستبدادي (الكلياني) فتتنافس فيما بينها حول المواقع السلطوية الاعلى والكل يحاول الاستحواذ عليها بسبب المكاسب المادية والمعنوية المتأتية من اشغالها وان القائد الاداري ـ الحكومي لا يكون بالضرورة من القادة الصناعيين او العسكريين او التربويين والمثقفين بل هو منسقاً ومنظماً لانواع السلطات داخل مجتمعه(١٣) .

أ . ٧ ـ المجتمع الصناعي والمجتمع الرأسمالي

ميز رالف دارندووف ايضاً بين المجتمع الصناعي **Industrial Society** والمجتمع الرأسمالي **Capitalism Society** عل اساس المقارنة الضرورية او المتقابلة من خلال النقاط الآتية :

١ ـ العقيدة (الايديولوجية) حيث يقوم المجتمع الرأسمالي على ايديولوجيا تعكس فكرة الاقتصادي والسياسي اكثر من المجتمع الصناعي الذي لاتلعب فيه دوراً مهماً كما تلعبه في عملية التصنيع .

٢ ـ تحديد المفهوم : ان مفهوم الرأسمالية كان وما يزال مفهوماً اقتصادياً لان فكرة المجتمع الرأسمالي في الاساس اخذت من سلسلة ملاحظات عن العلائق الاقتصادية والاجتماعية ومن اثر المال على الابنية الاقتصادية والاجتماعية ودرجة خضوع المؤسسات الاجتماعية للشروط والظروف الاقتصادية . فضلاً عن كون الرأسمالية تمثل البنى الفوقية في البناء الاجتماعي كأحد آثار نتائج الثورة الصناعية (التي ظهرت في اواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر) وهنا ركز كارل ماركس على مفهوم المالك الخاص والملكية الخاصة لوسائل الانتاج وحرية العمل وفائض القيمة والمكننة الصناعية والوجود الطبقي .

بعد ذلك ، اضاف ماكس فيبر مفاهيم اخرى على ماتقدم وهي نظام القيم العقلانية ومبادئ الكسب وصفات السوق الاقتصادي المبني على الاسس العقلانية والمنطقية الدقيقة والبناء النسقي المنظم . ثم حدد سومبارت مفهوم الرأسمالية ايضاً من خلال تنظيمها التجاري الذي يضم جماعتين مختلفتين من الناس متصلين من خلال مناشط السوق والتعاون المنسق فيه . وان مالكي وسائل الانتاج مسيطر عليهم من قبل الاقتصاد بينما يتحرر فاقدي الملكية من الاقتصاد . وهذا يشير الى ان المالكين والفاقدين لوسائل الانتاج والملكية مسيطر عليهما من قبل مبادئ الاكتساب والعقلانية الاقتصادية .

والى جانب ذلك ، حدد سومبارت مفهوم الرأسمالية بالنقاط التالية : ـ

١ ـ انها تمثل تنظيماً تجارياً .

٢ ـ انها تمثل تعاون جماعتين من الناس

٣ ـ احدى هاتين الجماعتين تكون مالكة لوسائل الانتاج

٤ـ والثانية تكون فاقدة لوسائل الانتاج ولا تخرج عن كونها مجموعة عمال .
٥ـ تكون اتصالات افراد الجماعات في المجتمع الرأسمالي عن طريق السوق .
٦ـ تتضمن مبادئ الكسب الاقتصادي المعتمد على الاسس العقلانية والمنطقية .
٧ـ تقوم على الاقتصاد الرشيد المتصف بالعقلانية .

وقد اكد سومبارت ان فقدان او غياب احد هذه النقاط يعني عدم استمرارية وجود المجتمع الرأسمالي وعدم حفاظه على شكله ومضمونه ونوعه وطبيعته لان زوال مالكي وسائل الانتاج وفقدان السيطرة الانتاجية على فاقدي وسائل الانتاج يعني اختفاء غياب مالكي الانتاج وفاقديه .

اخيراً اعتبر دارندروف المجتمع الرأسمالي احد الاشكال المهمة والجوهرية في المجتمع الصناعي(١٤) .

أ / ٨ ـ المجتمع الاقطاعي والتقاليدي

زودنا جيديون سجوبيرك بمصطلح يمثل تثنية متقارنة بشكل متناقض في معظم خواطها وصفاتها وهي المجتمع الاقطاعي المتمثل في المجتمعات الاوربية في القرن الوسطى والمجتمع الصيني القديم والياباني القديم ايضاً والهندي قبل الاستعمار البريطاني بينما مثل المجتمع التقاليدي المجتمعات البدائية ونبدؤها بتثبيت صفات المجتمع الاقطاعي وهي كما يأتي ،

١ـ يتصف بحجم سكاني كبير .
٢ـ يميل للاستقرار في تطوره اكثر من الحيوية والتقدم .
٣ـ تكون قيمه الاجتماعية نابعة من الطقوس الدينية .
٤ـ تكون سلوكية الفرد اليومية محددة سلفاً ولا يسمح له بالطعن فيها او الخروج عنها .
٥ـ غير متجانس في فئاته وشرائحه الاجتماعية بل متنوعة بشكل محدود .
٦ـ بسبب سيطرة الطبقة الاقطاعية على المجتمع فأن نظامه الاجتماعي يكون راسخاً في بنائه الاجتماعي الجامد والصلب .
٧ـ تحكمه حكومة معتمدة على التدرج الوظيفي الجامد والملتزم بالرتابة والمتجه نحو تعقيد نظام تقسيم العمل الوظيفي .

٨ ـ يعيش على رقعة جغرافية اكبر من الرقعة التي تعيش عليها المجتمع التقاليدي .

٩ ـ يستعمل الفلاح فيه الآلات البدائية والبسيطة في حرث وزرع ارضه . اذ يعتمد على الزراعة المكثفة من اجل عيشه ودعم النظام الاقطاعي .

١٠ ـ يكون مكتفياً ذاتياً في اقتصاده الزراعي . وما يفيض عنده من المحاصيل الزراعية يبيعها في اسواق المدن القريبة من مزرعته وهذه الخاصية لاتجعل منه مجتمعاً منعزلاً عن باقي المجتمعات الاخرى المجاورة او غيرها .

١١ ـ تقل فيه الفوضى الاجتماعية او الاعتلالات الاجتماعية والمشكلات الاجتماعية وتنعدم فيه حالة التفرد والانانية الفردية والانعزال الفردي بسبب سيطرة الاعراف والنواميس الاجتماعية على كافة افراده .

١٢ ـ لاتكون وسائل المواصلات فيه متطورة بل بدائية وبسيطة .

١٣ ـ تضم الصفوة الاقطاعية اصحاب الاملاك والوجهاء ورجال الجيش وبعض المثقفين والموظفين .

١٤ ـ يملك تقسيماً طبقياً واضحاً وبارزاً . اذ تضم الطبقة العليا اصحاب الثروة والنفوذ والسلطة الدين يرتبطون ـ في اغلب الاحيان ـ بروابط قرابية واحدة او متقاربة ويكونون) متميزين ليس فقط في ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية بل من خلال ملبسهم ومأكلهم وطريقة عيشهم ولهجتهم وسلوكهم لانهم يمثلون الاقلية الحاكمة في المجتمع .

١٥ ـ يتصف الحراك الاجتماعي بالحركة البطيئة والمحددة .

١٦ ـ تتماثل المؤسسة التربوية مع الدينية في مهمها وواجباتها

١٧ ـ يميل المثقف فيه الى الاهتمام بتراث وتأريخ مجتمعه ولا يعلق اهتماما كبيرا على الافكار النيرة والمستقبلية .

١٨ ـ لايعتمد اقتصاده على الزراعة فحسب . بل يضم بعض الصناعات الحرفية اليدوية البسيطة في مصانع صغيرة او في البيوت الخاصة بصاحب الحرفة ويكون بعضهم من اصحاب الحرف مزارعين اضافة الى حرفتهم الصناعية .

١٩ ـ يعيش في بعض الاقليات الاجتماعية الصغيرة التي تكون غير مندمجة معه وتقوم باحتراف بعض الحرف التي يستنكف الفرد في اغلبية المجتمع القيام بها (ويكون موقع هذه الاقليات داخل المجتمع الاقطاعي هامشيا) .

٢٠ ـ اما الاجانب في هذا المجتمع فينظر اليهم على انهم غرباء او عبيد او منبوذين بينما يتصف المجتمع التقاليدي بالصفات الاتية : ـ

١ـ مستقرأ في مرحلته التطورية ولا يميل الى التحول منها او الخروج عنها .
٢ـ تكون قيمه الدينية مقدسة لايمكن الخروج عنها ابدأ .
٣ـ حجم سكانه صغير جداً .
٤ـ منعزل عن باقي المجتمعات الاخرى ولا يتصل بها الا ماندر ،
٥ـ امي لايعرف القراءة والكتابة .
٦ـ متجانس في فئاته وشرائحه الاجتماعية .
٧ـ يتمتع بتضامن اجتماعي قوي لان روابطه الاجتماعية تكون من النوع الاولي ومبنية على القرابية الدموية التي تلعب دوراً حيوياً في بناء النسيج الاجتماعي .
٩ـ له نظام تقسيم عمل بسيط وغير متقدم .
١٠ـ لاتسوده الطبقية الاجتماعية .
١١ـ يكون الفرد فيه متماثلاً بشكل منطبق مع قيم وتقاليد مجتمعه(١٠) .

في الواقع لاتتضمن هذه التثنية قيماً معيارية واحدة لقياس درجة التباين والتشابه بين المجتمعين الامر الذي جعلت اوجه المقارنة غير متكافئة او متنظمة لكن على الرغم من ذلك فانها غطت معظم اوجد المناشط الاجتماعية فيهما .

أ ، ٩ ـ المثالية والمادية :

حاور مايكل مان بشكل سجالي ثنائية متناظرة متأصلة في أدبيات علم الاجتماع تراثاً وحداثة « وهي الجدلية القائمة بين النظريات المثالية **Idealism** والنظريات المادية **Materialism** من انصار الاولى ماكس فيبر واميل دوركهايم وتالكوت بارسونز . ومن انصار الثانية كارل ماركس وانجلز .

اساس هذه النظريات هو جدلية العقل والمادة حيث بنيت النظرية الماركسية على اساس الجدل العنيف ضد الفلسفة المثالية بينما قامت النظرية المثالية على الافكار النموذجية .

استخدم مايكل مان عدة محاور ثابتة اساس للمقارنة بينهما وهي مايأتي : ـ

١ ـ منطلق الرؤية :

استخدمت المثالية عدة اسباب وعوامل في تفسيرها للحدث الاجتماعي . حيث يرى ماكس فيبر عدم كفاية العامل الاقتصادي في تفسير حاجات الانسان لانه يملك حاجات اخرى مثل العاطفية والفكرية والابداعية والادراكية التي اهملها ماركس في تفسيره لحاجات الانسان . فالحب والتفكير والابداع والفهم مفاهيم مفقودة في نظرية ماركس المادية .

بينما استخدمت المثالية هذه المفاهيم في تفسيرها للظواهر الاجتماعية في حين اعتمدت المادية على العامل المادي فقط في تفسيرها للظواهر الاجتماعية .

٢ ـ الموقع التكنولوجي :

يرى بارسونز ان النظرية المادية لاتستطيع تحليل الافكار لانها تضع التكنولوجي في البنية الفوقية وتضع الافكار في البنية التحتية بينما ترى المثالية ذلك حيث تضع الافكار في البنية الفوقية وتضع التكنولوجي في البنية التحتية .

٣ ـ ادراك المواقع :

ترى المثالية ان الافكار المثالية تمثل سبباً رئيسياً وحاسماً في انماء وتطوير الرأسمالية . بينما ترى النظرية المادية نقيض ذلك حيث لاتجد في الافكار المثالية القدرة على ان تلعب دوراً حاسماً في انماء او تطوير المجتمع بل المادة والاقتصاد قادران على ذلك اكثر من الافكار .

٤ ـ المعايير الاجتماعية :

يتهم بارسونز النظرية الماركسية بانها نظرية مصلحية تؤكد على المصالح فقط لانها اهملت المعايير الاجتماعية . في حين اهتمت النظرية المثالية وبخاصة نظريات دوركهايم وبارسونز بالمعايير الاجتماعية وانتقدا المذهب النفعي . اي ان النظرية المادية تؤكد على القوى المادية المصلحية بينما تؤكد النظرية المثالية على المعايير الاجتماعية .

٥ ـ الانتاج :

تركز النظرية المادية على الانتاج المادي . بينما تركز النظرية المثالية على الانتاج الفكري مثل الاداب العامة والدين والميتافيزيقيا والاعراف الاجتماعية .

٦ ـ الاهداف :

من اهداف النظرية المادية هي عمل الرجل الفاعل النشط في حياة المجتمع ومناشطه . في حين من اهداف النظرية المثالية هي الفلسفة الالمانية والمشاعر الانسانية ووعيها(١٦) .

أ ـ ، ١٠ ـ البدو والحضر :

ننتقل الان الى طروحات بعض الاجتماعيين من العرب الذين استخدموا الثنائيات في تنظيرهم او بحوثهم . وسوف نوضح ماطرحه ابن خلدون في مقارنته المجتمع البدوي مع الحضري من خلال محاور اساسية تربط بينهما بيد ان ترابطهما من نوع التقاطع وليس الاتساق وهي مايأتي :

١ ـ القدم الزمني :

« ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها وان الحضري لايتشوق الى احوال البادية الا لضرورة تدعو اليها او لتقصير عن احوال اهل مدينته ومما يشهد لنا ان البدو اصل للحضر ومتقدم عليه اما اذا فتشنا اهل مصر من الامصار وجدنا اولية اكثرهم من اهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على ان احوال الحضارة ناشئة عن احوال البداوة وانها اصل لها نتفهمه » .

٢ ـ نوع الحاجة :

« البدو هم المقتصرون على الضروري في احوالهم العاجزون عما فوقه وان الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في احوالهم وعوائدهم ولاشك في ان الضروري اقدم

من الحاجي والكمالي وسابق عليه ولان الضروري اصل والكمالي فرع ناشيء عنه . فالبدو اصل للمدن والحضري سابق عليهما لان اول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان من الضروري حاصلاً فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة » .

٣ ـ الطبقة البشرية :

« ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول مايرد عليها او ينطبع فيها من خير او شر . فاهل الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها وقد تلونت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ماحصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم . واهل البدو اقل بكثير من طباع الحضر لانهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر »

٤ ـ الدفاع عن النفس :

« ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر والسبب في ذلك ان اهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا امرهم في المدافعة عن احوالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يوكلهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم »

٥ ـ العمل :

في المجتمع البدوي . منهم من يشتغل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها . اما اهل الحضر فينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة » .(١٧)

أ، ١١ ـ ثنائيات الوردي

تناول الدكتور علي حسين الوردي (بحاثة عراقي) ثلاثة ثنائيات مستخلصة من ظواهر اجتماعية كانت سائدة في المجتمع العراقي في النصف الاول من هذا القرن وهي : ـ

١ ـ الشيخ والفلاح (ليس المقصود هنا الفرد بل المكانة الاجتماعية)

كانت العلاقة بين الشيخ والفلاح قائمة على الاستغلال . اي بين مالك الارض وفاقدها او بين مالك الانتاج والايدي العاملة التي يتحقق الانتاج بجهدها او بين المقربين من السلطة والمبعدين عنها وقد ارجع الوردي ذلك الى عاملين هما : ـ
أ ـ قوة الحكومة المركزية في السيطرة على المجتمع .
ب ـ تحديد الارض وتسجيلها بأسم الشيخ .

اي ان الارض اصبحت ملكاً خاصاً للشيخ بقوة القانون وبحمايته ضد اي منافس يطمح في اغتصابها منه وبذا ترك الشيخ عشيرته واستقر في العاصمة ـ بغداد ـ يتقرب فيها من الحكام ويعمل على تدعيم كيانه وكيانهم وهذا يعني ان الشيخ ترك وكلاءه في القرية ليشرفوا على استغلال رعيته فيها ولا يزورها الا قليلاً فلم تبق مصلحته الخاصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصلحة قبيلته ولم ينل مكانته الاجتماعية منها بمقدار مايخدمها ويحرص على منفعتها بينما كانت علاقة الشيخ بالفلاح في العهد العثماني قوية جداً وذلك راجع ـ في رأي الوردي ـ الى :

١ ـ ضعف الحكومة المركزية .
٢ ـ عدم وضوح حدود الاراضي لان معظمها غير مسجل .
٣ ـ استحواذ القبيلة على الاراضي بالقوة واستثمارها لها .
٤ ـ سيادة النظام العشائري .

وفي ضوء ذلك فان الشيخ يتعاون مع الفلاح على زراعة الارض ويتقاسمان الحاصل بعد ذلك على اساس من العرف المتفق عليه ولم تكن حصة الشيخ من انتاج الارض الا ماكان يساعده على القيام بواجبات الزعامة المتعاون عليها .

٢ ـ الغني والفقير في المدينة :

اخذ الغني الحضري يتغير كما يتغير الشيخ الريفي وامسى لايتحمل السكن في وسط محلته بين العفن والروائح الكريهة وهو لايكاد يرى الفرصة سانحة له حتى يفر الى احدى الضواحي فيبني فيها قصراً ضخماً وهناك يسكن الى جوار اقران له من شيوخ العشائر واغنياء المدن بين تغريد الطيور وعبيق الازهار . واذا اضطر الى المرور بزقاق من ازقة محلته القديمة وضع منديله على انفه وأخذ يتأفف من كسل الصعاليك وقذارتهم . وقد نشأت من جراء ذلك محلات طبقية في كل مدينة لاسيما في عاصمة الرشيد بغداد اذ يسكن الاغنياء في مكان معين لهم ويسكن الفقراء في امكنة اخرى وكلما ازداد العمران في العراق اشتد هذا الانفصال الاجتماعي بين الغني والفقير

٣ ـ الحاكم والمحكوم :

درس الوردي الفجوة بين الحاكم والمحكوم في فترتين زمنيتين مختلفتين هما الفترة العثمانية والفترة الوطنية حيث قال « كانت الحكومة العثمانية تسمى بـ (الرجل المريض) وكانت عقول الناس مريضة مثلها . اذ كانوا يتحملون جور الحكام وهم مؤمنون بأن ذلك مكتوب عليهم في لوح القدر وقد اعتقد كثير منهم بأن الظلم الواقع عليهم انما هو من سوء اخلاقهم وقلة عباداتهم وتقواهم كان الناس بعبارة اخرى لايفرقون بين المصيبة التي تأتيهم من الحكومة والتي تأتيهم من الطبيعة فلم يكن هناك فرق مثلا بين التجنيد الاجباري والطاعون الذي يحصد ارواحهم حصداً و كلاهما في نظرهم من نوع واحد . وهم لا يجدون ازاءه سوى الصبر والدعاء الى الله ان يرفع المحنة من هذه الامة لكن بعد مجيء الحكومة الوطنية فأن عقول الناس قد تغيرت اسرع مما تغيرت به طبيعة الحكام . فأصبح المواطن لايكتفي بانتقاد الحكومة على اعمالها الخاصة بل يرى كذلك ان لها يدا في الكوارث الطبيعية ان المطابع والمدارس ومحطات الاذاعة اخذت تمطر العقول بافكار لم يكن لابنائنا بها من عهد . »(١٨)

أ ـ ١٢/ التعاون والتنازع

قدم هذه الثنائية الاصطلاحية روبرت ماكيفر (١٨٨٢ ـ   )اذ قال عن المفردة الاولى ـ التعاون ـ لايستطيع الناس ان يجتمعوا على غير تعاون او دون ان يشتركوا معا في العمل من اجل السعي وراء المصالح المشتركة وهناك طرق كثيرة للتعاون في الحياة الاجتماعية منها :

١ ـ التعاون المباشر :

الذي يمثل النشاط الذي يقوم فيه الناس معا بعمل متشابه كاللعب معاً والتعبد معاً وحرث الارض الزراعية معا والعمل سوية بطرق مختلفة . وفي مثل هذا النوع من النشاط قد يوجد تنوع بسيط في تنفيذ العمل المشترك وأهم شيء هنا ان الناس يقبلون ان يعملوا معا مايمكنهم ان يعملوه ايضا وهم منفصلون او في عزلة عن الاخرين وهم يشتركون في العمل اما الان كون المرء يعمل وجهاً لوجه مع غيره يشجعه على حسن اداء العمل . وأما لان في ذلك مزايا اجتماعية اخرى ويتمثل التعاون المباشر ايضا حينما يؤدي فريق من الناس بالاشتراك عملا يبدو من الصعب على الشخص ان يؤديه بمفرده كما يحدث في لعبة (شد الحبل) او حينما يتعاون اكثر من رجل واحد على ازالة بعض المتاريس .

٢ ـ التعاون غير المباشر :

الذي يندرج تحت هذا النموذج جميع مظاهر النشاط التي يقوم فيها الناس باعمال غير متشابهة بالتأكيد بغية تحقيق غاية واحدة وان مبدأ تقسيم العمل محور هذا التعاون .

اما المفردة الثانية في هذه الثنائية فهي النزاع ، اذ يظهر التنازع بكيفيات متعددة ودرجات متفاوتة في اي اتصال يقع بين انسان واخر . وتتغير طرقه دائما مع تغير الاحوال الاجتماعية والثقافية وتختفي بعض انواعه من المجتمع الامريكي كما حدث بالنسبة لنظام المباراة وتظهر بدلا منه انواع اخرى . فأن اي شكل منه كالحرب وبعض طرق المنافسة الاقتصادية . ان التنازع الاجتماعي يشتمل على كل

نشاط يوجهه الشخص ضد اي شخص اخر لتحقيق هدف ما وله نوعان رئيسيان هما :

١ ـ التنازع المباشر :

يحدث حينما يعتدي الافراد (او الزمر) بعضهم على بعض اعتداءاً صارخا يترتب عليه اذى بليغ بقصد الحصول على غرض معين . واما الاعتداء الخفيف بقصد منع الغير من تحقيق غاية معينة فوسيلة التقاضي والجدل والدعاية وكثير من الصراع الذي تقوم به بعض الزمر الاعتيادية المنظمة للحصول على فائدة اكبر ويتميز التنازع الاقتصادي بين الطبقات الاجتماعية في بعض الاحيان بأشكال التنازع اشد عنفا كما يحدث بوضوح في المبارزة والثأر والثورة والحرب .

٢ ـ التنازع غير المباشر :

يحدث فيما لايحول الافراد او الزمر فعلا بين بعضهم وبين تحقيق مصالحهم وانما يقع هذا النوع من التنازع حين يسعى كل فرد لتحقيق مصلحته وهو يعلم ان ذلك لايتم الا بالحيلولة دون تحقيق مصالح الاخرين(١٩)

أ / ١٢ ـ البنيوية والتكوين الشكلي

ترى البنيوية ان الفعل الاجتماعي لايظهر من الفراغ بل يبرز بسبب تفاعل المرء مع الاخرين واستمرارية التفاعل يبلور احد نماذج الحياة الاجتماعية . وان التفاعل الاجتماعي بين الافراد يتأثر بالثنائية التي ساقها انتوني كدنز وهي مايأتي : ـ

١ ـ الحتمية والادارية :

تعني المفردة الاولى ان افعال المرء والتغيرات الاجتماعية هي ثمرة عوامل لاسلطة للمرء عليها . اي الايمان بالقضاء والقدر وتعني الثانية حرية الاختيار للمرء في تصرفه وسلوكه غير ملتزم بمؤثرات البناء الاجتماعي على الفرد .

٢ ـ الذاتية والموضوعية

واثرهما في توجيه تصرف المرء اذ تبرز الاولى (الذاتية) من آنوية الفرد وتظهر الثانية من خلال المؤثرات الاجتماعية الخارجة عن سلطان الفرد .

٣ ـ الزمان والمكان :

اذ يؤثر الترتيب التزامني للاحداث (السايكروني) والامتداد المكاني (الدايكروني) على تصرف المرء بشكل مباشر .
تعتقد البنيوية ان البناء الاجتماعي يضم العديد من الثنائيات الاجتماعية لانها تمثل جوهر الحياة الاجتماعية وهذه ـ الثنوية ـ تمثل الخير والشر دائما . فلا تخلو الحياة الاجتماعية منها . فالبنيوية اذن هي السياق صيرورة الثنائيات وليس نتيجتها او محصلتها . وهذا يعني انها دائمة الحركة والحيوية وان مفردات الثنائية لاتكون منفصلة الواحدة عن الاخرى ، بل منشدة ومرتبطة بعضها ببعض لذا فأنها ـ البنيوية ـ لاتهتم فقط بمفردات الثنائية بل بالرباط الوثيق القائم بينهما ايضا لكي تربط الثنائية بأحد انساقها وبخاصة بالنسق الثقافي الاجتماعي ، فعندما تنمط المؤسسات الاجتماعية فعل المرء على الصعيد الظاهري في الحياة الاجتماعية . فانها تعمل على تجسيد النسق الاجتماعي بانماط سلوكية مرئية . هذا من جانب ومن جانب اخر فأن البنيوية تحلل التقابل المترادف والمتنافي بين الثنائيات من زوايا ثلاث هي :

١ ـ تحدد درجة الحرية بين مفردات الثنائية من اجل تحديد تذبذباتها وتبايناتها وما يتبعها من آثار ٢ ـ تحليل مفردات الثنائية عبر الزمن متوغلة في العمق التاريخي والعمق المكاني من اجل صياغة انساق اجتماعية او بناء مؤسسات اجتماعية ٣ ـ تحليل اثر المرء على المجتمع من خلال تحليله للذاتية وتحليل اثر المجتمع على المرء من خلال تحليله للموضوعية(٢٠)

مناقشة الثنائيات المتناقضة المنفصلة :

لقد ارجعت اصول الانشطارات (الاكبر والكبرى) في الفصل السابق الى الثورتين (الصناعية والفرنسية) والى الحرب العالمية الثانية . لكنني عرضت في هذا الفصل الانشطارات الصغرى التي حصلت في المصطلح الاجتماعي وليس في العلم

نفسه وتأثره بالتغيرات الاجتماعية الهائلة التي حدثت في اوربا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بحيث ظهرت هذه الانشطارات الصغيرة كتحصيل حاصل للانشطارات السالفة الذكر. فظهرت عندنا اصطلاحات متنوعة من المجتمعات الانسانية (تقليدية وحضرية محلية وعامة. دينية ودنيوية. مشاعة ورفقية. صناعية وعسكرية. سياسية وحرة. بدوية وحضرية) وظهر ايضاً فكر اجتماعي يعبر عن الفلسفة المثالية والمادية وعامة وثنائية. وظهرت ايضا كتابات عن الطبيعة البشرية في التعاون والتنازع وغيرها من المحاولات الاصطلاحية المفيدة والجادة وقد اسميتها بالانشطارات الصغيرة لانها اصغر حجما من الانشطارات التي حصلت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (علم اجتماع اوربي وامريكي. وعلم اجتماع فرنسي وبريطاني واشتراكي ورأسمالي).
اما تسميتي لها بالثنائية المتناقضة والمتدافعة التي لاتجتمع على وجه واحد. ذلك لان صفات كل شطر تختلف بشكل متنافي مع الاخر وفي بعض الاحيان تكون عكسها في الصفات والخواص وان القاسم المشترك بينها هي خواصها المتناقضة وهذا الاختلاف والتناقض الحاصل في المصطلح الاجتماعي لا يعود الا الى التناقضات التي تبلورت في الحياة الاجتماعية بعد الثورتين والحرب الكونية لانها افرازاتها ومحصلتها.

فضلاً عن ذلك. فأن تشخيص اول ملاحظة نسجلها على علماء الاجتماع الذين تناولوا المزدوجات الاصطلاحية هي انهم ميزوا بين انواع المجتمعات التي سادت عصرهم فقاموا بمقارنة صفاتها وخواصها في المجتمع التقليدي التي ظهرت على شكل مقارنات وصفية مع تسليط الضياء على سبب بعضها وليس البحث عن عدة اسباب الحدث. اي الاهتمام باحادية السبب وليس تعددية الاسباب. لكنها ابرزت أثارها مثال على ذلك مزدوجة ريدفيلد في المجتمع التقليدي اذ لايستطيع الفرد فيه ان يطعن او ينتقد تقاليد مجتمعه الذي بدوره يقتل الابداع الفكري والمنطقي عندهم. على نقيض مايحصل للفرد في المجتمع الحضري. ومزدوجة تونيس في المجتمع العام والمحلي، ففي الثاني اذا قام الفرد بعمل منحرف عن تقاليد مجتمعه فأن الذنب والاثم يقع على عاتق كافة افراد اسرته وقد تعاقب على ذلك لكي لايحصل للفرد مثل هذا في المجتمع العام.

وفي مزدوجة هاورد بيكر في المجتمع الديني والدنيوي في المجتمع الاول تكون بعض قيمه الاجتماعية لاتستسيغ الاتصال بالعالم الخارجي لكي تضمن السيطرة على افراده وتوجههم نحو اهدافه. وهذا لايحصل في المجتمع الدنيوي

وفي مزدوجة الي جنوي عن المجتمع المشاع والرفقي ، تكون مكانة المعمرين في المجتمع المشاع عالية ومؤثرة على باقي الاعمار الاوطأ منها ، وهذا يعني ان احكامهم وقراراتهم تكون بمثابة قوانين رسمية وهذا وارد في المجتمع الرفقي .

وفي مزدوجة سبنسر حول المجتمع الصناعي والعسكري الذي يكون حقوق الفرد معترف بها في المجتمع الاول الامر الذي يجعله ـ الفرد ـ مستقبلا نوعا ما عن مجتمعه وهذا نقيض مايحصل في المجتمع العسكري .

وفي مزدوجة دارندروف عن المجتمع المستبد والحر ، حيث تكون تنظيماته وفئاته الاجتماعية موحدة لدرجة التطابق الامر الذي لايؤدي الى ظهور اي حالة من التنافس او الصراع فيما بينها وهذا مفقود في المجتمع الحر .

هذا من جانب ومن جانب اخر ، هناك حالات كشف الباحثين في المزدوجات المذكورة آنفا عن سبب ظهور احد احداثها او ظواهرها ، مثال على ذلك ،

١ ـ سبب النبذ الاجتماعي في المجتمع التقليدي هو خروج الفرد عن تقاليد ومعتقدات مجتمعه (ريدفيلد) .
٢ ـ سبب عقاب الاسرة في المجتمع المحلي هو تضامنها القوى الذي يتحمل انحراف احد افرادها عن تقاليد مجتمعها (تونيس)
٣ ـ سبب غياب التفكير العقلاني في المجتمع الديني هو تفسير وتحليل الظواهر الطبيعية والاجتماعية بقوى خارقة عليا خارجة عن قدرة البشر (هاوردبيكر)
٤ ـ سبب علائق الافراد في المجتمع الرفقي المؤقتة والنفعية والمصلحية هو ارتباطهم من خلال مصالحهم الخاصة واهدافهم الشخصية (آلبي جنوى) .
٥ ـ سبب توتر وقلق ومعاناة الافراد في المجتمع الكلياني هو غياب تعدد التنظيمات السياسية وكثافة الضغوط والالتزامات القسرية على الافراد (درارندروف)
٦ ـ سبب تطور الرأسمالية هي الافكار المثالية (مايكل مان)
٧ ـ الضروري اصل للكمال والبدو اصل الحضر (ابن خلدون)

ملاحظات اخرى وجدناها في هذا المفصل الاصطلاحي هو تكرار معلومات مضامين بعض المزدوجات وبالذات عند ريدفيلد (مجتمع تقليدي وحضري) وتونيس (المجتمع المحلي والعام) والي جنوى (المجتمع المشاع والرفقي) وهذا يعني ان هؤلاء المنظرين لم يأتوا بشيء جديد الى علم الاجتماع .

هذا ولا بد لي ان اشير الى فقدان التحليل والتعليل لكل صفة اجتماعية (في متن شطري المصطلح) وربطها بالبناء الاجتماعي . ثم انها لم توضح وظيفة الفعل الاجتماعي او القيمة الاجتماعية وكذلك العلاقة الاجتماعية في نوع المجتمع . مثال على ذلك . يكون الرجل مسيطر وموجه لاسرته في المجتمع المحلي (تونيس) وفي المجتمع التقليدي (ريدفيلد) هذه الصفة لم تحلل لماذا حصلت هذه الحالة الاجتماعية . وماهي آثارها وعلاقتها بالنظام الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع ؟ او لماذا يكون الفرد تعاونيا في المجتمع التقليدي ومصلحي في المجتمع العام ؟ او لماذا يكون البناء الاجتماعي للمجتمع الصناعي مرناً وفي المجتمع العسكري صلبا جامداً ؟ ـ كما وصفهما سبنسر ـ وماهي المتغيرات التي تجعل من البناء الاجتماعي مرنا.او صلبا ؟ انها في هذا السياق لاتعدو عن كونها مجرد معلومات خام لم تستخرج وتنمط بوساطة آليات منهجية .

هذا ولا بد لي ان اشير الى تدخل هاوردبيكر الذي كان رائعاً في تعليله لظاهرة التضامن الاجتماعي القوى بين افراد الاسرة في المجتمع الديني . وحلل ايضاً اسباب انعزال المجتمع الديني عن باقي المجتمعات وهذه الحالة ميزته عن كل من ريدفيلد وتونيس وسبنسر . ويشترك في هذه الخاصية التحليلية « الي جنوى » الذي قدم اسباب وجود معظم الخصائص التي وصف بها المجتمع المشاع والرفقي فضلا عن استخدامه اسلوبا مختلفا في الوصف عن اسلوب ريدفيلد وتونيس وبيكر . وقد يرجع ذلك الى كونه من الاجتماعيين المعاصرين الذي يعمل وفق المنهجية العلمية في الوصف والتحليل . اذ تناول موضوع الادوار والمكانات الاجتماعية والتنظيمات الاجتماعية وهذا الطرح لم يتناوله من سبقه في الدراسة . بل ركزوا على الاسرة والاعراف الاجتماعية وقوة الروابط الدموية . وهذا يعني ان طريقة « جنوى » الوصفية التحليلية شكلت نقلة نوعية في موضوع الثنائية في علم الاجتماع .

لامناص من القول بأننا لاحظنا ايضا نقلة اخرى في طروحات المنظر الالماني المعاصر دارندروف التي لم تستعمل من قبل المنظرين الكلاسيكيين وهي استخدامه لمحاور ثابتة وأساسية يبحث عنها في المجتمعين المتناظرين وشرحها ثم تبيان اسباب وجودها وعلاقة كل خاصية بباقي الخواص او البناء الاجتماعي وآثار وتبعات كل خاصية على افراد المجتمع . مثل تعدد التنظيمات السياسية في المجتمع الحر ومالها من اثار وتبعيات كل خاصية على الافراد وعلى بناء المجتمع معا . ومقارنة نفس الخاصية في المجتمع الاستبدادي الذي لايملك التعددية التنظيمية بل الاحادية مفسراً اثار ذلك على الصراعات المستقرة داخل المجتمع بين انساقه

اضف الى ذلك، انه استخدم اسلوبا جديداً في مقارنة الثنائيات المتناظرة وهي تناوله لنوعين متشابهين من المجتمعات في الشكل لكنهما مختلفين في المضمون (مثل مناظرة المجتمع الرأسمالي مع الصناعي) اي انهما ليسا مختلفين ومتضادين في الشكل والمضمون وهذه نقلة جديدة في منهجية التناظر المتناقض لم تستعمل سابقا من قبل عند المنظرين الغربيين الذين قبله.

اما مايكل مان. فقد استخدم نفس الاسلوب الذي استعمله دارندروف وهو استخدامه للمحاور كأساس للمقارنة المتناظرة لكنه اعتمد على كتابات انصار كل مفردة في المقارنة وليس من خلال ملاحظاته او انتقاداته وهذا هو اساس التباين بين طرحه وطرح دارندروف حيث كان طرح الاخير مركزاً على ملاحظاته ونقده وتقويمه وهذا يوضح ان ملكة دارندروف في الرؤية والتحديد والتشخيص قوية وثاقبة لم نجدها عند «مايكل مان» وقد يرجع ذلك الى حداثة مان في التنظير على نقيض دارندروف الذي بدأ حياته العلمية متأثراً بنظرية ماركس وممارسا التنظير المبني على توفر الحس النقدي.

واذا انتقلنا الى الاجتماعيين العرب. نجد البارز في ثنائية ابن خلدون انها استخدمت محاور عديدة للمقارنة بين البدو والحضر مشخصا تباينهما في العديد من الصفات والخواص معللا كل خاصية ومستخرجا جذورها الاصلية الامر الذي جعل ثنائيته من النوع التعليلي لا الوصفي او السردي وبهذا تقدمت على ثنائية ريدفيلد وتونيس وسبنسر التي اتسمت بطرح الخواص الاجتماعية المبتورة من جذورها بحيث تدفع القارىء ليسأل عن كيفية حدوثها وعلاقتها بالصفات الاخرى وآثارها على الفرد والمجتمع.

اما ثنائيات الوردي التي جاءت محلية (عراقية) عاكسة مقارنة وظائف موقعين اجتماعيين غير منسجمين في المجتمع العراقي ابان النصف الاول من هذا القرن. بيد انه لم يوضح العلاقة الضدية بينهما وآثارها على مستقبل علاقتهما وموقعها في البناء الاجتماعي العراقي.

الملفت للانتباه ان الثنائيات التي ذكرتها لم تأخذ في اعتبارها التنازع الذي يحصل بين خواص مفرداتها كما جاءت به المصطلحات الصراعية. اذ لم نجد فيها (الثنائيات) ان المجتمع التقليدي متصارع مع الحضري او ان المحلي تصارع مع العام او الديني مع الدنيوي او الرفقي مع المشاع. على الرغم من تقابل وتباين

وتضاد مضامين كل مفردة . فالعالم او الباحث الاجتماعي لم يوضح هذه الحالة لانه من المتوقع ان يحصل صراعا بين المجتمع الديني والدنيوي او التقليدي والحضري . حتى لو كان من النوع البارد ـ ان جاز التعبير ـ او المجتمع المحلي مع العام . لكن هذا لم يبرز او يتم تناوله في كتابات طارحيها على الرغم من ان دارندروف والوردي وأبن خلدون من اصحاب الافكار الصراعية .

فضلا عما تقدم . فأن الثنائيات لم تعكس ايضا النظرية البنائية الوظيفية على الرغم من ان هناك بعض اصحاب هذه النظرية استعملوا الثنائيات في كتاباتهم السوسيولوجية مثل ريدفيلد وتونيس وجنوى .

لامناص من السؤال في هذا المقام عن الوظائف المنهجية لهذه الثنائيات في علم الاجتماع فهل يمكن استخدامها كآلية منهجية لابراز الجانب الجدلي في التحليل والتفسير ؟ في تقديري انها لم تخرج عن كونها مجرد مفاهيم مترادفة تفضي الى استجلاء معانيها لكن يمكن استخدامها كآلية منهجية لابراز الجانب الجدلي في التحليل والتفسير في حالة استخراج « اسباب » وليس « سبب » الصفة وعلاقتها بباقي الصفات الاخرى وهذا ماقام به كل من دارندروف وأبن خلدون فقط بين المنظرين المذكورين في هذا المفصل

ب ـ الثنائيات المترادفة المتصلة

ب / ١ ـ التضامن الميكانيكي والعضوي

تناول هذا النوع من الثنائيات العالم الفرنسي اميل دوركهايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) حيث يقابل التضامن الميكانيكي المجتمع البدائي والتقليدي . يعبر هذا التضامن عن الشعور الجمعي ويعكس مفهوم (النحن) لان كافة افراده متجانسين عقليا وادبيا ومشتركين في معتقدات واحدة ونظام تقسيم العمل بينهم قائما على العمر والجنس المتصف بالبساطة وتكون العلاقات الاجتماعية فيه منسوجة من خلال الروابط القرابية المتصفة بالمتانة . لذلك لاتنحل او تنكسر . وبالوقت ذاته ـ يخلق بين حاملي هذه العلاقات شعوراً جمعياً قويا وولاء للضمير الاجتماعي . الامر الذي لايفسح المجال عندهم التعبير عن حريتهم الفردية او مواقفهم الشخصية

اما التضامن العضوي الذي يقابل المجتمع الحديث فأنه يتصف بالعلاقات الجزئية والجانبية لانها تعتمد على المصلحية الذاتية والوظيفية المهنية . ولا يوجد اي اثر للاواصر القبلية او القرابية . وفي ضوء ذلك تكون العلاقات الاجتماعية سهلة الانحلال او الانكسار . وهذا يفسر لنا بان الشعور الجمعي فيه ضعيف جدا الامر الذي يسهل على الفرد ان يعبّر عن حريته الفردية وموقفه الشخصي بدون مجاملة او تردد . اما نظام تقسيم العمل فيكوّن مبني على التخصص المهني الدقيق الذي يصاغ من خلال الانجاز والكفاءة والتخصص وهذا يخلق تشعبا متنوعاً في بنائه فيجعل منه شكلا مركباً(٢١)

ب / ٢ ـ الجماعة الاولية والجماعة الثانوية

طرح هذه الثنائية جارلس هرتن كولي (بحاثة امريكي ١٨٦٤ ـ ١٩٢٩) تنطوي الاولى ـ الجماعة الاولية **Primary Group** على صغر حجمها . اي ان عدد افرادها يكون قليلا . وأن علاقة افرادها تكون وجها لوجه ومن النوع الشخصي ـ غير الرسمي ـ لانها تقام على اساس القرابة او الصداقة . وتكون العضوية فيها الزامية وتتصف بتقسيم عمل بسيط وغير متخصصة بنشاط معين بينما تتصف الجماعة الثانوية **Secondary Group** بحجمها الكبير الذي يجعل علاقة افرادها من النوع الرسمي والذاتي والمؤقت لانها تقوم على اساس المواقع الرسمية التي يشغلها الافراد . وهذا يشير الى ان عضوية الافراد فيها تكون اختيارية وليست الزامية ومن النوع المتخصص بنشاط مهني محدد الذي بدوره ـ يخلق نظام تقسيم عمل مركب ومتخصص متخذاً شكلاً هرمياً تضع فيها افرادها كل حسب اختصاصه وكفاءته(٢٢)

ب / ٣ ـ الجماعة الثنائية والجماعة الثلاثية

ميّز جورج زمل بين نوعين من الجماعات الاول اطلق عليه الجماعة الثنائية **Dyad Group** التي تضم فردين فقط يملكان دوافع واحدة ومصالح واحدة ورؤى واحدة . هذه المكونات المتشابهة تخلق روابط اجتماعية متينة ومستقرة بينهما وتحمل في ثناياها العديد من الصلات السرية والخاصة ولا يسمح للاخرين من خارج هذه الجماعة الصغيرة الاطلاع عليها والتعرف على مكنوناتها . فهما (العنصران) يشكلان كلا واحداً متطابقاً ويكونان شكلا واحداً وبذا فأنهما يفقدان

استقلاليتهما وهما داخل العلاقة وهذا يعني انه لايوجد عنصر افضل او احسن او اكفأ من الاخر. بل الاثنان متساويان ومتكافئان في جميع الوجوه. وان بناء علاقتهما الاجتماعية قائم عليهما فقط وان موت احدهما يعني انتهاء الجماعة وفنائها. انها رمز الجماعة العضوية الجماعة الثانية سماها بالجماعة الثلاثية اي انها تتألف من ثلاثة افراد. يمثل العنصر الثالث فيها عنصراً موحداً بينهما ويعكس احد الاوجه الاتية :

أ ـ ان يكون نتيجة علاقة الفردين داخل الجماعة وغيابه يمثل استحالة وجود علاقة بينهما. فالاسرة المكونة من زوج وزوجة وطفل واحد يلعب الطفل دوراً موحداً بينهما بحيث يجعل من الاسرة كلا متكاملا وقادرة على ممارسة وظيفتها الاسرية. فهو اذن يعزز ويمتن الرابطة الاجتماعية بين الزوج والزوجة.

ب ـ يمثل العنصر الثالث الوسيط بين عنصرين متخاصمين بحيث يدخل الثالث ليحل مشكلاتهما وأزالة العداوة بينهما. اقول وجود العنصر الثالث داخل الجماعة يكون توفيقيا توليفيا بين المتخاصمين وغيابه يعني عودة الخلاف او النزاع بين الطرفين فتنحل الجماعة الثلاثية بشرط ان يكون (العنصر الثالث) مختاراً من قبل المتخاصمين او يطلب منه التدخل بسبب تخصصه بحل نوع خاص من المشكلات او لكونه مالكا لخبرة متخصصة او لكونه لايملك مصلحة مشتركة بينهما. اي انه لايخرج عن كونه محكما لانه يختلف في صفاته الشخصية عن صفات شخصية الطرفين المتخاصمين. او كونه بعيداً عنهما وعن صراعاتهما فهو يدخل كوسيط لاغير .(٣٣)

ب / ٤ ـ علاقة مكانوية وعقدية

استخدم هنري مين (بحاثة بريطاني) علاقات الافراد الاجتماعية المنطلقة من حرفهم ومهنهم والمكانات التي يشغلونها والاعتبارات التي يكتسبونها من خلال اعمالهم الصناعية او التجارية او المكتبية حيث وضع نوعين للعلاقات الاجتماعية. سمى الاولى بالعلاقة المكانوية **Status Relation** المحددة من قبل حرفة او مهنة اباء واجداد الفرد التي انحدرت اليه وحصل على اعتبارها الثابت والمقنن من قبل المجتمع الذي يعيش فيه والتي بدورها تحدد علاقاته مع الاخرين داخل مجتمعه من يوم ميلاده ولحين وفاته. ويحصل على قيمته الاجتماعية من يوم ميلاده

وما بعد وفاته او هجرته الى مجتمع اخر حيث يلازمه طيلة حياته ومابعدها فلادخل للثروة والملكية المادية او الروابط النسبية او العلاقات القرابية اثر في تحديد علائقه مع الاخرين خارج مهنته فمكانة الفرد المهنية تحدد اعتباره الاجتماعي والاثنان يحددان علاقاته الاجتماعية فالحداد على سبيل المثال يحصل على حرفته من والده او جده ومن خلال احترافه الحداده تتحدد مكانته الاجتماعية ويرث معها اعتبارها الاجتماعي التي منحها مجتمعه لها وليس لشخصيته او اخلاقه او ثروته (على الرغم من وجود حداد محترم وله شخصية متزنة وناضجة) يسود هذا النوع من العلاقات المجتمع التقليدي او الريفي .

اما النوع الثاني من العلاقات فهو العلاقة العقدية **Contract Relation** التي تقوم على التدرج الرسمي لمواقع السلم الاجتماعي ويكون شاغلي هذه المواقع خاضعين لاختصاصات مهنية او خبرات او شهادات دقيقة . الامر الذي يجعل علاقات شاغلي المواقع السلمية من النوع المكتوب والسطحي والمقنن والمصلحي والظرفي تخضع للتبدل والتغير ولا تنتقل من الاجداد الى الابناء والاحفاد . يسود هذا النوع من العلاقات المجتمعات الحضرية والصناعية .(٢٤)

ب ، ٥ ـ مؤد الدور وآخذ الدور

وجد ولتر كوتو غموضا وتشوشا بين مفهوم اخذ الدور **Role Taking** (الذي صاغه بالاساس جورج هربرت ميد قبل اربعة عقود) ومفهوم اداء الدور **Role Playing** بدأ كوتو بتحديد الدور حيث قال فيه ان لكل فرد في اي مجتمع موقعاً يشغله مثل المواطن او المثقف او الابن او الاب وما شابه ولكل من هذه المواقع واجبات ووظائف اجتماعية يتطلب من الفرد انجازها . فضلاً عن الحقوق التي يمنحه اياها الموقع . فالدور في هذا السياق يعني اداء الوظائف المناطة للفرد والمتضمنة مجموعة انماط سلوكية ومناشط ادائية ظاهرة يمكن ملاحظتها في الحياة اليومية . على سبيل المثال ، المرأة التي تشغل دور الام يتطلب منها ارضاع وليدها وتغذيته والاعتناء به وتلقينه العديد من السلوكيات ومنحه حباً وعطفاً . فهي وظيفة اجتماعية تهم كافة النساء اللواتي يشغلن دور الام وليس امرأة معينة وهذا يعني ان لدور الام توقعات خاصة بها حددها المجتمع سلفا والزم افراده ادائها والالتزام بممارستها لذا فهي ـ توقعات الدور ـ التي تمثل احدى الوظائف الاجتماعية للدور . اما اخذ الدور فيشير الى العمليات العقلية والفكرية والمعرفية التي يقوم بها

الفرد ومن اجل توضيح هذا التقارب بين المفهومين طرح كوتو خمسة مميزات هي مايأتي : ـ

أ ـ تخصص المفهوم ، يستعمل مفهوم اداء الدور في علم الاجتماع في اغلب الاحيان بينما يستعمل مفهوم آخذ الدور في علم النفس في معظم الاوقات .

ب ـ الالتزام الدوري ، ففي مفهوم آخذ الدور يدعى الفرد بأنه شخص اخر لا يتعلق او لايمثل شخصيته بل شخصية اخرى منفصلة عنه . بينما مؤدي الدور يمارس توقعات دور محدد له سلفاً في اطار مجتمعه او مؤسساته (الرسمية وغير الرسمية) مثال على ذلك ، عندما يلقي الشرطي القبض على الجاني فأنه لايَدعي بأنه (فلان) بل انه احد رجال القانون يقوم بواجبه حسب ماهو متوقع منه في نظر القانون والمجتمع اقول ، يعني اداء الدور التزام الفرد بتوقعات المجتمع المحدد لدور معين يقوم به ويلتزم بادائه .
بينما آخذ الدور لا يلتزم بتوقعات الدور الذي اخذ به . بل يقوم به من خلال تقمصه المؤقت له .

جـ ـ علاقة المفهومين بالمسافة الاجتماعية ، لاخذ الدور علاقة ضرورية وجوهرية بالمسافة الاجتماعية . بينما لاتوجد مثل هذه العلاقة عند مؤد الدور وذلك لوجود شروط وظروف تمنع او تسمح لان تؤدي الادوار او تؤخذ لانه لا يمكن اخذ كل دور وبخاصة الادوار المهنية التي تملك مواصفات خاصة بها لاتسمح لكل فرد ان يأخذها فالطبيب او الاستاذ او المهندس او مدير الادارة ـ على سبيل المثال ـ تمنع الافراد من ادائها الا اذا امتلكوا المواصفات والشروط التي تضعها او تشرطها المهنة نفسها

ولما كان آخذ الدور «مدعياً» وليس « واقعيا » فأن الفرد الذي يأخذ دور الجاني يمنع الشرطي في اداء مهمته في القاء القبض عليه لانه ليس بالجاني الحقيقي او الفرد الذي يدعى بأنه مريض يمنع الطبيب من معالجته لانه ليس بمريض فعلا وهكذا فليس كل الادوار يمكن الادعاء بها لان لكل واحد منها شروطها ومواصفاتها الخاصة بها .

د ـ اهمية الاخرين ، في مفهوم اخذ الدور يهتم الافراد بادوار الاخرين (يهتم بمواقفهم ورؤاهم) بينما يهتم مؤدي الدور بدوره فقط وما يشترط عليه من وظائف اجتماعية . حيث يتقمص اخذ الدور ومشاعر وافكار الاخرين المرتبطة بالدور المكتسب بالدور الذي يريد اخذه . بينما مؤدي الدور

يتصرف على اساس انه صاحب الدور من خلال التزامه بتوقعات المجتمع الذي حدده لدوره سلفا في الموقع الذي يشغله .

هـ ـ التعاطف الوجداني ، يتطلب من آخذ الدور ان يتعاطف وجدانياً مع الاخرين بشكل مباشر من خلال تقمص مشاعرهم وافكارهم التي يحملونها حيث تمثل ميكانزم الاتصال بالاخرين .

بينما يتطلب من مؤدي الدور ان يتعاطف وجدانياً مع الاخرين بشكل غير مباشر(٢٠) من خلال هذه المميزات الخمسة التي وضعها كوتو نجد التحديدات الدقيقة التي وضعها من اجل ان يميز بين مفهومين لكي يزيل الغموض والابهام بينهما وعدم استعمالها بشكل اعتباطي وعبثي من قبل الدارسين في علم الاجتماع وعلم النفس .

ب ، ٦ ـ علم الاجتماع الجاد وعلم الاجتماع السلس

قابل راندل كولنس بين علم الاجتماع الجاد **Hard Sociology** او التجريدي او الجاف . وعلم الاجتماع السلس **Soft Sociology** لم تكن مقابلته آخذة اطار المحاور المشتركة او تشخيص تمايزات فيما بينها . بل وصف كل منهما على جانب مبيناً اختلاف اهتماماتهما ومنهجهما . فقد قال عن علم الاجتماع الجاد بأنه يتخذ من العلوم الفيزيائية نموذجاً يحتذى بها ويقلدها في صياغة قوانين وانظمة لتوجيه سلوك الافراد في المؤسسات الاجتماعية (الدينية والسياسية والاسرية) تمثل هذا الاحتذاء في المدرسة الوضعية القديمة التي تأسست في بريطانيا وبالتحديد مع كتابات هوبز ولوك هذا من جانب ومن جانب اخر . فأن هذا النوع من علم الاجتماع تضمن نظريات ذات صياغات نصية وافكار رصينة تصف الحدث بشكل دقيق ومترابط باسلوب مجرد وتعميم ملتزم بالمنهجية الاستنتاجية . فضلاً عن امتلاكه فكراً رومانسياً ونقدياً موجهاً للصفات التقليدية المحافظة . فهو بذلك يمثل نسخة مطابقة للايديولوجية النفعية وللمذهبية الذاتية (مذهب لاهوتي يقيم المعتقدات الدينية على اساس من الخبر الذاتية) انه علم يؤمن بالابداع الذاتي والمشاعر الانسانية الخلاقة ويضفي موقفاً مناوئاً للفلسفة المادية والحتمية او الجبرية الاجتماعية التي تؤمن بالقضاء والقدر متخذاً المنهج التاريخي اساساً في استقراء الحدث الاجتماعي .

وفي نفس مؤلف كولنس (علم الاجتماع الصراعي ١٩٧٥) طرح مصطلحاً جديداً اسمه الاتجاه التجريدي **Hypostatization** ليوضح ماتضمنه علم الاجتماع الجاد قال فيه ان الاتجاه التجريدي يقوم بتلخيص سلوك الالاف او الملايين من الافراد عبر سنين عديدة لكي يعم فكرة مصاغة بشكل منطقي مجرد . فهو اذن يقدم النظرة الشاملة من خلال استخدامه المقاييس ذات الاوزان والمعايير الكبيرة .

ففي العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن استخدم هذا الاتجاه ـ المنطلق الوضعي والمنهج التأريخي والمقارن في دراساته للدولة والتغيير الاجتماعي والبناء الاقتصادي والبناء الطبقي بعيداً عن الاهتمام ببعض الافراد الذين يسلكون سلوكاً ظرفياً ولفترة زمنية محدودة جداً او ظاهرة طارئة تسود فئة اجتماعية صغيرة . بل يدخل مباشرة في دراسة شريحة اجتماعية واسعة الابعاد تعيش في المجتمع لفترة طويلة من الزمن من اجل ان ينحت مفاهيم رصينة في منطقها ودقيقة في رؤيتها وشاملة في تصويرها . وفي ضوء ذلك يستطيع ان يبدأ في بناء نظرية بعيدة المدى وواسعة المدار .

هذا ولابد لي بعد هذا الاستطراد ان اقول بأن هذه المهمة العلمية الجسيمة لايمكن انجازها او استخلاصها من معلومات مستقاة من استمارة الاستبيان او الاحصاءات الرسمية الظرفية . بل من خلال الوثائق التاريخية .

اخيراً . لعل من الضروري ان اشير الى ان هذا الاتجاه يرفض كل الرفض التفسيرات النفسية في استقراء الحدث الاجتماعي او الظاهرة الاجتماعية وهذا ماقام به اميل دوركهايم .

اما علم الاجتماع السلس . فأنه نقيض علم الاجتماع الجاد في المنهج والنظرية حيث لايملك الصياغات النصية والافكار المجردة . بل يملك شكليات وجماليات العلم وليس العلم نفسه . مؤكداً على الجانب الاجتماعي بجانب النفسي للظاهرة الاجتماعية مهتماً بنتائج البحث وعلاقة اسبابها اكثر من التزامه وتأكيده على الالتزام الموضوعي بالمنهجية العلمية واهمية تعميمها على اوسع الشرائح الاجتماعية . اقول انها بحوث ودراسات ظرفية يصعب تعميمها والاستناد عليها في كافة الاوقات والازمنة والمجتمعات الانسانية لانها تعكس خصوصية المشكلة . لكنه يملك قدرا عالياً من الاسلوب النقدي للظواهر والمشكلات الاجتماعية ومتمرسا في هذا المنهج .

في الواقع . احسن من يمثل هذا النوع من علم الاجتماع هي الوضعية الاجتماعية الجديدة Neu-Positivism لقد طرح كولنس مصطلح الاتجاه الاختزالي Reductionism ليوضح بشكل واسع علم الاجتماع السلس . حيث قدم تساؤلات تثير الشك على علم الاجتماع الجاد . منها كيف يمكن ادراك وملاحظة وتفسير وتحليل الظواهر والحقائق الاجتماعية ؟ لان ما هو سائد في علم الاجتماع التقليدي او الكلاسيكي مفاهيم ونظريات مليئة بالنصوص والصيغ المجردة ذات البناء المنطقي الرصين . مثل التنظيمات والطبقات والمجتمعات المحلية والنظم والانساق والانماط والادوار الاجتماعية . فذلك لا يجعل الفرد ان يرى او يلاحظ اي من هذه المفاهيم . ومع ذلك يدعي هذا العلم بأنه يملك الدراسات الواقعية الوضعية . ولا يقف عند هذا الحد . بل يبني نظريات على ذلك .

هذه التساؤلات دفعت كولنس لان يوضح الدراسات الاختزالية التي تنزل الى ميدان وواقع الحدث لتستقريء اسبابه وآثاره وعلائقه مركزة على علائق الافراد نوعاً وطبيعة لكي تستطيع ان تفسرَ السلوك الانساني، وهذا هو هدف الفلسفة الاختزالية .

فضلاً عن ذلك فقد ذهبت الدراسات الاختزالية الى مرحلة متقدمة لتكشف عن ماهية المكافئات والعقوبات وانواعها التي يحصل عليها الفرد من قبل الاخرين اثناء تفاعلاتهم الاجتماعية (سواء كانت بين فردين او مجموعتين كالاسـرة النوويـة او الجماعة الصغيرة) من الاتجاهات البارزة في الدراسات الاختزالية هو المذهب الفينومينولوجي (الظاهراتي) الذي يمثل التجريب المتطرف لانه يرفض قبول صياغات ونصوص نظرية مجردة من ابرز عمداء هذا المذهب كارفنكل وكوفمان وباقي الباحثين الذين اهتموا بالانحرافات الاجتماعية والذين يتعاملون مع السلوك المنحرف في الحياة اليومية المتفاعلة مع الافراد والبيئة الاجتماعية المحلية .

هذا المذهب اذن ـ في نظر كارفنكل وكوفمان ـ يمثل الحيوية النابضة بسلوكيات وتفاعلات افراد يعيشون واقعهم اليومي الذي لا يمكن دراسته واستقرائه الا من خلال آليات بحثية واقعية وليس نظرية او من خلال صياغة ونحت نصوص فكرية مجردة .

لعل من الضروري ان اشير الى حقيقة مفادها ان آليات هذا المذهب الواقعي تهتم بكلام الافراد ومحادثاتهم وأشاراتهم وحضورهم الذاتي المتقابل (رأساً لرأس او وجهاً لوجه) . من انصار الاختزال السوسيولوجي ايضاً اصحاب نظرية الوصم المنحرف

التي ظهرت عام ١٩٥٩ التي تؤكد في منهجها على التفاعلات اليومية للافراد امثال دوكلاس وسيسوريل اللذين اهتما باحصاءات وتقارير الحكومة الرسمية كمادة اساسية في دراسة سلوك الفرد اليومي .

وزبدة القول . ان الاختزال السوسيولوجي يعبر عن علم الاجتماع السلس لانه يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية اليومية مستخدماً الملاحظة المباشرة لمناشط الحياة وتناقضاتها ودقائقها السلوكية اليومية للافراد وهذا يفسر لماذا يهتم بالتحليل الكمي وليس الكيفي .

اضف على ذلك . فأنه يهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية التي تطرحها الحياة المتطورة وتأثيراتها المادية والمعنوية(٢٦) .

ب ، ٧ ـ علم الاجتماع الدينامي والمستقر :

اول من صنف علم الاجتماع الى صنفين متقابلين هو العالم الفرنسي اوكست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) حيث استعار تصنيفه من علم الاحياء (البايولوجي) فسمي الصنف الاول بعلم الاجتماع الحي (الدينامي) والثاني بعلم الاجتماع الثابت او المستقر (الستاتيك) يتضمن الاول دراسة استمرارية الحركات الاجتماعية وقوانين تطور مراحل المجتمعات . فهو يعني اذن بالتقدم الذي يمثل نواة الحركة الحية في المجتمع لانه يفسر اساسيات تطور ونمو المجتمع دون التطرق الى اسماء المجتمعات بل التفسير العام والمجرد مستخدماً تأريخ الانسانية في معرفة ذلك وان تاريخ البشرية مسيطر عليه من قبل الافكار النامية والمتطورة .

بينما علم الاجتماع المستقر يدرس شروط وجود المجتمع في الحياة . وان نواته النظام الاجتماعي العام الذي يقوم على قوانين الطبيعة مستقرئا علاقة عناصر المجتمع ودرجة انسجامها .

هذا النوع من علم الاجتماع يستخدم اسلوب التشبيه بين المجتمع الانساني والكائن العضوي لكنه لا يطابق او يماثل بينهما بسبب قناعته باختلافهما الجوهري الذي يبدأ بنظام تقسيم العمل الذي يميز اسباب تطوره وتقدم المجتمع الانساني وفقدانه عند الكائن الحي

هذا من جانب ومن جانب اخر . فان كونت لا يفصل بشكل كلي وتام بين النظام والتقدم لانهما متصلان ومتبادلان . لانه لا يوجد نظام اجتماعي حقيقي دون استناده على التقدم وبالوقت ذاته لا يوجد تقدم دون قيامه على نظام يقوده ويوجهه نحو غايات معينة والاثنان مرتبطان مع البناء الاجتماعي(٢٧) .

ب ، ٨ ـ علم الاجتماع الشكلي والعام :

العالم الالماني جورج زمل (١٨٥٨ ـ ١٩١٨) قسم علم الاجتماع الى علم الاجتماع العام **General Sociology** وعلم الاجتماع الشكلي **Formal Sociology** يبحث الاول في العلاقة بين الفرد والجماعة الاجتماعية وما لها من اثار على سلوكه وافكاره ومعرفة النفوذ الاجتماعي الفردي والجمعي فضلاً عن اهتمامه بالظواهر الاجتماعية تاريخياً لكي يصل الى وضع قوانين اجتماعية . اما علم الاجتماع الشكلي فأنه يدرس اشكال التجمعات الاجتماعية والظواهر السلوكية ـ الاجتماعية الظرفية التي تخلقها التحولات الاجتماعية . فضلاً عن اهتمامه بالمشكلات الاجتماعية التي تحصل ضمن كل شكل من اشكال التجمع البشري(٢٨) .

استخدمت جوليان فريوند اعمال دوركهايم وفيبر لتوضح نوعين من علم الاجتماع سادا نهاية القرن التاسع عشر في اوربا . اذ نقدت اعمال الاول من الجانب العلمي ووصفته بأنه يمثل الاصلاحي لانه لم يلتزم بالشروط العلمية للعلم ووصفت الثاني (فيبر) بأنه يمثل علمية علم الاجتماع لانه كان ملتزماً بالشروط العلمية . وقد استخدم معيار العقيدة المذهبية اساساً للتفريق بينهما اذ ادعت بأن اعمال دوركهايم كانت منطلقة من عقيدة مذهبية تدعو الى الاصلاح الاجتماعي في المجتمع الاوربي وقد سمت هذا التعميم المطلق على زملائه الذين عاشوا في عصره امثال ماركس وكونت وسبنسر لانهم كانوا يهدفون التغيير والتقدم الاجتماعي وحددوا مراحل تطور المجتمع وجعلوها متصلة الواحدة بالاخرى فضلاً عن نظرتهم الشاملة للمجتمع والثقافة والمدنية وحكموا على المجتمع بأن حاضره ماهو سوى امتداد للماضي الذي بدوره في اعتقادهم اعطاهم الرؤية المستقبلية وعدوا المرحلة التي تسبق الاخرى تكون بمثابة مقدمة منطقية لها .

جميع هذه التقويمات جعلت فريوند تحكم على اعمالهم بانها تمثل الاصلاح الاجتماعي ولم يهتموا بآليات البحث العلمي التي يمكن استخدامها في استقراء

الواقع الحي بل ابتعدوا عن ذلك فدرسوا ما يريدون ان يدرسوه وليس ماهو موجود في المجتمع من حقائق وظواهر وبذا فأنهم استخدموا تاريخ المجتمع لخدمة اهدافهم الخاصة وليس لخدمة اهداف العلم .

هذا من جانب ومن جانب اخر فقد قالت بأن دوركهايم استعمل الفرضيات الماورائية (الميتافيزيقية) من اجل الوصول الى تنبؤات اخروية (فيما يخص البعث والحساب) وهذا لا يركن عليه العلم وبخاصة علم الاجتماع لانه واقعي وعملي وان معظم اعماله كانت تمثل الاحكام القيمية وليس الاحكام القياسية العلمية وحتى تفسيره للشعور الجمعي كان لايتعدى مجال الافتراض والتخمين . والى تصنيفه للظواهر الاجتماعية لم يخضع للتصنيف العلمي بل تحكمت فيه الاحكام القيمية . جميع ذلك جعل جوليانا فريوندا تحكم على اعمال دوركهايم بأنها لا تمثل علمية علم الاجتماع بل عدتها اصلاحية .

في حين برزت اعمال فيبر الاجتماعية ووصفتها بانها علمية لانها لم تتنبأ بالمستقبل ولم تستخدم الرؤى الغيبية او الماورائية بل درست الواقع الحي من خلال المقارنة والاستقراء العميق لان هدفه كان البحث عن اسس قاعدية لبناء علماً اجتماعياً رصيناً وليس لتغير المجتمع او لمعرفة مراحل تطوره التاريخي فلم يعتمد على اية عقيدة مذهبية . (اشتراكية او رأسمالية) في توضيح طروحاته بل كانت في بعض الاحيان تعد ملتزمة بالمعايير العلمية ففهمها الناس بغض النظر عن موطنهم سواء كانوا من الصين او الهند او افريقيا او اوربا . ولم تأت نتائج دراساته على عجالة او نقص في نضجها لانها استخرجت من الواقع او من الوثائق الرصينة فرفض التنبؤات والغيبيات وركز على العقلانية والتفكير الرشيد . فلم يمنحه ذلك تقاطعاً او تساوقاً مع الاشتراكية او الرأسمالية . فلم يكن علمه ماركسياً او مادياً او رومانسياً . ذلك جاءت مفاهيمه ـ على حد قول فريوند ـ مفهومه وواضحة ومنطبقة على الواقع(٢٩) .

ب ، ١٠ ـ نظريات قريبة المدى وبعيدة المدى

يمكن تصنيف النظريات الاجتماعية بشكل عام حسب مد ياتها الى صنفين . الاولى ذات المدى القريب Micro Theories التي تتصف بالصفات الاتية ،

آ ـ دراسة وحدات صغيرة في المجتمع مثل الفرد أو الجماعة الصغيرة أو التفاعل الاجتماعي أو الطلاق أو الجريمة المنظمة .
ب ـ دراسة السلوك الانساني .
جـ ـ ابراز الجانب النفسي في دراستها .
د ـ ميدانية وتجريبية واحصائية في طريقة بحثها .
هـ ـ مواضيع دراستها سهلة الملاحظة وسهلة السيطرة على دراستها . من انصارها هومنز وبلاو وملز وبيلز .

النوع الثاني من النظريات تسمى بذات المدى البعيد التي تتصف بالصفات الاتية : ـ

آ ـ شمولية في دراستها للمجتمع .
ب ـ وحدات دراستها كبيرة وواسعة مثل المجتمع العام والسكان والثقافة والحضارة والمؤسسات الاجتماعية والتطور الاجتماعي وعلم الاجتماع المقارن
جـ ـ مواضيع دراستها تكون صعبة الملاحظة وصعبة السيطرة عليها .
د ـ طرق بحثها وصفية أو فلسفية .
هـ ـ تؤكد على الجانب الاجتماعي والحضاري في دراستها للمجتمع . من انصارها كونت ودوركهايم وسروكن وبارسونز .(٣٠)

ب / ١١ ـ النظرية الواقعية والتصويرية

لايعني هذا الانشطار في البناء الفكري للنظرية الاجتماعية بل في اسلوبها المنهجي وفي دراسة الحياة الاجتماعية . فالنظرية الواقعية تتقيد بقدرة آليات منهجها التجريبي الميداني المتمثل في التقنيات الاحصائية أو المنهج الوضعي ، وعادة مثل هذه الاليات المنهجية لاتستطيع الوصول الى دراسة المجتمع العام أو الحضارة أو المدنية أو العمليات الاجتماعية بسبب محدودية امكانياتها التقنية وبسبب حرصها على تقديم معلومات دقيقة ومبرهنة او ذات وجود حقيقي في المجتمع الامر الذي لايسعها ان تطرح براهين لااساس لها في الوجود أو لم تتناولها من الواقع الاجتماعي وهذا يعني ان نتائج دراستها تعمم على حجم الدراسة فقط وليس بشكل مطلق وعام ولها القدرة على تقديم مباديء وقوانين خاصة بالدراسة ايضاً لاتشمل كافة مناحي الحياة أو باقي الظواهر الاجتماعية الكائنة في المجتمع لذا فأن تعميماتها تكون

مستخرجة من الواقع وليست مستخرجة من تصور المنظر أو الباحث وهذا يعني انها نظرية جزئية وليست شاملة في مداها التصويري أو رؤيتها الاجتماعية. اخيرا تتصف هذه النظرية بالاكتشافات الجديدة لمكنونات الواقع الاجتماعي بعيدة عن التصورات الماورائية أو الغيبية أو ماليس له علاقة بالواقع المدروس. اما النظرية التصويرية فأنها تعتمد على الاسلوب الانطباعي وما يجتهد به المنّظر من افكار فلسفية وتبريرات منطقية الامر الذي يبتعد كثيراً عن التفاسير والتحاليل لدقائق الحدث أو الظاهرة وعدم الخوض في تفاصيلها وغالبا مايسحب الظاهرة المدروسة الى جذورها الفلسفية أو الى البنية الفكرية المعرفية وهذا مانجده في اعمال كونت وسبنسر التي جاءت مؤلفة أو مركبة لاعمال الذين جاؤا قبلهم من مفكرين وفلاسفة

هذا من جانب ومن جانب اخر فان النظرية التصويرية تقوم بصك ونحت المصطلحات الاجتماعية ذات المتون العامة والمجردة المتعلقة بالطبيعة البشرية والسلوك الانساني العام لا الخاص أو الشخصي ثم تقدم مجموعة احتمالات فلسفية ومنهجية عن الحياة الانسانية ومستقبلها

هذه المقدرة الفلسفية الواسعة حصلت عليها النظرية التصويرية من منهجها التأريخي والفلسفي الذي منحها الحصول على درجة عالية من التعميمات والنتائج العامة متجنبة الدخول في حيثيات وتفاصيل ودقائق الحدث الاجتماعي المدروس الامر الذي جعلها تضع قوانين اجتماعية مطلقة لكافة انواع المجتمعات انها قوانين وتعميمات ومفاهيم غير واقعية أو بعيدة عن الواقع الحي بل من بناء التخيل والتصور ولكنها تفيد اصحاب النظرة الواسعة والعميقة وتفيد ايضا المفكرين والمنظرين في الرياضيات الفكرية الذين يبحثون في الوصول الى خلاصات واستنتاجات عن الطبيعة البشرية.(٣١)

ب / ١٢ ـ النظرية الشاملة والجزئية

الانشطار الاصطلاحي هنا لايعني النظرية ذاتها سواء كان في مكونات بنائها أو قوتها في التحليل والتفسير للحدث الاجتماعي. بل انشطار في سعة منظورها للحدث المدروس ومدى تغطيتها لابعاده فالنظرية الشاملة تكون لها القدرة في تغطية ابعد مدى للحدث وتوصيفه بشكل عام ومجرد متعمقه في جذورها مستخرجة مفاهيما فكرية وفلسفية رصينة. وبالذات وقته تضع نماذجا ومرتسمات لهيكلية الحدث

المدروس لكي تعتمد عليه في توجيه وارشاد الدراسات الاجتماعية الشاملة اذ لها الامكانية بصياغة مرتسم عام للنسق الاجتماعي أو للنسق الثقافي في المجتمع العام وهذا يعينها على تقديم تعميمات مجردة عن مكونات اكدت كذلك لها القابلية على طرح اطار نظري واحد لدراسة العمليات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية للمجتمع الانساني متجاوزة الجزئية والظواهر الطارئة والاشكالات العارضة . وهذا التجاوز يجعلها خالية من اللغو والحشو الوصفي الذي لايغني النظرية لافي التفسير ولا في التحليل من انصار هذه النظرية تالكوت بارسونز الذي قدم نظرية النسق العام ونظرية بيترم سروكن في الدينامية الثقافية والاجتماعية .

اما النظرية الجزئية فهي التي تركز في رؤيتها وتحليلها لجانب واحد من الحياة الاجتماعية وان مداها التصويري لا يتعدى ذلك الجانب الاحادي وفي احسن الحالات تدرس ظاهرة اجتماعية صغيرة الحجم في تأثيرها وفاعليتها ووجودها داخل المجتمع أي انها لاتغطي المجتمع بأكمله لكنها تتعمق بشكل جذري داخل الظاهرة فتستخرج اكبر كمية من المتغيرات الاجتماعية الفاعلة والناشطة في بلورة الظاهرة ثم لها القدرة على ايجاد ارتباطات وعلاقات المتغيرات بعضها ببعض وهذا يمنحها القابلية في تقديم مفاهيم اجرائية عديدة ذات مضامين ميدانية وتجريبية آنية ومحلية لا تساعدها بأن تجعل منها مفاهيم نظرية شاملة ذات افكار فلسفية مجردة بل اراء ومواقف مرحلية تخص المرحلة التطورية للمجتمع .

تتصف هذه النظرية بالواقع التطبيقي وليس بالتجريدي لذا فهي يمكن ان تكون مرآة الظاهرة المدروسة لكن لايمكن ان تكون مرآة المجتمع بأكمله .

فضلاً عما تقدم انها قادرة على دراسة رتابة السلوكية الاجتماعية ودينامية الظاهرة الاجتماعية في آن واحد .

من انصار هذه النظرية روبرت مرتن في نظريته عن التحلل الاجتماعي ونظرية جورج هومنز في السلوك الاجتماعي ونظرية باريتو في الصفوة والدائرة السياسية ونظرية فيستنكر في التنافر المعرفي .(٣٢)

ب / ١٣ ـ المنهج الطبيعي والتأريخي

حاولت جوليان فريوند التمييز بين نوعين من المناهج الاجتماعية . فقامت بتحديد الخطوة الاولى في دراستها للحقيقة أو الظاهرة . الا انها لم توضح ادوات

واليات كل منهج بل اقتصرت على الفصل التاريخي بينهما عند علماء الدراسات الاجتماعية وهده محاولة جيدة ـ في تقديري ـ لانه لاتنظر الى المنهجية الاجتماعية على انها واحدة عند العلمين (الطبيعي والاجتماعي) بل كل فرع من فروعها له منهجية خاصة بها ويمكن القول ايضا بأن لكل ظاهرة لايمكن دراستها الا من خلال ألية منهجية تمتلك القدرة على الشمول والاحتواء والشكلي للظاهرة والتوغل الى عمقها من اجل دراستها ضمنا وشكلاً فضلا عن ان مثل هذا الطرح يمثل انشطاراً واسع النطاق في الدراسات الاجتماعية حيث يعكس استقلال العلوم بعضها عن بعض وبالوقت ذاته يشطر مناهج البحث الى اجزاء فرعية حسب ضرورات وظروف الظاهرة المدروسة

لقد اعتمدت فريوند في تمييرها بين العلمين (الطبيعي والاجتماعي) على اطروحات ماكس فبر الذي حدد وبشكل واضح هدا الانشطار البارز اذ قالت « علينا ان نرجع الى نهاية القرن التاسع عشر لتحديد الاكاديميين الالمان في كيفية تأكيدهم على هذا الفصل مثال (شمولر وميبجر) في الاقتصاد و (كانت) في علم النفس و (ولامبرت وفي ماير وفون بيلوف) في التاريخ و (فوسلر) في علم فقه اللغة و (دلتاي و ويندلبند وريكرت) في الفلسفه .. د ميرو بين العلوم الطبيعية والاجتماعيه وسمو الاخيرة باسماء مختلفة اذ سموها بالعلوم الانسانية وتارة اخرى بالتاريخية ومن بعد بالثقافية واخير بالمعرفية وكان ابرز هؤلاء في تأكيده على الفصل بين العلمين دلتاي الذي قال ان تصنيف العلوم يجب ان تبنى على اختلاف مواضيع اهتماماتها اذ يمكن تحديد التمييز بشكل واضح بين المملكة الطبيعية والعقل البشري أو التاريخ لان الحقيقة و الواقع يمكن تقسيمه الى اقسام مستقلة وكل قسم يمثل حقلا معرفيا علميا خاصا به

لكن ويندلبند وريكرد رفض طرح دلتاي اذ قالا ان الواقع او الحقيقة تمثل كلا واحدا لاينقسم الى اجزاء لانه لايقبل القسمة على نفسه بل متماثل مع ذاته وان التقسيم الذي يحصل او حصل هو ضرب من ضروب المنطق الاسمي لا الواقعي ثم ردوا قائلين بان هناك علوم اخرى درست الواقع من زوايا متعددة ومختلفة الامر الذي اوجبتها استخدام مناهج مختلفة في دراستها وأن الرباط الاساسي بين العلماء هو البحث عن اكتشاف علائق عامة تربط بين اجزاء الحقيقة او الظاهره و استجلاء قوانين عامة تتحكم بهم

واستنادا الى هده الوضعية فان هناك منهجين اساسيين هم التعميمي (الذي يعمم نتائج بحثه على الكل) والفردانى (الذي يدرس الفرد ومن بطرحه من افكار

وسلوك وانتاج معرفي) هذا الانشطار في المنهج افرز صنفين من العلوم . الاول اهتم بالنواميس الطبيعية واهتم الثاني بشخصية وفردية الانسان (حسب تصنيف وبند لباند) اسميت الاولى بالعلوم الطبيعية والثانية بالعلوم الثقافية (حسب تسمية ريكرد) وحسب هذا التمييز رفض فيبر اعتبار علم النفس فرعاً من فروع العلوم الطبيعية بل الثقافية (اذ كان بعض علماء الالمان يعدونه من العلوم الطبيعية لانه اهتم بالظواهر العقلية التي تمثل ظاهرة بايولوجية لها خصائص فسيولوجية وليس ثقافية) .

فضلاً عما تقدم فان فيبر يرى عكس ماجاء به كل من ويندلياند وريكرد اذ يرى ان لكل علم مناهجه الخاصة به يستخدمها حسب ظروف وشروط الظاهرة التي يدرسها واستناداً الى حاجات واغراض وغايات البحث . وقد يستعمل علم الاجتماع وعلم النفس الية منهجية واحدة لدراسة ظاهرة اجتماعية نفسية متشابهة على الرغم من انهما علمان مستقلان لهما اليات منهجية خاصة بكل منهما . وكذا الحال بين علم الاحياء والفلك .

بيد ان الخطأ يحدث عندما يقال بأن العلوم الطبيعية تستخدم المناهج التعميمية أو الطبيعية وان العلوم الثقافية تستخدم المناهج التاريخية أو الفردانية . ومن الخطأ ايضا القول بان العلوم الطبيعية تعنى باجزاء من الحقيقة أو ببعض اوجهها وان العلوم الثقافية تبحث في الثوابت العامة التي تتحكم في سلوك وتفكير الناس . في الواقع لا يمكن ان نعقد مفاضلة منهج على اخر لان واقع الحياة الاجتماعية متبدل باستمرار ومتطور بشكل غير منقطع ولا ينضب ولا حدود له . لذلك لايمكن حصره وهذا يعني بأن هناك ظواهر عديدة ومشكلات متنوعة بالدرجة والنوع الامر الذي يتطلب ان تكون هناك مناهج عديدة ومتنوعة ايضا كل حسب طبيعتها ومهارتها الاستقرائية. ومع ذلك فان هناك حقيقة تربط بين العلمين (الطبيعي والثقافي) وهي انهما يبحثان عن الحقيقة أو الواقع من اجل استخراج مفاهيم منها بشكل صادق وأمين علما بأن الاليات المنهجية لاتمثل العصا السحرية التي تستطيع القيام بكل مايطلبه الباحث من نتائج او مايتوقعها . أو ان لها القدرة على استخراج كل شيء من الواقع . ولا تمثل ايضا الاجراءات المنهجية المطلقة ذات النهايات الاكيدة .

ثمة انشطار موقفي بين فيبر وكونت حول استقلال أو اعتماد العلوم فيما بينها اذ وضع كونت تصنيفا متسلسلا للعلوم وهو الاتي : الرياضيات . الفلك . الفيزياء .

الكيمياء علم الاحياء . علم الاجتماع . واعتبر الرياضيات اول العلوم ومفتاحاً لها . ووضع علم الاجتماع في النهاية وعده تاجاً لجميع العلوم ومصدراً لكافة العلوم الانسانية . يرى ايضا ان كل علم في هذا التدرج يعتمد على سابقه وان جميع العلوم الصرفة تهتم بالجزئيات لا الكميات ماعدا علم الاحياء الذي يهتم بالكليات ويدرس الجزئيات من خلال ارتباطها بالكليات وهذا يشبه علم الاجتماع الذي يدرس الجزئيات ضمن الكليات لذلك وضعه بعد علم الاحياء بسبب هذا التشابه .

لكن فيبر رفض هذا التدرج وقال « لما كانت الحقيقة ذات اوجه متعددة فأن لكل علم مقدمة منطقية ـ كبرى وصغرى ـ تمثل الاولى نموذجاً للاخرى فعندما يحدد العلم مقدمته المنطقية فأنه يكتسب استقلاليته عن باقي العلوم الاخرى . لذلك لايرى فيبر بوجود علم يعتمد على الاخر او ان هناك علماً يكون بمثابة قاعدة لعلم ثان وضرب مثالا على ذلك فقال بأن قاعدة علم الاجتماع المشكلات الاجتماعية ولا يبني دراساته على علم اخر كقاعدة له بل يبني مقدماته المنطقية على مشكلات المجتمع ثم يقدم لها معالجات وحلول تتناسب مع حجمها وطبيعتها ونوعها .(٣٣)

ب / ١٤ البحوث الكلية والجزئية

شطر رايت ميلز (باحث وناقد اجتماعي امريكي حديث) البحوث في علم الاجتماع الى شطرين . الاول اطلق عليها بالبحوث الكلية . لانها تناولت المجتمع الانساني في دراستها من اجل ان تصل الى جذور الوجود الانساني وأصل الانواع البشرية وطبيعة العلائق بين المجتمعات المختلفة . وأسباب غياب حركة اجتماعية في مجتمع ما . فاستخدمت تاريخ الانسانية كمادة لها في الوصول الى اهدافها فنظرت الى هذه الحالات من نافذة التاريخ . فمثلا عمل ماكس فيبر واوسترو جورسكي وماركس وبراس ومايكلز وزمل ومانهايم استخدم نماذج اجتماعية مستخرجة من بطون التاريخ ثم صنفت بشكل منسق لكي يعرضوا الروابط المتواشجة بينها ثم بحثوا من خلالها عن انواع الوجود الانساني وكيفية ظهور السيد المسيح وعن علاقة البروتستانتية بالكاثوليكية . وفي غياب الحركة الاشتراكية في الولايات المتحدة وغيرها ثمة حقيقة يجب ذكرها في هذا المقام هو عدم وجود حوافز مالية او مؤسسات (حكومات او شركات أو جامعات) تدفع للباحث من اجل دراسته لموضوع معين يمثل الدراسات الكلية بل كانت محفزات ذاتية . فقد يتناول عملا

مهملا او متروكاً من قبل الباحثين ولا يأخذ عملا مطروقاً من قبل اخرين الامر الذي يؤدي الى املاء الفراغات في المواضيع الكلية هذه البحوث تمتلك نصوصاً نظرية مجردة تمثل مستوى عال من الحبكة اللغوية والمعاني الدقيقة والتسلسل المنطقي والوضوح الفكري وتغطي مساحات اجتماعية واسعة في تعاميمها . بيد انها تنطوي على عدد كبير من المتغيرات غير الدقيقة أو المحددة في مؤشراتها ودلالاتها . فمفهوم الرأسمالية على سبيل المثال ينطوي على متغيرات عديدة ومنمطة بشكل واضح لذلك شبه ميلز مفاهيم البحوث الكلية بالاسفنج الذي لايعرف حجمه الطبيعي لان هذا النوع من المفاهيم لاتكون دلالاته اللفظية أو الكلامية معلومة الابعاد ولا تملك فهرسة لدلالاتها لكي تساعد الباحث على تناول الحقائق وملاحظتها ميدانيا . لذلك تأتي غامضة ومبهمة في اتجاهاتها ومسالكها اما الشطر الثاني فهي البحوث الجزئية التي تنطوي على دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعيشها عدد قليل من الناس مستخدماً المنهج الاحصائي للتمييز بين متغيراتها واثارها على ابعاد المشكل . ان مثل هذه البحوث لا تكون لها خلفية تاريخية بل لها اسباب تكمن في الحياة الاجتماعية . فهي لاتهتم بالفلسفة الاجتماعية بل بالتبضع ومعوقات وسائل الاتصال الجماهيرية والمشكلات الاعلامية . وقد ساعد على نمو هذا الشطر من البحوث وكالات التسويق والتبضع في العشرينات من هذا القرن ووكالات المسح الاجتماعي في الثلاثينات ومراكز البحوث الاكاديمية ودوائر الحكومة البحثية بعد الحرب العالمية الثانية . ثم انتشرت مع انتشار المعاهد والكليات ومراكز البحوث في الولايات المتحدة الامريكية .

هذا الشطر من البحوث لايعتمد على الحافز العلمي للباحث بل الحاجة المالية له ووجود تنظيم مؤسسي يمول البحوث حاليا يضم تقنيين واداريين لايهتمون بأصول البحث العلمي بقدر مايهتمون بترفيعاتهم نحو مواقع مؤسسية افضل وذات مردود مالي اكبر . لذلك ينغمر في القضايا الاجرائية والروتينية على حساب اجراءات البحوث فالباحث داخل هذه التنظيمات المؤسسية لايتعامل مع اهمية وخطورة المشكل أو الظاهرة بقدر مايتعامل مع زبائن البحث أي من هو ممول البحث المالي وكم يعود عليه بربح لقاء اجراء البحث . وهنا لايصبح البحث العلمي هدفاً سامياً في نظر الباحث لذلك تأت نتائج البحوث التي تقام في مثل هذه المؤسسات لصالح هيئاتها الادارية والمالية (الزبائن) على حساب المصلحة العلمية والاخلاقية الموضوعية للبحث الاجتماعي الامر الذي يكون دور الباحث صغيراً ومستغلاً (بعلمه) لصالح المؤسسة فيغيب الابداع العلمي والمعرفة الحقة ودراسة الواقع . بل تظهر

مصالح الزبائن فوق كل اعتبار علمي . وبذا باتت البحوث الجزئية معبرة عن سياسة الحكومة واتجاهها في الدراسات الاجتماعية ضاربة عرض الحائط القيم العلمية للبحث الاجتماعي لكن يجب ان نسجل بان البحوث الجزئية تتمتع بتراكم معرفي كبير لاتتمتع به البحوث الكلية حيث يمكن دراسة نفس المشكل في مكان اخر أو بعد فترة زمنية لنفس المشكل وفي نفس المجتمع للتعرف على مدى تطور احداثه وهذا يكشف لنا درجة تراكم وتطور الحدث الاجتماعي فضلاً عن استخدام الاساليب الاحصائية بشكل مكثف فيها . بيد انها لاتملك النصوص النظرية ذات المستوى العال في حبكتها اللفظية ورصانتها اللغوية وشموليتها في الرؤية والتحليل بل تنطوي على عدد قليل من المتغيرات الدقيقة والمحدودة والواضحة وضيقة المعانى والدلالة ومركزة بشكل مكثف . لذلك لايمكن تعميم نتائجها على كافة شرائح المجتمع بل فقط على مجتمع الدراسة الذي سحبت منه عينة البحث .

بيد ان هناك معضلة سياسية وثقافية مفادها انه كلما زادت اهمية المشكل المدروس من الناحية الاجتماعية والسياسية (ظهرت الحاجة الى اتساع حجمها الدراسي) تقل دقتها في المعرفة العلمية وتقل صراحتها في حلولها للمشكل المدروس (اي تكون دقتها المعرفية جزئية) فضلا عما تقدم فأن ميلز يرجع هشاشة البحوث الجزئية وعدم رصانة نتائجها الى الجبن الاكاديمي وعدم استقامة الباحثين الاجتماعيين واللامبالاة عند رجال السياسة أو الحكومة لاهمية البحوث الاجتماعية في أتخاذ القرار العميق لان البحوث كانت تكتب في القديم للعلماء وللجمهور لكي يطلعوا عليها ويستفادوا منها . اما في البحوث الجزئية فتكتب للخاصة ولرجال المراكز البحثية والمنتفعين منها ماليا لاعلمياً أو حسب تسمية ميلز كتبت للزبائن وليس للجمهور .

الا ان هناك تمييزا جوهرياً طرحه ميلز يوضح الفروق الاساسية بين البحوث الكلية والجزئية من خلال سؤاله الاتي لماذا يتبع الناس هتلر ؟ اجاب على هذا السؤال العام بعدة اجابات متنوعة هي : ـ

١ ـ عندما يكون الافراد مضطربين ويعيشون في ازمة اجتماعية واقتصادية ولا يوجد مرشد يرشدهم للطريق الصحيح يلجأون ـ تحت هذا الظرف ـ الى بيروقراطية المنقذ لكي ينقذهم من الضلال ويخرجهم من الحياة الفوضوية الى الحياة المنظمة (جواب جزئي) .

٢ ـ السؤال نفسه (لماذا يتبع الناس هتلر ؟ (سؤال يعبر عن البحث الجزئي)
الجواب ان اهل الحضر تكون حياتهم غير موجهة وبحاجة الى ارشاد وتوجيه وصورة الاب القائد في حياتهم اليومية مفقودة . فوجود هتلر بصورة الاب القائد المنقذ تجذبهم للانقياد وراء قيادته (جواب كلي)

٣ ـ السؤال جزئي والجواب جزئي وهو لماذا ٣٠ ٪ من البالغين من السكان يصوتون لهتلر ؟ الجواب اذا اخذنا التوزيع الريفي ـ الحضري فأن عامل الدين ومستوى الدخل يلعب دوراً مهماً في التصويت .

ان مسألة البحث قد تكون معبرة عن اشكالية كبيرة الحجم ولكن نتائجها تكون جزئية لاتعبر عن كلية الموضوع . وحالة اخرى قد تكون اشكالية البحث من النوع الجزئي بيد ان نتائجها من النوع الكلي وحالات اخرى تكون اشكالية البحث معبرة عن حجمها الطبيعي أي اذا كانت الاشكالية تمثل النوع الكلي فأن نتائجها ايضاً تكون من النوع الكلي والعكس صحيح اذا كانت الاشكالية من النوع الجزئي فأن نتائجها تكون من النوع الجزئي . مثل هذه الحالات ظاهرة وبارزة في البحوث الاجتماعية الحديثة في نظر ميلز(٣٢)

ب / ١٥ ـ الوظيفة المستترة والظاهرة

طرح هذا التقابل الاصطلاحي روبرت مرتن ليميز بين نوعين من الوظائف التي تقوم بها الانظمة الاجتماعية وهما الوظيفة الظاهرة التي يقصد بها الاثار الموضوعية التي تساهم في تبني النظام او التكيف له بشكل مقصود من قبل افراد المجتمع .

اضف الى ماتقدم فأنها تمثل دوافع السلوك الاجتماعي الظاهر للعيان والذي يمكن ملاحظة اثارها الموضوعية عبر الزمن بينما عني بالظاهرة المستترة الاثار الموضوعية التي تساهم في تبني النظام أو التكيف له بشكل غير مقصود أو ظاهر للعيان أو بشكل متميز (٣٥)

ب / ١٦ ـ القيم العربية الثنائية

طرح الباحث العربي حليم بركات احدى عشر ثنائية متناقضة من القيم الاجتماعية العربية هي مايأتي

١ ـ القيم القدرية وقيم الارادة والانسانية الحرة .
٢ ـ القيم السلفية والقيم المستقبلية .
٣ ـ قيم الاتباع وقيم الابداع .
٤ ـ قيم العقل وقيم القلب .
٥ ـ قيم المضمون وقيم الشكل .
٦ ـ القيم الجماعية والقيم الفردية .
٧ ـ قيم الشعور بالعار والشعور بالذنب .
٨ ـ قيم الانفتاح وقيم الانغلاق .
٩ ـ قيم الطاعة وقيم التمرد .
١٠ ـ القيم العمودية والقيم الافقية .
١١ ـ قيم العدالة وقيم الرحمة(٣٦)

ب ـ ١٧ ـ مواقف انوية ونحنوية

شطر كل من وليم اسحاق توماس وزنيانسكي مصطلح المواقف الاجتماعية عند الفرد الذي يعيش في اسرة مضطربة في علائقها وتفاعلاتها وحياتها الاسرية استخرجا هذا المفهوم من دراستيهما عن الفلاحين البولنديين الذين هاجروا الى مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة ذات الحياة الصناعية المتقدمة والمتحضرة بشكل عال حيث وجدا ان تعرض الاسرة التقليدية الى قيم حضرية وصناعية جديدة عليها تؤدي بها الى تغيير في مواقفها القديمة وبلورة مواقف جديدة . لكن الاسرة اذا حافظت على علائقها الداخلية وبنت ارتباطات قوية مع مجتمعها المحلي فان مواقفها تكون معبرة عن المشاعر الجمعية النحنوية . اذ بدوره يخلق عنده الموقف الجمعي النحنوي الذي يعبر عن المشاعر النحنوية الجامعة بين ميوله الخاصة وميول وطموح اسرته ومجتمعه المحلي . لكن اذا انعزل الفرد عن اسرته ومجتمعه المحلي او اذا هاجر عنها فان مشاعره الفردية تبرز وتميل نحو الاستقلال بذاته فيتعرض للقيم الاستهلاكية المظهرية الفارغة من الروح الاجتماعية . فيضعف عنده الشعور الجمعي ويتعزز شعوره الانوي الذي بدوره يتكون الموقف الانوى الذي يشير الى فصل رغباته ومشاعره عن رغبات ومشاعر افراد اسرته . فالموقف الانوي يبرز عند الفرد عندما يميل لاشباع رغائبه المالية في جمع المال والكسب السريع وحب الظهور امام الاخرين واشباع رغائبه الجنسية بينما يبرز الموقف النحنوي عند الفرد عندما يعبر عن رغائب ومصالح اسرته ومجتمعه المحلي .

نستنتج مما تقدم ان المواقف الجديدة تكون مرهونة بظهور قيم اجتماعية جديدة وكذلك بعدم تنظيم حياة الاسرة وبانعزال الفرد عن اسرته ومجتمعه المحلي .

فالمجتمعات الصناعية الحضرية الجديدة تبلور مواقفاً جديدة تعبر عن مادية الحياة الجديدة لكن الاسرة اذ وضعت حوائل او وضعت امامها من خلال التفاعل الاجتماعي المستمر والاتصال مع باقي الاسرة في المجتمع المحلي فان أبنائها سوف لايتخذون مواقف آنوية لإن اسرتهم حصنتهم اجتماعياً ضد مؤثرات الحياة العصرية ذات الطابع المادي البشع .

واذا انجرفت الاسرة امام التحدي المادي الذي تفرزه الحياة العصرية فان ابنائها يكونوا عرضة للانسحاب منها والانعزال عن مجتمعهم المحلي فيتعرضون لتأثيرات قيم الاستهلاك الظاهري فيميلون الى التأكيد على اللذة والعادة الفردية والرضا والاكتفاء الذاتي ـ الاسري ومثل هذه اللذات الانوية المعبرة عن مصالح افراد اسرهم ومجتمعهم المحلي كذلك اذا كانت الاسرة مضطربة في حياتها الاجتماعية فان هذا العامل يساعد على ابتعاد افرادها عنها واللجوء الى الانعزال عنها ايضاً فيتعرضوا لتأثيرات قيم الاستهلاك الظاهري المادية الفارغة من كل معنى اجتماعي فيتخذون موقفاً آنوياً وليس نحنوياً .

بينما الاسرة المنظمة في حياتها ومناشطها تعزز مشاعر الفرد الجمعية الامر الذي يدع افرادها الى عدم فصل ميولهم الخاصة عن ميول اسرهم ومجتمعهم المحلي . اذ ان الموقف الانوي يتراجع امام التنظيم الاسري والتفاعل والاتصال الاجتماعي المستمر مع الاسر الاخرى ومع المجتمع المحلي .(٣٧)

ب / ١٨ الاتجاه الفردي ونحو الاخرين

قدم هذا الانشطار الاصطلاحي ديفيد ريسمان (منظر اجتماعي امريكي معاصر) عند تحليله للذات الفردية ـ الاجتماعية الامريكية اذ صنفها الى ثلاثة فقرات هي الاتجاه التقاليدي ـ والاتجاه الباطني ـ الجواني والاتجاه نحو الاخرين . لكنه ركز على الاخيرين بشكل مركز وواضح . ففي الاتجاه الباطني ـ الجواني عنى به عدم خلو دخيلة الفرد من المؤثرات الاسرية بل منشأة من قبلها وغذتها بقيمها واعرافها وبالذات تعزيز سلطة الاب وتأثيرها عليها بحيث تبقى منغرسة في ضميره لفترة زمنية طويلة لايستطيع التخلص منها او الفرار منها والاستقلال عنها .

لذلك عندما يريد ان يتصرف لكي يرضي ضميره او ان يكون صادقا مع ذاته وانه يرضى سلطة والده ويصدق مع سلطة والده وليس ضميره وان ادراكه بأنه يرضي ضميره فهو تضليل وخداع ذاتي . اما الاتجاه نحو الاخرين فانه يضم الجماعة العمرية والمجتمع المحلي اي الاخرين الذين يحيطون بالفرد ويتفاعلون معه فيتأثر بهم وباحكامهم لدرجة انه لايتخذ قرار او يحدد موقفه الا من خلال احكامهم وتقويمهم لذا فان توجه ذاته نحو ذوات الاخرين يكون مهما في المواقف الخارجية والاجتماعية وليس الذاتية . وهنا يشير ريسمان انتمائين للفرد الاول : يجد الفرد انتماءه الاجتماعي عندما يتفاعل وجهاً لوجه مع جماعته العمرية او مجتمعه المحلي بحيث لا يجد وجوده خارج جماعته العمرية او مجتمعه المحلي والانتماء الثاني عندما يتفاعل مع ذاته الباطنية اذ يتفاعل مع سلطة والده المغروسة من قبل عائلته وبذا فانه غير مستقل ذاتياً او اجتماعياً بيد انه يعتقد بأنه مستقل وهذا تظليل وخداع اذ لايوجد مرء مستقل بذاته الفردية او شخصيته الاجتماعية . وهذا يعني ان الفرد نتاج المجتمع من ميلاده لغاية وفاته ولا يستطيع الهروب من هيمنة او سيطرة تأثيرات الاسرة والجماعة العمرية والمجتمع المحلي وعندما يريد التخلص منها فان هناك سلطة الدولة والقانون واذا استطاع ـ الفرد ـ ان يفلت من هيمنة سلطة الاب المغروسة في ذاته فانه لايستطيع ان يهرب من سلطة المجتمع او سلطة الدولة فضلاً عن ذلك فان الاتجاه الباطني يدفع الفرد بالاتجاه نحو الاخرين ولا يستقل عنه ويساعد الفرد بتكيفه للعيش داخل مجتمعه .(٣٨)

ب / ١٩ ـ الثقافة الفرعية والمضادة لها

قدم ميلتون ينكر تحديدين لمفردتين اشتقتا من وضعية اجتماعية غير متجانسة مكونة اختلافاً اجتماعياً وثقافياً في مجتمع غير متجانس في فئاته الاجتماعية . وقد وجد عدم اتفاق الباحثين على تحديد مضمون الشطر الاول من التثنية الاصطلاحية (الثقافة الفرعية) حيث لاحظ تحديد علماء الانسان مختلفاً عن تحديد علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي ، والثاني مختلف عن الثالث . اذ ان عالم الانسان كروبر حددها من خلال اختلاف المتغيرات العضوية والفيزيقية بين الجماعات والثقافات الاجتماعية في حين حددها رالف لنتن من خلال تنوع الروابط البشرية داخل المجتمع الواحد لكن علماء الاجتماع حددوها من خلال امتلاك جماعة اجتماعية للغة ودين وقيم وطريقة عيش خاصة بها تختلف عما هو سائد في المجتمع

الذي تعيش فيه والتي هي جزء منه وتعيش في بقعة جغرافية محدودة خاصة بها تمثل عرقها او ثقافتها او كليهما .

اما علماء النفس الاجتماعي فقد انطلقوا من زاوية تختلف عن الزاويتين التي انطلق منهما زملائهم في علم الانسان والاجتماع . وهي من خلال علاقة المعايير الاجتماعية بالشخصية واثرها على الخوف والقلق عند افراد جماعة اجتماعية غير مندمجة مع مجتمعها الكبير الذي تعيش فيه الزمر المنحرفة او شريحة عمرية محددة .

فضلاً عما تقدم ، فان هناك استعمالات مختلفة عما ذكرنا آنفا بنيت على اساس الزمن ليحدد اختلاف مقاييس وقيم الاجيال مختلفة في ابعادها العمرية ، او على اساس الاصل العرقي او الثقافي لتحديد تماثل المهاجرين الى مجتمع يختلف عنهم ثقافياً وعرقياً او لتحديد درجة انفصالهم اجتماعياً وعرقياً عن المجتمع الذي هاجروا اليه او في تحديد التخصص المهني او على اساس نوع العلاقة الاجتماعية بين جماعة صغيرة متصارعة مع مجتمعها الكبير .

ان هذا التنوع المتباين في تحديد مضمون المصطلح يعكر اصطفاء متنه والسبب في ذلك يرجع الى نوع الثقافة الفرعية داخل المجتمع التي تعبر عن المهاجرين او المنحرفين او المثقفين .

ملتون ينكر حدد الثقافة الفرعية بأنها تشير الى معايير جماعة اجتماعية غير مندمجة مع معايير المجتمع الكبير الذي تعيش فيه .

اما الثقافة المضادة ، فانها تشير الى استخدام المجتمع نسقه المعياري اداة في صراعه مع معايير اجتماعية لجماعة معينة تختلف عنها وتعيش معه (اي مع المجتمع) وذلك من اجل المحافظة على وجوده وعلى نمو نسقه المعياري .(٣٩)

ب / ٢٠ ـ العلاقة الاجتماعية المفتوحة والمغلقة

شطر ماكس فيبر مصطلح العلاقة الاجتماعية الى شطرين ، عكس الاول نوعاً من العلاقات تقبل فيها الغرباء او غير الاقارب او غير المنتمين الى طبقة اجتماعية واحدة او طائفة دينية معينة او نقابة حرفية خاصة او لاتربط موقعين مهنيين رسميين يتمتعان بسلطة معينة او تمثل علاقة الافراد في السوق التجاري . فسماها بالعلاقة

الاجتماعية المفتوحة اي انها تقبل الافراد الراغبين في اقامة علاقة اجتماعية مع الاخرين وعادة تكون خالية من المنافع المادية المتبادلة والعاطفية الغرامية . بل الود والاحترام المتبادل وعكست الثانية علاقة اجتماعية محصورة بين الاقارب (علاقات دموية ـ قرابية) او المنتمين الى طبقة اقتصادية واحدة او العلاقة الموقعية التي تملك السلطة او التي تربط بين اصحاب ذوي المصالح المتبادلة من اجل اشباع حاجات ورغائب مادية او معنوية او بين الغريمين او الحبيبين او الجماعة الاقتصادية الاحتكارية او الافراد الذين لهم املاك وثروة حصلوا عن طريق الوراثة او التي خصصت لهم من اسلافهم او التي منحت لهم تبرعاً فسماها بالعلاقة المغلقة . اي العلاقة التي لاتقبل الغرباء عنها او التي لاتمثل مصالحهم الخاصة او قيمهم التي يحملوها وذلك لاجل المحافظة على مصالحهم وتنظيمها وتثبيت قاعدة علائقية ثابتة في تعاملهم لاتقبل التغيير او التحويل او المحافظة على معتقداتهم الدينية ضمن الطائفة الدينية الواحدة مثل جماعة الزهاد او النساك او الطوائف الدينية في الهند . او المحافظة على ثرواتهم وصفاتهم البلوتقراطية (ذات علاقة بحكومة الاثرياء او الاثرياء . ذوي الكلمة المسموعة وذوي النفوذ والجاه) .

مع ذلك فقد وضع فيبر حالات معينة يتم بموجبها انتقال الافراد من العلاقة المفتوحة الى المغلقة والتي غالباً مايفرضها افراد العلاقات المغلقة مثل الاختيارات النوعية للاتين من خارجها او وضعهم تحت المراقبة المشروطة . او استقطاب الافراد الذين يملكون كفاءات وخبرات عالية في انجازاتهم . وبعد اجتياز هذه الشروط والاختبارات يتم قبول الغرباء الى صف العلاقة المغلقة .

وهذا يعني ان انتقال الفرد الذي يريد بناء علاقة مع النوع المغلق لاتحصل اعتباطاً وانما ضمن مواصفات وشروط خاصة يضعها افراد العلاقة المغلقة . وغالباً مايسمح للمنافسة بين افراد العلاقة المغلقة فيما بينهم من اجل استجلاب زبائن لهم لكي يربحوا منهم او لجني ارباحاً لجماعتهم . او المنافسة من اجل الحصول على فرص عمل افضل لهم او لجماعتهم .

وعزى فيبر اسباب اغلاق العلاقة بين الجماعات الى ندرة الفرص المتاحة للاستثمار المالي من اجل تحسين فرص العيش او عمل معين او تجارة معينة(١٠) .

ب / ٢١ ـ العلاقة الاولية والثانوية

في هذه التثنية استخدم كنكزلي ديفز اربعة قيم معيارية لتحديد مضامين شرطي التثنية في العلاقة الاجتماعية وهي مايأتي

القيم المعيارية	علاقات اولية	علاقات ثانوية
١ـ الظروف الفيزيقية	تضم عدد قليل من الافراد تدوم لفترة زمنية طويلة تأخذ حيزاً مكانياً ضيقاً	تضم عدد كبير من الافراد. لاتدوم لفترة زمنية طويلة تأخذ حيزاً مكانياً واسعاً
٢ـ الخصائص الاجتماعية	متماثلة مع اهدافها تعمل على بلورة قيماً خاصة بها يعرف كل منهم للآخر بشكل واضح وصريح يشعر كل منهما بحرية وتلقائية تجاه الاخر . لا يتكلفوا او يجاملوا في تعاملهم . غياب التعامل الرسمي فيها	تتباين في اهدافها القيم الاجتماعية التي تنشيء من خلالها تكون عرضية وغير جوهرية تكون معرفة كل واحد منهم للاخر محدودة ومن خلال اختصاصهم المهني وبذا تكون من النوع الرسمي ومتكلفة ومجاملة .
٣ـ علائق صغيرة	مثل الصديق وصديقه الزوج وزوجته الابوين وابنائهم المعلم والتلاميذ	مثل صاحب المتجر والزبون المذيع والمستمع . الممثل والمشاهد . الرئيس والاتباع الكاتب والقارىء
٤ ـ جماعات صغيرة	مثل جماعة اللعب الاسرة القرية والجيرة فريق العمل	مثل الامة التدرج الكنسي المنظمات المهنية الشركات التعاونية(٤١)

اتسم تحديد هذه التثنية الاصطلاحية بالدقة والوضوح الايجاز والتحديد المقتضب وتميز ايضا عن باقي طروحات المنظرين الذين استخدموا الثنيات الاصطلاحية بأنه تضمن قيما معيارية واحدة لقياس التباين والتشابه المردوجتين الامر الذي جعل من التثنية نموذجا دقيقاً للمقارنة المتكافئة والمنظمة

مناقشة الثنائيات المترادفة ـ المتصافية

من الجائز تصنيف المفصل الثاني للثنائيات الى اربع مجموعات تمثل الانشطار الاصطلاحي بشكل مختلف عما تضمن المفصل الاول وهي كما يأتي : ـ

أ ـ تتضمن المجموعة الاولى انشطارا اصطلاحياً لمحور جزئي . يكشف عن بعض جدليات مكونات الظاهرة الاجتماعية مثل :

١ ـ الاتجاه الاجتماعي : فردي ونحو الآخرين .
٢ ـ الموقف الاجتماعي : أنوى ونحنوى .
٣ ـ القيم الاجتماعية : سلفية ومعاصرة .
٤ ـ الدور الاجتماعي : مؤدية وآخذه .
٥ ـ العلاقة الاجتماعية : مكانية وعقدية / مفتوحة ومغلقة / اولية وثانوية .
٦ ـ الجماعة الاجتماعية : اولية وثانوية . ثنائية وثلاثية
٧ ـ التضامن الاجتماعي : ميكانيكي وعضوي .
٨ ـ الوظيفة الاجتماعية : ظاهرة ومستترة .

٩ ـ الثقافة : الفرعية والمضادة لها .

اتسم هذا الانشطار الاصطلاحي بصفته الوصفية والتحليلية للذات البشرية وعلاقتها بما يدور حولها من مؤثرات قيمية ودورية وعلائقية متوغلا الى باطنية الذات وعلاقتها بروابطها الخارجية (اسرية وجماعية ودورية ومكانوية وقيمية وموقفية*) اي انه (المصطلح) التجأ الى التفسير النفسي وعلاقته بالمؤثرات الاجتماعية لمعرفة سلوك وتفكير وتجمع الفرد اجتماعيا وهذه نقلة تحليلية في علم الاجتماع المعاصر . اذ ان الرواد رفضوا رفضا تاما الاعتماد على التفاسير النفسية في تحليل الظاهرة او المشكلة الاجتماعية وبالوقت ذاته فأن المحرم الذي حرم علماء الاجتماع بعد الحرب العالمية الثانية الى استخدام المؤثرات النفسية بعين الاعتبار في

التحاليل الاجتماعية هو ظهور مشكلات اجتماعية عديدة ومتنوعة الامر الذي جعلهم بحاجة الى تسليط الضياء على الجانب النفسي لقربه من الجانب الاجتماعي وتفاعله معه في بعض الاحيان .

نستنتج اذن ان مزدوجات هذا المفصل استخدمت المتغير النفسي اثناء عقده المقارنات بين الشطرين لكي يكون اكثر نضجاً واكتمالاً من اعتماده بشكل منفرد على التفسير الاجتماعي . لم نجد هذا الاستخدام في المزدوجات الاصطلاحية الاولى .

المجموعة الثانية من هذا المفصل الاصطلاحي الذي يميز بين نوعين رئيسيين من النظريات (قريبة المدى وبعيدة المدى . واقعية وتصورية . شاملة وجزئية) حيث حصل هذا الانشطار بعد الربع الثالث من هذا القرن بسبب ظهور العديد من النظريات الاجتماعية التي سادت ميدان علم الاجتماع اذ تنوعت واختلفت حسب رؤيتها ومنطلقها وموضوع دراستها الامر الذي شجع بعض المنظرين الى الفصل بينها لكي لايحصل غموض او لبس في نوعها وطابعها . فمال المنظرين الى استخدام المزدوجة المتقابلة لكن هذا لايعني ان احد مفردات المزدوجة افضل من الاخرى . لا . بل ان لكل واحدة لها قوتها وضعفها المنهجي والتنظيري ولها مجالات خاصة بها في مجالات تطبيقها في الحياة الاجتماعية او الفكر الاجتماعي المعرفي .

وتشمل المجموعة الثالثة على تجزئة المنهج الاجتماعي حسب نوع وحجم وطبيعة الظاهرة المراد دراستها الذي يتطلب استخدام آليات خاصة بها ولها القدرة على ان تدخل في كوامنها لتستخرج منها مايمكن اخراجه من متغيرات وما لها من علائق والخروج بصياغة مفاهيم منها . ولما كانت التطورات التي حصلت في ميادين علم الاجتماع فأن ذلك كان محفزاً لباحثيه على استخدام التفاسير النفسية . وتحت هذا الظرف استخدموا مناهجاً تدرس سلوك الفرد ودوافعه وكل مايصدر عنه من مشكلات وانحرافات ومخالفات لقيم واعراف مجتمعه . وبذا ظهرت اتجاهات منهجية خاصة في علم الاجتماع وهذا الاتجاه المنهجي الفرداني .

اخيراً الانشطار الاصطلاحي لعلم الاجتماع ذاته اذ صنف الى اربعة مزدوجات او ثنيات . هي الجاد والسلس .

الديناميي والمستقر

الشكلي والعام

ويمكن ارجاع هذا التباين بالمسميات الاصطلاحية الى مستجدات وتطورات الدراسات والبحوث والنقد وتطويق النقد التي ظهرت في حقول علم الاجتماع بشكل متزايد ومتطور فعلم الاجتماع الاصلاحي عني به عدم اهتمام الباحثين بآليات البحث العلمي التي يمكن استخدامها في استقراء الواقع الحي ، بل درس مايريد ان يدرس وليس ماهو موجود من ظواهر ومشكلات اجتماعية في المجتمع . وبذا فأنه خدم غرضه الخاص ولم يخدم علمية العلم نفسه بل خدم اغراض الداعين الى الاصلاح الاجتماعي (حسب حكم جوليان فريوند) .

بينما اهتم علم الاجتماع العلمي بدراسة الواقع وليس المستقبل الاجتماعي لان هدفه دراسة ماهو كائن وليس لتغيره او لمعرفة مراحل تطوره . فضلاً عن انه لايعتمد على المذاهب العقائدية في تفسير الواقع .

اما علم الاجتماع الشكلي فقد اهتم بدراسة جزئيات الظاهرة مبتدأ بالفرد ومنتهياً بالجماعة الاجتماعية الصغيرة . اما علم الاجتماع العام فقد اهتم بمعرفة جذور القوانين الاجتماعية وكيفية ظهورها في المجتمع .

وقد كان علم الاجتماع الدينامي قريب الشبه من علم الاجتماع العام وكان علم الاجتماع المستقر قريب الشبه من علم الاجتماع الشكلي وهذا تكرار لما جاء به كل من زمل وكونت بينما طرح المنظر الامريكي المعاصر راندل كولنس تمييزاً بين علم الاجتماع الجاد الذي يدرس المجتمع بشكل عام من خلال نصوص فكرية رصينة تصف الحدث بشكل دقيق ومترابط وله القدرة في اطلاق التعاميم الملتزمة بالموضوعية الحقة . اما علم الاجتماع السلس فقد عنى به كولنس بأنه يفتقد الصياغات النصية والافكار الجادة لكنه يملك شكليات وجماليات العلم وليس العلم نفسه .

اخيراً ، الفرق الجوهري بين تثنية هذا المحور وتثنية المحور الاول هو ان تثنية المحور الثاني تضمنت قاعدة مشتركة تنطلق منها التثنية وتتفرع الى فرعين مختلفين لكنهما من اصل واحد مثل التضامن ، الجماعة ، العلاقة ، الدور ، علم الاجتماع ، النظرية الاجتماعية ، الوظيفة الاجتماعية ، القيم الاجتماعية .

بينما لاتوجد قاعدة مشتركة لتثنيات المحور الاول ، فالمجتمع التقليدي لايجتمع مع الحضري في قاعدة واحدة بينما يكون التضامن موجوداً وكائناً في كل مجتمع بغض النظر عن كونه حضرياً او تقليدياً ، دينياً او دنيوياً ، مشاعاً او رفقياً .

صناعياً او عسكرياً ، استبداديا او حرا ، صناعيا او رأسمالياً ، بدوياً او حضرياً ، وكذا الحال مع الدور والعلاقة والقيم الاجتماعية ، فهي موجودة في كافة المجتمعات لكنها تختلف بالدرجة لا بالنوع .

اما المصالح فهي الاهداف والنشاطات الفردية بين الناس فضلاً عن إشتراك احساسهم بالقيم الذاتية للافراد الذين ينتمون الى زمر معينة .

ينقسم هذا المصطلح الى نوعين الاول مصالح مشتركة والثاني مصالح متشابهة ويوجد شكلان رئيسيان للمصلحة المشتركة هما :

١ ـ الانتماء الى زمر اجتماعية ، حينما يشعر الافراد انهم داخلون في اتحاد شامل لاتنفصم عراه مع اقرانهم فأن المصلحة المشتركة تظهر في هذه الحالة ، وحينما يفكر الناس في انهم ينتمون حقاً الى اسرة او مدينة او امة او الى فريق رياضي او جماعة من الاصدقاء فأنهم يسهمون في مصلحة مشتركة مع غيرهم وهذا الاحساس بالارتباط مع وحدة من الاشخاص يوجد بدرجات متفاوتة ويبدو في اشكال مختلفة في الزمر الاجتماعية المختلفة الانواع عن طريق تنشئة الفرد اجتماعياً داخل هذه الزمر يتعلم كيف ينتمي ويتعلم ايضاً كيف يبتعد عن زمر اخرى وبذا يقسم الفرد الناس الى فريقين « نحن » وفريق « هم » او بعبارة اخرى « الزمر المحيطة بالشخص » و « الزمر الخارجة عن الشخص » ان اخلاصه الى « نحن » من السهل ان يتحول الى كراهية او عداوة الى « هم » وان تفاخره بـ (نحن) يقوى احتقاره لـ (هم) .

٢ ـ الانتماء الى هدف عام وغاية نبيلة ، ان مايظهره الناس من اهتمام بالعلم او الفن او الدين او التقاليد او الفلسفة او الرياضة يمثل الشكل الثاني للمصلحة المشتركة ويبرز هذا الشكل بوضوح حينما ينشأ عند الناس حب الاستطلاع او التحمس او الاخلاص على اي نحو(١٢) .

جـ ـ الثنائية الاقترانية

جـ / ١ ـ المواقف والمصالح

قدم هذه المزدوجة الاصطلاحية روبرت ماكيفر . اذ عني بالموقف رد فعل ذاتي او حالات وجدانية يحس بها الفرد في داخل نفسه ولها علاقة بأشياء خارجية مثل الخوف والحب والمفاجأة والتباهي والعطف والتوقير . فضلاً عن كونها الاساليب المعقدة والمتغيرة للوعي . انها تعبيرات او نواح من مجموع شخصية الكائن الاجتماعي انها طرق للوعي او الادراك الاجتماعي تتميز بأنها غير مشعور بها ومتغيرة ويطرأ عليها التعديل باستمرار تبعاً لتعلمنا ولتفكيرنا ولصحتنا ولظروفنا التي تحيط بنا . وحينما ننسب موقفاً معيناً الى شخص معين لا يمكننا ان نحكم على حقيقة هذا الموقف الا من علامات خارجية كالنظرات والاشارات والكلمات . هذه العلامات تدل اما على الخوف او الحب او الشفقة او العطف ولكن حينما نطلق على الموقف هذه التسمية لانبلغ درجة الكمال في وصف حقيقة شعور الشخص الذي يتخذ الموقف المعين . وكل مانفعله في هذه الحالة اننا نحكم على ان الموقف كما يدلنا هو الموقف السائد . او على الاقل الموقف المشاهد عند الشخص .

حيث ان المواقف تستجيب استجابة قوية للايحاء الضخم الذي هو جزء من النظم التعليمية العامة والخاصة . الشائعة في كل المجتمعات . انظر مثلاً الى التغيرات غير العادية التي طرأت على المواقف القومية عند الايطاليين والالمان نتيجة للنظامين الفاشي والنازي او المتغيرات الكبرى التي ألمت بالمواقف الامريكية ازاء الشعبين الالماني والياباني خلال الحرب العالمية الثانية وقد حدث ان شعوباً برمتها تحولت فجأة الى توقير او احتقار رموز كانت تنظر اليها فيما مضى بغير اكتراث . مثل الصليب المعقوف وشارات الفاشستية والمطرقة والمنجل والشمس الصاعدة وكذلك (ميثاق الانطلنطلي) ونحن نجد الرمز في كل مكان . زمر قبلية ومحلية وسلالية وقومية وعائلية وطبقية لها مواقف خاصة بها وتربط هذه المواقف برموز معينة . وتنشأ هذه المواقف ـ الى حد ما ـ عن ظروف اجتماعية عامة تعتمد الى درجة معينة على قوة المذاهب الجديدة وسيطرتها على الافراد وتحصل المواقف على التأييد اللازم لها كما تحظى بالدوام في نطاق الاداب العامة للزمرة .

جـ / ٢ ـ القيم والمعايير الاجتماعية

تمثل المعايير سبلاً لتحقيق الاهداف (القيم) تظهر اهمية القيم الاجتماعية في تنظيم افراد المجتمع من خلال تنسيق سلوكهم اليومي حسب مقتضيات مصلحة المجتمع الذي يعيشون فيه . فضلاً عن كونها تقوم بخدمة النظام الاجتماعي واستقراره الحياة الاجتماعية ومع زلزلتها . اذا كانت الحرية تسيطر على القيم في مجتمع معين ، فان الافراد يستطيعوا اختيار شركاء حياتهم الزوجية والتصويت في عملية الانتخابات لاختيار مرشحيهم السياسي وتكون لهم بعض الحرية في اختيار اعمالهم واشغالهم المهنية والحرفية . ففي المجتمع الامريكي ـ على سبيل المثال ـ لانتوقع من الفرد ان يقوم احد ابويه باختيار شريك حياة احد ابنائهما ولا نتوقع ايضاً بأن يسكن الابناء بعد زواجهم مع اسرهم لان ثقافتهم الاجتماعية لاتسمح بذلك ولان اسرهم لاتمثل الاسر الممتدة الكبيرة كما هو سائد في بعض المجتمعات الاخرى ، بل نتوقع ان يقوم الفرد باختيار شريك حياته ويسكن في بيت مستقل بعيداً عن اسرته الاصلية وهذا يمثل قيمة اجتماعية خاصة بالفرد والاسرة .

تكون القيم الاجتماعية مقبولة من قبل الفرد لانها مكتسبة من خلال الجماعة التي ينتمي اليها ويتفاعل معها ، لذلك نجده يرضى بها وبحكمها وعدالتها . لذا تكون بمثابة احد مفاصل الضبط الاجتماعي التي تحدد وتقنن سلوك الفرد وبالوقت ذاته تقوم القيم بتوحيد سلوك افراد الجماعة وتعاقب الافراد الذين يخالفونها او يخرجون عن تعاليمها فاذا كانت القيم مستترة في دخيلة الفرد او في ضميره فانه يشعر بعدم الارتياح والقلق عند مخالفته لها وهذه المشاعر تستطيع تنظيم سلوكه بشكل يتناسب مع مجريات الحياة الاجتماعية ونواميسها .

ومن اجل توضيح قوة واهمية القيم في اظهار التماسك الاجتماعي نورد المثال الاتي :

اذا شارك الافراد قيم جماعتهم . فانهم سوف يكونوا قريبين من بعضهم بعضاً في تفاعلاتهم وعلائقهم ويكون ـ بالوقت ذاته ـ لديهم مشاعر ايجابية حول انفسهم قد تدوم لفترة زمنية طويلة .

في الواقع ان التضامن والتماسك الاجتماعي يحدد ويعرف من خلال القيم العامة التي يشترك فيها افراد الجماعة .

ويمكن النظر الى القيم على انها متغيرات مستقلة ومعتمدة ومتداخلة . مثال على ذلك يمكن النظر الى القيم على انها مكتسبة من خلال التفاعل الحاصل بين افراد الاسرة او بين المعلمين او الاصدقاء . واستناداً الى الباحث كرستنسن فان الاسرة مهمة جداً كوكالة تأسيسية تقوم بديمومة عمل القيم وذلك عندما تنقلها من جيل الى اخر وبالوقت ذاته تربط افراد المجتمع بعضهم ببعض عبر الزمن وترقي مستوى التفاعل الاجتماعي فيما بينهم . واذا قامت التنشئة الاجتماعية بغرس القيم فان هناك احتمالاً كبيراً على استمرارية وجودها وهذا يتم من خلال الاسرة والمدرسة والزمر الصداقية وهنا تبرز القيم على انها متغير معتمد . ان القيم نتاج التفاعل اليومي بين افراد المجتمع .

مثال ثان عن القيم باحتسابها متغيراً مستقلاً لدرجة انه يمثل سلوكيات معينة ومواقف خاصة ومشاعر محددة . وفي هذا المعنى تساعد القيم الافراد في اختيار نموذجاً واحداً من السلوك . وان قيماً مختلفة تقود الى سلوكيات مختلفة بسبب القيم الاجتماعية تختلف المجتمعات باختلاف قيمها . واننا نتوقع ان الانماط الاجتماعية مختلفة ايضاً وكذا السلوك والمواقف . كمتغير مستقل تقود القيم او تؤدي الى نمط اختيار شريك حياة معين الذي بدوره يبلور نوعاً معيناً من الاسر ونموذجاً خاصاً من التنشئة الاجتماعية لابنائها وتحدد نوعاً خاصاً من السلطة الابوية داخل البيت واذا كان الحب رومانسياً بين افراد الاسرة اكثر من العلاقة الزواجية فان ذلك يسمح للافراد اختيار شريكه بنفسه وليس عن طريق الاهل والاقارب . وان ذلك يعني ان القيم التقليدية ليس لها درجة عالية من القيمة . واذا كان العكس فان ذلك يعني ان القيم التقليدية الخاصة باختيار شريك الحياة لها درجة عالية من الاعتبار الاجتماعي داخل المجتمع واذا كانت السلطة الاسرية من النوع التقليدي اي لها قيمة عالية اكثر من السلطة الديمقراطية فان الابوين يكون لهما سيطرة كاملة (تقريباً) على ابنائهم وبذا تكون الاسرة منظمة بشكل حاد ومقنن بحيث يكون الاب مالك السلطة ومن بعده الام ويصبح الابناء فاقدي النفوذ داخل اسرتهم .

واذا كانت القيم سبباً فانها تحتم وتحدد شريك الحياة للشخص الذي يحبه القيم الاجتماعية كمتغير وسيط يؤثر على السلوك بشكل غير مباشر فقط اي بعد تأثير المتغير المستقل . ففي بعض الاوقات ينظر الافراد الى بيئتهم التي تحيط بهم بمنظار قيمي ملون فيحدد ـ هذا المنظار ـ ادراكهم وتفسيرهم للحالات القائمة في بيئتهم . مثال على ذلك قد يقبل الفرد ابتكاراً تقنياً جديداً او فكرة مبتكرة جديدة اذا

فسرها وادركها من خلال مصالحه وقيمه الخاصة . لكن اذا تصارعت مع مصالحه وقيمه فانه يرفض التقنية الجديدة او الفكرة الجديدة .

وقد تتدخل القيمة في طرح او فرز تأثير سلبي او ايجابي . مثال على ذلك يكون دور الامهات العاملات خارج دورهم تأثير سلبي على ابنائهم اذا كان النموذج التقليدي للاسرة يتمتع بقيمة عالية . بينما يكون عمل الام خارج دارها اثر ايجابي اذا كانت اخلاقية العمل تتمتع بقيمة عالية .

اذ نظرنا الى القيم كجزء من البناء الاجتماعي فان هذه النظرة تمثل متغيراً مستقلاً لانه يسبب سلوكاً معيناً يؤدي الى احداث تغير في اجزاء اخرى من البناء الاجتماعي . ثمة موضوع يساعدنا على استدلال القيم من السلوك الاجتماعي . فعند الرجوع الى صفحات التاريخ البشري نستطيع ان نصل الى خلاصة مفادها بان هناك ثلاث قيم سادت المجتمعات الانسانية وهي الحرب والبؤس والموت . هذه القيم السلبية الثلاث مستخلصة من حياة وتأريخ الشعوب لذلك يمكن استدلال القيم من سلوك الناس على الرغم من معرفة الباحثين الاجتماعيين بأنه يمكن معرفة ودراسة السلوك الاجتماعي من غير القيم لان هناك مؤثرات تعمل على صياغتها وتشكيلها فالامم تدرك ان السلام والدفاع عن الوطن لا يحصل الا من خلال قساوة وضراوة الحرب والجماعات الاقلية وقد يدركون ان قيمة التعليم عالية جداً اكثر من الاغلبية . بسبب فقرهم وبؤسهم يندفعون الى اكتساب مستويات تعليمية متقدمة او عالية او دقيقة . وان الاغلبية السكانية يستخدمون القوة لابقاء الاقلية على ماهم عليه من بؤس وشقاء وفقر .

مثل هذه الحالات الاجتماعية تشجع الباحثين على استخدام القيم الاجتماعية لمعرفة سلوك الناس . ومن اجل معرفة القيم الديمقراطية يستطيع الباحث دراسة سلوك الناخبين في الانتخابات لمعرفة مدى فاعلية تلك القيم وأثرها على سلوك الناخبين . وقد تأتي هذه الاستدلالات عن طريق الملاحظة بالمعاينة او المقابلة او الاستبيان في حالة معرفة الافراد القراءة والكتابة . او معرفة او دراسة ثقافة المجتمع او الثقافة الفرعية للجماعات الاجتماعية من اجل استدلال سلوكية الناس .

من الدراسات الاجتماعية المعروفة في استدلال القيم من السلوك الاجتماعي هي دراسة سيمور لبست عام ١٩٦٨ حول اختلاف قيم مجتمع الولايات المتحدة الامريكية عن قيم المجتمع الكندي من خلال ملاحظاته حول اختلاف سلوكهما . وكانت اولها

اختلاف في قيمة المساواة الاجتماعية او العدل الاجتماعي والتقاليد والتفرد . بغض النظر عن التشابه الاقتصادي والسياسي بينهما . اذ انهما من المجتمعات المتحضرة بشكل عال وتصنيعهما متقدم جداً ويتمتعان باستقرار سياسي . بيد ان كندا تضع في الاحتساب العالي وتؤكد على السراتية (الصفوة المختارة) وتؤكد الولايات المتحدة بشكل جلي على المساواة الاجتماعية .

يرى لبست ان هذا الاختلاف بالدرجة لا بالنوع لان البلدين يؤكدان على المساواة وعلى قادة المجتمع الى درجة عالية . وان الاختلاف الجوهري بين قيمهما فقط . لكن الكاتب سانفورد يؤكد على التعليم العالي حيث خريجي الكليات والجامعات في كندا يمثلون صفوة المجتمع والذين يمثلون الفئة العمرية ما بين ٢٠ ـ ٢٤ من الشباب يمثلون ٣٠ ٪ بينما في الولايات المتحدة يمثلون ٩ ٪ عام ١٩٦٠ في حين تمثل صفوة المجتمع الكندي قبل عام ١٩٦٠ اعضاء الاحزاب والكنائس لان الاسرة الكندية كانت تشجع ابناءها للانخراط في الاحزاب السياسية والممارسات الدينية لكي يكونوا قادة مجتمعهم فكان لهذا الانخراط قيمة سياسية عالية في كندا . فالاختلاف هنا يكون بين الشباب والمتقدمين بالسن وبين الطلبة والمدرسين .

لكن لبست يدعي بأن الكنديين تقليديين محافظين اكثر من الاميركان وهذه الصفات تشجع الافراد على جلب احترام متميز وكبير ويعززه القانون والسلطة العامة فاصبحت التقاليد والمحافظة قيمة اجتماعية ذا قيمة عالية وفي ضوء ذلك حصل رجال الشرطة على تقويم اجتماعي عالي ايضاً وهذا بدوره قلل من معدل الجرائم في المجتمع الكندي وقلل ايضاً عدد المحامين والقضاة اذا ماقورن عددهم بعدد او بحجم المجتمع الكندي .

اما قيمة الفردانية فان معيارها عال في المجتمع الامريكي اكثر منها في المجتمع الكندي اذا انعكست هذه القيمة بشكل واضح في تنفيذ المشاريع الاقتصادية والادارية بينما تؤكد كندا على المشاريع التي تجلب الرخاء والهناء والرفاهية الجمعية في مجتمعها اكثر من المجتمع الامريكي . وهذا يشير الى دور الحكومة المتميز والفعال في كندا اكثر من امريكا . مثال على ذلك الرعاية الطبية ومساعدة الاسرة الممتدة والاشراف على المشاريع الصناعية الكبيرة والعملاقة . اذ ان امريكا تؤكد على الاكتفاء الذاتي الامر الذي يدفعها نحو الاستثمارات الفردية لكي لاتدفع تأمينات وضمانات للافراد بل تتركه لهم .

يرى لبست ان هذه لاختلافات القيمية بين كندا وامريكا يرجع الى المساواة مقابل الصفوة والتقاليد مقابل التحرر من التقاليد . والفردانية مقابل القيم الجمعية . وجميع ذلك يرجع الى عوامل تاريخية المتضمنة ما يأتي :

١ ـ النزوع الثوري في الولايات المتحدة وطبيعة التطويق الثوري في كندا .
٢ ـ خوف الكنديين من سيطرة الامريكان واستيلائهم على خيراتهم .
٣ ـ قوة الاخلاق البروتستانتية في امريكا تشجع العمل الجاد والمتواصل والتنسيق الذاتي والمبادرات الذاتية الفردية .
٤ ـ تأكيد الدين في امريكا على المساواة والانجاز الفردي .

٥ ـ الرباط القوي بين الكنيسة والدولة في كندا .
٦ ـ قيام الاستثمارات الامريكية على القانون بينما تقوم الاستثمارات الكندية على العزيمة الفردية او القرار الفردي .

ان تنمية المشاريع الاستثمارية قامت على المبادرات الفردية المتصفة بالعزيمة والمخاطرة والمجازفة في كندا بينما قامت في امريكا في ظل تطبيق القانون . في نظر لبست ان هذه المراحل التاريخية التي عاشها المجتمعين (الامريكي والكندي) بلورة اختلافاتهم في القيم الاجتماعية والسياسة الاجتماعية تجاه الجماعات العنصرية . فالنموذج الامريكي يمثل الامتزاج العنصري وتشجيع الافراد من كافة الاعراق بأن يتكلموا في ثقافة واحدة وكاملة ، على نقيض ذلك تؤكد كندا على النموذج الفسيفسائي الذي يسمح لكل رس وقومية بالتعبير عن حقوقه الفردية والجمعية . هذا من جانب ومن جانب اخر يمكن احتساب القيم الاجتماعية متغيراً متداخلاً بين السبب والنتيجة لان التغير الذي حصل (في المجتمع الامريكي والكندي) نقل المصنع الصغير (البيتي) المختص بانتاج سلعة واحدة الى نسق انتاجي كبير استخدم نظام تقسيم عمل مركب ، وهذا بدوره عمل على تغيير القيم من التقليدية الى المتمدنة والمتحضرة الامر الذي ادى الى تحول في نمط السلوك الاجتماعي وهذا ما حصل في حجم الاسرة (اذ تقلص) وازدادت سرعة الحراك الاجتماعي وارتفع معدل الهجرة الداخلية (داخل البلد الواحد) ونمت الحركة العمالية .

وللمزيد من المعلومات عن اهمية القيم الاجتماعية في المجتمع نطرح علاقتها بالخصوبة الجنسية اذ للقيم تأثير بالغ في الخصوبة الجنسية ومعدل الوفيات والهجرة

على الرغم من التطور التكنولوجي والطبي الذي احفظ معدل الوفيات لكن الناس مازالوا يهاجرون من مدينة الى اخرى من اجل تحسين ظروف معيشتهم او من اجل انتقال مقر عملهم او تحقيق رغبات الافراد في العمل وتحسين ظروف معيشية او ان حجم الاسرة يشجع على تكوين عدد كبير من الابناء وهذا بدوره يزيد من درجة الخصوبة

فالقيم التقليدية تشجع زيادة الانجاب (قيمة اجتماعية) اكثر من القيم العصرية أو الحضرية . اذ ان الاولى تشجع الاسرة بأن تزيد من حجمها وتشجع الثانية على تغيير حجم الاسرة فضلاً عما تقدم . فأن القيم الاجتماعية في المجتمع الصناعي أو الحضري تشجع وتنشط الحراك الاجتماعي العمودي الذي يتطلب حجم اسرة صغيرة لكي لايعيق حركتها على السلم الاقتصادي ولان السلع المادية ومستوى العيش العال لايشجع على زيادة حجم الاسرة ايضا ولان قيم المنافسة في المجتمع الحضري يتطلب الانجاز والتقدم المهني والتقني والثقافي لذا فأن حجم الاسرة الكبير يعيق تقدمها الى الاعلى وان الابناء في الاسر غير الريفية يتطلب منهم التعليم وهذه كلفة اقتصادية استهلاكية وليس انتاجية وان صحتهم ورفاهيتهم تحتاج الى صرفيات مالية عالية

هذا من جانب ومن جانب اخر فأن الوظائف والمهن الحضرية تتطلب الانتقال من مكان جغرافي الى اخر ومن مدينة الى اخرى الامر الذي يتطلب جهداً كبيراً واحتساب الزمن بدقة وهذا بدوره يتطلب تصغير حجم الاسرة لان تربية الاطفال الصغار ـ يتطلب تحت هذه الظروف ـ عناية صحية وتربوية فائقة وحريصة وهذ يتطلب ايضا دخلا اقتصادياً عال ومكثف يرهق الاسر التي دخلها واطيء لذلك تكون حركة الاسر ذات الدخل الواطيء بطيئة او بطأ من الاسر ذات الدخل الاقتصادي العال

في الواقع توثر القيم الاجتماعية على ثلاث متغيرات في هذه الحالة وهي ـ
١ ـ تعريض الافراد للعلاقات الجنسية ٢ ـ كشف أو تعريض الافراد لضرورات العقم أو ضبط النسل أو منع الحمل ٣ ـ الكشف او التعريض للولادة وهنا تكون القيمة بمثابة متغير مستقل او متداخل يربط بين هذه الفقرات الثلاث فقد تكون القيم الاجتماعية ذات اثر مباشر في الخصوبة الجنسية الاسرية او العفة قبل الزواج والعزوبية . وكل ذلك يؤثر على معدل الخصوبة فالعفة تمنع الاتصال الجنسي الا

بعد الزواج وتتطلب الاخلاص والوفاء للشريك وتمنع الاتصال الجنسي مع الاخرين والعزوبية تمنع الاتصال الجنسي كلياً .

والاستقلال الاقتصادي للمتزوج حديثاً (كقيمة اجتماعية) قد يؤخر الانجاب والتأخر في سن الزواج يقلل من الخصوبة لان الاتصال الجنسي يكون ضعيفاً . بينما القيم الدينية تزيد من الخصوبة لانها تشجع على الانجاب . اما التقنيات الطبية في ضبط النسل فأنها تقلل من عدد الانجاب ويقلل من الخصوبة الجنسية(١٣) .

المفردة الثانية للمزدوجة هي المعايير الاجتماعية التي تكون وسيلة لتحقيق القيمة من جملة اهتمامات علماء الاجتماع تباين تصرفات افراد المجتمعات الانسانية في موقف واحداً وفي حالة اجتماعية واحدة او اختلاف تفسيرها عندهم ايضاً . اي ان الفعل الاجتماعي الواحد يتباين قيام الافراد به من مجتمع الى اخر الامر الذي يجعل تفسيره وتبريره مختلفين ايضاً مما يجعل نظرة الافراد في مجتمع معين الى نفس الفعل الاجتماعي الذي يقومون به تختلف عن نظرة افراد مجتمع اخر . ومن الطبيعي مثل هذه التباينات في التفسير والتبرير والرؤية للفعل الاجتماعي ترجع الى المعايير الاجتماعية السائدة في كل مجتمع المختلفة باختلافها . والتي غرسها ونماها والتزم بها افراد المجتمع انفسهم .

لذلك مثل هذه المفارقات المهمة جذبت انتباه الدارسين والباحثين في علم الاجتماع والانسان وعلم النفس الى تحليل مصطلح المعايير الاجتماعية لكي يصل الى معرفة اسباب مقاييس السلوك الاجتماعي للافراد سواء كانوا من الاسوياء او المنحرفين ولان المعايير الاجتماعية تجعل من سلوك الناس تصرفاً منمطاً يشترك فيه معظم افراد المجتمع ويتماثلون مع قواعده ومحدداته وليشعر بتماسكهم وتضامنهم الاجتماعي وبانتمائهم الى مجتمعهم الخاص او العام وبالوقت ذاته لكي يميزوا مجتمعهم عن باقي المجتمعات الاخرى .

فمثلا من آداب طعام حفلات الولائم في المجتمع العربي هي ان يعتذر الضيف مايقدم له من طعام اكثر من مرة قبل ان يتناوله وعلى المضيف ان يكرر ويلح على ضيفه في ان يتناول ماقدم له من طعام . الى ان يقبله . مثل هذا الاعتذار يعني عدم اشتهاء تناول الطعام في المجتمع الامريكي . مفارقة اخرى تخص مجال المحادثة بين الافراد ففي المجتمع الصيني عندما يعلو صوت المتكلم في حديثه مع زميله يعني انه

في حالة غضب واستياء وانه يعبّر عن غضبه باعلاء صوته على صوت المتحدث معه وانه فقد السيطرة على نفسه اثناء المحادثة الكلامية لكن هذا التصرف لايعني نفس المعنى عند الامريكي عندما يتحدث مع زميله بل يعني انه يؤكد على نقطة مهمة او موضوع اساس في حديثه .

مفارقة ثالثة توضح تباين تفسير السلوك الاجتماعي بسبب اختلاف مقاييس المعايير الاجتماعية هو الاختلاف الحاصل بين المتحدثين في مجتمع امريكا اللاتينية حيث يقفون وجها لوجه وقريبين جدا من بعض يتكلمون بصوت عال . بينما يكون العكس عند افراد المجتمع الانكلوسكسون حيث تكون المسافة بين المتحدثين غير قريبة ولا يعلو صوت احدهم على الاخر .

مثل هذه الاختلافات والتباينات في الفعل الاجتماعي يرجعها دارسوا المجتمع الى مقاييس المعايير الاجتماعية في كل مجتمع التي تكون بالاساس متباينة ايضا من مجتمع الى اخر . هذا جانب ومن جانب اخر . فان علماء الاجتماع استعملوا المعايير الاجتماعية كمقياس لدراسة درجة تماثل الفرد مع مجتمعه وانتمائه له وانحرافه عنه . لذلك هناك مصطلحات اجتماعية رديفة او تقابل المعايير الاجتماعية متكررة في ادبيات علم الاجتماع مثل « الاتساق والمماثلة والقبول والموافقة والتقييم والتوقعات والعقوبات والتنشئة » وبالوقت ذاته . يستدل علماء الاجتماع على سبب سلوكي اجتماعي معين اذا توصلوا الى معرفة المعيار الاجتماعي الذي يتحكم بهذا السبب . فمثلا يمكن الاستدلال على اقبال الافراد (ذكورا او اناثا) على الزواج عندما يصلون الى عمر معين . لان تحديد عمر الزواج في المجتمع لايتم من قبل الفرد نفسه بل من معيار اجتماعي خاص بالزواج وهنا يعد معيار تحديد عمر الزواج سببا في تحفيز الافراد لزواجهم . اي اصبح هذا المعيار سببا لسلوك اجتماعي قائم في المجتمع .

او يمكن الاستدلال لمعرفة الشهر المفضل للزواج في المجتمع او الذي يجلب لهم السعد او الرفاهية اكثر من غيره من اشهر السنة . اذ تكون بعض المقاييس المعيارية للسعادة قد ورثها المجتمع من اجياله السالفة للتبرك او للتفاؤل به . لكن هذا المقياس المعياري لايكون هكذا مع المجتمعات الانسانية كافة . ففي المجتمع الامريكي على سبيل المثال يفضل افراده الزواج في شهر حزيران ليس تبركا او تفاؤلا به بل لان هذا الشهر يمثل اول شهر فصل الصيف الذي يأخذ معظم الامريكان عطلتهم الموسمية او السنوية ولانهم يحصلون على عوائد من ضريبة الدخل التي دفعوها للدولة فترجع لهم كمية لابأس بها من المال(١١)

على ان لاننسى ان هناك معايير اجتماعية عامة للمجتمع العام وبالوقت ذاته هناك معايير شرائحية جزئية خاصة بكل شريحة اجتماعية او بكل جماعة اجتماعية قد تختلف مع المعايير العامة وقد تلتقي معها . فمعايير الزمر الرياضية غير معايير العصابات الاجرامية والاخيرة تختلف مع معايير المجتمع العام وهكذا فلا توجد معايير عامة ومطلقة لكل شرائح المجتمع بل هناك الخاصة والجزئية .

فضلا عما تقدم ، فان معظم المعايير الاجتماعية هي من النوع الوجوبي والالزامي ممثلة احد وسائل الضبط الاجتماعي من اجل جعل الفرد منضبطا مع الهيئة الاجتماعية (تسمى في بعض الاحيان عرفاً اجتماعياً لايمكن الخروج عنه) لكن مع ذلك فهناك معايير اجتماعية لاتمثل الالزام والوجوب في ممارستها كالطرق الشعبية (اساليب وطرق الاكل والشرب واللبس) بل النسبية في الممارسة والتطبيق والتماثل المعياري لانها بدائل للتماثل معها مثل عدم الزام الفتاة على لبس تنورة طويلة او قصيرة او متوسطة الطول فطول التنورة يشير الى معيار ذوقي بينما لبس الفتاة التنورة يعد معياراً الزامياً وجوبياً او دفع ضريبة الدم (الخدمة العسكرية) تعد معياراً وطنياً رسمياً الزامياً لكن الخدمة في نوع الصنف العسكري (مشاة مدفعية او طيران او بحرية) يخضع للمعيار الذاتي (اي هناك بدائل يختار الفرد احدها . او زواج الفرد في المجتمع العربي اذ يفضل الزواج من الاقارب لكن في ذات الوقت منح المجتمع العربي بديلا الى ذلك بالزواج من الغرباء ولم يلزم او يجبر العربي على الزواج من الاقارب .
نستنتج مما تقدم ان وظائف المعايير الاجتماعية ما يأتي :

١ـ تساعد الفرد في كفاحه من اجل عيشه داخل المجتمع حيث توجد معايير اجتماعية في المجتمعات الانسانية كافة تنظم علائق الافراد الاجتماعية والجنسية حول الزواج والطلاق والخطوبة وتربية الابناء وبالوقت ذاته تحدد العقوبات الاجتماعية على المخالفين لها .
٢ـ وضع حدود واضحة ومتميزة بين السلوك السوي والمنحرف لكي تخطط مسيرة الفرد داخل مجتمعه دون مواجهة مشكلات اجتماعية .
٣ـ مساعدة النظام الاجتماعي في وجوده داخل المجتمع . فمن خلال تعلم الافراد رموز النظام والتزامهم بها فان ذلك يساعدهم على احترام النظام والتقيد به والمحافظة عليه وبذا ينتظم سلوكهم .(٤٥)

اما كيف تنشأ المعايير الاجتماعية فانها ترجع الى عملية التفاعل الرمزي بين افراد الجماعة الاجتماعية الواحدة من اجل تنميط سلوكهم اليومي الخاص بجماعتهم وبمجتمعهم وهذا بدوره يخلق توقعات لكل سلوك يبلوره تفاعلهم المستمر ويخدم مكانتهم الاجتماعية داخل جماعتهم وان الفرد الذي يحقق توقعات جماعته فيما يخص انماط سلوكها يعتبر في نظر جماعته غير متماثلاً مع معايير ومنحرفا عنها فتهبط مكانته داخل جماعته وبذا يعتبر التماثل مع معايير الجماعة مقياسا مرجعيا يقاس منه درجة انتماء الفرد الى جماعته ودرجة تماثله مع معاييرها وعند هذا التحديد تحظر امامنا ثلاثة نماذج من افراد الجماعة الاولى يكون متماثلا مع معايير جماعته والثاني غير متماثلاً معها (اي منحرفا ومخالفا لها) والثالث مستقل اي انه لا يعرف مقاييس معايير جماعته لكنه لا يلتزم بها ويتعامل معها حسب رغائبه (وهو يشبه المخالف الآ انه غير متعمد بذلك)(٤٦)

ونجد من المفيد الاشارة في هذا المقام الى رأي اميل دوركهايم التي حددها على انها مقاييس سلوك وفكر ومشاعر الفرد مترجمة في سلوكه الظاهري الذي يخضع للملاحظة بينما حددها وليم كراهام سمنر على انها مقاييس تقاليدية وادبية يخضع لها الفرد . بيد ان خضوعه لهما لاتكن واحدة لان الاولى تكون ملزمة واذا خرج عنها يحصل على عقوبة اجتماعية قاسية لانها تحدد علائقهم الاجتماعية الجوهرية في الزواج والطلاق والتنشئة الاسرية وقد تصل الى درجة المحرمات بينما الثانية فلا تكون ملزمة لانها تتعلق باداب الطعام واللباس (٤٧)

فالمعايير اذن تتضمن اللزوميات والوجوبيات والعدميات توجه سلوك الفرد في اللبس والاكل والتفاعل والتعامل مع الاخرين فالاسكيمو مثلا يجمدوا دم كلب البحر ويأكلونه كما لو كان احد انواع المرطبات ولكن مثل هذا النوع من المرطبات غير مستساغ عند الاسكتلنديين او البوليفيين مثلا

وهناك حالة اخرى في المجتمع الياباني تمثل الالتزام الصارم بمعايير مجتمعهم خوفا من النبذ الاجتماعي الذي خلق عندهم سلوكا متشابهاً ونمطاً موحداً الذي اخذ كل شيء من حياتهم الخاصة على ان لا ينبذوا اجتماعيا . وبالوقت ذاته خلق عندهم المنع من الاصرار على حقوقهم والمطالبة بالتغيير وعدم احترام خصوصية الفرد هذا الالتزام الصارم بالمعايير الاجتماعية اليابانية وبالانظمة الطقوسية والشعائر والتقاليد وطاعتهم العمياء لقادة المجتمع برزت بشكل جلي في فترة المرض الطويل للامبراطور الراحل هيروهيتو التي امتدت منذ ان لزم فراش المرض في ايلول ١٩٨٨

ولم يبرحه حتى وفاته في السابع من كانون الثاني ١٩٨٩ ثم الى يوم دفنه في احتفال اسطوري مهيب . وخلال تلك الفترة الغى اليابانيون او اجلوا الكثير من مناسباتهم السارة كالاعراس وحفلات الزواج والمباريات الرياضية والاجتماعية المهنية والنقابية احتراما لاسرة الامبراطوية . وكانت مبالغة واضحة الحزن حيث اختفت هدايا المناسبات والاعياد من اماكنها التقليدية في المحال و الاسواق المركزية . وفي هذا الخصوص يقول الكاتب الياباني تومو كوياما زاكي « هذا الالتزام النمطي بمعايير مجتمعهم جعلت اليابانيين يخافون من الوقوف خارج الحشد حيث لا يوجد اليوم الا قليلون جدا راغبون في الدفاع عن فكرة غير مألوفة او السير على ايقاع مخالف فخشية اليابانيين من الاستقلالية في الرأي او لمواقف نابعة اساسا من خشيتهم من نبذ الاخرين لهم .(٤٨)

وهناك حالة في المجتمع الكوري الذي يأكل افراده لحم الكلاب ففي سيئول عاصمة كوريا اظهر استطلاع للرأي نشر بتاريخ ٢٧ / ١٠ / ١٩٨٩ في صحيفة كوريا هيرالد ان الكوريين الجنوبيين يعارضون بأغلبية ساحقة الجهود الرامية الى تقييد وجبات من لحم الكلاب لا بسبب الا لانها تثير غثيان الاجانب حيث ان ٨١,٩ ٪ من الذين استطلعت اراؤهم في العاصمة اعترضوا على الحملة الرسمية التي تشن منذ دورة اولمبياد سيئول عام ١٩٨٨ لابعاد مطاعم حساء الكلاب عن المناطق السياحية . وقد جاءت الحملة في اعقاب ا دانة جماعات د ولية لحقوق الحيوانات لعادة اكل لحم الكلاب وادت هذه الحملة الى انتقال كثير من المطاعم التي تقدم وجبات من لحم الكلاب الى الشوارع الجانبية (٤٩)

ونجد من الضروري ان نطرح في هذا المقام سؤالا مفاده لماذا يتماثل بعض الناس مع المعايير ويخالفها بعضهم الاخر تحت نفس الظروف ؟ من اجل الاجابة على هذا السلوك هناك اكثر من متغير يلعب دوراً مهماً في تماثله الافراد او عدم تماثلهم للمعايير وهي ما يأتي : ــ

١ ــ المصالح الذاتية :

يخضع هذا المتغير لاحتمالات الناس لدرجة اللذة والمكسب او الالم والحرمان من امتثالهم لمعيار او عدم امتثالهم له اذ قبل امتثالهم له نجدهم يبحثون عن درجة انتفاعهم المادي والمعنوي من تماثلهم للمعيار ودرجة خسرانهم او فقدانهم ــ ماديا ومعنويا ــ من عدم تماثلهم ومن ثم يتخذوا موقفا متماثلا معه حيث يضعوا في

حساباتهم الحصول على درجة عالية من المنافع والمكاسب المادية والمعنوية من التزامهم به . وما هي العقوبة والحرمان المادي والمعنوي من التزامهم به . وفي هذا المقام يستطيع المجتمع ان يقلل من المنحرفين عن معاييره عن طريق وضع عقوبات اجتماعية للمنحرفين عنها او الذين لايتماثلون معها وهذا بدوره يقلل من عدد المنحرفين داخل المجتمع .

٢ ـ المحفز والاستجابة :

اي ان الفرد يخضع لمحفزات مادية او معنوية عندما يلتزم بأقيسة المعيار ويتماثل مع وجوبياته فيستجيب لضغوطه . وبذا عندما تكون المعايير الاجتماعية هدفها المحافظة على تماسك وتضامن الفرد مع مجتمعه وادراكه بهذه الميزة فان تحفيزه لها يكون كبيرا واستجابته لها يكون اكيدا .

٣ ـ النسق الاجتماعي :

حيث يساعد النسق الاجتماعي التقليدي على الزام الفرد بمعاييره ولا يساعد النسق الاجتماعي الحضري على الزام الفرد بمعاييره بسبب الاعتبار الاجتماعي العالي الذي يقدمه النسق التقليدي للفرد الملتزم بمعاييره على عكس النسق الحضري ـ الصناعي الذي لايشع اعتبارا اجتماعيا عاليا للافراد الذين يلتزمون بمعاييرهم الاجتماعية لذلك نجد معدلات الانحراف في المدينة اكثر بكثير من الريف .

٤ ـ مضمون المعيار الاجتماعي :

كلما كان مضمون المعيار الاجتماعي وجدانيا ومترسخا في ضمير المجتمع فان الفرد يخضع له بشكل طوعي ولا يفكر بالخروج عنه . وكلما كان عاكسا الظواهر الهامشية والثانوية . فان الفرد لايغير اهمية للالتزام به فيخرج عنه بسهولة ولا يشعر بالذنب عند خروجه عنه .

٥ ـ تنشئة اجتماعية ناقصة :

اي عدم اهتمام الاسرة بتنشئة ابنائها على معايير مجتمعها . او انها تهمل تعليمهم اياها او تغذيهم بمعايير اجتماعية متزمتة او متحللة غير ملتزمة الامر الذي يجعل ضمير الفرد الاجتماعي بعيدا عن وسائل الضبط الاجتماعي السائدة في المجتمع وبالتالي لايشعر بالذنب او الخجل او القلق عندما يخالف المعايير الاجتماعية .

٦ ـ الصورة الذاتية في ضمير الفرد :

اي صورة الفرد عن ذاته او نفسه كما يراها الاخرون الذين يحيطون به وما يصفونه او ينعتونه والتي تمثل سلوكه في نظرهم فيتعاملون معه من خلال هذا النعت او الصفة او الوصمة . هذه الصورة يرسمها اصدقاء او زملاء او خصوم الفرد ويروجونها فيما بينهم او داخل المجتمع تعبيرا عن صفاته السلوكية التي يحملها وغالبا ماتكون مخالفة لقواعد واقيسة المعايير الاجتماعية السائدة في مجتمعهم . فيتفاعلون معه (سلبا او ايجاباً) من خلال هذه الصورة التي رسموها له ولونوها بالوانهم . ومع تكرار تفاعلهم يبدأ الفرد بتعامله معهم من خلال تلك الصورة التي لم يرسمها هو بنفسه بل المحيطين به . هذه الحالة نجدها منتشرة بين المنحرفين والمجرمين .

٧ ـ تأثيرات الجماعات الاجتماعية :

التي تشير الى تماثل الفرد مع معايير الجماعة الاجتماعية التي ينتمي اليها فاذا كانت عالية او مرموقة . زاد تماثله معها والعكس صحيح . تحصل مثل هذه الحالة في الفرق الرياضية (فريق كرة القدم والسلة والطائرة وما شابه) فضلا عن تأثيرات الضغوط الخارجية للجماعة تزيد من تماثل اعضائها لمعاييرها . لكن اذا كانت الجماعة مستقلة فان تماثل اعضائها مع معاييرها يكون ضعيفا . وكلما زادت منافسة اعضاء الجماعة الواحدة من اجل خدمة اهداف جماعتهم زاد تماثلهم لمعاييرها . وكلما زادت محن ومشكلات الجماعة زاد تماثل اعضائها مع معاييرها .(١٠)

مادمنا بخصوص التماثل مع المعايير الاجتماعية فان الطرح يكون منسجما مع عمل ديفيد ريسمان في « الجمهور المنعزل » الذي كشف عن موضوع التماثل المعياري عند افراد المجتمع المتحول من المرحلة التقليدية الى الحديثة التي تضعف فيها المعايير التقليدية وتتقوى فيها قوانين وتعليمات المنظمات والمؤسسات الرسمية . اي تتغير وسائل الضبط الاجتماعي من المعرفة الى الرسمية . اذ يجعل الفرد في المجتمع المتحول الى المرحلة الحديثة من المرحلة التقليدية ان يسلك احدى السبل الاجتماعية في تماثله مع المعايير الاجتماعية وهي مايأتي :-

١ ـ السبيل التقليدي ٢ ـ السبيل الداخلي (الجواني) ٣ ـ السبيل المتجه نحو الاخرين المحيطين بالفرد .

١ ـ في حالة السبيل الاول :

يتصف الفرد في المجتمع التقليدي بأنه خاضع في سلوكه وتفكيره الاجتماعي لما يرسمه له الاباء والاجداد والمعمرين والشيوخ والاعيان فيمجتمعه . واذا خرج عن ذلك فأنه يحصل على اعتبار اجتماعي واطيء وقد يصيبه الخزي والعار في اعين او نظر ابناء مجتمعه . لان احكام واقيسة اعيان مجتمعه تنبع من معايير مجتمعه ولانهم يمثلون رموزاً مرموقة في مجتمعه .

٢ ـ في السبيل الثاني :

يتبع الفرد ماغرس ونمى في ضميره الاجتماعي عن طريق اسرته ومدرسته وتعاليمه الدينية من اخلاق وتعاليم تربوية ودينية . التي تكون بمثابة ادوات لحفظ توازنه النفسي ومنظمات لسلوكه اليومي امام افراد مجتمعه . لذلك اذا حاول الخروج عن هذه الادوات والمنظمات السلوكية فانه سوف يكون قلقاً ويشعر بالذنب وتأنيب الضمير .

٣ ـ اما في حالةالسبيل نحو الاخرين :

فأنها تحصل عند ابناء الطبقة الوسطى في المجتمع الحديث الذي يحاول ان يتماثل مع توقعات الاخرين المحيطين به وليس المعمرين او اعيان المجتمع لذلك اذا خاب او فشل في تحقيق هذا التماثل مع توقعات رفقائه او زملائه فأنه لايشعر

بالذنب او العار او الخزي (كما يحصل للفرد في المجتمع التقليدي) بل يحصل عنده القلق وعدم الارتياح الذي هو اقل درجة من الشعور بالخزي . لذلك يكون الفرد في هذه الطبقة وفي هذا المجتمع تعاونيا مع الاخرين وايجابياً وسمحا مع الناس(٥١)

ثمة نقطة يستوجب التنويه عنها في هذا المقام هو ان من الجائز ان تقدّم المعايير الاجتماعية للافراد مقاييسا متضاربة تجعل عندهم بعض القلق او عدم الارتياح النفسي . فمثلا تعلم الاسرة الامريكية فتياتها بان العلاقات الجنسية بعد الزواج امر مشين ولا يقبله المجتمع وبالوقت ذاته تعلمها بان العلاقات الجنسية مقبولة ضمن العلاقات العاطفية بين الحبيبين . ومن الطبيعي ان ترتبط مثل هذه التعليمات المعيارية داخل الاسرة الامريكية مكافئات للواتي يلتزمن بها وعقوبات اجتماعية للواتي يخرجن عنها وهذا بدوره يخلق تصارعاً اجتماعياً عند الفتيات .(٥٢) وفي مجتمعنا العربي هناك تنازعاً معيارياً ايضاً عند الشابات وهو ان اقامة علاقات عاطفية سواء كان قبل الزواج او بعده امر مرفوض ومشين ويجلب الخزي والعار للفتاة ولاهلها . ولكننا في نفس الوقت نجد ان معظم الغناء العربي يتغنى بالحب والحبيب والغزل بالفتاة وانوثتها وجمالها الامر الذي يشجع ـ بشكل مباشر ـ ان يحفز الشابة او يخضعها للتأثر بمؤثرات الغناء من خلال سماعها (من جهاز الراديو) لهاأومشاهدتها (على شاشة التلفزة او السينما) علما بان هذين الجهازين هما الوسيلتان اللتان تتنفس منهما الفتاة في تسليتها وقضاء وقت فراغها في معظم الاحيان مثل هذه الحالة المعيارية تخلق نوعاً من الحيرة والارتباك في سلوك الفتاة العاطفي لان المجتمع يمنع الحب وبالوقت ذاته يشجع الفن الغنائي على الحب والغزل في الفتاة وهي (اي الفتاة) تعيش وسطهما . الذي ينتهي بالتالي الى سيطرة احد المؤثرين عليها والذي يتحدد بدرجة عمق تنشئتها القيمية . اي اذا كانت اسرتها غارسة في ذاتها القيم الاجتماعية التقليدية فان حصانتها ضد التأثيرات الغنائية الخاصة بالحب والغزل تكون قوية والعكس صحيح .

جـ / ٢ ـ الادوار والمكانات الاجتماعية

للادوار الاجتماعية علاقة متلازمة مع المكانات الاجتماعية . وعند تحديد مفهوم الدور الاجتماعي لا يمكن تجنب او تجاوز تحديد مفهوم المكانة الاجتماعية على الرغم من بعض الاجتماعيين يتوقفوا عند تحديد احدها . فالمكانة تحدد على انها

مرتبة او موقع اجتماعي يشغله الفرد وان هاتين المفردتين (مرتبة وموقع) يختلفان في معانيهما واستعمالاتهما في البحث الاجتماعي وعندما نتعامل مع المكانة على انها مترابطة مع الدور الاجتماعي فانها عموماً تحدد على انها موقع فقط لذلك نجد بعض الاجتماعيين ميزوا بين الدور والموقع الاجتماعي وعند تحديد المكانة على كونها ممثلة الموقع فالمكانة تعني منزلة يشغلها الفرد مثل هذه المواقع في المجتمع تتضمن الذكور والاناث والاطفال والابوين والمتزوجين والمطلقين والسراق ورجال الدين وسواق الشاحنات ونوادل الحانات ورجال الشرطة وسواق عربات الاجرة والمحبين والثوار وغيرهم .

معظم المواقع في الجماعات الاجتماعية او المجتمعات الكبيرة يتقاربون ويترابطون الى درجة معينة من خلال نظام تقسيم العمل وهذا ماحدده اميل دور كهايم . فالعلاقة المترابطة بين الابوين وابنهما والزوج والزوجة والموظف ومسؤوله الاداري ورئيس العصابة واعضائها تمثل نماذجاً داخل البناء الاجتماعي فعمال المدينة يعتمدون على عمال المزرعة ويحتاجون غلاتهم ومحاصيلهم وعمال المزارع يعتمدون على عمال المدينة من خلال احتياجاتهم لخدماتهم (كاحتياجاتهم لخدمات البنك والعناية الطبية والتربوية) وسلع المصانع تستخدم في العمليات الزراعية والاعمال البيتية

وفي الجانب الاخر . تعني المرتبة الاجتماعية التقويم الاجتماعي الذي يساعد الناس على اشغال او احتلال مكان معين على السلم الاجتماعي فالموظفون يكونوا بعيدين عن تراتب العمال بسبب نفوذهم وتقويمهم الاجتماعي ومدير المصرف (البنك) يحصل على درجة اعلى من امين الصندوق بسبب موقعه المهني . والثري يتمتع بتقويم عال على السلم الاجتماعي اكثر من الفقير بسبب دخله العال وملكيته المادية والقادة يحصلون على تقويم عال على السلم الاجتماعي بسبب موقعهم السلطوي

اذن كيف ترتبط المكانة (كموقع) بالدور الاجتماعي ؟ من خلال هذا التحديد تعتمد المكانة بشكل كبير على تحديدين واسعين للدور الاجتماعي هما : ١ ـ يحدد الدور على انه مجموعة حقوق وواجبات (مجموعة معايير اجتماعية) او ٢ ـ يحدد الدور على انه سلوك ملتصق بالموقع الاجتماعي

اذ حدد الدور الاجتماعي على انه مجموعة حقوق وواجبات (ومجموعة معايير اجتماعية) تظهر المكانة على انها موقع من خلال علامتها او رمزها فرنة البيت

يتم التعامل مع رمزها من خلال مكانتها المحددة . والطالب يتم تحديد موقعه من خلال حدود رمزه او علاقته كطالب في مدرسة او جامعة . والسفير يتم تحديد موقعه من خلال وظيفته في السفارة . والرياضي يحدد موقعه من خلال وجوده في النادي الرياضي . والحقوق والواجبات الملتصقة بالمكانة تكون الدور الاجتماعي . فدور الطالب يتضمن استمرار دوامه في المدرسة وتعلمه واختباره في الامتحانات المدرسية ودراسته في المكتبة ودور الرياضي يتضمن تعلمه لفنون رياضته وتحقيق مستوى رياضي معين ، ودور السكرتيره يتضمن الضرب على الآلة الكاتبة وتنظيم السجلات واستلام الاتصالات وتنظيم اوراق ـ المكتب وهكذا . هذه تمثل معايير اجتماعية بمعنى ان الناس في هذه الادوار يقومون بانجاز مناشط محددة لهم .

وعندما تكون المكانات مرمزة ومعلمة لتمثل ادواراً معينة . فهي اذن مجموعة معايير اجتماعية تمثل مفهوماً مضافاً الى التزامات الفرد ليعكسها في سلوكه ويقوم بتنفيذها . وهذا المفهوم يطلق عليه . اما سلوك الدور او انجاز الدور او ممارسة الدور . انه ملتصق ـ بعض الشيء ـ او بكيفية معينة ـ مع الدور الاجتماعي والمكانة الاجتماعية تماماً . اذ ان ممارسة شروط الدور يعني تحديد معناه وتساوق سلوكه الدوري مع باقي الافراد الذين يسلكون نفس سلوكه لنفس الدور يعني ذلك التزام الافراد بمعايير الدور المطلوب منهم .

اما التحديد الثاني وهو ارتباط الدور بموقع الفرد . فأن مفهوم المكانة هنا يحدد على انه مجموعة حقوق وواجبات (مجموعة معايير اجتماعية) وهذا يشبه الاستعمال او التحديد الاول المذكور انفاً . اي المكانة في هذا التحديد تشبه سلوك الدور .

السؤال الذي ينطرح في هذا المقام هو هل هناك منافسة بين الدور والمكانة ؟ الجواب يكون كالآتي ، اذا حددت المكانة على انها رمز او علامة (او مجموعة معايير) او اذا حدد الدور على انه مجموعة معايير فأن مدير الجامعة ـ على سبيل المثال ـ اذا استقال من منصبه او توفى في منتصف الفصل الدراسي . ولا يوجد شخص يشغل منصبه او يمارس دوره مباشرة . يكون المنصب في هذه الحالة ثابتاً لكن لايوجد من يشغله . لكن اذا تم تحديد الموقع على انه سلوك . فان التنافس يبرز بين الدور والموقع وهنا يتطلب وجود شخص مناسب لاشغال المنصب . وهنا يتطلب الانتباه الى عبارة « توقعات » لانها مستخدمة بشكل متباين في مفهوم الدور الاجتماعي لكن عموماً تشير الى المتطلبات المعيارية في تحديد مايجب ان يقوم به

الفرد في دور ـ محدد فالمتوقع من الام ان تحب اطفالها لان ذلك احد المتطلبات الوجوبية لدور الام

ثمة موضوع مهم يتعلق بالدور وهو اختلاف رؤى الاجتماعيين للدور الاجتماعي . اذ هناك اتفاق عام بين الاجتماعيين ـ على الرغم من اختلافهم ـ حول منطلقاتهم ورؤاهم للدور الاجتماعي لانه (الدور) تمد ويغذي التماسك الاجتماعي بين افراد المجتمع اي انها ترفد النظام الاجتماعي القائم بالمزيد من التماسك والتعاضد وذلك راجع لتضمن المجتمع مواقع وادوار اجتماعية يحصل عليها الفرد من خلالها على حقوقه وواجباته تجاه نفسه ومجتمعه معاً وما يتطلب منه من القيام بها في اوقات معينة ومختلفة وهذا يحدد تفكير الافراد وسبل تصرفهم بما ينسجم مع متطلبات مجتمعهم الرواية ـ البنيوية ـ التي تؤكد على اهمية الدور الاجتماعي للعوامل التي تكون خارج طاقة الفرد وتعد مستقلة عنه مثل المعايير الاجتماعية وروابط التفاعلات والاتصالات بين الافراد والروابط السلطوية بين مواقع النظام الاجتماعي والادوار والمكانات الاجتماعية

ان الادوار والمكانات الاجتماعية قاعدتان اساسيتان في شبكة اتصالات وعلائق الناس وتكافلهم في المجتمع واذا تمت الرؤية لهما على اساس مواقع اجتماعية مرتبطة مع انماط السلوك المعيارية . فأن المكانات والادوار تعدان قاعدتي نظام تقسيم العمل الاجتماعي ومحفزتاه بالوقت ذاته والجميع يعلم ان المجتمعات مقسمة واجباتها حسب طرق منسقة فنظام تقسيم العمل قد يكون اولي ويعتمد على الاختلافات الحاصلة بين الشباب والشيوخ وبين الذكور والاناث فالرجل المسن قد يصطاد الطيور او الاسماك ويجني الثمار . بينما يكون الشباب يمارسون هواية الجرى او يركضون وراء رزقهم . والرجال قد يصنعون الاسلحة او يقيمون الحفلات . والنساء تخيط الملابس وتطبخ الطعام وتهتم باطفالها . ففي المجتمعات الصناعية مثلاً التي لها قاعدة تكنولوجية . يكون نظام تقسيم العمل فيها مسايرا وخاضعاً للانحدار الطبقي والجماعات العرقية فالزنوج في المجتمع الامريكي على سبيل المثال مشهورون وبارزون في اداء موسيقى الجاز والرياضة . بينما برز بعضهم في اشغال المواقع الادارية والفنية في المعامل والمصانع

في الواقع سواء كان نظام تقسيم العمل بسيطاً ام معقداً فأن تخصص بعض الجماعات الثقافية او العرقية في صناعات معينة لايرجع الى استقلالها بل الى تكافلها الاجتماعي الذي يشكل ترابط المواقع الاجتماعية المشغولة والادوار المصاحبة لها

فعامل محطة الوقود ـ على سبيل المثال ـ يكون معتمداً على الصناعة الثقيلة والمعقدة لمصافي البترول ومشتقاته وعلى وسائط شحنه ونقله . وأن شركات البنزين والزيت والغاز معتمدة على المعامل الصناعية واعتماد الاخيرة على صناعة الابار وشركات استخراج خامات البترول وهذه بدورها معتمدة على الصناعات الزراعية والغذائية التي هي ايضاً معتمدة على الصناعة الخاصة بالجرارات والحاصدات والمحاريث وماشابه هذا النوع من التكافل بشكل كبير على المواقع والادوار الاجتماعية التي تكون نسق العلائق الاجتماعية وديموتها واستقرارها والناس الذين يشغلون ادوارهم ويتعلمون توقعاتها فأنهم يلتزمون بها الى درجة كبيرة . في الواقع ان مواقع الاشخاص والادوار المناطة بهم تمنحهم كينونتهم الاجتماعية ووجودهم الاجتماعي .

الرؤية الثانية ـ تماثلية :

نقيض الرؤية الثانية هي عندما يؤكد الفرد على التماثل الذاتي الشخصي الذي يعد رهن تفاعل الفرد مع ادواره ومواقعه الاجتماعية التي يمارسها ويشغلها . فكلما كان ملتصقاً مع مكانته ودوره الاجتماعي تماثل مع ذاته بشكل واضح وجلي والعكس صحيح . وكلما زاد اكتسابه لتوقعات ادواره ومستلزمات موقعه حصل على مشاعر انسانية عديدة وخبرات اجتماعية غنية الامر الذي تسهل عملية تفاعله مع الاخرين داخل مجتمعه .

الرؤية الثالثة ـ تفاعلية :

اي ان الفرد الذي اكتسب مستلزمات موقعه ومارس توقعات دوره سهلت عملية تفاعله مع الاخرين الذين يرتبط معهم من خلال مواقعهم وادوارهم . فالطبيب الناجح يتفاعل مع المريض بشكل ناجح ومرضي والاب الجيد هو الذي يهذب سلوك ابنائه وهكذا .

اخيراً نطرح اوجه الدور الاجتماعي المتمثلة في :

١ ـ ديمومة الدور واستمراره . يظهر هذا الوجه الدوري عند انتقال الفرد من مرحلة عمرية الى اخرى ومن موقع مهني الى اخر او من تخصص وظيفي الى اخر ، فالمجتمع الهندي ـ الامريكي يقدم للصبي قوس صغير وسهام ويدربه على استعماله

وعندما يبلغ سن الرشد سنتدى هذا القوس نحو كبر وسهام كثير وهذا التدريب وجوبي داخل المجتمع الهندي لانه يؤكد على كسب افراد الحسرة والقوة وصيد الحيوانات هذا المثال يعبر عن سهولة انتقال الفرد من مرحلة الى حرى ومن دور الى اخر اي من دوره كصبي الى دوره كرجل لكن في المجتمع الصناعي الحديث تكون هناك دورات تدريبية وفصول دراسية لتأهيل وتدريب العامل لان يكتسب اختصاصا دقيقاً ومتقدماً اي هناك حوائل مهنية يجب اجتيازها والنجاح فيها لكي ينتقل من موقع الى اخر او من دور الى اخر وان ترقيات الموظفين من موقع ادنى الى اعلى لا تتم الا من خلال اختبارهم واكسابهم تقنيات مكتبية متطورة وهذه لا تسهل انتقال الموظف بسهولة من موقع الى اخر فضلا عن عنصر المنافسة بين شاغلي المواقع الواحدة يلعب دوراً مهماً في حرية انتقال الفرد من موقع الى اخر اذ يجعل فرص الانتقال شاقة وتحتاج الى جهد عملي وفكري مثل هذه الحالات تجعل

الدور الاجتماعي مستمر في وجوده وديناميكي في عمله ٢ ـ تموقع الدور اي تسوق متطلبات الدور مع متطلبات الموقع الاجتماعي فالفرد الذي يشغل مكانة معينة يمارس دور يعكس مكانته اي المكانة الموروثة تولد دور موروث والمكانة المكتسبة تولد دور مكتسب على ان لا ننسى انه في الاونة الاخيرة حصلت تغير في المكانة الموروثة الى مكتسبة مثل تغير جنسية الفرد من وطنية و حرى وتم تغيير جنس الفرد من رجل الى امرأة وبالعكس لكن الموقع المكتسب لا يمكن استبداله بالوراثي فما يكتسبه الفرد لا يمكن نقله الى فرد حر ٣ نمو وتطور الدور الذي ينشأ من خلال تقييم الفرد نفسه بتوقعات الاخرين عنه وهذا يدور يعطي الفرد قدرة على مراجعة تصرفه وتفكيره والاطلاع على سلبياته و حسناته ومن ثم تقويمه و تعزيزه و اصلاحه ٤ ـ غموض الدور الذي يظهر من غموض او عدم وضوح توقعات ومواقف وسلوكيات الدور في نظر الفرد حيث تكون الخطوط العامة للدور مضببة ومشوشة بسبب حداثتها و لانها تمر في مرحلة تحولية لتغيير بعض اوجهها او لان الفرد يشعر بقلق واضطراب عند تقييمه لاحكام الاخرين عنه ٥ ـ تناقض الادوار الذي يشير الى تناقض التوقعات الدورية سواء كان ذلك ضمن الدور الواحد او بين الادوار المتعددة التي يشغلها الفرد الواحد مثل الفرد الذي يشغل دور الاب والابن معاً(٥٢)

المفردة الثانية في الازدواجية الاصطلاحية الاقترانية هي المكانة الاجتماعية اذ تميز علماء الاجتماع بين المكانة الاجتماعية كموقع والمكانة الاجتماعية كمقام اجتماعي تشير الاولى الى الموضع الاجتماعي في المجتمع و العمل و النشاط العام.

لكفاءات المرء وفي هذا التحديد يتضمن علائق الفرد مع موقعه الاجتماعي ذات المعنى الرفيع او السامي او من له سلطة علياً بمعنى اخر علاقة موقعية غير متكافئة في المسؤوليات والحقوق والواجبات . هناك مثال على ذلك الزوجة والزوج . الطبيب والمريض . الاخ والاخت . المحامي والزبون . الاستاذ والطالب . نقيض ذلك يشير التحديد الثاني (كمقام) الى المقارنة المثيرة للحسد والبغضاء او المتصفة بالايذاء بين الفرد وموقعه الاجتماعي هناك مثال على ذلك ، الغني والفقير . المتعلم والامي . التابع والمتبوع . اذ من الممكن ترتيب المكانات من خلال علاقاتها . فالاخ قد يتمتع برتبة اعلى من الاخت والطبيب اعلى من المريض . مثل هذه المراتب الاجتماعية تكون مبنية على معايير الثورة والمستوى التعليمي والنفوذ الاجتماعي والقوة الجسمية .

هذا التمييز بين المكانة كمقام والمكانة كموقع مهمة جداً في مجال القياسات وتحديد المفهوم فالموقع يحدد نوعاً وليس كما مثل الجنس (ذكر وانثى) الحالة الاجتماعية (متزوج واعزب . ومطلق وأرمل) والرس (اسمر او ابيض او شرقي) والدين (بروتستانت او كاثوليك او مسلم او يهودي) هذا التمييز يكون من النوع الاسمي وجميعهم يشيرون الى مواقعهم في البناء الاجتماعي وليس من خلال تحديدها عن طريق الاعتبار الاجتماعي او النفوذ الاجتماعي .

كموقع نستطيع القول فقط بأن الذكور يختلفون عن الاناث ويختلف السود (الزنوج) عن البيض ويختلف العزاب عن المتزوجين ويختلف البروتستانت عن الكاثوليك .

لكن عندما نحدد المكانة كمقام . فأنها تأخذ البعد الكمي وليس الكيفي . ليس من خلال اختلافهم في النوع فقط (الاغنياء يختلفون عن الفقراء) بل تأخذ البعد النسقي المرتب والمنظم حسب تسلسل درجتها مثل الاغنياء ذوي الدخل الاقتصادي العالي يكون مقامهم اعلى من الفقراء . ويكون قياس ذلك بالدرجة حسب وحدات مقياسية ثابتة (مثل المعدل اي الاغنياء اكثر من ٢٥ ٪ في حجم السكان يكون دخلهم الاقتصادي ٢٥,٠٠٠ دولار اكثر من الفقراء الذين يمثلون اقل من ٢٥ ٪ في حجم السكان) مثل هذا البعد الكمي يستطيع تحديد الطبقة الاجتماعية والمستوى التعليمي والنفوذ الاجتماعي والقوة الجسمية والتقويم المهني .

استنادا الى المقارنة عير المتوازنة ذات التباين الاجتماعي - الاقتصادي تكون المكانة مرتبة موقعياً على تدرج اجتماعي او نسق يعكس التراتب الاجتماعي ان اهمية التمير تتموقع او تنحصر في وضع الناس على مواقع تتناسب مع كفاءتهم وقدراتهم واختصاصاتهم وترابط هده المواقع تكون شبكة اجتماعية لمواقع الافراد داخل مجتمعهم . وهذا بدوره يعكس نفوذ وشهرة وثروة وقوة الفرد

ثمة تحديد يفيدنا للتعرف اكثر على المكانة الاجتماعية كمقام اذ هناك مفتاحين رئيسيين يستخدمان في تحديد المكانة لمعرفة مقام الفرد هما مماثلته الاجتماعية وفرص الحياة فعمل الفرد في المجتمع المعاصر وموقعه القرابي في المجتمع التقليدي يؤثران بشكل مباشر على تفاعلاته وعلائقه اذ ان الافراد يستجيبون لمفتاح المكانة كمقام من خلال نظرة وتقويم الاخرين المحيطين به

وهذا يعني ، مفتاح المكانة قد يمنح التفوق والشرف للفرد فالموظف يستخدم عدة صيغ و سيده عند مخاطبته لرئيسه الاعلى في القسم الاداري و نرملائه الموظفين اثناء تفاعلاته معهم مدللا على مقامهم العالي وعدم تفاعل معهم من مقامهم الواطي. وقد يستخدم لاسم الاول اثناء مخاطبتهم والتحدث اليهم والى جانب الأختلافات في التخاطب والتعامل من خلال استخدام الكنية او اللقب الرسمي او الشخصي لتحديد مقام الفرد فهناك عدة انماط سلوكية ملتصقة مع مقام الفرد تشير الى موضع الفرد في النسيج الاجتماعي هناك مثال على ذلك فتح الباب للسيده او الانسة يشير الى احد انواع السلوك المقامي له

وهناك حالات لا تشعر الفرد مساو وحد من المقامات الاجتماعية محتلفة فقد يكون الفرد مثلا عضو عال في النادي الاجتماعي وبالوقت داته شاغلا مقام واطئ في الشركة التي يعمل فيه و هناك حالة تشير تكافؤ المقامات عند الفرد الواحد مثل مدير البنك يكون مالكاً لمقام عال في البنك الدي يعمل فيه وبالوقت ذاته له مقام عالي يضاً في مجلس التنمية الاقتصادية والاجتماعية اذن هناك تساوق وعدم تساوق في مقامات الافراد الذي يعتمد اساسا على المكانات الاجتماعية التي يشغلونها في فترة زمنية محددة

اخيرا ان موضوع المكانة كمقام وكموقع يحتل مكان الصدارة في دراسات الجماعات الصغيرة وقد لخص ألن مازور ١٩٧٣ سبعة صفات للمكانة الاجتماعية كمقام وقد اثبتت هده الصفات من قبل دراسات جماعية فيما بعد وهي

١ ـ يملك عضو الجماعة الذي يتمتع بمقام عال نفوذا اجتماعيا عاليا .
٢ ـ العضو الذي يملك بقاماً واطئاً يخضع لضغوط عديدة .
٣ ـ يتفاعل العضو عادة مع الاخرين الذين لهم نفس المقام .
٤ ـ يشترك العضو المتمتع بمقام عال بمناشط الجماعة بشكل كبير وواسع النطاق .

٥ ـ يسيطر العضو الذي يتمتع بمقام عال على الصراعات الداخلية ويخدم الجماعة بخبراته من خلال تفاعلاته معهم . ويقوم ايضاً بربط جماعته مع الجماعات الاخرى .
٦ ـ يعتمد مقام الفرد في الجماعة على الصفات التي لاترتبط بالجماعة مثل العمر والجنس والثروة الشخصية .
٧ ـ تقام مقامات الاعضاء بعيداً عن استخدام السلوك العدواني او النزاعي .(٥٢)

جـ / ٤ ـ البيروقراطية والديمقراطية

هناك تاريخاً طويلاً للفكرة القائلة بأن « الديمقراطية » و « البيروقراطية » ترمزان في صميمهما الى نزعتين متضادتين ولكن ليس لها اساس فكري متين . فاذا نظرنا الى الممارسة التاريخية للديمقراطية البرلمانية في اوربا وجدنا ان العلاقة بين البيروقراطية والديمقراطية لم تكن اطلاقاً علاقة لاتقوم الا على تضاد . فالسلطة الحالية لبيروقراطيات الدولة ليست ظاهرة جديدة وانما هي امتداد لما كان لها من سلطة في الماضي . وعلى الرغم من التزام المصالح الادارية في البلدان الاوربية التزاماً فيه التباس بفكرة الديمقراطية ، فان هذه المصالح كانت تؤيد نمو الديمقراطية بطرق متعددة فهي قد ساهمت في خطوات التقدم الصناعي الذي وفر القاعدة لتقوية الاماني الديمقراطية والارضاء المتواصل لهذه

الاماني وخدمت الحكومات الديمقراطية بتزويدها بقسم كبير في البرامج والخطط التي يجب ان تكون لدى كل حكومة لكي تحل المشكلات التي تجابهها وتحافظ على تأييد الذين تحكمهم . ومن الناحية النظرية ، تبدو العلاقات بين البيروقراطية والديمقراطية ايضاً علاقات تكمل فيها الواحدة الاخرى لاعلاقة تضاد فحسب فالبيروقراطية تناضل من اجل تنمية مقاييس صريحة وواضحة وتطبق هذه المقاييس على الافراد وهي تؤيد تأييداً ضمنياً الفكرة القائلة بأن هرميات المراتب الاجتماعية يجب ان تعكس فروقاً في الكفاءات والانجاز الموضوعي ومكافأة على ذلك . يميل « المبدأ الديمقراطي » ايضاً الى دعم « المبدأ البيروقراطي » .

ان انتشار الاخلاقية الديمقراطية التي تشدد على ان المرتبة الاجتماعية يجب ان تكتسب وتحصل لا ان تورث والتي تنزع الى تعميم الحقوق والمسؤوليات الاساسية يخلق مناخاً ملائماً لعقلنة الاساليب البيروقراطية وصقلها من جديد .

ان الطموح نحو تجربة الديمقراطية اكثر اكتمالاً ليميز في الواقع اوربا المعاصرة عن أوربا الماضي . ان المواطنين في الدول الاوربية يعيشون اليوم على « نظام حماية » ثابت في السياسة وهو يزيد في فهم الذين يأملون في المساواة وعندما يشعرون بأنهم معزولون عن حكوماتهم لا يأخذون هذا الوضع على انه وضع مسلم به ، بل يلجأون الى الشكوى من ان حقاً طبيعياً قد انكر عليهم . ومن المهم ان نذكر هنا التعبير عندما نبحث المشكلات التي يطرحها نفوذ البيروقراطية والدوائر الادارية وامتيازها . ذلك انها ليست مشكلات جديدة ولئن بدت اشد استعمالاً اليوم فليس ذلك لان السلطات البيروقراطية هي اليوم اعظم مما كانت في الماضي ولكنها تبدو اشد لان المضمون تغير . اي لان اوربا تتيح اليوم لمواطنيها وتطالبهم بأن يفكروا في اي نوع من الديمقراطية لم تعرفه اوربا من قبل من حيث صفته ومداه .(**)

جـ / ٥ ـ النفوذ والسلطة

النفوذ الاجتماعي بمعناه الواسع يعني قدرة احد الاطراف بفرض ارادته او تصميمه على الاخر اي ان الطرف الثاني يعتمد على الطرف الاول وان الاول يؤثر في الثاني ، فالنفوذ والاعتماد وجهان لعملة واحدة . ونفوذ الفرد لا يمكن ان ينشأ من فراغ او في جزيرة معزولة او في صحراء مجهلة .

لكن مصادر النفوذ تنبع من مصدرين رئيسيين هما طاقة او حيوية الفرد التي يتمتع بها بصورة كامنة لا تظهر في الممارسة العملية . هناك مثال على ذلك ، القاضي يملك جهداً كامناً (السلطة) يمنع المحامي من مقاضاة الشاهد . والمصدر الثاني هو الجانب الواقعي الظاهري المتأتي من الموقع والثروة والقوة وعلائقه الاجتماعية الواسعة مع الاخرين وبذا يمكن ان يحدد النفوذ على انه يشير الى القدرة في التأثير على ما ينتج من علائق اجتماعية . وكقدرة او قابلية لمقاومة العلائق الاجتماعية واقهارها لذلك يستخدم علماء الاجتماع النفوذ الاجتماعي كمتغير فعال في عملية اتخاذ القرار عند الافراد الذين يشغلون مواقع اجتماعية رفيعة . ومن لهم دور حيوي ومقتدر في مناشط الحياة الاجتماعية اليومية . وقد تظهر بوادر النفوذ عند الفرد منذ تنشئته

الاجتماعية الاولى (في الاسرة والمدرسة واماكن العبادة الدينية وجماعة اللعب اي اصدقائه الذين يلعب معهم ـ اذ تضع بصماتها الاولى في تحديد معالم وصفات النفوذ العامة في حياته الشخصية عندما يكبر وينضج سواء كان ذلك في النقابة المهنية او المؤسسات الادارية او العسكرية او الحكومية او باقي جوانب المجتمع) .

فضلا عن ذلك . فان النفوذ عنصر هيمني بارز في العلاقات الدولية والتجارية العالمية وسواء كان النفوذ ممثلاً معياراً او واطئاً فانه يلعب دوراً مؤثراً فيما ينتج في العلائق الاجتماعية . لذا فهو ملتصق مع المكانات الموقعية الرفيعة تساعد شاغلها على المنافسة وتنظيم الصراعات الداخلية او السيطرة عليها او توجيهها حسب اهداف مراده وتؤثر بطريقة او بأخرى على الافراد الذين يمارسون مناشط الحياة الاجتماعية اليومية بيد ان النفوذ السلطوي (النفوذ البنائي المقبول) يعتبر اطار عمل يستطيع الفرد من خلاله ان يتحكم على الانساق والانماط التي يجب ان يحافظ عليها ويلتزم الافراد بها ويتبعون تعليماتها .

مع ذلك فالنفوذ يحدد بشكل جزئي فالشرطي يتمتع بنفوذ اجتماعي ضمن النشاط القانوني والمحافظة على النظام القائم . لكن الفرد الذي يكون مشمولاً بالرعاية والضمان الاجتماعي (الفقراء والعجزة) لايملكون نفوذاً مهيمناً . بل يملكون نفوذا شخصيا بين اصدقائه او (اسرته) لكن خارج حدود ذلك لايتمتع بنفوذ مهيمن هذا من جانب ومن جانب اخر فالنفوذ السائد في المؤسسات الرسمية فان الاذعان والطاعة من قبل الاتباع يكون شرعياً لكن النفوذ الصادر من الخوف والرعب فانه لايعد شرعياً ولا يمثل العدالة الاجتماعية . وداخل المؤسسة الرسمية اذا كان النفوذ صادرا من الهيمنة الاقتصادية . اي احد افرازات العمليات الاقتصادية في البناء الاجتماعي (وبخاصة الهيمنة التكنولوجية المبنية على الانتاج) والعلائق الاقتصادية فان النفوذ يكون بيد مالكي وسائل الانتاج . وهناك نفوذ النخبة في المؤسسات الاقتصادية والسياسية والعسكرية الذين يكونون مختارين من بين جماعات معينة من اجل صناعة القرارات على باقي المؤسسات والشرائح الاجتماعية والتأثير عليهم وتحديد حالات الحرب والسلام ويضعون الخطوط العامة والخاصة للبرامج السياسية

وهناك نفوذ النخبة الفردية الصادرة عن قلة من الافراد من عائلة واحدة او شريحة واحدة) يمارسون نفوذهم على باقي شرائح المجتمع .

اخيراً فان نفوذ المؤسسات الرسمية والنخبوية الفردية يضمحل عندما يغادر مالك النفوذ الموقع الرفيع الذي كان يشغله لانه (اي النفوذ) ملك الموقع وليس ملك الفرد .(٥٦)

اما السلطة فانها تعني النفوذ الشرعي الذي يمنح مالكه التصريح بالاوامر القانونية والعقلانية لاتتدخل فيها الاحكام الفردية او السلطة الشخصية . لذا تأتي طاعة واذعان الاتباع للقوانين والقواعد العقلانية وليس لممارسي السلطة الشخصية . فالمسؤول الرسمي الذي يحمل صلاحية اصدار الاوامر لا يمزج صلاحياته الشخصية معها وان العلاقة بين المواقع المؤسسية المتسلسلة تحكمها القواعد القانونية وليس الشخصية . وقد ميز ماكس فيبر بين ثلاثة انواع من السلطة هي : ـ

سلطة المنقذ (الكارزماتي) التي تشير الى القدرة المتفوقة على المستوى العادي التي يحملها القائد بحيث تساعده على ان يقود الاتباع بنجاح ودراية . وتنشط قيادته اكثر فأكثر عندما يدرك الاتباع بأن قائدهم يتمتع بهذه المقدرة المتألقة والسحرية التي لا يتمتع بها الانسان العادي . وهنا تكون سلطة القائد شرعية في نظر اتباعه بسبب اعتقادهم بالخصائص او الصفات القيادية الفريدة والنفوذ السحري وقدرته على صنع المعجزات وانقاذه للامة وبطولته في الحرب . لذا فانهم لا ينقادون لموقعه القيادي بل لصفاته القيادية غير الاعتيادية .

والنوع الثاني هو السلطة التقليدية السائدة في المجتمع البطريقي (الابوي) الذي يكون فيه الرجل (الاب او الزوج او الابن الاكبر او النبيل او السيد او الامير مسيطراً على افراد المجتمع) متمتعاً بسلطة موروثة ومنمطة ومتسيدة تعكس عدة اشكال من التسيد المقدس لا يمكن الطعن فيها وغالباً ماتكون مدعومة من قبل سلطة سحرية او دينية .

والنوع الثالث هو السلطة القانونية الصادرة من القواعد التشريعية في المؤسسات الرسمية .(٥٧)

جـ / ٦ ـ الرواسب والمشتقات

قسم فلفريدو باريتو (عالم ايطالي ١٨٤٨ ـ ١٩٢٣) السلوك الانساني الى قسمين . سمي الاول بالرواسب الذي ينطوي على عواطف ومشاعر الفرد الكامنة او المستترة ممثلة الجذور الاساسية الثابتة في سلوك الفرد . ضمنها ستة انواع هي : ـ

١ ـ راسب يمثل غريزة المجتمع .

٢ ـ راسب يمثل المحافظة على النوع البشري ومقاومة زواله .
٣ ـ راسب تعبيري ، اي يعبر عن العواطف والمشاعر .
٤ ـ راسب موحد ، أي يوحد مناشط الفرد الاجتماعية او القيام بتنميطها.
٥ ـ راسب يبني الشخصية ويدافع عنها من خلال الالتزام بالقيم الاجتماعية

اما المشتقات . فانها تمثل الجزء السلوكي المنفذ لطلبات الرواسب في اشباع الحاجات والرغبات والعواطف . وقد صنف باريتو المشتقات الى اربعة انواع هي ، ـ

١ ـ مشتقات خاصة بالاصرار والعزم والتأكيد باعطاء ضمانات تثبت الحقيقة الاجتماعية او المشاعر الفردية .
٢ ـ مشتق السلطة ، سواء كانت سلطة الفرد او الجماعة او العرف الاجتماعي .
٣ ـ مشتق العواطف والمباديء العامة .
٤ ـ مشتق البرهان اللفظي .(٥٨)

جـ / ٧ ـ الايديولوجية واليوتوبيا .

قدم كارل مانهايم (عالم اجتماع مجري ١٨٩٣ ـ ١٩٤٧) تثنية اصطلاحية اقترانية متصافية في مفرداتها وهي اليوتوبيا والايديولوجية . قصد بالاولى (اليوتوبيا) بأنها مفهوم خلق وضعية جديدة تتحول فيها الكمية الى كيفية . فحين تصبح كل الاحزاب قادرة على تحليل افكار المعارضة في اطارات ايديولوجية فان كافة عناصر المعنى تتغير فينال اصطلاح الايديولوجي معنى جديداً كلياً . او عندما ينص الفرد على الطابع الايديولوجي لوجه نظرة فان المفهوم الكلي للايديولوجية يتحول ليصبح عاماً . توجه اليوتوبيا السلوك نحو عناصر تحويل الواقع التاريخي القائم الى واقع يتطابق وينسجم مع مفاهيمها .

وتعني اليوتوبيا التطلع نحو المستقبل وأمل بالحصول على بعض الاشياء التي لاتوجد في الوضعية القائمة وظيفتها ان تقلق النظام الذي يحاول الايديولوجيون المحافظة عليه تلك الاشياء التي تحاول (اليوتوبيا) ادخالها في صلب النظام الجديد. تقف اليوتوبيا موقفاً مناقضا للايدولوجيا فاليوتوبيا لاوجود لها دائماً . بينما الايدولوجيا موجودة دائما في الوضعية .ويؤكد مانهايم القوة الانفجارية في اليوتوبيا التي تتبناها الفئات المضطهدة المستغلة التي تميز بين ماهو يوتوبائي وما هو ايديولوجي صعب جدا فما يظهر في حالة معينة يوتوبائياً او ايديولوجياً فانه يعتمد

على مرحلة ودرجة الواقع الذي يطبق عليه الفرد هذا المعيار فيصف الناس الذين تكون افكارهم ومشاعرهم مرتبطة بنظام معين ويحتلون مواقع معينة كل الاراء التي لا يمكن تحقيقها ضمن اطار النظام الذي يعيشون به يوتوبائية مطلقة

ومن الممكن ان نضع (يوتوبائيات) اليوم وقائع غداً فاليوتوبائيات ماهي الا حقائق لم تنضج بعد. فالفئة المسيطرة في المجتمع والتي تكون في اتفاق كامل مع النظام القائم هي التي تقرر مايعتبر يوتوبيا. بينما الفئة الصاعدة هي التي تقرر مايعتبر ايديولوجيا لانها في نزاع مع المواضيع والاشياء كما هي موجودة. اي ان الافكار التي تسمو وتتفق على الواقع التاريخي وتكون قوى متفجرة تكسر وتهشم حدود النظام القائم هي يوتوبائية. **والافكار التي تخفي الواقع هي** الايديولوجية. وقد ضرب مانهايم امثلة اربعة للعقلية اليوتائبية هي : ١ ــ المفكرون الدينيون الذين اعتقدوا بامكانية ظهور السيد المسيح واقامة مملكته السماوية على الارض. ٢ ــ المفكرون الانسانيون ــ الليبراليون ــ ٣ ــ المحافظون ٤ ــ الاشتراكيون والشيوعيون.

اما مصطلح الايديولوجيا فانه يشير الى الافكار والتصورات التي تقدم بها المعارض فيؤلف قناعاً واعياً وشعورياً للطبيعة الحقيقية لوضع اجتماعي وسياسي معين والتي لاتكون معرفتها الحقيقية تطابق مصالح ذلك المعارض تتراوح هذه التشويهات بين الاكاذيب الواعية المقصودة الى الاقنعة شبه الشعورية وغير المقصودة بين المحاولات المقصودة للاحتيال والتغرير بالاخرين الى الخداع والغش النفسي.

يناقض هذا المفهوم الخاص المفهوم الكلي للايديولوجي ــ حيث يشير المفهوم الخاص الى جزء فقط من الاقوال التي يطلقها المعارض. اما المفهوم الكلي فيتناول المعرفة كلها ويحاول ان يعرض المفاهيم نتيجة للحياة الجماعية التي تسهم بها. يقيم المفهوم الخاص تحليله للافكار والاراء على مستوى نفسي والثاني الكلي العام يعزو الافكار والاراء الى مرحلة تاريخية والى طبقة اجتماعية تفكر في مقولات غير مقولاتنا ويرى بأن المقولات الاقتصادية ماهي الا تعبير نظرية وتجريدات للعلاقات الاجتماعية في عملية الانتاج.

ويعمل المفهوم الخاص في اطار سيكولوجية المصالح ويتوخى العام التحليل الوظيفي والوصف الموضوعي للفروق البنائية في العقول التي تعمل في تراكيب اجتماعية مختلفة فالخاص يرى ان تلك المصلحة هي السبب الكامن وراء تلك

الاكذوبة او ذلك الخداع بينما يفترض العام سلفاً وبكل بساطة وجود تطابق بين وضع اجتماعي معين ووجهة نظر معينة .

ان الافكار الايديولوجية متفوقة ومتسامية على الوضعية . لم تنجح من الوجهة الواقعية في تحقيق مستوياتها بالرغم من انها قد تكون الدافع المقصود للسلوك الذاتي فان معانيها كثيراً ماتكون مزيفة ومشوهة . مثال ذلك الفكرة الداعية للمحبة والاخوة المسيحية في مجتمع قائم على العبودية . تبقى الاخوة فكرة مجردة غير مترجمة للواقع فهي بهذا المعنى فكرة ايديولوجية .(٩٠)

مناقشة الثنائية الاقترانية :

تختلف الثنائية الاقترانية عن الثنائيتين السابقتين من حيث كون مفرداتها غير متناقضة او متدافعة او مختلفة لا في مصطلحاتها او متونها . بل مرتبطة بها ومكملة لها . لانها مستخرجة من حالة اجتماعية واحدة ومن صلب المجتمع وليس من مجتمعين او ثقافتين او نظامين . فالمواقف والمصالح مستنبطة من الشخصية الاجتماعية للفرد المرتبطة بعالمها الخارجي (المحيط الاجتماعي) وعالمها الداخلي (الجواني) فالقيم والمعايير الاجتماعية تقوم بتنظيم حياة الفرد داخل مجتمعه وتنسق سلوكه حسب مقتضيات مصلحة المجتمع . وبالوقت ذاته تساعد النظام الاجتماعي على تعزيز استقراره وعدم زلزلته في البناء الكلي للمجتمع كذلك الادوار والمكانات الاجتماعية التي تحدد موقع الفرد في مجتمعه وتسلط الضياء على ابعاد نشاطه فيه وليس سلوك الفرد والحالة ذاتها مع مصطلح البيروقراطية والديمقراطية والنفوذ والسلطة . فهي تحديدات مقترنة وليس لسلوك وتفكير الفرد ذاته . اما الرواسب والمشتقات فقد انفردت في عرض عواطف ومشاعر الانسان الكامنة التي تمثل البناء الجواني لذاتية الفرد التي تدفع وتوجه تصرفه على صعيد السلوك الظاهري .

الهدف الذي اريد الوصول اليه هنا هوان ماجاء به هذا المفصل من الثنائيات انها تمثل مفردات انضباطية لسلوك الفرد . تعمل على ادماجه بمجتمعه وتستجيب لتعليماته وتوجيهاته الخلقية والقيمية والثقافية . وهذا لايمكن ان يصدر من قواعد متناقضة او متدافعة او متنافية في مضامينها او في مسمياتها لذلك أتت (مفردات المصطلح الاقتراني) مكملة الواحدة للاخرى او امتداد الواحدة للثانية .

فضلا عن كونها لاتعكس كامن الذات البشرية بشكل عميق ومنفصل عن المؤثرات الاجتماعية بل ربطتها (الكوامن) بالمؤثرات الاجتماعية لكي تسحبها من فرديتها لتكون في الرحم الاجتماعي من اجل ولادة نتيجة اجتماعية في شكلها ومحتواها . فضلا عما تقدم فأن الثنائية الاقترانية (الامتدادية) لم تمثل ظواهر او مشكلات اجتماعية شاذة او منحرفة او اشكالات طارئة في المجتمع بل كشفت عن ثوابت مستكنة في البناء الاجتماعي (مواقف . مصالح . قيم معايير . دور مكانه . نفوذ سلطة . راسب مشتق . بيروقراطية ديمقراطية) اذ جميع المجتمعات تتضمن هذه الكوامن (سواء كانت مجتمعات حضرية او ريفية . محلية او عامة . دينية او دنيوية . مشاعية او رفقية صناعي او عسكري . استبدادي او حر . بدوي او حضري) ولما كانت هذه المصطلحات تأخذ مساراً عاماً في المجتمعات كافة فأننا نتوقع منها ان تتضمن التناقض او التدافع او التنافي - على الرغم من وجود العديد من الظواهر المتناقضة في المجتمع - بيد ان البارز والثابت انها (مثلت القاسم المشترك الاكبر للمجتمعات الانسانية ولم تأخذ الجوانب البعيدة عن منظمات المجتمع

الميزة الاخرى التي وجدتها في الثنائية الاقترانية والتي اكدت ماجاءت به آنفا (من كونها مفرداتها مكملة للاخرى) هي ان احد مفرداتها تمثل الهدف والثانية تمثل الوسيلة لتحقيق الهدف وهذا الترابط لايمكن ان يكون فاصلاً او قاطعاً بل متواشجاً ينجز استمرار دينامية وحركية المجتمع وبالوقت ذاته يعزز نظامه في البناء الاجتماعي هاك مثال على ذلك . تمثل القيم الاجتماعية هدفاً وتمثل المعايير وسيلة لتحقيق الهدف . وتمثل المكانة هدفاً والدور وسيلة لتحقيق الهدف ويمثل النفوذ هدفاً والسلطة وسيلة لها . وتمثل الديمقراطية هدفاً . والبيروقراطية وسيلة لها . وتمثل المشتقات هدفاً والرواسب وسيلة لها

وبذا لايمكن ان تكون الوسيلة نقيضة الهدف او العكس . وهذا لم نجده في مفردات المصطلحات المتناقضة (لا المنفصلة او المتصلة) اقول ان هذه الثنائيات الاصطلاحية تعكس الجانب التكاملي في الحياة الاجتماعية والطبيعة المستقرة من اجل ضمان حياة آمنة للفرد وعدم تفريطه او افراطه من مجتمعه . بل دمجه وضبطه من خلال ضوابط مستقرة وثابتة في بناء المجتمع . وهذا لايعني التحكم المتعسف من قبل المجتمع ان جاز التعبير - بل لكي يضمن وجود الفرد بشكل سوى وامن - قدر الامكان - على ان لاننسى ان التناقضات موجودة دائماً في كل

مجتمع ومع معظم الظواهر الاجتماعية . لكن في الان ذاته هناك ضوابط ومنظمات تحصن وجود الفرد في مجتمعه وتعزز بقائه والا فأنه سيكون في مهب رياح التغيرات الاجتماعية التي تعصف به من كل صوب وهذا لايجعل منه كائنا أمنا بل مذعوراً أو مضطربا بشكل دائم وهذه حالة غير طبيعية في الحيالة الاجتماعية .

د ـ الاستدراكات

ننتقل بعد ذلك الى المفصل الرابع الذي يتناول محاولات توحيد او توليف او تركيب الاوجه المتباينة بين مفردات المصطلح المنشطر في علم الاجتماع . وما هو متشابه بينهما ايضا . ولابد لي ان اشير كذلك الى اسباب ظهور محاولات الاستدراك (التي ظهرت في العقد السادس من هذا القرن ـ باستثناء محاولة بيترم سروكن) الى تعدد وتنوع النظريات في علم الاجتماع والى تعدد حقوله التخصصية وتشعبها وتمسك بعض المنظرين بنظرياتهم وعدوها نظريات اساسية في تفسير الاحداث الاجتماعية كافة او الى ادراك حقيقة الواقع الاجتماعي بعد ان تبنوا نظرية واحدة تعكس جانب واحد من الواقع .

الا ان هذه الدراسات توضح محاولة بعض المنظرين في استخدام نظرياتهم في توحيد او توليف نظريتين متناظرتين في الهدف . ومختلفتين في الرؤية للواقع الاجتماعي وقد سميت هذه المحاولة بالاستدراك (وقد يسميها بعضهم بالتحيز الذاتي لدى المنظر لانه استخدم نظريته في توليف نظريتين مختلفتين) .

اننا لاننكر هذا . بيد اننا نضيف الى ذلك تسمية جديدة وهي الاستدراك التي تعني الانتباه الى نقائض واخفاقات كائنة في نظريتين ومحاولة معالجتها بعمل توفيقي

د / ١ ـ جيرهارد لينسكي

(بحاثة امريكي معاصر) صاحب نظرية التدرج الاجتماعي التي طبقها ـ نظريا ـ في عدة مجتمعات ابتداء من مجتمع الصيد والالتقاط ومروراً بالزراعي والبستاني ومنتهيا بالصناعي . حيث استهدف توليف النظرية الصراعية مع البنائية الوظيفية مستخدما التدرج الاجتماعي جسرا موصلا بين ماهو متصارع مع ماهو

منسجم في مجتمعات مختلفة في نوعها وطبيعتها ودرجة تطورها من اجل ان يخرج بنظرية استدراكية واحدة في نظرتها للمجتمع
واذا استعرضنا محاولته في المجتمعات نجد الحقائق التالية :

١ ـ مجتمعات الصيد والالتقاط :

التي تمثل المرحلة التطورية الاولى في حياة المجتمع البشري لانهم يعيشون على مايصطادونه من حيوانات برية وما يلتقطونه من ثمار الاشجار البرية وهذا يعني ان الناس في هذه المجتمعات يعيشون ليومهم وان عملية انتاج الغذاء بدائية جداً (المقصود هنا طريقة اعداد ثمار الاشجار للاكل عن طريق الطبخ او التجفيف) ولا يوجد عندهم فائض لانتاج الغذاء وتقوم طريقة حصولهم على الغذاء اليومي على تعاون الافراد فيما بينهم من اجل الحصول على الحد الادنى من الغذاء والحاجات الاخرى . وبذا تمثل مصادر التدرج الاجتماعي عندهم قيماً اجتماعية اعتبارية وليس قيما مادية مصدرها فائض الانتاج الغذائي او فائض الانتاج الصناعي

٢ ـ مجتمعات زراعية اولية (زراعية بسيطة ومحدودة)

يكون اقتصاد هذه المجتمعات قائما على رراعة مساحات صغيرة من الاراضي بالمزروعات الاساسية والضرورية بوساطة ادوات والات زراعية بسيطة التركيب وقليلة الفعالية في استخداماتها لكن على الرغم من ذلك فأن هذا التقدم الاقتصادي النسبي في هذه المجتمعات يولد تفاوتاً في امتلاك وسائل الانتاج بين الناس ويكون مصدراً للنفوذ السياسي عند مالكي وسائل الانتاج الزراعي بسبب فائض الانتاج البسيط وتقدم اولي في حفظ الطعام او اعداده وعلى هذا الاساس يكون التدرج الاجتماعي لهذا النوع من المجتمعات مبنيا على المكانة الاجتماعية الموروثة بسبب عدم اتاحة الفرص امام الافراد كافة لامتلاك الاراضي الزراعية وادوات زراعتها بل مقصورة على فئة من الافراد الذين ورثوا املاكهم عن طريق الاسلاف

٣ ـ مجتمعات زراعية متقدمة (كثيفة في زراعتها ومتقدمة في اساليبها الزراعية)

تكون تقنيات الانتاج في هذا النوع من المجتمعات متقدمة بحيث تزيد كمية الانتاج الزراعي والحيواني ليصل الى درجة الفيض عن حاجة المجتمع وهذا بدوره يكون مالكين اثرياء يشكلون طبقة غنية وصاحبة رأسمال كبير محتلة مواقع اقتصادية واجتماعية وسياسية متميزة داخل المجتمع . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان تقنيات الانتاج في هذه المجتمعات تشبه تقنيات الادوات والاسلحة الحربية المتقدمة وان في هذه المجتمعات طبقة عسكرية صاحبة نفوذ تتقاسم السلطة مع الطبقة الاقتصادية والسياسية وبذا يكون التدرج الاجتماعي في هذه المجتمعات قائماً على مواقع تمثل مالكي وسائل الانتاج الزراعي ومالكي فائض الانتاج والطبقة العسكرية والطبقة السياسية وهذا يشير الى صلابة وجمود مواقع التدرج الاجتماعي لانها موروثة وليست مكتسبة .

٤ ـ المجتمعات الصناعية :

التي تملك المواد الخام للصناعات ومصادر الطاقة الانتاجية والالات والمكائن الانتاجية المتقدمة والمتطورة التي بدورها تزيد من الانتاج زيادة هائلة (فلا توجد ندرة في الحاجيات والسلع والطعام والخدمات) التي بدورها تتطلب المهارة الفائقة والتخصص في العمل وهذا يعني ان المكانات والمواقع الاجتماعية تكتسب ولاتورث وهذه بدورها تكون تدرجاً اجتماعياً مرناً قائماً على الخبرة والانجاز والمهارة الفنية والتقنية العلمية وان تتبلور طبقة مالكة لوسائل الانتاج الصناعي ومثرية بشكل كبير واخرى تملك المهارة الفنية العلمية وثالثة فاقدة لوسائل الانتاج .
بعدها وضع لينسكي احتمالات عامة هدفها الجمع بين النظريتين (الوظيفية والصراعية) وفي ما يلي : ـ

١ ـ ان الناس كائنات بشرية تحتاج الى العيش سوية من خلال علاقات اجتماعية بناءة
٢ ـ ان هذه الكائنات البشرية تهتم بمصالحها اكثر من مصالح الاخرين .
٣ ـ لاتوجد حدود توضح طموحات تحقيق مصالح هذه الكائنات البشرية .

٤ ـ لهذه الكائنات البشرية قابلية متباينة في كفاحها من اجل العيش والحصول على مصادر العيش النادر او التي لها قيمة عالية في المجتمع .
٥ ـ وفي ضوء ذلك يشترك الناس في عمليات انتاجية مختلفة من اجل ضمان عيشهم في المجتمع كل حسب قدرته وقابليته .
٦ ـ وهذا بدوره يحدد فائض كل عملية انتاج وعليها يقوم نفوذ الافراد المشتركين في عملية الانتاج .

هذا من جانب ومن جانب اخر : فان لينسكي يشك في مصداقية المفاهيم الثنائية والمتناقضة في علم الاجتماع . لانها تحدد وتفسر سلوك وتفكير الناس على اساس صنفين متناقضين (سيء وجيد) وتصنف المجتمع على انه منسق وغير منسق . لان هناك افراد لهم سلوكيات وافكار القطبين المتنافرين (السيٍ والجيد) وهناك ايضا مجتمعات لاتمثل الانسجام الدائم ولا عدم الانسجام او الصراع الدائم حيث لدى الناس مواقف غير متطرفة ولا محافظة . بل بينهما . وقد اهملت مفاهيم علم الاجتماع هذه المواقف المعتدلة(١٠)

هذه هي الاجتمالات التي يراها لينسكي كمنطلقات للنظريتين (الوظيفية والصراعية) الا اننا لم نجد في احتمالات لينسكي مايجمع بين النظريتين لانه لم يوضح او يشير الى الصراع الاجتماعي وكيف تتفاعل انساق وانماط البناء الاجتماعي . انما وضع عموميات خاصة بالطبيعة البشرية متناسياً مؤثرات النظام السياسي والاقتصادي والايديولوجي على سلوك وتفكير الافراد وكيفية حمايتهم لمصالحهم وغاياتهم الذاتية علاوة على ماتقدم . ان تصنيفه لانواع المجتمعات الانسانية لو توضح او تشير الى ارتباط كل نوع من انواع المجتمع بالاخر بل ترسمها منفصلة ولم يذكرها ايضا في احتمالاته الستة التي اوضحها في كل نوع من انواع المجتمعات التي اوضحها .

ان دراسة لانواع المجتمعات كانت دراسة مجردة وبعيدة كل البعد عن تاريخ الانسانية ومؤثراتة من حروب وتكتلات ومعسكرات وثورات اجتماعية وصناعية والاختراعات وابتكارات تكنولوجية وتفاعلات مصلحية وبالتالي لم تعبّر محاولته عن واقع اجتماعي حي او قديم مندرس .

بيد اننا نلتقي مع لينسكي في تشخيصه وتحديدة للمواقف المعتدلة بين قطبي المفاهيم الاجتماعية المتطرفة في نوع السلوك ونوع المجتمع لانه فعلا هناك العديد من

الناس والمجتمعات لاتتصرف بالتصرف المتطرف او المحافظ . بل هناك من يتصرف باعتدال ومرونة وهناك مجتمعات انسانية لاتمثل الانسجام التام او الصراع التام بل الصراع والانسجام حسب تأثيرات المتغيرات عليه

د / ٢ ـ الاستدراك الثاني

طرحه لويس كوسر الذي سمى طرحه تارة بالوظائف الاجتماعية للصراع وتارة اخرى سماها بالبناء المتصارع ويمكن تلخيصها كما يلي : ـ

يرى كوسر ان الصراع يمثل صمام الامان داخل البناء الاجتماعي لكونه يقوم بطرد كافة العداءات والخصومات والمنازعات بين اطراف النزاع . فالصراع في رأي كوسر يقوم بتنظيف البناء من العداءات التي تؤدي الى تفككه وهذا يقود الى تجديد اعضاء المجتمع ويكثف مماثلتهم مع اهداف المجتمع .

لكن ليس كل نزاع اوصراع يقوم بدور صمام الامان داخل البناء الاجتماعي في حكم كوسر بل هناك الصراع الواقعي الذي يكون ناشئاً عن تصارع جماعتين داخل مؤسسة واحدة الامر الذي يقود الى الخوف والفزع عن الجماعتين مثل اضراب العمال ضد الادارة عندما يطالبون برفع اجورهم وتمتنع الادارة عن ذلك فيحصل صراع بينهما ويتولد الفزع والخوف عند كليهما بسبب تهديد مصالحهما .

وهناك الصراع غير الحقيقي الذي يصل الى نهايات مسدودة يحتاج الى مسالك لتصريف النزاع بينهما مثال ذلك الصراع الذي لايصطحبه عداء مثل تصارع المحامين داخل قاعة المحكمة للدفاع عن قضايا موكليهما . وبعد خروجهما من قاعة المحكمة يزول صراعهما ونرجع علاقتهما الطبيعية كما كانت قبل دخولهما لقاعة المحكمة(٢١) تسلط هذه المحاولة الضوء على ايجابيات الصراع داخل البناء الاجتماعي لكنها لم تؤلف او توحد الصراعية مع النظرية البنائية ـ الوظيفية . ثم لم تطبقها في مجتمعات مختلفة او حتى داخل المجتمع الواحد كما فعل جيرهارد لينسكي ، ثم ان النظرية البنائية الوظيفية استخرجت من العديد من الدراسات الميدانية البدائية والمعاصرة وكذا الصراعية حيث استخرجت من صراعات الطبقة والفئات والمواقع الاجتماعية داخل المجتمع العام وداخل المؤسسات الرسمية . فليس الامر بهذه السهولة والبساطة التي يقوم به كوسر بأن يأخذ مايقوم به الصراعات من ايجابيات ويقول عنها انها يمثل البناء الصراعي

ان سياق الدراسة يلزمني ان لا اغفل بهذا الصدد ان أسأل لماذا لم يكمل كوسر عمله التنظيري ويشرح ويفسر مايقوم به البناء من صراعات يجابية على المجتمع مستخرجاً ذلك من واقع اجتماعي حي يعيشه الناس في الوقت الراهن

اقول انه استدراك جانبي وليس استدراك اساسي . اي انه عمل تنظيري اقل عمقا واضيق سعة (في الرؤية) من عمل ورؤية النظرية الصراعية او البنائية ـ الوظيفية لانه اقتصر فقط على الجانب الايجابي للصراع . وعليه فأنه يمكن ان يكون عملاً نظرياً جزئياً داخل النظرية الصراعية وبالوقت نفسه يمثل عملا تنظيرياً جزئياً داخل النظرية البنائية الوظيفية .

د / ٣ ـ الاستدراك الثالث

طرحه المنظر الامريكي المعاصر جورج هومنز الذي حاول تجسير النظرية البنائية مع النظرية التفاعلية الرمزية وسماها بالتبادلية البنائية من خلال دراسته للجماعة الاجتماعية الصغيرة الذي تعامل معها ككل وليس كأجزاء (اعضاء او اهداف او قيم) هادفاً من ذلك ابراز الجانب الاقتصادي في النظرية البنائية الوظيفية اثناء عملية التفاعل الاجتماعي بين الافراد . فقد وضع خمسة قضايا نظرية ربط من خلالها النظريتين وهي : ـ

١ ـ النجاح :

اي عندما يقوم الفرد بفعل اجتماعي معين ويحصل على مكافأة لقاء قيامه به . فانها تكون له محفزا في المستقبل للاستمرار بنفس الفعل الاجتماعي من اجل ان يحصل على نفس المكافأة ثانية . مثال ذلك ، الطالب الذي يدرس بجد ومثابرة فأنه يحصل على درجات او علامات عالية وهذه بدورها تدفعه الى الاستمرار بدراسته الجادة والحرص على نجاحه . لكن اذا حصل على عقوبة لقاء عمل قام به فأنه لايكرر عمله ثانية لكي لا يعاقب مرة ثانية .

٢ ـ التحفيز :

الذي يشير الى المكافآت التي حصل عليها الفرد في الماضي القريب لقاء قيامه بعمل معين فأنها تحفزه للقيام بنفس العمل عندما يواجه نفس الظرف لكي يحصل على نفس المكافأة او بمكافآت اخرى .

٣ ـ القيمة :

اذا كانت نتيجة عمل الفرد ذات قيمة عالية في نظره . فأن ذلك سوف يكون محفزا اكيدأ لتكرار نفس العمل .

٤ ـ التخمة :

التي تشير الى احتمال مفاده اذا حصل الفرد على مكافأة في الماضي القريب لقاء عمل قام به . فان قيمتها تكون اقل عندما يقارنها قبل حصوله عليها .

٥ ـ العدوانية :

وهي عندما لايحصل الفرد على مكافأة كان يتوقعها لقاء قيامه بعمل ما . او انه حصل على عقوبة لم يتوقعها فانه سوف ينزعج ويتأثر من ذلك وهذا يدفعه لان يتصرف بشكل عدواني له قيمة عالية في نظره .

واذا حصل الفرد على مكافأة كان يتوقعها . خاصة اذا كانت اكثر مما يتوقعها فان ذلك يسره جدأ ويقوده للتصرف بتعاون وود مع الاخرين وهو ذو قيمة بنظره(٦٢)

د / ٤ ـ استدراك رابع

مبني على الاستدراك الثالث (استدراك جورج هومنز) وهو استدراك لاستدراك قدمه بيتر بلاو (بحاثة امريكي معاصر) الذي وجد اغفال الجانب النفسي في عملية التبادل الاجتماعي الدائر في البناء الاجتماعي التي طرحها هومنز حيث ميز بلاوبين نوعين من المكافآت . الاولى سماها بالمكافآت الجوهرية ـ الحقيقية (مثل الحب والشرف والواجب والطهارة والجمال) والمكافآت غير الجوهرية ـ الحقيقية (مثل النقود والسلع والخدمات) .

هذين النوعين من المكافآت تقودان سلوك الفرد نحو غايات تفاعلية وجماعية فيكونون جماعات اجتماعية صغيرة . فضلا عن المكافآت غير الجوهرية تعتمد على المكافآت الجوهرية .

اقول ان المال والسلع والخدمات تعتمد على الاكتفاء الذاتي والواجب والطهارة والجمال هذا الاعتماد يشكل اختلاط المصالح بين الافراد المشتركين في عملية التبادل وان هذا الاعتماد يخضع للجهد المبذول من قبل الطرفين للحصول على المكافأة لان بعض الافراد بطيئون في اعادة او ارجاع المكافأة وبعضهم الاخر لايعيد او يرجع المكافأة واخرون لايعطون قيمة عالية للمكافأة المستلمة

ويضيف بلاو فيقول ان اصحاب النفوذ يحاولون استغلال ماعندهم من نفوذ لزيادته وتكثيره عن طريق الاستغلال او الاستثمار او الدعاية لانه وفي هذه الحالة يبرر التضاد والتحدي للنفوذ المتسلط . الذي بدوره يقود الى جدليات مالكي النفوذ وفاقدي النفوذ داخل البناء الاجتماعي فيحصل عدم التوازن داخل البناء وهنا يلتفت بلاو الى حقيقة مفادها ان سرعة التغير الاجتماعي تكون بطيئة بسبب اعاقة اصحاب النفوذ والمصالح داخل البناء فتقاوم التغير في المجتمع لان ذلك يؤدي الى ازالة نفوذها ومصالحها

بمعنى اخر ان اصحاب النفوذ الذين لهم جذور في مؤسساتهم السياسية او المالية او التجارية او الاجتماعية لايؤيدون تغير التبادل الاجتماعي لانه يعني اضعاف مواضيعهم وتهريب نفوذهم وعليه فانهم يقفون موقف المقاوم لحركة التغيير داخل المجتمع (٦٣)

د . ٥ ـ استدراك خامس

تناوله (بيتر سنكلمان) لكي يزيل التشابه الحاصل بين النظرية التبادلية والتفاعلية الرمزية حيث تشترك النظريتين في النقاط الاتية

١ ـ تأكيدهم على اهمية المحيط الاجتماعي في تكوين الصراع عند الفرد
٢ ـ اهتمامهم بمفهوم (الذات) وتقويم الاخرين في عملية التفاعل الاجتماعي
٣ ـ الاثنان يلتقيان بالمنظمات الاجتماعية بوصفها حصيلة العلاقات الاجتماعية بين الافراد
٤ ـ تنظر النظريتان للدينامية الاجتماعية من منظور جدلي (دايلكتيكي) ناتجة عن الصراع الدائم بين الجماعات (٦٤)

د / ٦ ـ استدراك سادس

قدمه (نورمان دنزن) ـ بحاثة امريكي معاصر ـ ليوحد بين النظرية التفاعلية الرمزية والاثنوميثودلوجي (الظاهراتية) لوجود التشابه بينهما في النقاط الاتية : ـ

١ ـ تركزان على سلوك الفرد .
٢ ـ تدرسان علاقة الفرد بالتركيب الاجتماعي المبني على استخدام الرموز الاجتماعية ووسائل الاتصال الاجتماعي .
٣ ـ يستخدمان التحليل النفسي بجانب التحليل الاجتماعي في وصف وتحليل الظاهرة الاجتماعية .
٤ ـ تأكيدهما على الجوانب الذاتية لحياة الفرد الاجتماعية مثل الطلاق ومشكلات التأنيس الاجتماعي ومشكلات التفاعل الاجتماعي المباشر .(٦٠)

د / ٧ ـ استدراك سابع طرحه (فان دنبرك)

لازالة التداخل الحاصل بين النظرية الماركسية والنظرية الوظيفية حيث وجد ما يأتي : ـ

١ ـ تنظر النظرية الوظيفية للانظمة الاجتماعية على انها مجموعة انساق متداخلة ومترابطة بعضها ببعض نتيجة التخصص الوظيفي لكل نسق ونظام اجتماعي، ووجد النظرية الماركسية بانها تنظر للانظمة الاجتماعية على انها مترابطة بعضها ببعض نتيجة الصراع الدائم بينهما .
٢ ـ تشترك النظريتان في نظرتهما للحياة الاجتماعية بانها متطورة ومتغيرة . حيث يرى الوظيفيون بأن الاختلافات ماهي الا نمو تطوري في التخصص الوظيفي لانساق وانظمة المجتمع وارتباطها بالبناء الاجتماعي العام .

وهذا التشبيه ـ في رأي الوظيفيين ـ يشبه التطور الحياتي (البايولوجي) عند الانسان .

بينما يرى الصراعيون الحياة الاجتماعية على انها قائمة على الصراع الدائم بين الانسان من جهة والانظمة الاجتماعية من جهة اخرى حيث تأخذ هذه الصراعات شكلاً حلزونياً و بالتالي الى التغيير الكامل في المجتمع .

٣ ـ تأخذ النظرية بفكرة التوازن الاجتماعي بين الانساق والانظمة الاجتماعية حيث يرى الصراعيون هذا التوازن ما هو الا نتيجة الصراع والتناقض الحاصل بين عناصر الانظمة بينما يرى الوظيفيون ان التوازن فهو الا الاساس لوجود كل الانساق والانظمة في المجتمع ..

د / ٨ ـ استدراك ثامن قدمه الكعبي (بحاثة عراقي)

متضمنا تجسير التفاعل الرمزي (الحاصل بين الافراد والذي لايصل في مداه للمديات البعيدة والواسعة) مع الظواهر ذات المدى البعيد والواسع اي حاول توسيع مدار دراسة التفاعل الرمزي الى مسافات ابعد ودوائر اوسع حيث تفاعل الفرد مع الحركة الاجتماعية والثورة والجمهور وحركات المودة ودرس بعض تفاعل رموز الحركة مع الحركة نفسها وهذامنحى جديد في دراسات التفاعل الرمزي حيث قال ان ما تتوخاه الحركة الثورية ليس هدفا ثابتا جامدا لايتغير بتغير الحركة او لايتأثر بهذا التغيير الواقع ان الهدف الذي ترمي اليه الثورة يتكون ويتبلور اثناء التفاعل الاجتماعي الذي يحدث بين الذين يسهمون في الحركة الثورية من ناحية وبين الحركة الثورية نفسها وبيئتها وظروفها المحيطة بها من ناحية اخرى وقد تكون هذه الاهداف غير موجودة او غير واضحة في بداية الحركة ومراحلها الاولية ولكنها تتضح تدريجيا كلما استمرت الحركة وتتبلور اكثر فأكثر تدريجيا ويتناولها التحوير والتغيير والحذف والاضافة حسب مقتضيات الظروف التي تتأثر بها الحركة(٦٧)

ثم بين تفاعل الفرد مع الحركة حيث قال « ان كل حركة ثورية بل كل حركة اجتماعية تعمل على تنمية بحوث وعقائد خاصة بها وهذه البحوث والعقائد والافكار تؤثر في النتاج الفكري للمجتمع كله كلما قويت واشتدت الحركة فالشاعر في الحركة مثلا شديد الحسية يتأثر بالخبرة العاطفية التي تمر بها جماعته الذين يحملون لواء الثورة يصور تلك الخبر ويعبر عنها بما اوتي من قوة الخيال وحسن الاداء والقابلية على حفز المشاعر التي تتصل بالحركة ومن ثم فهو يعمل على تقوية التعلق بالحركة والاخلاص لها من ناحية وشد الاعضاء الى بعضهم بعضا كجماعة متميزة بهذه الخبرة العاطفية والاجتماعية التي عانوها سوية من ناحية اخرى وتؤرخ في الحركة حتى لا تنسى التي انطوت عليها الحركة في مراحلها المختلفة فتعلق بذلك جذورها في النفوس كما انه يبرز فيه يؤرخ من تاريخ

الحركة وماضيها سلوك القائمين بالحركة وآمالها المشتركة ويعمل على غلغلة تلك الامال وما يتوقعه الاعضاء من الحركة . وهكذا ان ـ النتاج الفكري والعاطفي يتصنع بصيغة الحركة لانه من نتاجها وتكون مهمته خدمة الحركة واغراضها في مختلف نواحيها .(٦٨) .

د / ٩ ـ استدراك بيرم سروكن (١٨٨٩ ـ ١٩٦٨)

الذي انطوى على معالجة ماطرحه المنظر الامريكي وليم او كبرن في نظريته « التخلف الثقافي » حيث حاول فيها برهنة افتراض ان القوى المادية في الثقافة تتغير بشكل اسرع واوسع من تغير القوى المعنوية فيها . بيد ان سروكن حاول في استدراكه ان يبرهن على أن جوهر القوى المادية هو القوى المعنوية وبدونها لايمكن للتطورات التكنولوجية ان تظهر الى حيز الوجود (هذا استدراك اول) . ثم قدم سروكن استدراكاً ثانياً مفاده ان التغيرات التي تطرأ على القوى المعنوية للثقافة لاتتخلف عن التغيرات التي تطرأ على القوى المادية لها . بل تتغير بنفس السرعة والاتساع ان لم تكن اسرع منها .

يبدأ سروكن استدراكه الاول بتقديم اسئلة عن ماهية الثقافة المادية ، اجاب على ذلك « قيل لنا انها تمثل اشياء وملكيات فيزيقية معبرة عن الحاجات الملموسة . وانها ابداعات متنامية بشكل مستمر لانها تعتمد على الاختراعات والابتكارات والقدرات العقلية الخلاقة .

وهنا يطرح سروكن سؤالاً اخر مفاده ، الم تمثل الاختراعات والابداعات شكلاً من اشكال المعرفة ؟ لان الابداعات والاختراعات والقدرات العقلية المبدعة لاتمثل العمليات الفيزيائية او الكيميائية او الاحيائية (البايولوجية) فحسب بل هي عمليات فكرية . وهذا يعني ان المعرفة العلمية ماهي الاثقافة معنوية . وهنا يضيف سروكن فيقول . وحتى التفسير الاقتصادي للتاريخ يكون قائماً على الابداعات الفكرية للانسان وليس على وسائل الانتاج او انتاج القوى المادية . او حتى علائق الانتاج . فأنها قائمة على الابداعات العلمية والقوانين والاخلاق والدين والفلسفة وقيم المجتمع . فالمعرفة التقنية ـ العلمية ـ الكلام مازال مع سروكن ـ لم تكن اصلها المادة . بل ترجع اساساً الى الثقافة المعنوية المتأصلة في المجتمع الانساني . وبذا لايمكن فصل الاجزاء المعنوية عن المادية في الثقافة الانسانية ولا يمثلان ظاهرتين متناقضتين لان كل جزء يحمل وجهين (الوجه الداخلي الذي يضم المعنى

الاجتماعي ـ الثقافي والوجه الخارجي يشمل العربة والمحرك والظواهر العضويه وغير العضوية) الذي بدوره يتفاعل مع الوجه الداخلي باستمرار وبالتالي يكونان المعنى الاجتماعي ـ الثقافي

فالعربة والمحرك يمثلان ماديات الثقافة داخل المصنع لكنهما يعكسان الوجه الداخلي للثقافة المتمثل في الابداع العلمي ورموزه الثقافية . كذلك جهاز المذياع وراية الوطن ـ على سبيل المثال ـ وما هي سوى رموز لنتاجات ثقافية خرجت من نشاط وعمل عقل الانسان وتفكيره المتفاعل مع محيطه الاجتماعي المتأت عن طريق لقاءات العلماء وندواتهم وعن طريق قراءاتهم وعملهم في المختبرات وتحويلها الى مطبوعات وافلام مسجلة تعرض على شاشات التلفاز ثم استخدمها الانسان على انها نتاجات مادية ـ ثقافية او على انها ادوات عملية تستعمل في المصنع والمؤسسات والمعاهد العلمية

وقياسا على ذلك . فأن الافكار الدينية والمعتقدات الاجتماعية تعكس الاوجه الثقافية ـ الاجتماعية للعربة والمحرك ونجدها منعكسة ايضاً في طرز الابنية والتنظيمات الاجتماعية واصناف المجلات والكتب انها في الحقيقة اجزاء من الاوجه المادية الثقافية وبالوقت ذاته فأن الافكار الاخلاقية والجمالية تتحول الى مبادئ اجتماعية في اشكال البناء (الريازة المعمارية) والموسيقى والفن والادب واحكام القانون والسجون والمحاكم والافكار السياسية والاقتصادية جميع ذلك يمثل الاوجه المادية للجوهر المعنوي في الثقافة بمعنى آخر ان جوهر الماديات يكون المعنويات وجوهر المعنويات يكون الماديات

وبناء على ماتقدم من اثباتات فأن سروكن يرفض التفسير المادي للثقافة الاجتماعية وللتقدم الاجتماعي المطروح من قبل وليم اوكبرن وكارل ماركس

الاستدراك الثاني الذي تناوله سروكن ينطوي على دحض ماجاء به اوكبرن في نظريته « التخلف الثقافي » اذ يرى ـ سروكن ـ قيما غائية تمثل اهداف الثقافة وقيما وسيلية تساعد الثقافة بالوصول الى القيم الغائية فالدين ـ على سبيل المثال ـ يملك قيما غائية تعبر عن اهدافه المتمثلة بالالة وعبادة الرب ونهاية الحياة المتمثلة بالموت ويملك ايضا قيما وسيلية مثل الصوم والتبرع بالمال لبيوت الله وللفقراء والمساكين او القيام بالصلاة حسب مواعيدها كذلك يملك العلم قيما غائية ووسيلية معا فالاولى تمثل المعرفة الحقة والواقعية والقيم الوسيلية المتمثلة

المختبرات المتقدمة والمكتبات العامة بمصادرها ووثائقها وبتقنيات البحث العلمي الاخرى

والفن ايضا يملك قيما غائية وسيلية . فالاولى يمثلها الجمال والثانية تمثلها الفرشاة والاصباغ واللوحات الخشبية .

وحتى رجل الاعمال يحمل قيما غائية مثل النجاح في عمله الاداري والتجاري وتقديم الخدمات الايجابية للناس . وبالوقت ذاته يحمل قيماً وسيلية كالدعاية والاعلان عن عمله وان يكون لديه مهرة وعمال ناجحين لكي يستطيع ان يحقق نجاحا متقدما في تجارته .

من هذه المقدمة الموجزة وصل سروكن الى خلاصة مفادها ان كل ظاهرة اجتماعية ـ ثقافية تتضمن مجموعة قيم مرتبة او مصنفة حسب سلم تدريجي مبتدئة من القيم السلبية ومروراً بالقيم الوسيلية منتهياً بالقيم الغائية . ولا توجد ثقافة اجتماعية تضع قيمها كافة على درجة واحدة . او تضع كل قيمها على مستوى واحد من الاهمية . وان الباحثين الذين وضعوا مفاهيمهم على شكل سلم متناظر ثم يقوموا بسلسلة مقارنات متخالفة بعمل مضلل لانهم يضعون مفاهيمهم على درجة واحدة ثم يقارنون بينها هاك مثال على ذلك غالباً مايوضح اصحاب الاتجاه المتناظر وبخاصة اصحاب نظرية التغير الاجتماعي بأن النظام التكنولوجي والمدينة يتغيران بشكل منظم ويسير بخط متقدم صاعداً او متجهاً نحو مستويات افضل . وينتشر بشكل اسرع واسهل من النظام العقائدي ـ غير المادي ـ الى الثقافات كافة دون تمييز بل ويؤدي الى تغيرات اجتماعية اخرى . وان النظام العقائدي لا يحصل فيه تراكم ولا يتغير بشكل منظم ولا يسير بخط متقدم نحو الافضل ولا يستطيع الوصول الى الثقافات كافة لينتشر كونياً . بل يبقى محلياً في استخدامه ومحدوداً في

نفس السعة الجغرافية والحدود الاجتماعية التي ظهرت فيه . يرى سروكن مثل هذه المقارنة المتناظرة منطوية على مغالطة وتضليل . اذ ان الادعاء بأن الثقافة المادية او المدنية هي عامة وكونية في صفاتها وانها تنتشر بسهولة بين كافة المجتمعات والثقافات وتتبنى وتقبل من قبل كافة الافراد وان الثقافة غير المادية تبقى او تتراجع في تقدمها وتبقى ظاهرة محلية وغير مقبولة من قبل الآخرين وتترك محدودة الانتشار لهو امر مشكوك فيه .. اننا نقر ونعترف بأن منذ نهاية القرن التاسع عشر انتشرت عدة مخترعات وابداعات تكنولوجية بشكل سريع في العالم

مثل السيارات والطائرات والمذياع وما شابه لكن بعد الحرب العالمية الاولى انتشرت عدة نماذج من الثقافة المعنوية مثل موسيقى الجاز واشكال معينة من الرقص والافكار الاشتراكية والفاشية والكليانية (حكومة الحزب الحاكم الواحد) بشكل سريع واذا قسنا سرعة وسعة انتشارها بالاعداد بين الافراد والجماعات من الذين اكتسبوها ونقارنها مع الاعداد الذين اكتسبوا النماذج المادية في العالم فاننا سنجد بأن الناس في العالم استخدموا النماذج المعنوية من الثقافة بشكل اسرع واوسع من اكتسابهم للنماذج المادية . فلا يوجد تكنولوجي انتشر في العالم بنفس انتشار تعاليم الانجيل (يمثل الانجيل ثقافة معنوية) ونستطيع ان نقول (بأن القرآن الكريم ايضاً انتشر بشكل اسرع واوسع من انتشار اي تكنولوجي في العالم) وان أعمال شكسبير وبيتهوفن والفلسفة الكونفوشوسية والفلسفة الافلاطونية قد انتشرت اكثر من انتشار احمر الشفايف او دبوس الشعر فضلاً عن ذلك . فأن نظام الملكية والجمهورية والاشتراكية والتقدمية ونظام احادي الزواج ونظام تعدد الزوجات وازياء الملابس والفن والبرلمان والملابس الخاصة بالمساء والسهرة ومعرفة الله عن طريق الكشف الصوفي او التأمل الفلسفي او كليهما وكذلك الهندوسية والاسلامية والبوذية والمسيحية ـ كنماذج ثقافية معنوية ـ انتشرت في العالم اسرع من نماذج واجزاء الثقافة المادية كذلك يفضي الى التأكد على عدم صحة الافتراض بأن الثقافة المادية تتغير اسرع من الثقافة المعنوية

ويحسن بنا ان نعي بأن بعض الاختراعات والابداعات التكنولوجية الخالصة لم يتعد انتشارها وتداولها بين الناس حدود المجتمع الذي ظهرت فيه لعدم احتياجهم لها بل احتياج المجتمع الذي ابتكرها فالبوليزيون والاسكيمو ابتكروا تقنية بارعة في الملاحة والابحار تتناسب بشكل سريع مع ظروف مناخهم بيد ان المجتمعات الجبلية (اي التي تقطن وتعيش على الجبال) لم تكتسب ولا تتداول اختراعاتهم وابداعاتهم بل بقيت متداولة فقط عند الاسكيمو

ويستخدم سروكن مثالا اخر للبرهنة على محدودية انتشار بعض التكنولوجيا فيقول بأن الاشوريون والاسبارطيون ابتكروا تقنية تنظيمية متقدمة جدا في تنظيم الجيش تمثل تشكيلات منسقة بشكل دقيق ورائع بيد ان العديد من المجتمعات التي كانت تعيش في تلك الفترة الزمنية لم تكتسب تلك التقنية وتستعملها بل بقيت محصورة عند الاشوريين والاسبارط يضاف الى ذلك تقنية تدفئة الابنية بواسطة الكهرباء او بالزيت او بالغاز التي تكون مفيدة وضرورية في الابنية المشيدة في المناطق الباردة بيد انها لاتكون كذلك في المناطق الحارة لذا فأنه بسر منه

ولم تنتشر في المناطق او الاقاليم الاستوائية او شبه استوائية وهناك تقنية صيد الاسماك التي لم تكتسب من قبل المجتمعات القاطنه في اقاليم ليس فيها بحيرات او انهار او ان انهارها او بحيراتها لاتعيش فيها الاسماك فالقيم المادية لايمكن ان تكون محتكره منافع ذات حاجة ماسة اكثر من القيم المعنوية لان القيم المادية لاتحتاجها كل المجتمعات . وكذلك القيم المعنوية . لاتحتاجها كل المجتمعات باستثناء المجتمع الذي ابتكرها . بيد ان المجتمعات تحتاج الى قيم مادية ومعنوية حسب ظروفها وبيئتها . فما هو مفيد من قيم (مادية او معنوية) لمجتمع معين قد لاتكون كذلك في مجتمع اخر . وهذا يعني ان القيم المفيدة هي التي تكتسب فقط والباقي يكون من القيم المحدودة التداول وغير قابلة للانتشار بين مجتمعات مختلفة . حيث كلما كانت الاختلافات ظاهرة بشكل واسع بين المجتمعات قل اكتسابهم للقيم المادية والمعنوية . وكلما كانت الاختلافات بسيطة زاد اكتسابهم للقيم المادية والمعنوية لان ذلك لايحتاج الى تبديل او تحوير في نمط عيشهم بل يكون مضافاً له فالسيارة على سبيل المثال التي تسير في شوارع مدينة نيويورك هي نفسها التي تسير في شوارع احدى المدن الافريقية . لكن يختلف غرض استعمالها من قبل سائقها بشكل متعمد وليس عفويا . بيد انها تقوم بنفس الوظيفة المبتكرة من اجلها وهي وساطة نقل .

لامناص من القول بأن ماموجود من نظريات في العلوم والفلسفة والاداب بانها سريعة الانتشار بين ثقافات العالم كافة وان النظريات الحديثة في الرياضيات والفيزياء والهندسة قد ظهرت بنفس الفترة التي ظهرت فيها نظريات الفلسفة والاجتماع والسياسة وعلم النفس . لايوجد اذن فاصل قاطع بين تطور العلوم والدين والفلسفة والتكنولوجيا .

في الواقع ان سياق البرهنة دفع سروكن الى طرح جملة اسئلة امام الذين يقولون بأن الثقافة المادية اسرع في تغييرها من الثقافة المعنوية وهي مايأتي : ـ

١ ـ اي من التغيرات حصلت بشمل اوسع وأشمل واسرع في التغيير عن الوثنية الى اليهودية ومن ثم الى المسيحية ؟

٢ ـ او اي من التغيرات التي حصلت بشكل اسرع واوسع من التعبير الذي حصل في تحول العربة التي تسحبها الخيل ـ كواسطة نقل ـ الى عربة لاتسحبها الخيل ؟

٣ ـ او من التغير الذي حصل في تعدد الزوجات الى الزواج الاحادي في شخص واحد فقط ؟

٤ ـ أو من التغير الذي حصل في الاقتصاد فتحول من الرعوي الى الاقتصاد الزراعي

٥ ـ او من التغير الذي حصل في زيادة البناء المعماري فتحول من القديم الى فن البناء القوطي (عقد مستدق الرأس) ؟

٦ ـ او من التغير الذي حصل في الاقتصاد فتحول من الطبيعي الى النقدي ؟

٧ ـ او التغير الذي طرأ على النظام السياسي فتحول من الرأسمالية الى الشيوعية ؟

٨ ـ أو التغير الذي حصل على القاطرة فتحولت من البخارية الى الكهربائية ؟

٩ ـ أو التغير الذي حدث على القنبلة فتحولت من البارودية الى الذرية ؟

١٠ ـ أو التغير الذي طرأ على الدولة فتحولت من الاستقلال الوطني الى الدولة الكونية الواحدة ؟

جميع هذه الاسئلة طرحها سروكن لكي يعرف اي من التغيرات استطاعت ان تعطي او تستطيع ان تشمل مساحة اجتماعية وثقافية اوسع واشمل من الاخرى وخلال فترة زمنية قصيرة ؟ .

اذن غياب مقياس زمني ومساحي لقياس التغير يعني استحالة قياس اي من الوجه الثقافي يتغير بشكل اسرع من الاخر وبالتالي تبقى الثنائية الثقافية منطوية على المغالطة والتضليل يضيف سروكن الى ما تقدم فيقول ان الاسرة لم تبق محافظة على وظائفها القديمة بل بدت تغذى اسسا تربوية افضل من السابق وان ثقافتها الصحية تحولت من الشعبية الى الصحية العصرية المتقدمة وان معدل الطلاق قد ازداد . وان انحراف الاحداث ارتفع ايضا بسبب التغير الذي حصل في الثقافة المادية وان الموسيقى قد تبدلت كذلك واصبح عندنا موسيقى الروك اندرول والجاز وفي هذا المقام يحضرنا السؤال الاتي هو . هل آلت مسرحيات شكسبير الى الزوال وهل ان موسيقى باخ وموزارت وبيتهوفن ايضا آلت الى الزوال ، في الواقع ان شكسبير وبيتهوفن أثرا على الموسيقى المعاصرة ولم تندثر اعمالهما وان نظرية اوكبرن في « التخلف الثقافي » كان عليها ان لاتتسرع وتطلق حكمها الحاد لان الاسرة لم تندثر وان الزواج لم يزل بسبب التغيرات المادية كما كنت اسمع القول لسروكن ـ ان يجيب اوكبرن على علی الاسئلة اي من انواع الموسيقى يجب ان يتماشى مع التطور الذي حصل على القنبلة الذرية ، وأي من الاد. يجب ان يتغير بحيث تكون متماشية مع التطورات المادية ،

مثل هذه التساؤلات لم يستطع الاجابة عليها انصار التفاسير التكنولوجية لانهم غير قادرين على طرح او تقديم معايير لتقويم مستوى الثقافة المعنوية ومعايير خاصة في انهيار الموسيقى والاسرة والقانون والفلسفة .

واذا كان اصحاب التفسير المادي يدعون بأن التغيرات المادية للثقافة تجبر الثقافة المعنوية على التغير فان هذا ضرب من ضروب التضليل .

اخيرا يجب التنبيه في نهاية المطاف الى أنه من الخطأ القول بأن الثقافة المادية تراكمية وأن المعنوية لاتتسم بتراكم نتاجاتها . لان ما موجود من نظريات سياسية وفلسفية في الوقت الراهن ما هي سوى لامتداد ما كان في الماضي قبل قرن او قرون . اي ان الثقافة المعنوية تتصف بتراكم انتاجها الفكري مثلما تتصف به الثقافة المادية بتراكم انتاجها التكنولوجي . فالاثنان سيان في هذه الخاصية(٦٩) .

نقاش الاستدراكات

اذا نناقش الاستدراك الثالث الذي طرحه جورج هومنز نجده غير متكافىء في مداه النظري حيث النظرية البنائية من نوع البعيد المدى والنظرية التفاعلية الرمزية من نوع قريب المدى وهذا يعني استحالة توحيدهما او تركيبهما لاختلافهما في الرؤية الاجتماعية والتحليل السوسيولوجي وموضوع دراستهما . فالتوفيق بينهما اشبه بالمحال .

بينما ما قدمه الكعبي من توسيع في مدار وافق التفاعل الرمزي كان موفقاً الى حد لا بأس به لانه لم يخرج خارج حدود نظرية التفاعل الرمزي بل دفع دائرة التفاعل من فردين الى الجمهور والحركة الاجتماعية والثورة التي تشمل المئات لا بل الالاف من الافراد وهذه نقلة جديدة تظهر داخل النظرية التفاعلية وتجسير جديد بين تفاعل الافراد . وما قدمه هومنز لا يخرج عن مجموع قضايا تنظيرية تتعلق بالجماعة الاجتماعية الصغيرة ونحن نعلم ان البناء الاجتماعي لا يمكن دراسته من خلال الجماعة الاجتماعية الصغيرة ثم ان المنظر الذي يريد ان يولف ويركب بين نظريتين متباينتين عليه ان يزاوج بين مفاهيمهما على الاقل . لكن هومنز حدد محفزات السلوك الاجتماعي للفرد دون ان يستخدم المفاهيم او القضايا البارزة في النظرية البنائية الوظيفية في تفسير السلوك الاجتماعي للفرد او يزاوج بين مفاهيم التفاعلية الرمزية مع البنائية الوظيفية ان هذه الملاحظة تقود للقول بان استدراك هومنز لا يعرض او يوضح التركيب او التوليف بين النظريتين . بل مراده طرح

نظريته نحب عطاء التوليف او التركيب لانهم يعتمدان بناء تنظيريا رصينا ويتمتعان بسمعة علمية جيدة فاراد ان يستحوذ على تقويمهم العلمي من خلال المحاولات الاستدراكية السائدة في علم الاجتماع وان تجسيره بين النظريتين هو من باب الادعاء والتكسب التنظيري واذا عدنا الى محاولة الكعبي نجدها لم تقصد الاستدراك بل الاستمرار في البحث والاستقصاء الى ان وصلت الى توسيع مدار التفاعل الاجتماعي فاستحقت ان تصنف تحت محور المحاولات الاستدراكية علما بأنه (الكعبي) لم يكن منظرا او داعياً لنظرية اجتماعية . بل باحثا ملتزما بمفاهيم ومصطلحات النظرية التفاعلية الرمزية

أما الاستدراك الرابع (محاولة بلاو) فقد وقع بنفس الاخطاء التي وقع فيها استدراك (هومنز) اذ حاول ابراز الجانب النفسي في عملية التبادل الاجتماعي القائم بين الافراد وهذا يعني ان محاولة بيتر بلاو لم تهدف تجسير النظريتين البنائية الوظيفية مع التفاعلية الرمزية بل ملء فجوة تنظيرية في نظرية جورج هومز فقط

بينما اهتم كل من الاستدراكات الخامسة والسادسة والسابعة بالتشابهات السائدة بين النظريات الاجتماعية فما قام به بيتر سنكلمان هو توحيد النظرية التبادلية مع التفاعلية الرمزية لوجود تشابه بينهما فقط

وما قام به (نورمان دنزن) هو تجسير النظرية التفاعلية الرمزية مع الاثنوميثودولوجية (الظاهراتية) بسبب تشابههما ايضاً

وما قدمه (فان دنبرك) هو توليف ما بين النظرية الماركسية الصراعي والنظرية الوظيفية للتشابه الحاصل بينهما كذلك

الملاحظ على هذه المحاولات الاستدراكية انها انطلقت من مديات واحدة وليس متباينة اي التبادلية والتفاعلية والاثنوميثودولوجية التي تمثل نظريات قريبة المدى وتقع تحت مظلة علم الاجتماع السلس بينما محاولة جورج هومنز لم تكن موفقة حيث ارادت التوليف بين نظرية بعيدة المدى (البنائية) مع نظرية قريبة المدى (التفاعلية الرمزية) لانهما مختلفان في المنهج والايديولوجية

ثم محاولة دنبرك قامت بين نظريات ذات المدى البعيد (الماركسية والوظيفية) وهذا منطلق سليم من حيث المبدأ لكنه غير سليم من حيث الفكر والمنهج والايديولوجي

ان سياق الدراسة يلزمني ان لااغفل بهذا الصدد ذكر الملاحظة الثانية على هذه الاستدراكات وهي انها كشفت التشابهات الكائنة بينها وليس التباينات والاختلافات اقول هذه المحاولات نقيض محاولات جيرهاردلينسكي ولويس كوسر . لكنها تمثل احد انواع الاستدراكات في علم الاجتماع . اضف الى ما تقدم . فان هذه المحاولات لم تطرح نظريات لقائليها (سنكلمان ودنزن وفان دنبرك) الامر الذي نستطيع ان نقول عنها استدراكات نقدية وليست تنظيرية . بينما ما قام به لينسكي وكوسر وهومنز هو طرح نظرياتهم الخاصة تحت غطاء التوليف او التركيب (الاستدراك) فهو اذن استدراك تنظيري وليس نقدياً .

اما استدراك سروكن فقد جاء عميقاً وشاملاً من خلال نقده لنظرية اوكبرن . بيد انه لم يخرج بنظرية مبنية على سلبيات نظرية اوكبرن . بل فندها وقوم سلبياتها . وهنا يمكن ان نضيف عمل سروكن الى اعمال سنكلمان ودنزن وفان دنبرك بأنه استدراكاً نقدياً لايمثل البناء النظري الجديد او المبني على سلبيات نظرية سابقة كما فعل لينسكي وكوسر وهومنز .

لكن مهما تقدم من ملاحظات حول عمل الاستدراكيين . فانه مثر وعلمي لانه رصد اعمال الاجتماعيين وقام بتقويم بعضها ونقد بعضها الاخر منها توليف بين قسم منها وهذا يعني ان العمل الاستدراكي يمثل اضافة منهجية وتنظيرية جادة ومستحبة ويجب ان يحصل المزيد منها . لانها تعني التفاعل المعرفي داخل علم الاجتماع ويشير ايضاً الى ان اعمال الاجتماعيين الجادة لاتسير باتجاه السراب بل تجلب انتباه الباحثين فيتحاورون معها ويضيفون بعضاً من عطائهم الثر الى العمل الجاد .

الخلاصة

لايوجد علم انساني بدون مفاهيم . وخاصة علم الاجتماع الفتي الذي لم يمض على ميلاده قرن واحد . اذ انه يحتاج الى نحت مصطلحات وتحديد مفاهيم تعكس طبيعة دراساته ومواضيع اهتماماته . هذه المسؤولية البحثية تتضاعف على علم الاجتماع بسبب التغير الاجتماعي المستمر الحاصل في المجتمع الذي يخلق عدة ظواهر وعدة مشكلات تتطلب دراستها وابراز مصطلحاتها ومفاهيمها .

هذا من جانب ومن جانب اخر . فان الباحثين والمنظرين في علم الاجتماع لايمثلون مدرسة واحدة في البحث والتنظير ولا منهجا واحداً في الاستقصاء

ولا يجمعون لايديولوجية واحدة . عليه نجد عدة تحديدات للمفهوم الواحد . مثل الجماعة الاجتماعية والوظيفة الاجتماعية والطبقة الاجتماعية والتعبير الاجتماعي وما شابه

العلة ليست في اختلاف الاجتماعيين فحسب بل في الظاهرة نفسها حيث انها غير مستقرة بل متباينة ومتغيرة في آن واحد

وامام هذه الحالة الزئبقية (عدم استقرار توصيف الحالة) لجأ الاجتماعيون الى تحديد مفهوم اجتماعي مع نقيضه في وقت واحد لكي يعملوا على توصيف جانبي الظاهرة مثل المجتمع الديني والدنيوي والمجتمع التقليدي والحضري والمجتمع الاستبدادي والحر والبدو والحضر وهكذا . ثم ظهر اتجاه اخر لصياغة المفاهيم وهو التناظر المفاهيمي من اجل استجلاء تباينهما وهنا لم يذهب الاجتماعيون الى طرح النقائض بل التقابلات المتباينة في المصطلح والمضمون مثل الجماعة الاولية والثانوية والتضامن الميكانيكي والعضوي وعلم الاجتماع الجاد والسلس

ومن ثم ظهرت نظريات عديدة تحمل جانباً واحداً من الحقيقة مثل نظريات في البناء الوظيفي ونظريات الصراع الاجتماعي ونظريات في التفاعل الرمزي وغيرها

وبعد العقد السادس من هذا القرن ظهرت محاولات استدراكية هدفها توحيد النظريات المتناقضة او المتباينة في دراستها للظاهرة الاجتماعية وازالة التنوع المتباين بين النظريات الاجتماعية وتقليص عدد النظريات الى اقل عدد ممكن لكن هذه المحاولة تنقدت من قبل المنظرين وعدوها تهميشاً واضعافاً وجعل اعمالهم باهتة

الملفت للانتباه ان الاستدراكيين لم يولفوا او يركبوا المفاهيم المتناقضة مثل المجتمع التقليدي مع الحضري او الديني مع الدنيوي او الاستبدادي مع الحر لانها مجتمعات قائمة في الوجود فلايمكن انكارها او توليفها مع مجتمع اخر الااذا تحولت من ذاتها الى نوع اخر من المجتمعات وهذا ما حصل للمجتمعات التقليدية عند تحولها الى الحديثة والمعاصرة

وهكذا مع المفاهيم المتناظرة حيث لم يحاول الاستدراكيون بعض تولفه او تركيب الجماعة الاولية مع الثانوية او التضامن الميكانيكي مع العضوي او مؤدى الدور مع حدد و علم الاجتماع الجاد مع السلس لانها حددت في ضوء واقعها اول

هي ظواهر موجودة في الواقع الحي وان عملية توليفها او تركيبها يعني تجميع وجودها او اذابة كيانها وهذا غير ممكن .

لكن الشيء الوحيد الذي استطاع الاجتماعيون توحيده او تركيبه (استدراكية) هو توليف النظريات الاجتماعية المختلفة في دراستها للواقع الاجتماعي لانها تمثل جهدا فكريا وتحليلاً منطقيا منطلق من قدرات بحثية وعقائدية يمكن محاورتها ومساجلتها ونقدها لكن لايمكن رفضها لانها تملك المقومات العلمية للدراسة والاستقصاء والاختلاف بينهم يرجع الى اختلاف قدراتهم في تحديد مديات تصوير الواقع والمنطلقات العقائدية المتباينة في تغذيتهم للنظرية من خلال هذا الباب استطاع بعض الاجتماعيين استدراك بعض النظريات وليس المفاهيم ولو ان الثانية احد ركائز الاولى لكننا لم نجد نظرية اجتماعية اقتصرت على ثنائية واحدة من المفاهيم او مجموعة مفاهيم ثنائية او متناقضة (باستثناء نظرية روبرت مرتن التي استخدمت الوظيفة المستترة والظاهرة) فالنظرية الوظيفية تضمنت مفاهيم التوازن والتكافل والانسجام والبناء والنسق ولم نجد تضمنها مفاهيم الصراع والكفاح والتنازع وشدة الصراع وحدته . وكذا الحالة مع النظرية الصراعية حيث لم تتضمن مفاهيم الوظيفية . بل تضمنت مفاهيم خاصة بها مثل الكفاح والتنازع من اجل البقاء والتطور وغيرها .

في الواقع ان مفاصل الدراسة الاربعة لاتمثل حالة علية (باثولوجية) في علم الاجتماع بل صحيحة لانها تتابع تطورات الحياة الاجتماعية فتستخرج مفاهيم جديدة من ظواهر اجتماعية قائمة في المجتمع . ولما كانت الحياة الاجتماعية لاتتضمن التشابه التام ولا التناقض التام او الانسجام التام . فقد لجأ علماء الاجتماع الى استخدام الثنائية المتناقضة والثنائية المتناظرة لضرب هدفين مرة واحدة في علمية تحديد المفاهيم اقتصرت وقت المنظرين في النحت والتحليل .

الملفت للانتباه . ان المنظرين لم يستخدموا نمطاً واحداً في النحت بل اخذوا نمطين ، الاول متناقضاً والثاني متناظراً .

هذا على صعيد المفاهيم . اما على صعيد النظريات فقد اتجه المنظرون الى توحيد جهود الباحثين من خلال ابراز جهودهم الخاصة وهذا العمل يشير الى التفاعل الجاد والمثمر بين اعمال المنظرين ولا يمثل القطيعة او الانفصال بينهم ومهما كانت بواعث محاولة تجسير او توحيد النظريات فأنها عملية تفاعلية وليست صراعية تركيبة وليست تجزيئية وان دلت عن شيء فانها تدل على حيوية

المشتغلين في علم الاجتماع المتأتية من قدراتهم ومن حركية وحيوية الحياة الاجتماعية التي تتبدل وتتغير باستمرار بحيث تجعل من هذا العلم لايثبت على مفاهيم واحدة ونظريات واحدة وفي ضوء هذه الحيوية والحركية . فأن هذا العلم مقبل على تعددية اكثر في مفاهيمه (المتناقضة والمتناظرة) وحقوله ونظرياته .)

خليق بي ان ابين الامر التالي هل يمثل الانشطار الاصطلاحي عقم المصطلح الاجتماعي امام خصوبته ؟ في تقديري أنه يمثل خصوبته لانه يعكس جدلية المتغيرات في الظاهرة الاجتماعية سواء كان في تفاعلها ام في تدافعها او في تنافيها ليكشف عن اكثر من وجه واحد منها . لكن الاشكالية التي تواجه المصطلح هو بقائه في حالته الانشطارية الثنائية في معظم الاحيان ولم يتقدم الى انشطارات اخرى باستثناء الاستدراكات التي حصلت لبعضها ـ ولكن هذه الحالة الثنائية سوف لاتبقى على ما هو عليه . بل سوف تحصل انشطارات جزئية للانشطارات الكبرى والكبيرة بسبب دقة ملاحظة المنظر والباحث التي سوف تساعده بالتوغل اكثر فأكثر الى عمق الظاهرة وهذا لايعني ان الباحث الذي شطر المصطلح يعوزه دقة الملاحظة وعدم القدرة بالتوغل اكثر بل يرجع الى المرحلة التطورية لعلم الاجتماع الاولية التي تتطلب من الباحثين الانشطارات الرئيسية والجوهرية . والى انضاج مصطلحاتهم . ولما كانت المعرفة الاجتماعية تحتاج الى فترة زمنية طويلة لتطوير مصطلحاتها والى باحثين يملكون القدرة المنهجية على اخصاب اكثر لمصطلحاتهم والى تفاعل اكثر من التراث الاصطلاحي (اذ ان ليس كل باحث اجتماعي يستطيع ان يشطر المصطلح او يصك وينحت المصطلح) انذاك سوف تظهر في ادبيات علم الاجتماع المزيد من الاخصاب الاصطلاحي من اجل انجاب مصطلحات متفرعة من المصطلحات الاصلية في ميدان علم الاجتماع لكي تتوسع وتتكاثر المعرفة الاصطلاحية في هذا العلم الفتي . هاك مثال على ذلك . عندما ظهر مصطلح الاندماج الثقافي (الانصهار البودقي) عام ١٩٠٤ في الولايات المتحدة ادى الى ظهور عدة مصطلحات متفاعلة معه (سلباً وايجاباً) كرد فعل له مثل الاندماج الثقافي الثلاثي والتعددية الثقافية والثقافة الفرعية والتناقض. وعندظهور مصطلح الدور الاجتماعي حفز المنظرين لاشتقاق مصطلحات مستخرجة منه بشكل منفرد وليس ثنائية مثل ديمومة الدور وتموقع الدور وتقويم الدور وغموض الدور وصراع الادوار هذه المصطلحات المنفردة (غير المزدوجة) لم تظهر تلقائياً بل كرد فعل سلبي او استجابة سلبية لتصحيح او تقويم علاقة الاقليات العرقية والثقافية في المجتمع

الامريكي لكن لم يحدث او لم نجد الثنائية الاصطلاحية في علم الاجتماع قد ظهرت كرد فعل سلبي او ايجابي لثنائية سابقة لها. بل ظهرت ثنائيات اخرى متنوعة تمثل ظواهر ومشكلات ثانية لم تبنى على ثنائيات سابقة لها مثل ثنائية الدور المكتسب والموروث اظهرت ثنائية دورية اخرى مثل اخذة الدور ومؤدي الدور هذه الثنائية لم يتم اشتقاقها من الاولى (الدور المكتسب والموروث) بل تساوقت معها. او المجتمع المحلي والعام لم يؤد ظهورها (اي الثنائية) الى صك ونحت الثنائية المزدوجة للمجتمع الرأسمالي والاشتراكي او الكلياني والحر. وهكذا نستنتج من ذلك ان ـ الاشتقاق الاصطلاحي المنفرد ادى الى نحت وصك مصطلحات منفردة وممتدة لها اما بشكل تقومي او تكميلي. لكن الانشطارات الاصطلاحية او الثنائية المزدوجة لم تؤد الى انشطارات ثنائية منبية على سابقتها. بل ادت الى استدراكات توليفية بين المزدوجتين. اي الى ربطهما او تجسيرهما من اجل جعل وجهي الظاهرة مترابطاً. بيد ان هذه المحاولة الاستدراكية مازالت في طريقها ولم يتم استدراك معظم الثنائيات الاصطلاحية فبقى عددها اقل بكثير متعدد الثنائيات اذ يعود ذلك الى صعوبة التوليف بين شطري المصطلح اولاً والى الظاهرة الاجتماعية التي تحمل الصفة الاستدراكية لان بعض الظواهر لاتتضمن الخواص والصفات الثنائية المزدوجة والاخرى لاتنطوي على تركيبه استدراكية لصفتين كائنتين فيها او ان المسافة الاجتماعية بين شطري الظاهرة قصيرة جداً لاتتحمل ان تكون بينهما مفردة اصطلاحية تجمع بين قطبي الانشطار فيبقى المصطلح حاملاً مزدوجتين فقط. هاك مثالاً على ذلك اخذ الدور ومؤد الدور والمواقف الانوية والنحنوية والجماعة الثنائية والثلاثية والاتجاه الفردي ونحو الاخرين.

وبالوقت ذاته هناك ظواهر تجمع او تتضمن عدة درجات بين المفردتين المتناقضتين او المقترنتين تتطلب البحث عن مفردات كائنة بينهما مثل المصطلح الاقتراني قيم ومعايير. النفوذ والسلطة. الدور والمكانة الاجتماعية. علم الاجتماع الاوربي والامريكي المنهج الكمي والنوعي. المجتمع الصناعي والحضري.

فضلا عما تقدم وردت ثنائيات عديدة في هذا المؤلف وطرحت تصانيف متنوعة وقد استخلصت من كل ذلك تصنيفاً اصطلاحياً ثنائياً ايضاً لها يمثل الانشطار (الدايكروني) الامتداد المكاني والثاني اي الشطر الثاني للمصطلح هو (السايكروني) الترتيب التزامني.

يقع تحت الشطر الاصطلاحي الاول الدايكروني الثنائيات الآتية :

١ ـ المجتمع التقليدي والحضري ٢ ـ المجتمع المحلي العام
٣ ـ المجتمع الديني والدنيوي ٤ ـ المجتمع المشاع والرفقي
٥ ـ المجتمع الصناعي والرأسمالي ٦ ـ البدو والحضر
٧ ـ التضامن الميكانيكي والعضوي ٨ ـ علاقة مكانية وعقدية
٩ ـ علم الاجتماع الاوربي والامريكي ١٠ ـ الفردانية البريطانية والجمعية الفرنسية

ويقع تحت الشطر الاصطلاحي الثاني السايكروني ـ الترتيب التزامني الثنائيات والاستدراكات الآتية ·

١ ـ المثالية والمادية ٢ ـ المجتمع الاستبدادي والحر
٣ ـ التعاون والتنازع ٤ ـ البنيوية والتكوين الشكلي
٥ ـ مؤد الدور واخذ الدور ٦ ـ علم الاجتماع الجاد والسلس

٧ ـ علم الاجتماع الدينامي والمستقر ٨ ـ علم الاجتماع الشكلي والعام
٩ ـ علم الاجتماع العلمي والاصلاحي ١٠ ـ نظريات قريبة المدى وبعيدة المدى

١١ ـ النظرية الواقعية والتصورية ١٢ ـ المنهج الطبيعي والتأريخي
١٣ ـ بحوث كلية وجزئية ١٤ ـ الوظيفة المستترة والظاهرة
١٥ ـ القيم السلفية والمعاصرة ١٦ ـ مواقف أنوية ونحنوية
١٧ ـ الانا الفردية والنحنوية ١٨ ـ المواقف والمصالح
١٩ ـ القيم والمعايير ٢٠ ـ الادوار والمكانات
٢١ ـ البيروقراطية والديمقراطية ٢٢ ـ النفوذ والسلطة
٢٣ ـ الرواسب والمشتقات ٢٤ ـ وكافة الاستدراكات

ينطوي الشطر الاصطلاحي الاول « الامتداد المكاني » دايكروني على عيش المجتمع على بقعة جغرافية معلومة الابعاد تطبعه بصفات وخصائص اجتماعية متميزة ومختلفة عن المجتمعات التي تعيش في منطقة جغرافية اخرى مثل المجتمع التقليدي الذي لانجده قاطناً في المدينة وكذا المجتمع المحلي والديني والمشاع والبدو والعلائق المكانية والتضامن الميكانيكي وبالوقت ذاته لانستطيع ان نجد مجتمع حضرياً يقطن في البادية او الريف وكذا الحال مع المجتمع العام والدنيوي والرفقي والصناعي والرأسمالي والحضر والتضامن العضوي والعلائق العقدية

فضلاً عن ذلك فأن علم الاجتماع الاوربي قد انطوى على دراسة ظواهر ومشكلات افرزتها التطورات والتحولات الاجتماعية التي سادت ابان القرن التاسع عشر والعشرين مثل الطبقات الاجتماعية وصراعاتها والحضارة والمدنية وتطور المجتمعات والمؤسسات الاجتماعية والقوانين والاجتماعية والدولة التي لم يتناولها علم الاجتماع الامريكي بنفس الدرجة والكثافة . بينما تضمن علم الاجتماع الامريكي على دراسة احداث وتطورات مجتمعة مثل المسألة العرقية والتنوع الثقافي والجريمة والجنوح والطلاق . التي لم يتناولها علم الاجتماع الاوربي بنفس الدرجة والكثافة .

والحالة متشابهة مع الفردانية البريطانية القائلة بأن مصالح الفرد فوق كل المصالح وان جميع القيم والحقوق والواجبات تنبثق من الافراد وان المصالح الفردية يجب ان لاتخضع لسيطرة الحكومة او المجتمع او مراقبتهما الذي ساد بريطانيا ولم يجد له اي صدى في فرنسا . اما الاتجاه الجمعي الفرنسي فأنه قال بسيطرة الدولة او المجتمع ككل على جميع وسائل الانتاج والمناشط الاقتصادية وقد ساد هذا الاتجاه في فرنسا ولم يجد له صدى في بريطانيا مثل هذا الامتداد المكاني استطاع ان يسطر المصطلح الاجتماعي شطراً كبيراً وما زال مشطوراً لحد الآن .

في حين اكتفى الشطر الثاني من المصطلح (السايكروني) على ابراز الترادف الفوري والمتزامن بدون ارتباط بالامتداد المكاني سواء كان داخل القارة الواحدة او البلد الواحد . بل يخضع للمؤثرات والاحداث المتزامنة بشكل اقتراني . فالمعايير الاجتماعية مرتبطة زمانياً مع القيم داخل المجتمع الواحد . وكذا بين البيروقراطية والديمقراطية والرواسب والمشتقات وعلم الاجتماع الجاد والسلس وغيرها من المفردات التي ذكرتها آنفاً . اذ لم تخضع لمؤثرات البعد المكاني ـ الجغرافي . فقد نجد علم الاجتماع الجاد في اوربا وامريكا او في فرنسا وبريطانيا او نجد البحوث الجزئية في فرنسا وامريكا على السواء . فلا يوجد حصر مكاني لها وهكذا .

(تنويه) ارجو ان لايفهمني القارىء بأني قد اوقعت بنفسي بذات الحالة التي نقدتها في مؤلفي هذا . لاني ماقمت به في هذا الجهد العلمي هو طرح مصنف شامل وعام لجميع المصطلحات المنشطرة التي وردت في علم الاجتماع وهذا لايعني اني نحت مصطلحاً خاصاً بي او طرحت مصطلحاً مضافاً للمصطلحات السالفة الذكر . ومن الاعتيادي ان التصنيف الذي طرحته عن المنشطرات الاصطلاحية يكون منشطراً ايضاً وليس لاغياً لها . بل حصرت المفاصل الاربعة للانشطارات

الاصطلاحية المتعددة والمتنوعة بشطرين فقط وهذا اجتهاد متواضع يقبل النقاش والطعن والتقويم .

هذا من جانب . ومن جانب اخر فأنه لايوجد سلوك او فكرة او ظاهرة اجتماعية لاتنطوي على هدف تحققه في نهاية مطافها . او في تحقيق وجودها والسبل لانجاز هدفها يتطلب وسيلة لها . وقد عثرت على الوسيلة والغاية في المصطلحات المنشطرة الاتية ،

الوسيلة	الهدف
المعيار الاجتماعي	القيمة الاجتماعية
الدور	المكانة
السلطة	النفوذ
البيروقراطية	الديمقراطية
الرواسب	المشتقات
الاتجاه الفردي	الاتجاه نحو الاخرين
الموقف الانوى	الموقف النحنوي
الوظيفة العلنية	الوظيفة المستترة

فالقيمة الاجتماعية لاتتحقق الا من خلال المعايير الاجتماعية والاخيرة متقدمة عليها والاولى مبنية على الثانية . كذلك الدور الاجتماعي الذي لايظهر الا بعد اشغال الفرد لمكانة اجتماعية معينة ومن اجل تحديد فاعليته داخلها يتوجب عليه ان يمارس الدور الخاص بالمكانة التي يشغلها . فلولا المكانة لما استطاع الفرد ان يمارس دوره فكلما نشط في ممارسة دوره علت مكانته والعكس صحيح . وهذا يعني ان السبل للوصول الى المكانة هو ممارسته لدوره بنشاط والتزامه بواجبات ومستلزمات دوره لكي يحقق هدفه الا وهو تحقيق مكانته الاجتماعية والحالة مشابهة مع الوظيفة العلنيـة التي يمارسها المجتمع لكي يصل الى وظيفته الكامنة فيه التي لايستطيع تحقيقها ألا بعد ان ينجز تحقيق الوظيفة العلينة . وهنا تصبح الوظيفة المستترة هدفاً والعلنية وسيلة . وهذا ينسحب على باقي المزدوجات الاصطلاحية المذكورة في الجدول .

وقد أجد من المفيد ان اشير للملاحظة الآتية وهي ان الثنائيات جميعها لم تؤدلج اي لم تعكس عقيدة فكرية ذات طابع سياسي معين وهذا احد جوانبها

الموضوعية بل تجردت من ذلك على الرغم من وجود ايديولوجيات في اوربا وامريكا لكن هذا لايعني بأن لاتوجد ثنائيات اصطلاحية لم تؤدلج في علم الاجتماع بل هي موجودة لكن عددها قليل جدا

ثمة حقيقة برزت اثناء كتابة هذا المؤلف وهي ان المنظرين والباحثين في الاتجاه الصراعي لم يكن لهم دور بارز وفاعل في طرح الثنائيات الاصطلاحية المتناقضة او المترادفة او المقترنة (باستثناء ماركس ودار ندروف) حيث لم اجد ثنائية اصطلاحية عند المنظرين الصراعيين امثال ميكافيللي وبيجوت وكمبلوفتش وراتزنهوفر واوبن هايمر وسمول وسمنر وبارك وفولد وبرنارد بل كان معظم الطارحين للثنائيات من اصحاب الاتجاه الوظيفي ـ البنائي والتفاعل الرمزي وهذه الظاهرة تنظيرية ومنهجية يجب الاستقصاء عن حيثياتها ودواعيها

لدى بعض الحوار مع سروكن عندما عد الثنائية الاصطلاحية ممثلة لقيمة معيارية واحدة في قياسها المقارن وعدها نقيصة منهجية في علم الاجتماع ان هذا النقد للثنائية قد يكون صادقاً مع بعض الثنائيات مثل التضامن الميكانيكي والعضوي والمجتمع المشاع والرفقي والصناعي والعسكري والاستبدادي والحر والديني والدنيوي والعام والمحلي والتقليدي والحضري لكن نقد سروكن لاينطبق على الثنائية المركبة ـ الاستدراكية لانها ولفت بين اتجاهين او شطرين من الظاهرة الاجتماعية من اجل تجسير اوجهها وهنا لايمكن تجسير وجهين يمثلان قيمة معيارية واحدة بل قيمتين معياريتين مختلفتين . لذا لم نجد تجسيراً حدث بين المجتمع التقليدي والحضري والمحلي والعام والديني والدنيوي والرفقي والمشاع والصناعي والعسكري والاستبدادي والحر

فضلا عن ذلك فأن هناك امتدادا وتواصل بين شطري بعض المصطلحات وهذا يعني ان الانشطار الثاني يمثل امتداداً للانشطار الاول الذي لايساويه في القيمة المعيارية لانه اذا كان متماثلاً ومتساوياً في القيمة المعيارية . لماذا كان امتدادا له ومشتقاً منه ومختلف معه في الاوجه العديدة مثل الاتجاه الفردي ونحو الآخرين ومواقف انوية ونحنوية والوظائف المستترة والظاهرة . المعايير والقيم . الدور والمكانة . السلطة والنفوذ . البيروقراطية والديمقراطية . الرواسب والمشتقات لذا لااستطيع ان اعتمد على نقد سروكن في هذا الخصوص لانه نقد جانبي وجزئي الامر الذي لايمكن سحبه على كافة المزدوجات والانشطارات الاصطلاحية

اخيراً لما كانت الثنائيات الاصطلاحية كافة تمثل آلية منهجية في دراسة بعض اوجه الظاهرة فانها (الثنائية) خدمت علمية علم الاجتماع من خلال تقديمها وجهي الظاهرة وعدم اقتصارها على وجه واحد . اي انها لاتمثل كماً متراكماً من المعلومات بل صكت ونحتت بشكل منهجي (مقارن) واظهرت قدرة علم الاجتماع وقابليته في صياغة مصطلحاته من المجتمع ، على الرغم من كونها لم تصل الى درجة صياغة النظرية الاجتماعية . بيد انها خدمت الباحثين والمنظرين والعلم نفسه في التعرف على عدة جوانب عن الذات البشرية وعدة نماذج عن المجتمع وعن علم الاجتماع نفسه . واظهرت ايضاً براعة الباحث الاجتماعي في صياغاته الدقيقة والنقدية والتقويمية والوصفية . فهي اذن ركن من اركان النظرية واحد ادوات المنهج الاستقرائي في علم الاجتماع .

مصطلحات الفصل

Ambivalance	ازدواجية متناقضة
Analytical role	الدور التحليلي
Capitalism society	المجتمع الرأسمالي
Charismatic authority	سلطة القائد الملهم
Closed social relationships	علاقات اجتماعية مغلقة
Communal society	المجتمع المشاع
Cognitive dissonance	تنافر معرفي
Contract relation	علاقة عقدية
Contraculture	الثقافة المضادة
Depictive role	دور شكلي ـ صوري
Derivations	مشتقات
Determinism	الحتمية
Diachrony	الامتداد المكاني المتزامن
Dicotomy	الثنائية
Dinary fission	انقسام انشطاري
Diversity	تعدد الاشكال المختلفة
Dualism	الثنوية . مذهب يقول بان الكون خاضع لمبدئين متعارضين هما الخير والشر
Equalitarianism	المساواة الاجتماعية
Feudal society	المجتمع الاقطاعي
Folk society	المجتمع التقليدي
Folkways	الطرق الشعبية
Formal sociology	علم الاجتماع الشكلي
Free society	المجتمع الحر
Gemenschaft	المجتمع المحلي
General sociology	علم الاجتماع العام

Gesellschafy	المجتمع العام
Grand theory	النظرية الشاملة
Grounded theory	النظرية الواقعية
Hard sociology	علم الاجتماع الجاد
Heterogeneity	عدم التجانس
Historical method	المنهج التاريخي
Hypostatization	الاتجاه التجريدي
I - Attitude	موقف آنوي
Idealism	المثالية
Individualism	التفرد
Inequality	عدم التساو أو التكافؤ
Inner-direction	الاتجاه الجواني ـ الباطني
Inter-role conflict	صراع دوري داخلي
Intra-role conflict	صراع دوري خارجي
Laten function	الوظيفة المستترة
Macroscopic research	البحث الكلي
Macro theories	نظريات ذات المدى البعيد
Manifest function	الوظيفة الظاهرة
Meterialism	المادية
Micro theories	نظريات ذات المدى القريب
Miniature theory	النظرية الجزئية
Molecular research	البحث الجزئي
Naturalistic method	المنهج الطبيعي
Neo-positivism	المذهب الوضعي الاجتماعي الجديد
Opened social relationship	علاقات اجتماعية مفتوحة
Partraits	وصف صورة الوجه
Patriarchalism	المجتمع الابوى
Plutocratic character	صفات بلوتقراطية
Premises	المقدمة المنطقية

Primary group	الجماعة الاولية
Primary relationship	علاقات اولية
Reductionism	الاتجاه الاختزالي
Residues	الرواسب
Role allocation	تموقع الدور
Role ambiguity	غموض الدور
Role conflict	صراع الدور
Role continuity	ديمومة الدور
Role evaluation	نمو الدور
Role playing	إداء الدور
Role taking	اخذ الدور
Scared society	المجتمع الديني
Secondary group	جماعة ثانوية
Secondary relationships	علاقات ثانوية
Secular society	المجتمع الدنيوي
Social norms	المعايير الاجتماعية
Social values	القيم الاجتماعية
Sociographic role	دور ترسيمي اجتماعي
Soft sociology	علم الاجتماعي السلس
Speculative theory	النظرية التصورية
Status relation	علاقة مكانوية
Structuration	البنيوية
Subculture	ثقافة فرعية
Synchrony	التزامن التاريخي للحدث
Totalitarian	المجتمع الكلياني
Traditional - direction	الاتجاه التقاليدي
Traditionalism	المذهب التقاليدي
Traditionalist authority	السلطة التقليدية
Urban society	المجتمع الضحري
Voluntarism	مذهب الارادة
W - Attitude	الموقف النحنوي

مراجع الفصل

1. Bendix, Reinhard. 1971. "Image of Society and Problems of Concept Formation in Sociology" Berger, Bennett. (ed.) Looking for America, Prentice - Hall Inc. New York. P. 258.
2. Merton, Robert. 1963. "Sociological Ambivalence" Tiryakian, Edward (ed.) Sociological Theory The Free Press of Glencoe, London, pp. 91 - 93.
3. Ibid., pp. 93 - 100.
4. Blue, Peter. 1977. "Inequality and Heterogeneity" The Free Press, New York, pp. 77 - 79, 45.
5. Bendix, Reinhard. 1971. p. 483.
6. Ibid., p. 284.
7. Hobbs, Donald and Blank, Stuart. 1978. "Sociology: Jhon Willy and Sons Inc., pp. 132 - 133.
8. Tumin, Melvin. 1973. "Pattern of Society: Little Brown and Co. Bosten. p. 378.
9. Tonies, Fredinand. 1963. "Community and Society" Ruitenbeck, Hendrik M. (ed.) Varieties of Classic Social Theory " E. P. Dutton and Co. Inc. New York. pp. 137 - 147.
10. Hobbs, Donald and Blank, Stuart. 1978. pp. 131 - 132.
11. Chinoy, Ely and Hewill, John. 1975. "Sociological Perspective" Random House, New York, pp. 65 - 68.
12. Timasheff, Nicholas. 1967. "Sociological Theory" Random House, New York, pp. 145 - 146.
13. Dahrendorf, Ralf. 1978. "Class and Class Conflict in Industrial Society" Standford Univ. Press, Californioa, pp. 314 - 318.
14. Ibid., pp. 36 - 40.
15. Sjoberg, Gideon, 1968. "Folk and Feudal Societies" McNall, Scott (ed.) The Sociological Perspectives, Little Brown and Co. Bosten. pp. 358 - 360.
16. Mann, Michael. 1979. "Idealis and Materialism in Sociological Theory" Freibery, J. W. (ed.) Critical Sociology, Iiving Publishers Inc. New York, PP. 99 103.

١٧ مقدمة بن خلدون ١٩٧٨ دار القلم - بيروت ص ٢ ـ ٢٥٠

١٨ عمر . معن خليل ١٩٨٦ « فرضيات الوردي وصدقها في المجتمع العراقي »
مجلة افاق عربية . العدد ٥ . بغداد . ص ٥٨ ـ ٥٩
١٩ ـ ماكيفر وبيج ١٩٦١ « المجتمع » ترجمة علي احمد عيسى . مكتبة النهضة
المصرية ـ القاهرة . ص ١٣٠ ـ ١٣٣

20. Archer, Margaref. 1985. "Structuralion Versus Morphogenesis" Eisenstedt, S. N. and Helle, H. J. (eds.) Macro Sociological Theory, SAGE Pub. Inc. California, pp. 58 66.
21. Cousins, Albert and Hans, Negpoul. 1970. "Urban Man and Society" Alfred A. Knoph, New York, pp. 65 - 66.
22. Ibid., p. 66.
23. Simmel, George. 1970. "The Dyad and the Triad" Coser, L. A. and Rosenberg, B. (eds.) Sociological Theory The Macmillan Co. London, pp. 59 - 61.

24. Martindale, Dan. 1960. "The Nature and Types of Sociological Theory" Houghton Mifflin Co. Bostin, pp. 85 - 86.
25. Couta, Waltar. 1967. "Role Playing vs. Role Taking" Mizruchi, Ephrain (ed.) The Substance of Sociology, Appleton - century, New York, pp. 190 - 193.
26. Collins, Randal. 1975. "Conflict Sociology" Academic Press, New York, pp. 7 - 13.
27. Timasheff, Nicholas. pp. 24 - 28.
28. Wolff, Kurt. 1950. "The Sociology of Georg Simmel" The Free Press of Glance, p. xxii.
29. Freund, Julien. 1968. "The Sociology of Max Weber" Benguin Univ. Books, Ltd. England. pp. 9 - 16.

٣٠ ـ عمر . معن خليل ١٩٧٧ « الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع النظري »
مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد . العدد ٢١ ص ١٠١
٣٦ ـ بركات . حليم ١٩٨٤ « المجتمع العربي المعاصر » مركز دراسات الوحدة ـ
بيروت . ص ٣٥٧

31. Abraham, Francis. 1982. "Modern Sociological Theory" Oxford Univ. Press, Delhi, pp. 9 - 10.
32. Ibid., p. 11.
33. Freund, Julien. 1968. pp. 36 - 41.
34. Mills, Wright C., 1963. "Power, Politics and People" Oxford Univ. Press. New York, pp. 553 - 563.

35. Merton, Robert. 1967. "Manifest and Laten Function" Demerath, N. J. and Peterson, (eds.) System, Change and Conflict, The Free Press, New York, P. 53.

37. Thomas, and Znaniecki. 1969. "Family Disorganization" Coser, L. and Rosenberg, B. (eds.) Sociological Theory The Macmillan Co. London, pp. 588 - 590.
38. Kecskemeti, Paul. 1978. "David Riesman and Interpretive Sociology" Seymour Lipset and Lowenthal Leo (eds.) Culture and Social Character. The Free Press of Glencoe, Inc. New York, pp. 3 - 14.
39. Yinger, Milton. 1968. "Contraculture and Subculture" McNall, Scott (ed.) The Sociological Perspective Scott Little, Brown and Co. Boston, pp. 58 - 59.
40. Weber, Max. 1968. "Basic Concepts in Sociology" Translated by Scher, H. P. The cited press, New York, pp. 97 - 102.
41. Davis, Kingsley. 1968. "Primary and Secondary Relationship" McNall, Scott (ed.) The Sociological Perspective, Little, Brown and Co. Boston, p. 176.

٤٢ ـ ماكيفر وبيج . ١٩٦١ ص ٥٢ ـ ٧٢

43. Labovitz, Sanford. 1977. An Introduction to Sociological Concepts" John Wiley and Sons, New York, pp. 44 - 80.
44. Ibid., p. 22.
45. Lelie, Gerald. 1973. "Order and Change" Oxford Univ. Press, New York, p. 104.
46. Labovitz, Sanford. 1977. p. 7.
47. Biesant, John, and Biesanz, Mawis. 1969. "Introduction to Sociology" Prentice-Hall Inc., Englewood, p. 376.

٤٨ ـ جريدة الثورة العراقية ٣ /٨ / ١٩٨٩

٤٩ ـ صحيفة الشرق الاوسط التي تصدر في لندن ٢٨ / ١٠ / ١٩٨٩

50. Labovitz, Stanford. 1977. pp. 30 - 39.
51. Biesant, John and Biesanz, Mawis. 1969. pp. 380 - 382.
52. Leslis, Gerald and others. 1973. p. 100.
53. Labovitz, Standford. 1977. pp. 90 - 140.
54. Ibid., pp. 134 - 139.

٥٥ ـ ڤرانكل نشارلز ١٩٦٨ البيروقراطية والديمقراطية » جرويارد . ستيفن (محرر) البيروقراطية والديمقراطية في اوربا . ترجمة حسن صعب . مكتبة لبنان ص ٥٥٥ و ٥٧١

56. Labovitz, Stanford. 1977. pp. 180 - 188.
57. Weber, Max. 1969. "Types of Authority" Coser, L. A. and Rosenberg, B. (eds.) Sociological Theory "The Macmillan Co. London, pp. 140 - 141.
58. Timasheff, Nicholas. 1957. pp. 164 - 164.

٥٩ ـ مانهايم . كارل ١٩٦٨ « الايدولوجية والطوبائية » ترجمة عبد الجليل الطاهر . مطبعة الارشاد ـ بغداد . ص ١٤ ـ ١٦

60. Poloma, Margret M. 1979. "Contemporary Sociological Theory" Macmillan Pub., New York, pp. 94 - 98.
61. Ibid., p. 68.
62. Ibid., p. 38
63. Ibid., pp. 58 - 60.
64. Singleman, Pater. 1972. "Exchange as Synbolic Interaction" Sociological Review, August, pp. 414 - 416.
65. Denzin, Norman. 1969. "Sybolic Interaction, Interaction and Ethnomethodology" American Sociological Review Dec., pp. 922 - 923.
66. Berghe, Vonde. 1967. "Dialedik and Function and Conflict" Demerath, N. J. and et al (eds.) System, Change and Conflict , The Free Press, New York, pp. 293 - 297.

٦٧ ـ الكعبي عبد الصاحب ١٩٥٩ « في علم الاجتماع الثورة » مطبعة الزهراء ـ بغداد ص ٥٣
٦٨ ـ المرجع السابق / ص ٥٥ ـ ٥٦

69. Sorokin, Pitirim. 1966. "Sociological Theorites of Today" Harper and Pub. New York. pp. 297 - 322.

الفصل الثالث
علم الاجتماع ... من أين وإلى أين ؟

لم يكن علم الاجتماع قبل القرن التاسع عشر ناضجاً وكاملاً في طروحاته ومعالجاته الفكرية والتحليلة والنظرية والمنهجية . بل كان يعيش في احضان منطلقات وسياقات العلوم الانسانية والصرفة . مستفيداً من مناهجها وتحليلاتها ومفكريها وبالوقت نفسه كان يستضيء بدراسة ماتبرز من ظواهر ومشكلات اجتماعية في المجتمع الانساني وما تفرزه التحولات والتغيرات الثقافية . وكل ماينتج عن الانسان من افعال او سلوكيات رشيدة او غيرها . معيارية او منحرفة عنها . فردية او جمعية منظمة او حرة . تقليدية او معاصرة . دون ان يجامل جانباً واحداً منها على حساب الثاني . لانه يهدف الى الموضوعية من خلال تأكيده الحياد الاخلاقي والصراحة في التحليل الذي لايخدم اصحاب المواقع البنائية العليا . بل يخدم مصالح اغلبية المجتمع من خلال كشف اسباب مشكلاتهم وتحليل مكونات نسيج علائقهم الاجتماعية ومقارنتها مع مكونات مجتمعات اخرى سواء اكانت في الماضي ام في الحاضر

لكن تسجيل الاحداث الجوهرية التي أدت دوراً حيوياً في اغناء ورقي علم الاجتماع عديدة ومتنوعة ومتباينة . وقد وجدنا اختلاف علماء الاجتماع في تشخيصها وتحديد ازمان مراحل تطورها . بيد انهم اتفقوا على انه علم متطور بشكل مستمر وينمو صعوداً نحو الموضوعية ومتطبعاً بالبيئة الاجتماعية التي عاش فيها ومتفاعلاً مع قوة العالم الذي يحدد معالم تطوره . وسوف يعرض هذا الطرح خمسة تصانيف هي تصنيف فليتشر وكولدنر وسروكن وبيكر واليكسندر . حيث استعرضوا ابرز مراحل تطوره وأشهر منظريه فضلاً عن ان استخدام تصانيف تطوريه لعلم معين يعطينا صورة واسعة عنه عبر تأريخه وعن علمائه الذين رفدوه بأكثف الافكار ، اضافة الى مقارنة التصانيف بعضها مع البعض الآخر لاعطاء القارئ سعة وعمق رؤية المصنف وقوته في حصر المراحل التطورية . وبالوقت ذاته نتعرف على موطن الضعف في علم الاجتماع وما ينقصه من مواضيع واهتمامات .

ان عنوان الموضوع يشير الى من اين اتى هذا العلم . اي ماهي منابعه الفكرية والمعرفية ومن اهم ابرز علمائه المؤثرين في مسيرته وتطوره ؟ والى اين ذاهب هذا العلم ؟ وهل انه منفعل في الاحداث الاجتماعية التي تسود البيئة الفكرية التي ولد فيها ام هو فاعل في الاحداث التي عاش معها ؟ .

بعد اذن هل سيبقى هذا العلم غريباً مقتصرا على الباحثين والعلماء الغربيين ام هو انساني يهتم بالجتمع الانساني بشكل مجرد ؟ جميع هذه التساؤلات تريد جواباً عنها من خلال تصانيف وضعها علماء بارزون في علم الاجتماع .

نبدأ بتصنيف رونالد فلينشر الذي قال « ظهرت كتابات اجتماعية نابعة عما يدور خارج حياتهم الدينية وبعيداً عن فكرهم الفلسفي وكانت هذه المحاولة لصالح علم الاجتماع لكي لايقع او يعيش تحت مظلة التخصصات المعرفية الاخرى . ثم جاءت المرحلة الثانية (التأسيسية) التي تمثل مرحلة تطورية اكثر فاعلية جعلت من علم الاجتماع علماً قادراً على رفد المعرفة الانسانية فأخرجته من مرحلة التأمل الفكري فيما يخص طبيعة الانسان ومجتمعه . وكان اول من ساهم في هذه المرحلة هم اوكست كونت وجون ستيورات مل وهربرت سبنسر وكارل ماركس وبعض المفكرين الاميركان الذين اثروا بشكل ناشط فيه (حيث كان عطاء هؤلاء العلماء متسماً بالدوافع الذاتية المستقلة عن المؤسسة الجامعية الاكاديمية) وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر . فقد كان عمل هربرت سبنسر منصباً على موضوع مبادئ علم الاجتماع . وبرز بعد الثورة الفرنسية العالم الفرنسي اوكست كونت . وفي عام ١٩٠٣ برز في مدرسة لندن الاقتصادية كل من هـ . ويلز وجورج برناردشو وبيترك ويب وجارلس بوث وورنتري (وكان عطاءهم المعرفي من خلال المؤسسات الاكاديمية التي كانوا يعملون فيها) ثم جاءت المرحلة الثالثة (مرحلة النمو) التي برز فيها كل من فرديناند تونيس وويستر مارك ودور كهايم وهوبهاوس الذين حددوا الخطوط العامة والعريضة للعلم الفتي ـ علم الاجتماع ـ وكان عملهم مستقلاً الواحد عن الآخر . اي لم يشتغلوا على شكل هيئة فريق عمل بل كان يجمعهم هدف علمهم الموضوعي الذي يساهم في تطوره ورقيه وابرز طرق بحثه ومناهجه مبرزين فيها التحليل التأريخي والمقارن في دراسة مشكلات المجتمع بعمق واتساع . فظهرت نظريات في التغير الاجتماعي والتنمية الاجتماعية والتطور الانساني فجاءت نظرياتهم مبنية على ماقدمه من سبقهم من طروحات كل من كونت وسبنسر وماركس ودور كهايم .

ومكانت طروحات دور كهايم حول الحقائق الاجتماعية . وكانت منطلقات فيبر تتمحور حول التفسيرات الاجتماعية للفعل الاجتماعي للفرد وبدت محاولة جورج زمل تدور حول علائق الانسان الرسمية في التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والحكومية والدينية جميع هذه الاعمال الجوهرية رفدت التحليل الاجتماعي بمنطلقات مفيدة وبناءة .

ثم جاءت المرحلة الاخيرة وهي مرحلة التثمين والتقويم التي انحصرت في فترة الاربعينيات من هذا القرن وبالذات في الولايات المتحدة الامريكية حيث قامت بتثمين اعمال الاجتماعيين الذين سبقوهم ونقد الاخرى منها . فقد نقد تالكوت بارسونز بعض الاعمال التي سبقته . ثم بنى نظرية عامة وشاملة في علم الاجتماع مستفيداً من كتابات دور كهايم وفيبر ومارشال وباريتو مكوناً من اعمالهم اسساً لنظرية اجتماعية اقتصادية »(١)

اذا اردنا ان نستضيء بما قدمه فليتشر . فأننا نستطيع التوصل الى حقيقة مفادها ان لكل علم جذوراً فكرية ومنابع معرفية ومؤسساً ورداً يضعون له الاسس الرصينة . وقد كانت جذور فكر علم الاجتماع ممتدة الى المذاهب الفكرية الوضعية والمثالية والنفعية والمادية والمثالية والذرائعية . وظهرت اسماء عديدة تؤكد انها مؤسسة لهذا العلم امثال اوكست كونت وكارل ماركس وأبن خلدون وكان رواده سبنسر ودور كهايم وفيبر وزمل وسمنز وميد وغيرهم

اما منابعه المجتمعية فتنحصر بشكل مركز في العقد الاجتماعي والثورة الصناعية والثورة الفرنسية والازمة الاقتصادية العالمية في عام ١٩٣٠ والحرب العالمية الثانية وقد سميت هذه الاحداث العميقة والواسعة بالمنابع لانها غيرت بنى اجتماعية بشكل جذري وامتدت الى اكثر من بلد او اقليم . بل شملت قارة بأكملها واحدثت اثاراً اجتماعية جديدة تختلف بشكل كبير عما كانت عليه قبل وقوعها فلفتت انتباه المفكرين وجذبت انظار الباحثين الاجتماعيين بأن يدرسوها ويحللوها اقول ان هذه الاحداث الاجتماعية العملاقة ادت الى بلورة ظواهر ومشكلات اجتماعية عديدة حتى سمى بعض الاجتماعيين علمه بعلم الظواهر الاجتماعية . بيد ان واقع الحال ، لم تظهر مشكلات المجتمع وظواهره بشكل اعتباطي او تلقائي . بل هناك مسببات عملت على احداثها حيث ان كل تغير يجلب معه ظواهر اجتماعية وفي الوقت ذاته يخلق مشكلات اجتماعية . فالثورة الصناعية ـ على سبيل المثال ـ احدثت ظواهر اجتماعية كبيرة في حياة ابناء الطبقة العاملة وبناء شريحتهم وكذلك في الطبقة

الارستقراطية الاوربية . وطرحت الثورة الفرنسية العديد من المبادئ الانسانية التي كان يحتاج اليها المجتمع مثل المسأواة والاخاء والديمقراطية وفي الوقت ذاته تبلورت مشكلات عديدة للحكام المستبدين والطغاة . في حين جلبت ازمة الاقتصاد العالمية الفقر والعديد من الامراض الاجتماعية .

نستضيء مما تقدم . ان بدايات علم الاجتماع لم تقتصر على التفاعل الفكري والمعرفي الحاصل في ميادين داخل المجتمع من تغيرات وتطورات اجتماعية وثقافية (وهذه ميزة بارزة يتمتع بها علم الاجتماع عن باقي العلوم الانسانية الاخرى) اذ ان اهتماماته ومواضيع دراساته لاتنحصر في التنميط الفكري والتنظير المنطقي . بل تتعدى ذلك لتصل الى استجابات لاحداث اجتماعية تسود المجتمع العام وبخاصة الاحداث التي تعمل على نموه ورقيه وتطوره لكي ترسي قواعد اساسية لفكره ونظرياته الانسانية فضلاً عن اختبار مناهجه .

تقودنا هذه الحقيقة الى القول بأن البناء النظري الذي يشيده علماء الاجتماع لايعتمد فقط على دقة وقوة فكر ونظرة المنظر الاجتماعي . بل على عمق واتساع التطورات والتغيرات الاجتماعية التي تحصل في المجتمع .

هذا ولابد لي بعد هذا الاستطراد ان اشير الى قول المنظر الامريكي المعاصر بارسونز في موضوع اهتمام دراسات علم الاجتماع التي لاتنحصر في دراسة المشكلات او الظواهر الاجتماعية فحسب . بل في دراسة نسق التفاعلات الاجتماعية وقد ساق عدة امثلة على ذلك منها دراسة وليم فوت وايت لمجتمع الناصية الذي درس فيها الزمرة المنحرفة كاشفاً فيها اسباب انجذاب افرادها لها المتمثلة في تقويمها الاجتماعي في مجتمعها المحلي واستقرار تدرجها الاجتماعي الداخلي وساق ايضاً دراسة رايت ملز للموظفين في تنظيماتهم الاجتماعية الرسمية وحالات الصراع بين مواقعهم الادارية ثم طرح دراسة آدم ورينو في تفاعلات العمال الاجتماعية داخل المصنع . بل قد دراسة كروزير لنسق العلائق الدورية داخل الجهاز الديواني (البيروقراطي) .

جميع هذه الدراسات يقول عنها بارسونز بأنها تبرز اهتمام باحثيها باستخراج اهمية الدور الاجتماعي في بلورة النسق الاجتماعي وما لهذه الادوار من تشكيلات في العمل من تناقضات دورية والتحامات وتزاوج وتعدد وتنوع . ومثل هذه التشعبات والتناقضات الدورية تبلور نسقاً اجتماعياً من التفاعلات التي تكون نهاية مطاف او غاية دراسة الباحث الاجتماعي الجاد والمختص(٢)

نذهب بعد ذلك الى التصنيف الثاني الذي قدمه الفن كولدنر (منظر امريكي حديث) المتكون من اربعة تطورية شاملة لعلم الاجتماع الغربي مستخدماً الاتجاه النظري معياراً في تحديد مساره ونموه وهي كما يأتي : ـ

١ ـ المرحلة الاولى الوضعية الاجتماعية التي بدأت في الربع الاول من القرن التاسع عشر في فرنسا وكان ابرز علمائها هنري سانت سيمون واوكست كونت .
٢ ـ المرحلة الثانية : الماركسية اذ ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر . معبرة عن الافكار المثالية الالمانية المتوافقة مع الاشتراكية الفرنسية والاقتصاد التقليدي البريطاني .
٣ ـ المرحلة الثالثة : علم الاجتماع الكلاسيكي ـ القديم ـ الذي تحدد ظهوره قبل الحرب العالمية الاولى . متميزاً بالتوحد والاندماج الفكري وزوال الصدامات والخلافات الفكرية . اذ ظهرت محاولة للتوفيق بين الوضعية والماركسية من اجل الوصول الى مذهب فكري جديد يعبر عن خواصهما . وقد سمى علماء الاجتماع المعاصرون علماء هذه المرحلة بالكلاسيكين نسبة الى قدم اعمالهم امثال ماكس فيبر وأميل دور كهايم وفلريد وباريتو .
٤ ـ المرحلة الرابعة : البارسونية ـ الوظيفية البنائية البارسونية نسبة الى تالكوت بارسونز ـ التي تبلورت في عام ١٩٣٠ في الولايات المتحدة الامريكية التي تبناها بارسونز ودعمه باحثون وعلماء ومدثون من جامعة هارفرد امثال روبرت مرتن وكنكزلي ديفس وولبرت مور وروبن وليمس(٢) .

نأتي الآن الى تفصيل المرحلة الاولى وما تمخض عنها من احداث فكرية وتطورات علمية اذ سادت فرنسا ـ في الربع الاول من القرن التاسع عشر ـ تناقضات اجتماعية وفكرية وسياسية تعبر عن تصارع مذهب المنفعة الذي يحمله ابناء الطبقة الوسطى مع الافكار الانسانية التي جات بها الثورة الفرنسية . وبجانب هذا الصراع ظهر المفكر هنري سانت سيمون (الذي يعد آنذاك اب الاشتراكية وعلم الاجتماع معاً) فطرح مقولته الشهيرة التي تميز بين المفيد وعديم الفائدة من خلال سؤاله . ما الذي سوف يحدث لفرنسا اذا فقدت فجأة وبيوم واحد جميع علمائها ورجال فكرها وأدبائها ؟ وفي نفس اليوم تفقد ايضاً جميع ضباطها ورجال التاج ووزرائها وحكامها وكبار مالكي العقارات ؟ اجاب سيمون عن ذلك بالنسبة للجماعة الثانية (الضباط ورجال التاج والوزراء والحكام وكبار مالكي العقارات) تكون خسارة فرنسا معنوية وتتكدر مشاعر الفرنسيين . لكن هذه الخسارة لا تسبب شروراً سياسيا للدولة . لان جميع هؤلاء الافراد من اصحاب المواقع العليا في الدولة عديموا

الفائدة اذ يمكن اشغال مواقعهم بغيرهم من الافراد فلا تكون خسارة فرنسا فادحة لكن عندما تفقد فرنسا علماءها ومفكريها وادباءها فأن خسارتها تكون فادحة لانها لاتستطيع اشغال مواقعهم الفكرية بغيرهم لانها سوف تخسر مكانتها العلمية والفكرية المرموقة ومن ثم تفقد دورها الريادي كأمة متميزة ولها شأن على الصعيد الفكري والعلمي

وتأسيساً على ما تقدم فأن سيمون يتوخى منفعه الامة والانسانية من خلال استخدام العلم والابتكارات التكنولوجية لخدمة الانسان ورفاهيته عبر رفاهية مجتمعه الاجتماعي القائم وطالب بتعليمهم وتثقيفهم وتدريبهم على الاعمال الماهرة واطلاعهم على التطورات التكنولوجية الحديثة لانها ـ اي الطبقة العمالية ـ في نظرة طبقة مفيدة للمجتمع وتقدم الخدمات الاساسية له . لذلك فأنها تستحق الاهتمام والرعاية .
فضلاً عما تقدم . فأن سيمون لا يؤيد المنفعة الفردية الذاتية . بل المصلحة الاجتماعية التي تخدم اغلب مصالح الافراد وما هو مفيد للمجتمع لا يخرج عن نطاق المنفعة العلمية والتكنولوجية والمعرفية . فالادب والفن من المنافع الاجتماعية التي يستفيد منها المجتمع والتطورات الصناعية تمثل احدى منافع المجتمع الاقتصادية . وفي ضوء ذلك فأن سوسيولوجية سيمون تؤكد على المنفعة الكلية الشاملة للمجتمع التي لا تتعارض مع مصالح الفرد الذاتية والمتمثلة في الاستقرار والتوازن الاجتماعي والتقدم التكنولوجي لذلك يرى سيمون ان علم الاجتماع ولد ليوازن بين اقتصاد وسياسة الطبقة الوسطى في الربع الاول من القرن التاسع عشر . ولهذا السبب لم يؤكد ميلاد علم الاجتماع ـ ولا نموه ـ على المنفعة الاقتصادية للانتاج .

هذا المنطلق الذي حدده سيمون هو عكس مذهب الوضعية الاجتماعية ابان تلك الفترة الزمنية الامر الذي دعاه الى مطالبة الاجتماعيين بالبحث عن الاحداث والظواهر والمشكلات المهملة او المتروكة والمنسية والمفقودة في ادبيات العلوم الاجتماعية الاخرى او التي لم ينتبه لها الباحثون والعلميون في العلوم الانسانية لكنه لم يترك هذه الدعوة مطلقة . بل حددها بالمعنويات الاجتماعية وليس ما يتصل بالمنافسة الفردية والنزاعات والقلق الفردي .

اقول انه ابعد الجوانب الفردية والح على الجوانب الاجتماعية المتصلة بأدب المجتمع وفكره ومعرفته وعلائقه .

لعل من الضروري ان اشير الى ان الوضعية الاجتماعية هدفها من ذلك هو توسيع ونشر الرؤية العلمية لدراسة الانسان وفي الوقت ذاته لتسليط الضياء على الظواهر الاجتماعية التي طرحتها الثورة الصناعية وادخال علم الاجتماع في مجال العلوم التي تساهم في حل مشكلات المجتمع وتحليل ظواهره . ومن خلال هذا المنظور فأن علم الاجتماع لا يمكن عده « علم البواقي » او « علم المتروكات » بل هو علم يهتم بما عجز الباحثون عن دراسته فضلاً عن كونه يتناول الاجزاء او الشرائح الاجتماعية الكبيرة في المجتمع . وفي حالات المجتمع بأكمله فأنه لا يتناول شريحة واحدة ويكتفي بدراستها كما تفعل بعض الحقول الانسانية . بل يهتم بالكل لا بالجزء لذلك سماه ـ سيمون ـ بملكة العلوم الاجتماعية .

هذا الاهتمام الطموح الذي حدده سيمون لعلم الاجتماع كان سائداً خارج الحرم الجامعي اذ شمل الاسرة والجماعات العرقية والجماعات المحلية والتحضر والانتحار والجرائم بانواعها والطلاق . لكن داخل الحرم الجامعي بأنه اهتم وتطرق الى ما هو غير مطروق ومدروس من قبل العلوم الانسانية . بيد ان هذا العلم ـ كما يقول سيمون ـ على الرغم من تباين وتنوع اهتماماته فأنه لا يتنازل او يترك مهمته الرئيسية وهي تحليل الظواهر الاجتماعية والمشكلات الاجتماعية لانه علم تحليلي .

كما ان هناك حقيقة مفادها ان طروحات ومحاولات سيمون لم تنظم بشكلها الحالي الا من خلال اعمال اوكست كونت حيث اعاد صياغة بعض افكارها ونظم القسم الاخر وكون منها نظرية شاملة لدراسة المجتمع ثم نشرها في مرحلة اليقظة الفكرية بعد هزيمة نابليون والسيطرة على فرنسا . ومع ظهور الصراع الحاد بين ابناء طبقة النبلاء من المتنورين مع ابناء الطبقة الوسطى . الذي لم يكن له حدود حتى تقسمت خارطة فرنسا الاجتماعية فيما بينهما . وكان هدف صراعهما هو من يستطيع توجيه وتسييس وقيادة المجتمع الفرنسي الاكبر . بعد تهمش العقائد الدينية وفقدان شعبيتها وقيمتها الاجتماعية بسبب تحول ولاء الفرنسيين للتاج وللمتنورين من ابناء النبلاء .

هذه التحولات الجذرية في المجتمع الفرنسي ولدت اهتمامات جديدة منها الاهتمام بالعلم بين الفئات الشعبية حالها حال المتعلمة والمتنورة . لذلك اصبح المطلب الرئيس عند الفرنسيين تبديل الخارطة الاجتماعية الفرنسية يثق بها الناس من اجل بلورة شعور تضامني جمعي يمثل فرنسا الجديدة بعيداً عن العقائد الفرنسية القديمة .

جميع هذه الاحداث ظهرت في الربع الاخير من القرن الثامن عشر . لكن عند بداية القرن التاسع عشر ظهر جيل فرنسي جديد عبر عن طموحات اوربية جديدة لكنه لا يملك سوى الخبرة التخصصية والمعرفة المؤسسية الاكاديمية وزاوج بين العلم والصناعة . بل ظهر جيل حديد برؤيته للعالم وطاقته الحيوية الهادفة نحو العلم والتقنية والتقدم المخطط

مثل هذه التحولات الجدرية في بنية المجتمع الفرنسي اهتمت بها الوضعية الاجتماعية لتعكس الحالة الاجتماعية الجديدة والتطور الفكري المستجد من اجل زرع معايير اجتماعية جديدة تتماشى مع طموحات الجيل الجديد . فجاءت الوضعية الاجتماعية بمطالب علمية حديثة ترفض الماضي وتدعم التقدم العلمي والتقني وادعت بأنها الدين الجديد للبشرية ومنقذة لها من العقائد القديمة لكي لا تعيش بين عالم الدين الجديد للبشرية ومنقذة لها من العقائد القديمة لكي لا تعيش بين عالم تشويه المشكلات العتيقة والمعضلات المعقدة .

٢ ـ المرحلة الثانية : الماركسية : ارجع الفن كولدنر جذور الماركسية الى نقضها لمذهب المنفعة الذي اتى به جيرمي بنثام ومحاربتها لافكاره ولمصالح الطبقة البرجوازية لان ماركس يبحث عن حاجات الانسان المتجذرة في الطبيعة البشرية عبر تأريخها وليس عن حاجات فئة اجتماعية محددة . ولان بنثام عد ماهو مفيد للبراجوازية البريطانية مفيدا ونافعاً للمجتمع . الامر الذي دفع ماركس الى ادانته في هذا الخصوص اذ يعد مذهب المنفعة انعكاساً لعقيدة الطبقة البرجوازية فضلاً عن بحثها لمصلحتها الذاتية وارباحها وزيادة انتاجها وتجارتها بيد ان ماركس لم يحارب مذهب المنفعة بكامل افكاره . بل التي تخدم الطبقة البراجوازية فقط لانه كان ينادي ايضاً بالمنفعة لكن منفعة الجميع وكل حسب طاقته وقابليته وحاجته وهذا يعني ان هناك علاقة بين العمل والمكافأة . آخذاً في الحسبان الالتزام الاخلاقي لصالح الانسانية وبالذات لصالح المجتمع الاشتراكي . لان ماركس كان يطالب بالتطور المستمر للمجتمع الانساني وعدم جعل الانسان رقماً في جداول احصائيات وبيانات مذهب المنفعة

هذا التضاد بين مذهب المنفعة وطروحات ماركس سببت اكبر انشطار في علم الاجتماع الغربي في بداية القرن التاسع عشر اذ ظهر ميلاد لعلم جديد في المجتمع سمي فيما بعد بعلم الاجتماع الماركسي معاكس ومتضاد لعلم الاجتماع الوضعي الاكاديمي الذي ظهر من خلال طروحات هنري سانت

سيمون واوكست كونت فأصبح علم الاجتماع الماركسي مرآة عاكسة للوجه المضاد لعلم الاجتماع الكلاسيكي الذي مثل علما صرفاً للمجتمع الانساني يدرس في الجامعات ومعبرا عن امال وطموحات ومشكلات الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة الامريكية .

بينما عكس الثاني طروحات ماركس الخاصة بالطبقة العمالية ويدرس في دول اوربا الشرقية وتتبناه الدول النامية ومن ثم تبنته الطبقات العمالية في المجتمعات الصناعية فتحول الى علم اجتماعي خارج الحرم الجامعي وهو اكثر فعالية منه داخل الجامعة، مطالباً بعلاقة النظرية بالتطبيق ومدافعاً عن الطبقة ذات الثروة والنفوذ المفقودين ومؤكداً على التغيير والتقدم الاجتماعي مهملاً دراسة الجماعات الصغيرة التي سماها بالجماعة الطبيعية » وموضحاً بالتفصيل الصراعات القائمة بين الطبقات والاحزاب السياسية والنقابات العمالية والاتحادات المهنية . لذلك اكد بالحاح على تثقيف العمال وتسليحهم بالمعرفة التقنية والتنظيمية وتوعيتهم باخلاق العمال الملتزمة والمنضبطة . فكانت معادلته هي ما يأتي ،

المنهج العلمي × الميتافيزيقية الرومانسية = الاشتراكية العلمية

فضلاً عما تقدم فأنه سلط الضياء تسليطاً مكثفاً على الجانب الاقتصادي والصناعي وابرز مفاهيم مفصلة عن الطاقة الصناعية الانتاجية .

في حين كان علم الاجتماع الاكاديمي يعبر عن طروحات كونت التي جاءت بأسس الافكار الوضعية الاجتماعية التي تؤكد على الاستقرار والتوازن بين القوى والفئات الاجتماعية داخل المجتمع . وفي عام ١٨٠٣ اوضح حقيقة مفادها ان اصحاب الاملاك يحكمون فاقدي الاملاك لا بسبب ملكيتهم . بل بسبب تنورهم اكثر من غيرهم وعندهم دراية ومعرفة وثقافة بالمجتمع اكثر من الفئة الثانية . لذا طرح كونت معادلة مفادها ما يأتي : ـ

المنهج العلمي × الميتافيزيقية التراتبية = علم الاجتماع الوضعي

ومن هنا عد كولدنر علم الاجتماع الكونتي (نسبة الى كونت) علماً اكاديمياً يمثل علم المجتمع وعقيدته معاً .

ويخلص كولدنر الى عقد مقارنة بين الشطرين الكبيرين اللذين سادا علم الاجتماع في القرن التاسع عشر بأن علم الاجتماع الماركسي كان تنقيحياً لعلم الاجتماع الكونتي ـ الوضعي ـ الاكاديمي . لانه علم الاجتماع الماركسي اتى

بأفكار وطروحات ومعالجات لم يأت بها الاول (الكونتي) وما اكد عليه الاول همشه الثاني (الماركسي) وما اهمله الاول ابرزه الثاني . الثاني مثال على ذلك :

١ ـ اكد الكونتي على الاستقرار والتوازن بينما اكد الماركسي على الصراع .

٢ ـ اكد الكونتي على النظام الاجتماعي في حين اكد الماركسي على التقدم والتغيير الاجتماعي .

٣ ـ دافع الكونتي على حقوق الطبقة المالكة في حين اكد الماركسي على حقوق الطبقة العمالية .

٤ ـ همش الكونتي دور العمال الاقتصادي والصناعي بينما اكد الماركسي على دور العامل الاقتصادي .

هذا الانشطار الواسع اثر تأثيراً بالغا في تطور علم الاجتماع الغربي وحتى غير الغربي (في امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا في القرن العشرين) حيث بقى منشطراً وقاد الى انشطارات اخرى .

ولما كان هدفي في هذا المؤلف ابراز الانشطارات التي حصلت في علم الاجتماع فقد اجد نفسي ملزماً بعرض انشطار اخر فعل فعله في اوربا ابان القرن التاسع عشر ايضاً ولكن لم يكن سببه طروحات ماركس . بل الاختلافات بين المجتمع الفرنسي والالماني اذ اثرت اعمال هنري سانت سيمون في البنية السوسيولوجية على هذين البلدين فقد كانت طروحات سيمون تمثل جذور الوضعية الاجتماعية التي انقسمت الى نسقين نظريين منذ بداية القرن التاسع عشر وبقيا منقسمين الى الآن (حسب مااوضحه لنا كولدنر) فقد كان النسق النظري السيموني (نسبة الى سيمون) سائداً في فرنسا ثم ذاع صيته في المانيا صاحبة الفكر الرومانس فتوافقت مع الفكر الهيكلي وتعاملت مع جورج لوكاش وانتوني جرامي ومدرسة فرانكفورت النقدية . وكان من ضمنهم هربرت ماركوز وتيادور ادورنو وماركس هوركه وايرك فروم وجورجي هابرماس . هذا الشطر الاول لعلم الاجتماع الغربي قام بتقديم التغذية الدسمة للاتجاه النقدي في علم الاجتماع الحديث .

وقد قال ريمون ارون عن الرومانسية بأنها حركة ضد المادية ومذهب المنفعة والوضعية باختصار انها ضد ثقافة الطبقة الوسطى وهي لاتمثل الرجعية بل هي منفتحة للجناح اليساري . وتنتقد الرأسمالية وثقافتها وتلتقي مع ثقافة الطبقة العمالية . من ابرز المتأثرين بالرومانسية الالمانية هم ماكس فيبر (الماني) وجورج هربرت ميد وتالكوت بارسونز (امريكيان)

اما النسق النظري السيموني الثاني فقد تمحور حول علم الاجتماع الوضعي الذي غرس معظم جذور علم الاجتماع الاكاديمي مبتدئاً من كانت ومارا بدوركهايم وبالانثروبولوجيا البريطانية ومنتهياً عند تالكوت بارسونز . منمياً ومعضداً مفاهيم رئيسية هي النظام الاجتماعي والتساوق المعنوي والتضامن الاجتماعي وهذا يعني ان النظرية الوظيفية التي ظهرت في القرن اعشرين قد بنيت على علم الاجتماع الوضعي مع بعض التطورات الطفيفة التي اجرتها على مفاهيمها مثل التخلي عن التطورية والتخلف الثقافي لكنها لم تتخل عن بعض المفاهيم الوضعية الجوهرية مثل المؤسسات الاجتماعية والمعايير والقيم لاجتماعية اذ بقيت ملتصقة بها .

فضلاً عما تقدم فان المفاهيم التي استخدمها كونت ليعبر عن الوضعية الاجتماعية مثل التماسك الاجتماعي والاستقرار الاجتماعي وفائدة المؤسسات وايجابياتها برزت في تأكيدات دوركهايم وبراون واصبحت فيما بعد اساساً في نظرية بارسونز البنائية الوظيفية .

ان سياق الحديث يلزمني ان لا اغفل في هذه المرحلة التطورية لعلم الاجتماع التي طرحها الاستاذ كولدنر ابرز الانشطارات في علم الاجتماع الغربي هما علم الاجتماع الوضعي الذي اسسه سيمون وكونت وشطره الثاني علم الاجتماع الماركسي وكان سبب هذا الانشطار وهو في بداية تأسيسه هو التأكيدات النظرية التي اتى بها مؤسسو علم الاجتماع الوضعي (سيمون وكونت) من خلال تأكيدهما على مفاهيم معينة مثل النظام الاجتماعي وحقوق الطبقة المالكة والاستقرار والتوازن الاجتماعيين . واهمل باقي المفاهيم التي تمثل الوجه الاخر للحياة الاجتماعية . ثم جاء الشطر الثاني (الماركسي) معبراً عن المفاهيم التي اهملها الاول فأكد على الصراع الطبقي والتقدم

الصراع الطبقي والتقدم والتغير الاجتماعي وحقوق الطبقة العاملة وأهمية التفسير الاقتصادي للحدث الاجتماعي . فجاء عمل ـ الثاني ـ منقحاً ومطعماً لاعمال الاول . فضلاً عن التأثيرات التي تعملها الاختلافات الايديولوجية لمنظريها وتباين المؤثرات التأريخية لمجتمعها . فمتغيرات المجتمع الفرنسي غيرها في المجتمع الالماني وقد نمي هذا الانشطار بدرجة اسرع حداثة علم الاجتماع وخلوه من الانشطارات آنذاك الامر الذي ادى الى نوع من التنافس في اعطاء صورة اكبر واوضح للمجتمع الاوربي من خلال تأكيداتها على مجريات الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاوربا ركائز ثابتة فيه عدم اهمال اعمالهما فيما بعد . وقد تم فعلاً

ماصبا اليه الاثنان حيث بقي الى الان انشطار اعمالهما واستمرار اثارهما ولم تبق محبوسة في بلديهما بل انتشرت الى الدول المجاورة لبلديهما والى القارات غير الاوربية وتأثر بهما العديد من المنظرين والباحثين من غير مجتمعهما وقوميتهما وجيلهما . بل امتدت الى القرن العشرين ولم تنته بانتهاء القرن التاسع عشر .

هذا من جانب ومن جانب اخر . فقد حصل انفصام داخل الشطر الاول ـ علم الاجتماع الوضعي ـ اذ مال المتأثر بافكار سيمون وكونت في المانيا فاضافوا اليها افكارهم الرومانسية المانية وجعلوا الوضعية عندهم تمثل اتجاهاً نقدياً للاوضاع الاجتماعية التي يخشى زملاؤهم من الوضعية الفرنسيين نقدها ووسعوا من بنائه النظري اكثر مما هو في فرنسا .

اما الاتجاه الثاني في علم الاجتماع الوضعي (المنفصم) فقد جاء محافظاً على ماقدمه سيمون. وكانت من مفاهيم ورؤى حول النظام والتضامن والتساوق الاجتماعي مكوناً بناء علمياً يدرس في الجامعات . لذلك تطور ضمن الاروقة والمكتبات الاكاديمية اكثر من خارجها فوصل الى مايسمى الان بالاتجاه البنائي الوظيفي .

وتأسيساً على ما افادنا به الاستاذ كولدنر . استطيع ان اسمي الانشطار الاول الذي وقع بين علم الاجتماع الوضعي والماركسي بالانشطار الافقي لانه شطر العلم نفسه الى شطرين كبيرين داخل المجتمع المعرفي الاوربي . مختلفين في تنظيرهما ومنهجهما ومفاهيمهما متخذين كلا منهما منطلقاً وهدفاً يختلف عن الاخر مع التركيز المكثف والمستمر على المفاهيم المختلفة والمتباينة بينهما .

اما الانفصام الذي حصل في الشطر الوضعي فأستطيع تسميته بالانفصام العمودي لانه جزاء الشطر الواحد الى نصفين متناميين عبر الزمن لكنهما لم يختلفا في منطلقهما وهدفهما العلمي والمنهجي . بيد انهما توسعاً في رؤيتهما ضمن القناة الواحدة وكثفا من تركيزهما على المفاهيم الرئيسية التي تجمع بينهما . ولم يكن كل منهما ضد الاخر او الوجه المضاد للثاني بل المكمل له والمستمر معه .

بمعنى اخر . اسميت الانقسام الكلي بالانشطار واسميت الانقسام الشطري بالانفصام وقد يتخذ الانشطار بالاتجاه الافقي حسب اتجاه مساره الخطي وقد يتخذ الانفصام الشطري اتجاها معيناً حسب مسيرة حركته فاذا كان صاعداً او هابطاً اسميه بالعمودي واذا كان متجها يساراً او يميناً ضمن الخط الافقي اسميه بالافقي .

بعد هذا التعليق الوجيز . اذهب الى كولدنر لمشاهدة ماتضمن من تطورات عن بنية علم الاجتماع الغربي في مرحلته الثالثة .

٣ ـ المرحلة الثالثة :

علم الاجتماع الكلاسيكي : حدد كولدنر هذه المرحلة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر التي ظهرت فيها العديد من التطورات الصناعية الهائلة ونشوء التنظيمات الاجتماعية الكبيرة ونمو السيطرة الاستعمارية ـ قبل الحرب العالمية الاولى ـ وازدياد عدد الجامعات ونمو الفكر الفلسفي وانتشار مباديء الثورة الفرنسية وازدياد المنافسة الصناعية بين الاقطار الاوربية وطرح الانتاج الهائل من السلع في السوق وتقدم النظم الديوانية (البيروقراطية) تحت ظل هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكبيرة برزت اعمال رصينة عند الاجتماعيين تعكس اهمية الاحداث وجوهريتها بنوعها وكمها وبالذات عند دوركهايم وفيبر . اللافت للانتباه على اعمالهما انهما لم ينحسرأ عند حدود الوضعية الاجتماعية للمرحلة السالفة او التي سبقتها فابعدوا اهتماماتهم عن الدراسات التطويرية ثم وجهوها نحو الدراسات المقارنة . والمثال على ذلك عقد دوركهايم مقارنة بين المجتمعات المتحضرة والبدائية وعقد فيبر مقارنة بين الامم العريقة في مدنيتها مع المجتمع الاوربي .

هذا من جانب ومن جانب اخر . فان انتشار الدراسات المقارنة في هذه الحقبة التطورية لعلم الاجتماع قد ازداد برواج الدراسات الانثروبولوجية وبخاصة المدرسة البريطانية وبالذات دراسات رادكليف براون . الامر الذي ادى الى تراجع الدراسات التطورية فاخذت الوظيفة اتجاهاً جديداً بعيداً عن التاريخ والمسار التطوري ذاهباً نحو المقارنات بين المجتمعات وقد وجد كولدنر اتجاه اعمال كونت نحو الماضي (وضعي قديم) واتجاه اعمال دوركهايم نحو الحاضر (وضعي قديم ايضاً فكتابات دوركهايم عن نظام تقسيم العمل والوهن الاجتماعي Anomi واهماله للافتقار الاقتصادي وتركيزه على الافتقار المعنوي او فقر الادب الاجتماعي . كل ذلك يعني ان الوضعية الاجتماعية لم تهتم بالتاريخ كأساس لدراساتها كما كانت في المرحلتين السابقتين . فلم يصلي دوركهايم للمستقبل ولم يلغ الماضي لايمانه بالحاضر وانه لايرغب في اتخاذ مواقف متطرفة لتحديد رؤية مستقبلية الحاضر كما فعلت الماركسية . ولان العلوم الاجتماعية ـ في تقديره ـ لم تنضج بعد لكي تضع رؤي للمستقبل فعندما كتب كونت عن التقدم الاجتماعي رفض دوركهايم ان يدرس

التقدم بل اهتم بالظلم الاجتماعي القائم فميز بين التضامن العضوي (الذي يعبر عن المجتمع الصناعي الجديد) والتضامن الميكانيكي (الذي يعبر عن المجتمع التقليدي والقبلي) هذه الثنائية المزدوجة تمثل المقارنة بين ماهو موجود هنا الان وهناك اي مقارنة حالتين مختلفتين (وهذا انشطار ثنائي بارز في هذه المرحلة لكنه من النوع الصغير) .

صفوة القول . ان دوركهايم لم يعط قيمة كبيرة للدراسات التاريخية والتراثية لانشغاله بالواقع اكثر من انشغاله بالماضي والمستقبل . فضلاً عن انطواء الوظيفية عند دوركهايم بما هو مفيد من الناحية الاجتماعية وليس الاقتصادية اي ماهو مفيد اجتماعياً من نظام تقسيم العمل والعلاقات الاجتماعية والمعتقدات والقيم للانسان في حياته الاجتماعية .

اما ماكس فيبر فإنه ايضاً اتخذ نفس الاتجاه الذي اتخذه دوركهايم (لكنه لم يقلده) بل اهتم بالحاضر اكثر من الماضي والمستقبل . فدراسة الواقع الصناعي والبيروقراطي مع التركيز على القيم الاجتماعية . الا انه تناولها بأسلوب يختلف عما استخدمها دوركهايم واتخذ موقفاً مضاداً من مذهب المنفعة وثقافة الطبقة الوسطى واكد على الاخلاق الدينية واستغلال الافكار ومالها من تأثير في تحديد مسيرة التاريخ والاثنان اهتما بالسلوك غير العقلاني للانسان وعدا القيم الاخلاقية موجهة لسلوك الانسان فعدوها اداة لربطة وانضباطه داخل جماعته لكي يكون متماسكاً معها (دوركهايم) .

ولابد من الاشارة في هذا المقام الى ظهور الجامعات الاكاديمية وانتشارها في البلدان الاوربية كمؤسسة تربوية وطنية ترسخ وتعزز المشاعر الوطنية والثقافية لتنشىء جيلاً واعياً بمواطنته وقوميته ولربط الفرد المتعلم بالدولة والامة . ولما دخل علم الاجتماع اليها كاختصاص اكاديمي تأثر باهداف الجامعة التي رسمتها له وللاختصاصات الاخرى . وبات هذا العلم ملتزماً بالطروحات الجامعية ومبتعدا عن اهدافه العلمية الخاصة به .

لامناص من القول بأن الملاحظ على هذه المرحلة التطورية ان كولدنر قد ركز على تأثيرات دوركهايم وفيبر فقط في الاتجاه الوضعي واهمل التحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي اشار اليها في بداية عرضه للتطورات التي حدثت في هذه المرحلة ولم يشر الى تأثيرها في اعمال الاجتماعيين الاخرين (امثال باريتو وتونيس

وزمل وغيرهم) وحتى على اعمال دوركهايم وفيبر لم يوضح اثارها وتفاعلها بل كتب القليل عن تأثيرات نمو الجامعات الاوربية في تطور علم الاجتماع الاكاديمي . الامر الذي ابعد عن ذكر ماذا حصل لعلم الاجتماع غير الاكاديمي او الدراسات والكتابات التي اجريت خارج الحرم الجامعي ومن غير اساتذة علم الاجتماع .

ويبدو لي ان تفاصيل هذه المرحلة لاتمثل استمراراً لما وقع من احداث في المرحلة السابقة (الماركسية) ولا توضح لنا ماذا حدث لها في المرحلة الثالثة بل اكتفى بمقارنة بعض من اعمال دوركهايم ببعض من اعمال كونت لكنه كان موقفاً ـ كولتر ـ عن ما ابرزه اعمال دوركهايم وفيبر في مجال الوضعية الاجتماعية والوظيفية والاجتماعية وعقد مقارنة بينهما (على الرغم من انها كانت مقارنة مركزة ومختصرة) .

٤ ـ المرحلة الرابعة : الوظيفية :

البنائية البارسونية التي بدأت مع بداية الازمة الاقتصادية العالمية . اي في العقد الثالث من هذا القرن في الولايات المتحدة الامريكية . اذ كانت الوضعية الاجتماعية تمثل علم الاجتماع الاكاديمي (قبل المرحلة الماركسية) ظهر علم الاجتماع الكلاسيكي علماً اكاديمياً مع بداية ظهور الاشتراكية ومع ظهور اليقظة الفكرية في اوربا . وظهرت اعمال بارسونز الوظيفية البنائية مع مرحلة الشيوعية التي حكمت الدولة الروسية ومع ذيوع انتشار الاشتراكية في دول اوربا الشرقية .

بدا بارسونز عمله الاول بتركيب الاجزاء الروحية للرومانسية الالمانية التي تركز على الاتجاه الذاتي الداخلي للفرد مع النظرية الوظيفية التقليدية في فرنسا . بيد ان الغالب في عمله هو الطابع الرومانسي الالماني معتمداً على الجوانب التأريخية والثقافية في تنظيره الاجتماعي وكان نسق التفاعل الحاصل بين الافراد مشيراً الى درجة الفائدة المتوخاة من الجماعة او المجتمع كجزء من وظيفته لان الفرد في نظر بارسونز يهدف الى تحقيق ذاته وانجاز ماتمليه عليه نفسه وهنا قام بارسونز بتركيب افكار مدهب الارادة مع افكار المذهب الوظيفي رابطا فيه بين المنفعة الشخصية والاداب العامة في نظريته في الواقع اراد بارسونز ان يطبع صورة الرومانسية الالمانية بطابع امريكي اذ تؤكد الاولى على تحقيق الذات الداخلية التي غالبا ما تتعارض مع الاداب العامة وقيم المجتمع . ولما كانت الحياة الامريكية تبحث عن

الربح والتجاره في العمل والمفيد ى لحياة وانها نلتقي مع الروماسية المانية في هذا الاتجاه فأخذها بارسونز من اعمال فيبر

لكن الفن كولنر مير بين ثلاثة انواع من اعمال بارسونز الاولى قبل الحرب العالمية الثانية . والثانية بعد الحرب العالمية . والثالثة اثناء الحرب

فقبل الحرب . ركز على القيم المعنوية وعدها تمثل النوازع الداخلية للفعل الاجتماعي ومحفزة له في سلوكه وتفكيره .

اما بعد الحرب فكان ميالا للعودة الى افكار مذهب المنفعة فوضع اهتماما كبيرا على الارضاء الذاتي للفرد عند تماثله للقيم الاجتماعية وكان هذا في عام ١٩٥١ حينما اصدر كتابه « النسق الاجتماعي » وعد المجتمع نسقا واحدا محافظا على استقراره وتوازنه . بينما اكد اثناء الحرب على التضامن والتكاتف بين افراد المجتمع من اجل المحافظة على تماسك المجتمع

هذا من جانب ومن جانب اخر . فقد ظهرت اعمال اجتماعية امريكية توضح تأثير المنفعة فيها مثل عمل روبرت مرتن عند تكلم على التوجيهات الذاتية للفرد عند تحقيق مأربه الاجتماعية . وعمل جورج هومنز حول الارضاء الذاتي عند تبادل منافعه ومصالحه مع الاخرين . هذه الاعمال عبرت عن الاتجاه الفردي ـ الذاتي المتأثر بمذهب المنفعة الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية في امريكا

بعد ان استعرضنا تصنيف كولدنر لتطور بنية علم الاجتماع الغربي ارى من المفيد ان اسجل بعض ملاحظاتي التي تتلخص بالنقاط الاتية :

١ ـ ان تصنيف كولدنر عكس تأثيرات شخصية على مراحل زمنية طويلة في وقتها وواسعة في تطورها المعرفي والاجتماعي . ففي المرحلة الاولى طرح تأثيرات سيمون وكونت واهمل تأثيرات اعمال الاخرين في هذه المرحلة . وفي المرحلة الثانية ركز فقط على ماركس وتأثيراته وترك انصار علم الاجتماع الوضعي الذين برزوا في هذه المرحلة وفي المرحلة الثالثة عاد الى الوضعية مرة ثانية مبرزا دوركهايم وفيبر ولم يستمر في تقديم الصورة الاخرى للماركسية وفي الوقت ذاته لم يطرح الوضعيين الاخرين وما لهم من آثار على تلك المرحلة . وفي المرحلة الاخيرة اقتصرها على بارسونز بشكل مركز مع بعض الاشارات الى روبرت مرتن وهومنز في حين ظهر عدد كبير من العلماء في هده المرحلة وبالذات في امريكا امثال ميد وسمنر وكولي وبلا وغيرهم

٢ ـ حمل تصنيفه التطورات البنيوية لعلم الاجتماع في فرنسا والمانيا ابان القرن التاسع عشر واهمل اعمال العلماء في باقي اقطار اوربا ثم عمم احكامه على اوربا والدول الغربية (امريكا) . كان هذا التعميم في المرحلة الاولى والثانية والثالثة اما في المرحلة الرابعة قد اقتصر على منظر واحد في امريكا واهمل ماحصل من تطورات في الاقطار الاوربية .

٣ ـ اقتصر تصنيفه على ستة منظرين لمدة قرنين وهذا انكار واضح لاعمال العلماء الذين اثروا بشكل فاعل ونشط في علم الاجتماع .

٤ ـ انكاره للاحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العملاقة التي غيرت بناء المجتمع الاوربي في تطور بنية علم الاجتماع الغربي (مثال اثار الثورة الصناعية والفرنسية والعلمية وغيرها) .

٥ ـ بيد اني اتساوق مع تصنيفه عند ماميز بين علم الاجتماع الاكاديمي وغير الاكاديمي .

٦ ـ ان وصفه للانشطارات السوسيولوجية التي حدثت في المرحلة الثانية كانت ناجحة ودقيقة ومشخصة بشكل سليم جداً .

٧ ـ هناك اتجاه صراعي ـ غير ماركسي ـ ظهر في اوربا وامريكا لم يسجله تصنيف كولندنر) فعل فعله المعرفي في التنظير والبحث .

٨ ـ وهناك اتجاه تفاعلي رمزي امريكي صرف اثر بشكل بالغ في طبع علم الاجتماع الغربي بشكل واضح بعد منتصف هذا القرن . لم نجد له مكاناً او حتى اشارة في تصنيف كولدنر .

وهناك تصنيف ثالث لمراحل تطور بنية علم الاجتماع وضعه المنظر الحديث بيترم سروكن . حدد فيه مراحل تطور علم الاجتماع ونظرياته ابان الفترة الواقعة بين ١٩٢٥ ـ ١٩٦٥ اذ سجل فيه التطورات الجوهرية في تلك الحقبة كاشفاً فيها مساراتها . مصنفاً لا تجاهاتها ومدارسها ونظرياتها بشكل يختلف عما طرحه كولدنر . ومن اجل استكمال صورة تطور علم الاجتماع التي اهدف الى تقديمها في هذا الباب . اقدم تصنيف سروكن الذي سجل فيه ما يأتي : ـ « حصلت تطورات ذات شقين في علم الاجتماع خلال الاربعين سنة الواقعة بين ١٩٢٥ ـ ١٩٦٥ أوضح الشق الاول التطورات الداخلية في هذا العلم ، في حين كشف الثاني عن التطورات الخارجة عنه او البعيدة منه . ففي التطورات الاجتماعية الاخيرة اوضح سروكن ما يأتي : ـ

١ ـ تزايد مكثف في بحوث ودراسات ومؤلفات علم الاجتماع .
٢ ـ ادخال دروس خاصة بعلم الاجتماع في برامج الدراسة الجامعية والاعدادية
٣ ـ نمو وارتقاء السمعة العلمية والثقافية لعلم الاجتماع بين العلوم الاخرى .
٤ ـ ازدياد تعيين خريجي علم الاجتماع كخبراء في الاجهزة الحكومية وادارات . الاعمال والتربية والقانون والطب والقوات المسلحة والشؤون الخارجية ونقابات العمال والمؤسسات الصناعية .
٥ ـ تغلغل التفاسير والرؤي لاجتماعية لعلم الاحياء وعلم النفس والفيزياء والتاريخ والعلوم السياسية والاقتصاد والقانون والاخلاق والفلسفة .

هذه التحولات النوعية في الوضع العلمي لعلم الاجتماع استطاع ان يمنحه مرتبة علمية ارقى مما كان عليه قبل عام ١٩٢٥ وفي الوقت ذاته جعله علماً مقروءاً من قبل طلبة الاعدادية ومنحة ثقة اصحاب القرار في المؤسسات الرسمية فضلاً عن اعتراف الباحثين العلميين في الحقول الاخرى بنتاجهم وعملهم .

اما التطورات والتحولات التي اصابت هذا العلم خلال اربعين عاماً فقد اتصفت بالسمات الآتية :

١ ـ ركزت البحوث الاجتماعية ـ بشكل مكثف ـ على استخدام الاساليب التقنية في الاستقصاء اكثر من بحثها عن اكتشاف نظرية جوهرية تهتم بمشكلة اجتماعية اساسية .
٢ ـ تعاملت معظم البحوث الاجتماعية ـ بشكل اساسي ـ مع المشكلات الاجتماعية الجزئية والظرفية فتعد ثانوية في احكام علم الاجتماع مع اقامة مقارنات فيما بينها . في حين اهملت المواضيع الاجتماعية الاساسية مثل النسق الاجتماعي العام او الاشكال الثقافية الاجتماعية او الصيرورة الاجتماعية .
٣ ـ نزوع المنظرين الاجتماعيين بشكل قوى لتنظير الاحداث الاجتماعية معتمدين بذلك على قواعد فلسفية من اجل بناء هيكل نظري ولاجل تحليل مفاهيم اجتماعية اساسية ذات معايير عامة او خاصة . حتى ان هذا النزوع وصل الى درجة القول « انظري ياماما انا بدأت انظر » وقد انتشرت هذه الحالة في بحوثهم الاجتماعية .
٤ ـ قلت وضعفت اختلافات مدارس علم الاجتماع فلم تعد حادة او جافة اذ اسقطت بعضها من المدارس او ابطلت ادعاءاتها الاحادية ودعواتها المتطرفة ومطالباتها وتركيزها على جانب واحد في رؤيتها وتنظيرها الامر الذي جعلها تركز على

اتفاقاتها وتأييدها الجوهري في الالتقاء وعدم التقاطع مع المدارس الاخرى وعلى اهداف علم الاجتماع الواسعة .

٥ ـ وفي ضوء هذا التحول الجديد بزغت مدارس جديدة متحدة بعد ماكانت متنازعة على التبؤ اللامع في علم الاجتماع مؤكداً على التكامل ذي المنطلق الواسع

٦ ـ وكنتيجة لما تقدم فقد تبدل الفكر الاجتماعي بشكل يختلف عما كان عليه في بداية هذا القرن .

٧ ـ اما البحوث الاجتماعية لهذه الفترة الزمنية فقد اتصفت بالصفات الآتية : ـ

أ ـ استخدام أليات المناهج الاجتماعية الحديثة بشكل امثل وأفضل مستفيدين من سلبيات الباحثين الذين سبقوهم .

ب ـ محاولة بناء نسق جديد لعلم الاجتماع من اجل الكشف عن مناهج جديدة للوصول الى فهم افضل للظواهر الاجتماعية المستجدة .

جـ ـ حصلت ثورة بحثية في استخدام التقنية الاحصائية في عملية جمع المعلومات وتحليلها واستخدام تحليل المضمون والسوسيومترك والسايكومترك وسايكودامترك والجماعة الحركية . بحيث زودت علم الاجتماع بالعديد من النماذج الاجتماعية الناضجة والاختبارات القياسية الناجحة .

د ـ لكن مع كل هذا التقدم والابداع في اساليب البحث الاجتماعي فأن هناك بعض البحوث المبتذلة والسطحية والخالية من المعالجات الجادة او الخلاقة المبدعة وعلى الرغم من الكم الهائل لبحوث تلك الفترة فأنها لم تبرز علماء امثال جبرائيل تارد وأميل دور كهايم وماكس فيبر وفلفريد وباريتو وماكس شيلر وازولد سبنجلر وليستر وورد ووليم سمنر ودلتالي وفون وايس وغيرهم .

يثني سروكن على المؤسسات العلمية والحكومية التي ساعدت الباحثين على دراسة الظواهر الكمية التي تغطي شرائح اجتماعية واسعة . اذ قدمت نتاجاً معرفياً دسماً للعلم وللمجتمع .

لقد سمى سروكن هذه التحولات بالتطورات الداخلية لانها حدثت عند الباحثين وبين اهتماماتهم واتجاهاتهم اي تغيرت مضامين وسياقات عملهم التي اختلفت عن الاطار العام لعلم الاجتماع وما حصل عليه من اضافات واشكال جديدة .

١ ـ دان مارتنديل انطوى تصنيفه على النظريات الاجتماعية الاتية :

ا ـ العضوية ـ الوضعية
ب ـ الصراعية
جـ ـ الشكلية
د ـ السلوك الاجتماعي
هـ ـ الوظيفة الاجتماعية

٢ ـ لومس ولومس : الذي صنف علماء الاجتماع الى سبعة اصناف وهي : ـ

آ ـ المحلل التصنيفي
ب ـ المحلل المشخص والمعمم
جـ ـ المنظر التفاعلي
د ـ المحلل التاريخي والنسقي
هـ ـ المحلل البنائي
و ـ المحلل المؤسسي والنسقي
ز ـ محلل الفعل والنسق الاجتماعي

٣ ـ ماكيفر : الذي صنف المنظرين الاجتماعيين الى ما يأتي :

آ ـ الاحيائيون (البايولوجيون)
ب ـ النفسانيون
جـ ـ الدوركهايميون
د ـ الميتافيزقيون
هـ ـ النسقيون
و ـ الظواهريون
ز ـ العقلانيون
ح ـ التأريخيون
ط ـ السلوكيون
ك ـ الاجتماعيون ـ النفسانيون
ل ـ الغريزيون
م ـ الشخصانيون

٤ ـ تيماشيف : الذي ميز بين اصناف المنظرين كالاتي

آ ـ الوضعيون الجدد
ب ـ البيئيون
جـ ـ الوظيفيون
د ـ المحللون
هـ ـ المثقفون
و ـ التأريخيون

٥ ـ بولا دورادو دي جوسماو : الذي اختبر ما يأتي :

أ ـ دائرة الموسوعة الاجتماعية
ب ـ التطور العضوي
جـ ـ الاقتصاديون
ز ـ الميكانيكيون
ح ـ الوظيفيون
ط ـ الظواهريون الدائريون

د ـ علماء النفس الاجتماعي ك ـ الفعل الاجتماعي
هـ ـ علماء الاجتماع الواقعيون ي ـ السوسيومتريون
و ـ العقلانيون

٦ ـ زمرمان : الذي صنف علماء الاجتماع حسب التصنيف الاتي :

آ ـ البنائيون الستاتيك ج ـ التجريبيون
ب ـ الوظيفيون الجدد د ـ الديناميون الجدد

٧ ـ دنكن وشنور : اللذان ميزا بين الاساليب السلوكية والبيئية

٨ ـ واجنر : الذي قسم انواع النظريات الاجتماعية حسب التصنيف الاتي :

آ ـ الوضعيون : ١ ـ الوضعية الجديدة ٤ ـ السلوك الاجتماعي
٢ ـ البيئة البشرية ٥ ـ العضوية النفسية
٣ ـ البناء الوظيفي ٦ ـ الثقافة الاجتماعية

ب ـ المفسرون : ١ ـ الثقافيون
٢ ـ مفسرو الفعل والتفاعل الاجتماعي
٣ ـ مفسرو النفس الاجتماعية
٤ ـ مفسرو الظواهر الاجتماعية

جـ ـ العلماء الجدد : الذين صنفوا حسب السلم الاتي :
١ ـ منظرو الفلسفة الاجتماعية
٢ ـ منظرو العقيدة الاجتماعية
٣ ـ منظرو الاصلاح الاجتماعي

٩ ـ تصنيف بيترم سروكن الذي امتاز بالاصناف الاتية :

آ ـ النظريات الجزئية ـ الفردية : التي تتفرع منها النظريات الفرعية الاتية :
١ ـ نظريات فيزيقية ـ ميكانيكية
٢ ـ نظريات كمية ـ جزئية

ب ـ النظريات النسقية التي تفرغ عنها الفروع الاتية :
١ ـ الكليانية ٣ ـ الثنائية
٢ ـ غير كليانية ٤ ـ التصنيفية

جـ ـ النظريات النسقية التي تشعبت الى الشعب الاتية :

١ ـ الفعل الاجتماعي والنظريات التحليلية
٢ ـ البنائية الوظيفية
٣ ـ النظرية الجدلية
٤ ـ نظريات السلوك الزائف
٥ ـ نظريات الجماعات الصغيرة
٦ ـ نظريات التغير الاجتماعي
د ـ النسق التكاملي لعلم الاجتماع البنائي والدينامي(٥)

في الواقع انطوى تصنيف سروكن على استخدام المعيار النظري . اي اعتمد على المنظرين الذين صنفوا نظريات علم الاجتماع واهمل المعايير الاخرى . ولم يكلف نفسه بجهد علمي في ذلك . بل جمع تصنيفهم وسجله دون تعليق او ايجاد القاسم المشترك بينهم او بماذا يختلفون . مثل هذه الملاحظات تكون ضرورية جداً وخاصة اذا سجلت من قبل منظر كبير مثل سروكن .

اما تصنيفه للتطورات الخارجية والداخلية . فقد سجل فيها احداث ونشاطات الاجتماعيين لما قدموه لخدمة قيمة علم الاجتماع العلمي ولبنائه المعرفي من خلال اربعين عاماً مع بعض من التقييم والنقد البسيط ومع ذلك فقد جاء تصنيفه مقتضباً جداً .

وبما ان سروكن من اصل روسي وعاش في روسيا فترة طويلة من الزمن فقد كان من المفيد والمهم ان يشير الى انعكاسات التطورات العلمية التي ذكرها علم الاجتماع في الدول الاشتراكية وماهي ردود فعلهم لها . فضلاً عن ذلك فأنه لم يسجل التطورات العلمية لعلم الاجتماع في دول أوربا الشرقية . بل اكتفى فقط بامريكا وعم كلامه بشكل مطلق .

بعدها نقدم تصنيف هاورد بيكر الذي حدده بالعقدين من ١٩٤١ ـ ١٩٦٠ كاشفا تطورات بنية علم الاجتماع عاماً بعد عام ومسجلاً فيها ابرز العطاءات ـ الاجتماعية التي قدمها الاجتماعيون والتحولات العلمية التي تطورت فيه على ان ننتبه لنقطة جوهرية وهي ان ماقدمه بيكر لاتعكس التطورات التي حصلت في المصطلح والنظرية والفكر الاجتماعي : بل التحولات العلمية التي عززت مكونات علم الاجتماع كعلم اولا وكحقل انساني مرتبط مع الحقول الانسانية الاخرى ثانيا . فضلا عن انه لم يغط كافة التحولات العلمية واسبابها وآثارها على الاجتماعيين والعلم ذاته (علم الاجتماع) بل قدم استعراضاً زمنياً تقويمياً متسلسلاً للاحداث البارزة

ولعطاءات الباحثين الاجتماعيين سواء اكانوا من الولايات المتحدة ام من الدول الاوربية .

يقول بيكر « في عام ١٩٤١ وصل علم الاجتماع الى مرحلة تبوأ فيها مكانة مرموقة بين العلوم الانسانية حتي اطلق عليه لقب قواعد العلوم الانسانية بعد ماكان قبل الحرب العالمية الاولى متخلفاً بسبب حداثته وتفوق العلوم الانسانية عليه في نموها وتطورها . فقد ادخل الى المؤسسات الجامعية لتدريسه . ثم ساعدت الدوائر الاحصائية والدراسات السكانية وصدور المجلة الاجتماعية الامريكية في جامعة شيكاغو على نقل هذا العلم الفتي الى مرحلة متقدمة .

فضلاً عن ذلك . فقد هاجر ابرز علماء الاجتماع في الدول الاوربية ـ في ذاك العام ـ بسبب المؤثرات السياسية وبخاصة من فينا والمانيا امثال (بول هوتنغ شيم وجودفرى دى لاتور . وجورج كروفتش . ونيقولاي تيماشيف . ورودلف هيبريل . وهنري جوردان . وسيجموند نيومان . وفرانز نيومان . وهـ . كيرت وبول لازر سفيلد وهانس سباير وغيرهم) بيد انهم تأخروا في تأقلمهم مـع المحيـط الامريكي فلم يؤثروا في اتجاهات علم الاجتماع الامريكي وبسبب التباين الواسع في رؤاهم ومفاهيمهم للحياة الاجتماعية . اذ ان الاجتماعيين الاميركان كانوا لا يفهمون مايقوله زملاؤهم الاجتماعيون المهاجرون من اوربا . فضلاً عن حسد وغيرة وخوف الاجتماعيين الاميركان من زملائهم الاوربيين . اذ ان منهج الاوربيين كان غير مقبول عند الاجتماعيين الامريكان حيث كانوا يؤكدون على المنهج التأريخي والمقارن في حين كان الامريكان يؤكدون على المنهج الاحصائي ـ الكمي ـ اي كانت هناك فجوة بينهما تتمثل في المواضيع الاجتماعية المطروقة عند الطرفين ومنهجهما المتباين ورؤيتهما للحياة الاجتماعية المختلفة . فضلاً عن المنافسة الذاتية بينهما .

اما على صعيد الدراسات الاجتماعية فقد ظهر عمل مورينو في السوسيومتري الذي اثار ضجة كبيرة على علم الاجتماع الذي قام بقياس العلاقات الاجتماعية بين الافراد واستخدام في العلاج الاجتماعي للامراض العقلية . مستخدما المنهج الرياضي ومعتمداً على الارهاصات التي تداولها كل من زمل وويبر وكولي وجورج ميد .

ثم تاتي كتابات بيترم سروكن في الدينامية الثقافية والاجتماعية . ومن بعدها اعمال روبرت ماكيفر ودالكوت بارسونز . اد تداول الاخير موضوع عمليات التأريخ

وترجمة بعض من اعمال المنظر الالماني ماكس فيبر فاستفاد من هذه التراجم جورج هومنز ليصوغ منها مفاهيمه النظرية

اخيرا ظهرت مؤسسة جالوب للدراسات والمسوحات الاجتماعية . فدرست مواقف الاميركان من خروج المرأة الى العمل خارج منزلها ودرست ايضا المواقف القومية من الاعراق او الارساس . ودرست كذلك مشكلات الجيرة في المناطق الحضرية .

اما اهتمامات علم الاجتماع الفرنسي فقد تحولت من الديمقراطية والمساواة والاخاء الى دراسة المواطنة والعمل . وفي بريطانيا بقي تأثير كارل مانهايم ودولف لوى (المانيين) وهو بهاوس في علم الاجتماع المعرفي والديني .

بعد هذه التحولات والتطورات الكبيرة في عام ١٩٤١ وجدها بيكر تأخرت وتراخت في ١٩٤٢ اذ اقتصرت الدراسات على العلاقات العرقية ـ الرسية فبرز فيها برات ودونالدبيرسون . وعلى البيئة البشرية فقد ظهرت بحث ميكي وشو في جنوح الاحداث في المناطق الحضرية ودراسة لويدورنر الشهيرة في يانكي تاون وبحوث اخرى تكشف الجوانب النفسية الاجتماعية للامراض الاجتماعية مثل دراسة جوردن البورت في الشخصية وكتابات فلورين زينانسكي في الدور الاجتماعي لرجل المعرفة وعمل ماكيفر في السببية الاجتماعية واعمال ليندبرك وداد .

ولكن بعد التحول المحدود في عام ١٩٤٢ حصل تحول جديد في عام ١٩٤٣ اذ تدخلت الحكومة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ـ في دراسة الحياة العسكرية ـ لا المدنية اي دراسة المؤسسات العسكرية والقوات المسلحة وأسرى الحرب واستخدام الدراسات الاجتماعية في الشؤون الخارجية الامر الذي ادى الى حدوث شرخين في بحوث علم الاجتماع حيث انخرط قسم لابأس به من الباحثين الاجتماعيين في تنفيذ اهتمامات الحكومة الامريكية في الشؤون الاجتماعية داخل مؤسساتها الحربية والعسكرية وبقي البعض الاخر من الاجتماعيين يدرسون الحياة الاجتماعية المدنية بعيداً عن اهتمامات الدولة امثال لويس ممفورد ولين سمث والشرخ الثاني هو ، كان بسبب دراستهم للحياة الاجتماعية في المؤسسات العسكرية تطلب منهم التعاون مع علماء الانسان والنفس في تحقيق دراسات مؤلفه تأخذ الجوانب الانسانية بأكثر من منطلق واحد وبذا اتكسرت عزلة علم الاجتماع عن باقي العلوم الانسانية الاخرى وبات قريبا من اجهزة الدولة ومتفاعلين مع السياسيين والجغرافيين وباقي اصحاب الاختصاصات الانسانية الدقيقة الاخرى

وكان عام ١٩٤٤ امتداداً لما حصل في العام الذي سبقه سواء اكان في اهتمام دراساتهم او في انقسامهم عن انفسهم وتعاونهم مع الاختصاصات القريبة منهم . لكن في عام ١٩٥٤ فعلت دور النشر فعلها في توزيع ادبيات ومطبوعات ودوريات علم الاجتماع الى اجزاء واسعة من العالم وذلك بعد ان حصل انفراج اقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية وظهرت ايضاً الدوريات الاكاديمية . الامر الذي ساعد على نشر العديد من الافكار الجديدة التي ظهرت عند الاجتماعيين مركزين على المواضيع الاتية : حكومة الرجل الواحد والتدرج الاجتماعي والعلاقات العرقية والتكييف الاجتماعي والدراسات النقدية والتحليلية . ثمة ملاحظة على نتاج هذا العام هي الميل الى الدراسات المدنية اكثر من العسكرية والحربية . ثم اتى عام ١٩٤٦ ونحا نحواً جديداً لاعلى صعيد البحوث او النشر . بل على صعيد التنظيم الاكاديمي اذ اسست بعض الجامعات العتيدة في الولايات المتحدة قسماً يسمى « بالعلاقات الاجتماعية » الذي يضم فيه علـم الانســان والنفس والاجتماع وهذا ما حصل في جامعة هارفرد وشيكاغو ووسكانسن ويل وكولمبيا .

اما على صعيد الحقول الداخلية . فقد تبلور حقل علم الاجتماع الصناعي وحقل علم الاجتماع التنظيمي لاول مرة في تاريخ علم الاجتماع وفي الوقت ذاته تجلت محاولات بعض المنظرين لاخراج اعمالهم الخلاقة في النظرية الاجتماعية امثال اعمال فرانكلز فريزر وهربرت بلومر والفريد مكلونكلي . الا انها لم تكن ناضجة تماماً .

بعد مضي عقد على تحولات علم الاجتماع الداخلية قدم بيكر بعض التقويمات لها حيث قال « لقد ظهرت تأثيرات فرويد الجديدة في اعمال جورج هربرت ميد الذي استخدم مصطلح الذات الفردية والاجتماعية والانا التي اخذها او بالاحرى اقتبسها من معادلة فرويد فانها تعبر عند ميد بمصطلح الانا والايكو عند فرويد يمثل Me الذات الفردية عند ميد و Super Ego عند فرويد تمثل الذات الاجتماعية Others عند ميد . ثم ان تأثيرات فرويد الجديدة جعلت اهتمام الاجتماعيين في هذا العقد من الزمن ان ينشطر الى اهتمام ثقافي واهتمام اجتماعي في دراساتهم للشخصية ولباقي المواضيع التي تناولها والى انشطار اهتمامهم الى البيئة والارث الثقافي . وهذا يشير الى ان انشطار اهتمامات الباحثين الاجتماعيين تأتي من افكار فرويد الجديدة على منطلقاتهم فاضحت تتراوح بين الثقافة والمجتمع والبيئة والارث الثقافي .

اما مؤثرات الحرب العالمية فقد دفعت اهتمامات علماء الاجتماع الى ان تذهب الى دراسات الجماعات الاجتماعية الصغيره والاقليات العرقية والحياة الاجتماعية بين ابناء القوات المسلحة مع التأكيد على الجوانب النفسية الاجتماعية وفي هذا الخصوص يشير بيكر الى ان هذه الحقبة الزمنية (٣٧ ـ ١٩٤٦) لم يكشف علم الاجتماع فيها عن ابداعات باحثيه بقدر ما عبّر عن انتشار دراساته وادبياته . حيث لم تظهر نظرية جديدة مبتكرة تكشف عن متغيرات عصره او احداثه او اكتشاف تقنية جديدة يمكن استخدامها في دراساته . لكنه ركز بشكل مكثف على نسق القيم الاجتماعية فيها كل من زينانسكي واويلر وجورج هومنز بعدها جاء عام ١٩٤٧ . الذي تمخضت فيه الدراسات الاجتماعية التأريخية وذلك من خلال تأثيرات المؤرخ ـ ارنولد توينبي فحاولوا استخلاص فلسفة التاريخ وتحديد معالم علم الاجتماع التاريخي . ثم ظهرت مقاييس احصائية جديدة منها مقياس جوتمان ومقياس نقطة الصفر في تحليل المواقف والتحديد الاجرائي للمفاهيم الاجتماعية . اما على صعيد الدراسات الميدانية فقد اتجهت الى مشكلات جنوح الاحداث والاسرة والاسكان . ثم انتقل اهتمام الباحثين الاجتماعيين في عام ١٩٤٨ الى قياس الرأي العام في حملة انتخاب رئيس الجمهورية . واهتموا بالدراسات الدولية من خلال المنهج المقارن ودراسة المؤسسات البيروقراطية . ولم تظهر اهتماماتهم حول الطفولة والتنشئة الاجتماعية للاطفال وكيفية تربيتهم والرغبة في التوصل لمعرفة اثر الثقافة الاجتماعية على تهذيب وتأنيس الاطفال . بل ظهرت في العام الذي يليه وهو عام ١٩٤٩ فضلاً عن ظهور دراسات الجماعات الصغيرة والتدرج والاجتماعي .

لكن عام ١٩٥٠ ظهرت محاولة جادة عند ابرز علماء الاجتماع وهما تالكوت بارسونز وروبرت مرتن في توحيد جهود الاجتماعيين باصدار مجلد ضخم عن النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي . وقد ساهم معهم كل من روبرت بيلز في دراسته عن العلاقات الاجتماعية ومظفر شريف عن المعايير الاجتماعية ومورية نورمان كاميرون في الشخصية غير السوية وكيرت ليون في الجماعة الدينامية . مستفيدين من دراسات ونظريات الاعمال الكاملة للاجتماعيين الاوربيين امثال اميل دوركهايم وجورج زمل وشهد عام ١٩٥١ ارصدة مالية هائلة وضعتها المؤسسات العسكرية والحكومية والخيرية للباحثين الاجتماعيين لدراسة ظواهر ومشكلات تحددها لهم من اجل التوصل الى حلها او تشخيص اسبابها . الامر الذي حفزهم الى العمل الجماعي « كفريق عمل بحثي لاقامة بحوث مشتركة تثري المعرفة الاجتماعية فلم تظهر دراسات يحددها الباحثون الاجتماعيون مثل السلوك والفعل

الاجتماعي بل ظهرت في عام ١٩٥٢ على يد بارسونز وادورد شيلر وزينانسكي . ثم ظهر في عام ١٩٥٣ ـ اشهر كتاب في مناهج البحث الاجتماعي الذي اصدره كل من جودوهات الذي اصبح معتمداً في معظم البحوث الانسانية لانه غطى على العديد من التساؤلات والاهتمامات التي يحتاج اليها الباحثون العلميون ومما عزز موضوعية اكثر هو دعم الامم المتحدة واليونسكو له من الجانب العلمي لرصانته . ثم اضيف الى ماتقدم الدوريات الاجتماعية الجديدة التي ظهرت في عام ١٩٥٤ مثل « المشكلات الاجتماعية » ودورية » « والسلوك الجنسي في الاسرة » وأنشاء مراكز للبحوث الاجتماعية النفسية . وخلال الاعوام المنفرطة لم تظهر دراسة غير منقادة لتأثيرات حكومية او علمية باستثناء كما يذكرها هاورد بيكر ـ دراسة ديفيد ريسمان عن الذات الفردية الداخلية والخارجية والمستقلة في مؤلفه الجمهور المنعزل الذي جاء بمبادرة فردية بعيدة جداً عن تأثيرات فرويد . لم تكن دراسته نقدية بل تحليلية ، انما الدراسة النقدية الجادة ظهرت في عام ١٩٥٦ من قبل بيترم سروكن . اذ نقد في كتابه « الاضمحلال والوهن في علم الاجتماع الحديث والعلوم ذات العلاقة » « معظم نتاجات الاجتماعيين التي ظهرت ذلك العام حيث قال فيها انها ،

١ ـ انجازات تافهة (٢) وتعبر عن اللغو الفارغ (٣) مقلدة للعلوم الطبيعية (٤) استخدمت القياسات بشكل خاطيء وسيء (٥) بالغت كثيراً في الاستخدام الرياضي (٦) مارست تجارب زائفه (٧) قامت بدراسات تافهة ومبتذلة عن الجماعات الصغيرة (٨) ادعى بعضها بشكل وقح بأنها اكتشفت مقاييس جديدة (٩) تجرأ بعضهم بالتنبؤ الخاطيء (١٠) فشلت في تعاملها مع الانساق الاجتماعية الثقافية .

وظهر نقد رايت ميلز في كتابه « الصفوة » او « السراة » لرجال الاعمال والمال والسياسية وبيوت المال والمؤسسات العسكرية . ثم طرح ديفد ريسمان انتقاداته عن وسائل جمع المعلومات الحديثة والفروض التي يصوغها الباحثون المحدثون .

لكن في هذا العام لم تظهر مصطلحات ونظريات بقدر ماظهرت انتقادات ذات احكام قيمية اي ذاتية في معظم طروحاتها . بل ظهرت مفردات اصطلاحية مثل التوازن والتكامل الخاص في البناء الاجتماعي عام ١٩٥٧ ولاول مرة يستعمل مصطلح « التغذية الراجعة » بين الباحثين الاجتماعيين . هذا الاهتمام لم يفسح المجال اما ...ين لتسليط الضياء على النظريات السابقة التي طرحها دور كهايم وجورج زمل بل ارجئت الى عام ١٩٥٨ وفي العام نفسه ظهر لاول مرة حقل علم الاجتماع

الطبي والتأكيد على الدراسات السكانية من خلال استخدام النماذج الرياضية المتقدمة بينما حدثت لقاءات دولية متنوعة ومثرية عام ١٩٥٩ في المؤتمر الدولي لعلماء الاجتماع الذي انعقد في ميلان بايطاليا واخيرا ولد في عام ١٩٦٠ علم الاجتماع الادبي الذي عبر عن نتاج الادباء والفنانين والمبدعين من خارج علم الاجتماع(٥) وخليق بيّ ان اشير في هذا المقام الى ان استعراض بيكر كان سجلاً فقط لنتاجات الاجتماعيين وما قامت به الحكومة الامريكية من تدخل في رصد الاموال الهائلة لبحوثها العسكرية والحربية والشؤون الخارجية التي تستهدفها والتي لاتمثل تطوير واثراء علم الاجتماع بقدر مااستهدفت تسخير قدرات الباحثين لخدمتها بسبب الحرب وما تحتاج اليه من معلومات في الشؤون الخارجية . قد تكون هذه المحاولة مفيدة ومجزية للباحثين بيد انها غير مجزية في تحقيق اهداف علم الاجتماع اذا لم يستمروا في دراساتهم العلمية في مجال الحياة المدنية او دراسة المشكلات والظواهر التي يمليها عليهم العقل العلمي . بل استفادت منها الحكومة الامريكية بالذات وبعض الدارسين لعلم الاجتماع الامريكي . لذلك وجدنا هجوم سروكن (روسي الاصل) على نتاجاتهم وفي الوقت ذاته وجدنا اختلاف اعمال المهاجرين الاجتماعيين من اوربا الى امريكا عن اعمال زملائهم من الامريكان وكانت انتقادات رايت ميلز للمؤسسات العسكرية والمالية والاقتصادية بسبب ماعملته من انحراف من المسار العلمي لاعمال الاجتماعيين الاميركان فجعلت اعمالهم فئوية وظرفية لانه تأثر بالمنح المالية والمزايدات الرسمية . وفي هذا المقام اجد نفسي متساوقاً من قول الباحث هاورد بيكر عندما قال « بأنه في العقد الرابع من هذا القرن لم تظهر اعمال ابداعية في مجال علم الاجتماع الامريكي لانه كان مسخراً لاغراض الماكنة الحكومية وهذا ادى الى عدم اثراء علم الاجتماع الامريكي بشكل خالد يرفد العمل الانساني. «ان أعمال كونت ودوركهايم وتونيس وفيبر وسمنر وسروكن وميد وريسمان وهومنز

وبلاو بقت خالدة ومعتمدة وموثقة بسبب عدم انخراطها بالاتجاه الرسمي ـ الحكومي أو تلهفها وراء المنح المالية الموجهة من خارج العقل العلمي او الدافع الموضوعي . اعمال هؤلاء لم تسخر لاهداف حكومية او مالية بل استهدفت الانجاز العلمي بعيداً عن الاطماع المالية فلم تكن فقيرة معرفياً بل بقيت شامخة ورائدة في بقاع العالم لان لغتها واحدة ـ وهي اللغة الانسانية ـ وغيرها اندثر بانتهاء ظرفها وزوال هدفها فلم تخلّد . بل اصبحت في طي النسيان وغير مفيدة للفكر الانساني ولعلم الاجتماع .

بعد ذلك نتناول طرح المنظر الامريكي المعاصر ١٩٨٨ جيفري اليكسندر الذي انطوى على دراسة تطور علم الاجتماع من نهاية مطاف النظرية الوظيفية التي وصلت إلى الافول في السبعينات من هذا القرن بعد ان سادت وطغت على معظم طروحات علم الاجتماع طيلة هذا القرن وبلغت ذروة مجدها بعد الحرب العالمية الثانية . اذ كان المنظرون الاجتماعيون مبهورين بمصطلحاتها وتحليلها ومزاوجتها بين الوظيفة الثقافة والاجتماعية . وقد تجلى موقف اليكسندر الرافض للوظيفية من خلال اعتباره لها من عدم تحقيق اهداف علم الاجتماع وعدم تناولها الظواهر الاجتماعية الجزئية في المجتمع . فضلاً عن عدم قناعته بتفاسيرها وتنبؤها عن الواقع الاجتماعي .

ولدى اليكسندر موقف ثان رافض فيه للدراسات التجريبية في علم الاجتماع الذي حمل في طياته التقليد للمحاولات البحثية الجارية في العلوم الطبيعية . اذ قال بانها ميالة للجوانب الذاتية اكثر من الموضوعية معتمدة على المساجلات والمناقشات اللفظية وهاملة المنطق البرهاني والتفكير العقلاني .

هاتان الحالتان في علم الاجتماع جعلت اليكسندر ان يصف حركة هذا العلم التطورية بالمحدودية فشبهها بحركة رقاص الساعة تتراوح بين حدين محدودين جداً لم تشجع او تحفز علم الاجتماع للاندفاع نحو مراحل تطورية افضل واحسن .

الموقف الثالث لالكسندر انطوى على ملاحظته للفرد في المجتمع العصري الذي يتمتع فيه الفرد بحرية واضحة في ارتباطاته مع مجتمعه وان ذاته غير متأثرة بشكل فاعل بضمير المجتمع وان شعوره لايعكس شعور المجتمع الجمعي . على الرغم من نضج المؤسسات الاجتماعية ورسوخها في البناء الاجتماعي . هذه الحرية الفردية جعلت الفرد ان يكون مستقلاً بذاته وغير معتمد على مؤسسات مجتمعة الناضجة والراسخة الامر الذي تبلورت مشكلات نفسية اجتماعية للفرد ومبررات عديدة لابراز طاقته العقلية والمنطقية التي نمت وظورت ابداعاته بحيث باتت علاقته بالمؤسسات الاجتماعية العصرية ضعيفة وغير فاعلة او مؤثرة على سلوك وتفكير الفرد . واضحى الفعل الاجتماعي العصري ذاتياً وليس مثالياً . بل يبحث عن رغائبه وطموحاته الفردانية .ومستخدماً تفكيره الشخصي في تصرفه الاجتماعي . لان الحياة الاجتماعية العصرية لم تقدم له انماطاً وانساقاً اجتماعية جاهزة يتصرف حسبها وبموجبها او ترشده لاهدافها . الامر الذي تطلب منه ان يستخدم عقله وتفكيره عند كل تصرف وموقف . على نقيض الحياة الاجتماعية في المجتمعات غير العصرية التي تقدم للفرد

نماذج وانماط وانساق احتماعية جاهزة للتصرف والتفكير . فلا يتكلف المرء باستخدام عقله في معرفة المشروعية الاجتماعية في تصرفه وتفكيره او هل ان عمله يتناسب او يتساوق او يصب في الرضا الاجتماعي ؟ . او هل ان مجتمعه يتقبله ام لا ؟ . لذا فان الفرد يستقبل في المجتمعات غير العصرية نماذج جاهزة تغذى قراراته فتغنيه عن التفكير في سلوكه ومواقفه وتقم له العديد من الاحكام والقيم والرؤى والاقيسة الاجتماعية لكي يتماثل معها وبها الاعتماد الاجتماعي يصبح الفرد غير مستقل في تفكيره وتصرفه . فلا يجرأ ان يتدخل في تغيير احكام مجتمعه او رفض قيمة او تحقيق مايصبو اليه من طموح وابداع فردي . بينما تسمح الحياة العصرية للفرد بعقلنة تصرفه واستخدام تفكيره في قبول او رفض اي نموذج او نمط اجتماعي يظهر في المجتمع . فضلاً عن غياب الانماط الجاهزة . فان المجتمع العصري لايقوم بالدعم القيمي او الادبي او الاخلاقي . بل الدعم المعياري الذي يكون اقل قوة وتعزيزاً من الدعم القيمي . على نقيض الانماط والنماذج الجاهزة التي تكون معززة ومدعمة من قبل القيم والاداب والاخلاق الاجتماعية التي تمنع الفرد بقوة من تجاوزها الامر الذي تجعله لايفكر بمخالفتها او اختيار سبل لايمارسها مجتمعه وتجعل منه انساناً متجهاً في تصرفه وتفكيره نحو عواطفه ووجدانه .. على عكس الفرد في المجتمع العصري الذي يتجه نحو العقل والتفكير والمنطق بعيداً عن وجدانه وعواطفه بسبب ضعف او هزالة تأثير قيم المجتمع وقوة تأثر المعايير الاجتماعية كمنظم سلوكي اجتماعي . هذه الحالة تشجع الفرد العصري باقحام ذاته على سلوكه لعقلنته حسب تفكيره الشخصي مستخدماً كفاءاته وقدرته باقصى درجة ممكنة هذه الحالة جعلته قريباً من السلوك وبعيداً عن السلوك الوجداني . في الواقع هذا الوجود العقلي في تبرير اشباع رغائب الفرد العصري ومنحه المشروعية الاجتماعية حسب تفكيره وقدرته . ظهر بسبب غياب القيم الاجتماعية وسيطرة المعايير الاجتماعية في المجتمع العصري وان ضعف الوجود العقلي في المجتمع غير العصري ومنع ظهور او اشباع رغائب الفرد الذاتية ظهر بسبب سيطرة القيم الاجتماعية وضعف المعايير الاجتماعية فيه . وجود مثل هذه الحالة جعلت الفرد العصري قادراً في تغيير بناء مجتمعه من خلال تغيير تفاعلاته وعلائقه بسبب عدم خضوعه الكلي لمؤسسات مجتمعه . بينما لايستطيع الفرد غير العصري ان يغير بناء مجتمعه بسبب اندماجه الكلي في مجتمعه واعتماده التام على مايقدمه مجتمعه من نماذج وانماط اجتماعية جاهزة متبلورة من ميراثه الاجتماعية . الامر الذي اصبح في مجتمعه غير مستقل

بذاته وبتفكيره ولا يستطيع التمرد عن مجتمعه او يثور ضد مؤسساته . على عكس الفرد العصري الذي يستطيع التمرد على مجتمعه وان يثور ضده لان مؤسساته الاجتماعية لم تغرس في ضميره قوانينها وقيمها بل اهدافها فقط وهذا غير كاف لان يكون الفرد مندمجا بشكل كامل معها .

ان طرح اليكسندر هذا اوضح لنا انشطار مصطلح الفعل الاجتماعي الى شطرين هما الفعل العقلي والفعل غير العقلي من خلال مقارنته للفردية في المجتمع العصري وغير العصري . ماجاء به اليكسندر يمثل اضافة نوعية في موضوع الفعل الاجتماعي لم تكن مطروقة من قبل النظريات الاجتماعية التي درست سلوك وتفكير الفرد هناك مثالاً على ذلك نظرية جورج هومنز التبادلية التي اعتمدت على مذهب المنفعه ورفضت التركيز على الظواهر الجمعية للافراد بل اهتمت بشكل مكثف على دوافع ومناشط الفرد في تفاعلاته وعلائقه . وهذا يوضح لنا سبب رفض اليكسندر اعتبار نظرية هومنز من النظريات التي تعبر عن المجتمع لانها اهتمت بالفرد نفسه بكل مايملك من حواس ودوافع ومناشط عقلانية ووجدانية معاً اذ ترى ليس من المهم التركيز على رموز الفرد الخارجية عن حياته الاجتماعية . بل ترى ان سلوك الفرد يخضع لمؤثرات العرض والطلب في محيط الفرد وهذا بدوره ادى الى بروز معايير وأقيسه مثيلة او عاكسة لهذه المؤثرات . فتتحدد تصرفاته بموجبها .

فضلا عن ذلك فان نظرية بلومر في التفاعل الرمزي التي سلطت الضياء على مناقشات ومساجلات وردود فعل الفرد تجاه افعال الاخرين المحيطين به رابطة بين الانا والضمير والاجتماعي لم تميز ايضاً بين الفعل العقلاني وغير العقلاني .

والحالة كذلك مع نظرية كوفمان في التفاعل الرمزي ١٩٥٩ التي اوضحت رغائب الفرد في دوره الاجتماعي مفسرة المؤسسات الاجتماعية وبنائها من خلال تفاعل ادوارها ومواقفها دون التطرق الى الفعل العقلاني وغير العقلاني . وحتى نظرية كارفنكل في الفيثومنيولوجية ١٩٦٣ التي استخدمت وصف السلوك اليومي ومناقشات الناس لم تذهب كذلك الى الفعل العقلاني وغير العقلاني . لذا يمكن احتساب ماجاء به اليكسندر اضافة نوعية للنظرية الاجتماعية التي ندرس الفرد قدمت ما اغفلته النظريات الفردية السابقة في علم الاجتماع ولم تكرر ماجاء به الاخرين في هذا الباب

لقد حدد اليكسندر موقعه الضدي من النظرية الوظيفية موضحاً المرحلة الاخيرة من سقوطها وانتهاء فاعليتها في علم الاجتماع الامريكي من خلال تقديم الاسباب الخارجة عنها الفاعلة في انهيارها وهي ما يأتي : ـ

١ ـ وجود المدرسة الذرائية (البراجماتية) والاتجاه الفينزمينولوجي اللذان اتخذ موقفاً ضدياً من اعمال بارسونز في الفعل الاجتماعي .

٢ ـ وجود الاتجاه الماركسي الذي حدد موقفه الضدي منذ البداية من اعمال بارسونز .

٣ ـ ظهور نظرية التفاعل الرمزي والاثنوميثودولوجي في دراسة الجانحين والسلوك المنحرف والسلوك الجمعي والادوار الاجتماعية الذي حفز واثار انتباه الجيل الجديد من الاجتماعيين نحو الوظيفية والاطلاع على حيثياتها وتفصيلاتها الامر الذي حفز الوظيفيين الى استدراك ما يمكن استدراكه في دراسة المواضيع التي لم يدرسوها مثل التدرج الاجتماعي والتمدن والتحضر وبدأوا الاعتماد على المنهج التجريبي في بعض دراستهم (لذلك سميت هذه المحاولة بحركة ما بعد الوظيفية) في الواقع هذه الحركة استطاعت ان تعطي للوظيفية نفساً جديداً لاعادة حياتها العلمية بعضاً من الوقت . لكن بعد عام ١٩٦٠ واجهت النظرية الوظيفية تحدياً سافراً من قبل الباحثين والمنظرين الاجتماعيين فخلق ازمة خانقة داخل علم الاجتماع بيدان هذه الازمة قد انتهت في السبعينات بسبب سقوطها وموتها . وقد ارجع اليكسندر المؤثرات الفاعلة التي اسقطت الوظيفية كلية الى ما يأتي .

١ ـ تحدى الماركسيين الجدد في بريطانيا لها وما تبعه من تأسيس رابطة الماركسيين الجدد في امريكا

٢ ـ تجديد الاتجاه المقارن والتأريخي في الدراسات الاجتماعية الذي انتقد اعمال الوظيفية الامر الذي شرح صفوف المنظرين الوظيفيين فانسلخ بعضهم منها وذهبوا مع الاتجاه التأريخي الجديد .

٣ ـ النشاط المكثف للحركات السياسية المتطرفة التي ظهرت في المجتمع الامريكي في الثمانينات من هذا القرن

٤ ـ تزايد نشاط الحركة النقدية السوسيولوجية

٥ ـ بروز التحليل الثقافي بشكل جديد يختلف عما ظهر عليه قبل ذلك مؤكداً على الجانب الثقافي بعد.ماكان محتكراً على الوظيفيين فقط .

من انصار الاتجاه الثقافي الجديد في امريكا كوفمان الذي طرح مفهوماً جديداً اسمه الوسائل الثقافية وهاورد بيكر الذي ربط بين الفاعل الاجتماعي والنسق الاجتماعي وويبرلر ولندبزك وكولمان ١٩٨٧ الذين رفضو فكرة ربط افعال الفرد بالظواهر البنائية والنظر اليها على انها علاقة سببته .

ارجع اليكسندر التحولات التي ظهرت في اهتمامات الاجتماعيين المعاصرين الى المولدات (المحركات) الثقافية المتمثلة في : ـ

١ ـ تطور قوانين المجتمع الامريكي .
٢ ـ نضج التنظيمات الرسمية .

اذ ان قوانين المجتمع عملت على اعادة تنظيم علائق الفرد حسب ماتمليه التطورات السريعة التي حصلت في المجتمع الامريكي . فأصبحت الدافع المحرك والمحفز لمعظم مناشط الفرد لدرجة ان العالم الاجتماعي المعاصر زوكير ١٩٨٨ قال عن التنظيمات الاجتماعية الرسمية المعاصرة في امريكا بانها استطاعت ان تؤسر او تسجن الحياة العصرية من شدة الزام افرادها بتعليماتها ونظمها المغرية في الحصول على المكاسب المادية السريعة . وأيده كل من مايروسكوت (منظرين امريكيين معاصرين) وفي نفس العام ١٩٨٨ قال المنظر الامريكي ديماجيو « ان التنظيمات الاجتماعية الرسمية واعضائها اصبحوا اشبه بالمطاط اذ باتوا يفكرون بحسابات مادية دقيقة من خلال مصالحهم الذاتية لكي يحصلوا على الربح المادي السريع الامر الذي جعل قراراتهم مرنة لكي تخدم اهواء سياسة التنظيم اكثر مما كانت عليه قبل ذلك (طرح ديماجيو هذه الملاحظة عندما قارن بين نظرية المؤسسات الاجتماعية مع نظرية المنفعة ونظرية الصراع .(٦)

انه من الاعتيادي لما تكون اهداف التنظيم واعضائه واحدة فان الاعضاء يلتزمون بها بشكل كلي وبخاصة عندما تدور عليهم بعوائد ربحية جيدة ومن هذا الالتزام يصبح الاعضاء اسيرى سياسة التنظيم طمعاً بالربح المادي السريع الذي يجلبه تنظيمهم وفي الختام . من اجل معرفة الانشطارات الكبيرة في الاعمال الاجتماعية التي شطرت علم الاجتماع الى شطرين رئيسيين . تظهر عندما ضرورة ملحة لمعرفة اصول الانشطار او الحيثيات التي سبقت الانشطار . وقد وجدنا انشطاراً كبيراً حصل

في علم الاجتماع الامريكي (اذ وجدنا في الفصل الاول انشطارا اقليميا ضمني الانشطار القاروي وهو علم الاجتماع الفرنسي والبريطاني) وفي ختام هذا الفصل نعرض انشطارا اخر ضمني الانشطار القاروي ـ الامريكي ـ لكنه لا يمثل الانشطار الاقليمي بل الانشطار العلمي الذي حصل بسبب وجود جامعتين رصينتين في الولايات المتحدة الامريكية وهما جامعة شيكاغو وجامعة كولومبيا اللتان سعيتا الى دراسة المجتمع الامريكي كل من زاوية نظرتها الخاصة (استخدم هذا المعيار الانشطاري كل من سيمون ليبست ونايل سملسر) اذ اتجهت الاولى (شيكاغو) لدراسة مشكلات المدينة والوجه القبيح لها . فظهرت دراسات في المجال (دراسة العصابة الاجرامية والساحل الذهبي والاحياء الفقيرة واحياء الاقليات والمتشردين والعمال المتجولين والفتاة غير المتكيفة وهجرة الفلاحين البولنديين الى امريكا) فضلاً عن دراستها لمشكلات المهاجرين الجدد الى الولايات المتحدة والتحلل الاسري ومشكلات الانتحار والجرائم والجنوح والسكن السيء من الناحية الصحية والاجتماعية واندماج الاجتماعي للاقليات (من الجدير بالذكر) ان رواد علم الاجتماع في هذه الجامعة كانت خلفياتهم العلمية دينية او هندسية او طبيعية ومن ثم دخلوا ميدان علم الاجتماع) لعبت هذه الجامعة هذه الجامعة دوراً حيوياً في تغذية علم الاجتماع الامريكي بدراسات عن مشكلات المجتمع وكيفية علاجها واصلاحها فضلاً عن وضعهم السياسات الاجتماعية المقننة في سبيل الاصلاح الاجتماعي . بلغ هذا الدور الحيوي لهذه الجامعة لغاية عام ١٩٣٠ او وصل اوج نشاطه المكثف في عام ١٩٣٠ فأسست (جامعة شيكوغو) اتجاهاً اصلاحياً داخل علم الاجتماع . هذا الجناح المنشطر في علم الاجتماع تطور في الولايات المتحدة اكثر من اوربا بشكل يلفت النظر . اما الجناح الثاني من الانشطار الكبير الذي حصل في علم الاجتماع الامريكي فقد قاده جامعة كولومبيا . وكان اول رئيس قسم لعلم الاجتماع فيه هو فرانكلين كيدنكز الذي حافظ على منصبه منذ عام ١٨٩٠ لغاية عام ١٩٢٠ (وكان ايضاً من خلفه دينية ودرس الفيزياء وتأثر بهربرت سبنسر وكان يعتقد بأن المهندس يجب ان يبني ثقافته الهندسية على الهندسة الاجتماعية . لكن هذه المزدوجة بين الهندسة والاجتماع بقت غامضة وغير واضحة لحد الان)

اتجه هذا الجناح المنشطر نحو الدراسات النظرية وابراز اهمية النظرية العلمية في دراسة المجتمع (لكن هذا الاتجاه لم يغفل الدراسات الاصلاحية الاجتماعية بل

ـ اولها بشكل هامشي وجانبي) وهنا تجدر الاشارة الى ان هذا الاتجاه كان متأثرا الى حد كبير بعلماء اجتماع اوربا وبأعمالهم الاجتماعية وبشكل خاص الاتجاه الوظيفي الذي اهتم بالمؤسسات الاجتماعية والتكامل الاجتماعي والبناء الاجتماعي والتوازن الاجتماعي اكثر من الصراع والتغير الاجتماعي . فبرزت دراسات عن التراتب الاجتماعي في اعمال كدنكز وسمنروكولي . الا انها كانت غير عميقة وشاملة . بل درسوها بشكل ظاهري وهامشي ونشروها في دوريات غير مشهورة او لامعة بين دوريات علم الاجتماع . بيد ان من الدراسات الرائدة واللامعة التي ظهرت في جامعة كولومبيا كانت مع بداية ظهور الاتجاه العلمي في الولايات المتحدة وهي دراسة ليندز (ميدلتاون) التي برهنت افتراضات ذات مديات واسعة بعيدة اذ ربطت وظيفة الكنيسة (مؤسسة دينية) بمؤثرات البناء الاجتماعي العام .

ثم ظهرت دراسة بيترم سروكن (الاوربي المنشأ) الذي جاء الى كولمبيا فأكد على المزاوجة بين المنهج الكمي والنوعي في الدراسات الاجتماعية في مؤلفه « الحراك الاجتماعي » ودعمه في هذا المجال عمل روبرت ماكيفر (الاوربي المنشأ) الذي دأب ببناء نظرية اجتماعية محبكة .

في الواقع . دفعت اعمال هؤلاء العلماء الثلاثة (لندز وسروكن وماكيفر) الباحثين في جامعة كولومبيا بتأكيدهم على استحداث مفاهيم جديدة بجانب استخدامهم للمفاهيم الاجتماعية القديمة المتداولة بين علماء الاجتماع الذين سبقوقهم في هذا الميدان مثل القيم الاجتماعية والسلوك الاجتماعي وربط السلوك المنحرف والجانح بقيم ومعايير البناء الاجتماعي .

وفي هذا الاثناء ظهرت جامعة هارفرد ابان اعقد الثالث من القرن العشرين لامعاً فيها تالكوت بارسونز وبول لارزسفيلد اللذان لعبا دوراً حيوياً في تنشيط الاتجاه العلمي في علم الاجتماع الامريكي . اذ كان الاول واضعاً أسس نظرية الفعل الاجتماعي التي ضمت ابرز اعمال المنظرين الاوربيين في علم الاجتماع مثل اعمال دوركهايم وماكس فيبر وفلفريد وباريتو . مستفيداً من المنهج الاحصائي عند دوركهايم في دراسته عن ظاهرة الانتحار . ومستخدماً دراسة فيبر في الاخلاق البروتستانتية وأثرها على الروح الرأسمالية . ان هذا العمل الذي قام به باروسنز يشبه عمل سروكن عندما جسر فيه اعمال بعض المنظرين الاوربيين مع الاميركان في مجال النظرية والبحث الاجتماعي اما لارزسفيلد فقد وصل الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢ بعد ان حصل على زمالة من مؤسسة روكفيلر في مجال البحث العلمي ـ

الكمي الاحصائي والدراسات الميدانية وبشكل خاص في المسح الاجتماعي وتصاميم البحوث التجريبية (وهذا ما اتفق او تماشى مع عمل روبرت ليندز في عمله الثاني « التحولات الاجتماعية في ميدلتاون) فتعاون لارزسفيلد مع ليندز في جامعة كولومبيا في مجال تنشيط البحوث الميدانية ذات المدى البعيد وليس في دراسة المشكلات الاجتماعية الجزئية او الطارئة وهذا بدوره زاد وكثف من فاعلية الاتجاه العلمي في الشطر الثاني من علم الاجتماع الامريكي .

بعدها برز في كولومبيا كل من بارسونز وروبرت مرتن وولبرت مورروكنكزلي يفز وشبر وكثمان وستوفر مؤكدين على دراسة البناء الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية الامر الذي عزز الجانب النظري داخل هذا الجناح المنشطر .

بيد ان هذا الجناح واجه عدة انتقادات من بعض المنتمين اليه لانه لم يتناول كافة اوجه او جوانب البناء الاجتماعي لانه اغفل الصراع الاجتماعي والنفوذ الاجتماعي والمسار التاريخي للمجتمع . واكتفوا بتركيزه على الوظيفة والبناء واهمل الجوانب الباقية من الحياة الاجتماعية . من ابرز المنتقدين هما رايت ميلز وبارتنكتون مور . وهذا بدوره شجع الاخرين من خارج الجناح الى اضافة انتقادات اخرى الى ماقدمه كل من ميلز ومور . اذ اتهموا هذا الهناح بأنه يحاول المحافظة على الوضع الراهن للمجتمع ولا يعبر اهمية لتاريخ المجتمع والروح الانسانية . وينظروا اليه بأن جناح اجتماعي رجعي ويمثل نظرية فارغة ويملك منهجاً عقيماً فضلاً عن كونه جناح تبريري لايتمتع بحيوية لانه لايدرس الواقع او مشكلاته الاجتماعية .(٧)

ختاماً ، يمكن القول بأن اسباب الانشطارات المصطلحية والعلمية لم تكن وليدة الرغبة الذاتية بل الظروف الموضوعية التي عاشها ويعيشها المجتمع او الظاهرة الاجتماع المدروسة ومن ثم ظهرت اجتهادات وانتقادات عند انصار كل انشطار للدفاع والتبرير او النقد او التحمس والتبصير والتغير . وهذه حالة صحية ـ في تقديري ـ لانها تعبر عن حيوية الظاهرة اولاً وعن عدم خضوع انصار الانشطارات بشكل ذاتي لرغائبهم بل لقناعاتهم ورؤيتهم وتحليلهم ومادامت الحياة الاجتماعية قائمة على الاختلاف والتباين فان الانشطارات سوف لاتبقى على ماهي عليه الان (قاروية واقليمية وجامعية) بل سوف تنشطر الى اجزاء اكثر صغراً واكثر دقة لتعبر عن كوامن الظاهرة المدروسة . واذا حصل تجسير بين بعض الانشطارات فان ذلك لايمنع باقي الانشطارات الى الاندماج او التوحيد بل تخضع لطبيعة ونوع الظاهرة

اذ ان قسماً منها لاينشطر والقسم الاخر حافل بالاجزاء والعناصر الجاهزة للانشطار . على ان لاننسى ان اكتشاف الانشطارات لاتظهر في ادبيات علم الاجتماع الا اذا وجد باحثين لهم القدرة المنهجية والنظرة الثاقبة في الكشف عنها وتحديد مدياتها ومكوناتها وحالات انشطارها .

في نهاية مؤلفي هذا اضع ثلاثة جداول توضيحية لكافة الانشطارات التي تناولتها وسوف لا اشرح مضامينها لانه سبق وان شرحتها في سياق الحديث داخل الفصول لكي اتجنب التكرار .

خلاصة الفصل

الصفة المفقودة في هذه التصانيف الخمسة لمراحل تطور بناء علم الاجتماع انها لم تسجل نقدها لاي اخفاق وقع به علم الاجتماع خلال ما يقارب القرنين . بل سجلت فقط التطورات المشرقة والاعمال المؤثرة لعلماء الاجتماع وهذا عمل جيد وضروري لانه يوثق المسارات والارتقاءات السائدة . ولكننا في الجانب المقابل كباحثين نهتم باستمرارية نمو علمنا ، نرى من الضروري ايضاً ان نسجل المعيقات التي عثرت مسيرة هذا العلم وتطوره . وكيف تمت معالجتها والخروج منها وما هي اثارها عليه او كيف فشل في التعامل معها لكي نستفيد من خبرة الباحثين الذين سبقونا .

والمطلع على ادبيات علم الاجتماع يجد في بعضها نقداً وتقويماً لبعض الاعمال النظرية والتجريبية وقد وجدت ذلك في اعمال سروكن وكولدزوبيكر ، الا انني عندما تناولت موضوع تطور بنية علم الاجتماع لم اجد نقد هؤلاء العلماء للاعمال او للاحداث التي وقعت في الفترات الزمنية التي حددوها لمعرفة تطورات عملهم (باستثناء عمل سروكن قبل عام ١٩٥٦) الذي فند اعمال كافة الاجتماعيين المايكرويين ـ الاحصائيين واصحاب نظريات الجماعات الصغيرة والتفاعليين الرمزيين بالكامل ـ وهذا لا يمكن احتسابه نقداً علمياً لانه لم يقدم البديل لما نقده ثم ان انكار اعمال علمية بشكل تام لجهود مجموعة كبيرة من الباحثين والعلماء غير مقبول وغير معتمد لانه رأى منفعل ومتحيز للجانب الاخر ـ الماكروي الذي يقوده سروكن ـ وفيه الاستخفاف والسخرية من اعمال العلماء الاخرين الذين لا يمثلون اتجاهه وهذا يجب ان لا يصدر من عالم مثل سروكن ، او للاعمال التي اعاقت مسيرته او غيرت تحولاته البنيوية .

فضلا عن ذلك فأنني لم اجد في تصانيفهم ان علم الاجتماع قد اثر في احد اتجاهاته على بعض الدراسات في امريكا اللاتينية او الدول العربية او الدول الاسيوية او الافريقية ، علماً بأنه مثل هذه التأثيرات حصلت وما زالت تحصل وقد سجل مثل هذا التأثير بيكر في الجزء الثالث من كتابة « الفكر الاجتماعي » لكنه لم يسجله في باب تطور بنية علم الاجتمع بل في باب علم الاجتماع في بعض بقاع العالم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فأن التصانيف الواردة في هذا البحث لم تذكر المنابع المجتمعية التي اثرت واغنت علم الاجتماع باحداثها وظواهرها ومشكلاتها بل ركزكولدنر على المنابع الفكرية في البناء النظري القديم والحديث

ولم يذكر ذلك بكر ولاسروكي ولا فيلتشر حيث لا يمكن فصل المدارس المجتمعية عن الثورة الفرنسية والصناعية والعلمية والحروب العالمية الكبيرة على المدارس الفكرية في دراسة المجتمعات الانسانية

هذا ولابد لي ان اشير قبل ان اختم فصلي هذا الى ما جاءت به التصانيف الواردة هنا بأن اتجاهين للدراسات الاجتماعية . يسير الاول نحو المنهجية (علم الاجتماع الاكاديمي) الملتزم بالمنهجية التدريبية والذي ينطوي على معلومات ثقافية ومعرفية لفئات متعلمة حسب تدريج جامعي متطور . والثاني غير منهجي وهو ينقسم الى قسمين . يخضع الاول لطلبات المؤسسات المالية والحكومية في دراسة بعض الظواهر والمشكلات التي تريد معالجتها فيكون نتاجه ودراساته موجها نحو اهداف مبتغاة ومقيدة بمنطلقات غير حرة فلا يعبر بحرية وبموضوعية عن واقع الدراسة اذ يكون الباحث في هذا الموقف بائعا لخبرته وفكره ومنهجه لكل من يجزل له عطاءا ماليا كبيرا وهذا ما شاهدناه مع مؤسسة جالوب الامريكية والمؤسسات العسكرية والامريكية في تعاملها مع بعض الباحثين الاجتماعيين الامريكان) وهنا يمكن القول بأن علم الاجتماع منفعل بالاحداث الاجتماعية لكنه غير فاعل فيها اي خضع للمؤثرات المالية لكي يقول ما يراد ان يقوله من خلال قناة علمية (اسمها علم الاجتماع) ولم يستخدم اطاره النظري في تسليط ضيائه على الاحداث الاجتماعية المدروسة . اقول اصبح بعض الباحثين الاجتماعيين منقادين نحو الكسب المالي لتنطيقهم حسب ما تمليه عليهم المؤسسات السياسية او العسكرية فلم يكونوا موضوعيين في عملهم فأساؤوا الى علم الاجتماع .

والثاني يمثل الدراسات الحرة في استقرائها للواقع الاجتماعي – وهي قليلة – تمثل النقد البناء والالتزام المنهجي وهنا يمكن القول بأن الباحث الاجتماعي فاعل في الحدث الاجتماعي وغير منفعل به اي لم يكن منقادا نحو التكسب المالي الرخيص بل نظر وقال ما يمليه عليه ضميره العلمي وفكره المنهجي

اما طابع علم الاجتماع كما جاءت به تصانيف هذا الفصل خلال ما يقارب القرنين فأنه عبر بشكل صريح عن الصراعات الفكرية بين مذهب المنفعة والمادي وبين الرومانسية والمادية وبين الذرائعي والنفعي الذي ساد فرنسا والمانيا وامريكا بالدرجة الاساس ثم عمم عطاءه على كافة مجتمعات العالم وهذا تكرار للمذاهب الاخرى التي سادت عبر تلك الاقطار والقرنين فضلا عن انه لم يعبر عن الاحداث الاجتماعية العملاقة التي حدثت العالم وبرزت في مجتمعات الاسيوية والافريقية واللاتينية

لكن هذا لا يلغي اهتمامنا به والتعرف عليه . بل علينا ان لاناخذه على انه يعكس الحالات الانسانية كافة ويصلح لكل المجتمعات بل يجب ان ننظر اليه من بيئتنا وفكرنا لكي نتفاعل معه من خلال ثقافتنا او رؤيتنا وان نكتسب منه ما هو متساوق مع احداثنا ونترك ماهو غير متساوق او متشابه لان التفاعل الاجتماعي والفكري لا يعرقل نمو علم الاجتماع . بل ان اخذ الخبرات العلمية المجتمعية المعبرة عن بيئتها المحلية وقياسها على غير بيئتها واستخدامها اطارا نظريا يرجع اليها لهو امر خطأ ويعرقل نمو وتطور علم الاجتماع

اما طرح اليكسندر فلم يعبر عن مراحل تطور الاجتماع . بل اخبرنا ماحصل للنظرية الوظيفية بعد عام ١٩٦٠ واوضح لنا العوامل التي اسقطتها وهذا موقف ضدي واضح (ولو انه اعترف بطغيانها على الباحثين الاجتماعيين قبل عام ١٩٦٠)

فضلا عن ذلك فانه لم يخبرنا عن النظريات الاجتماعية الاخرى مثل التفاعلية الرمزية والصراعية والدورية والتنظيمية وكيف نمت وترعرعت ومن هم انصارها واضدادها وما هي المؤثرات التي انعشت تطوراتها ؟ بيد انه قدم لنا انشطارا اصطلاحيا لم يكن واردا او مطروحا في ادبيات علم الاجتماع وقد نجد في صكه ونحته . وانه شرح وحلل سلوك وتفكير الفرد العصري وقارنه مع الفرد غير العصري . اقول انه سلط الضياء على المفردة الاولى من مصطلحه (الفرد العصري) عندما وصف وحلل متنها . على المفرده الثانية (الفرد غير العصري) وبالوقت ذاته سلطه ضياءه على المفردة الاولى من خلال شرحه لمتن المفردة الثانية
اخيراً فأن اليكسندر اطلعنا على اخر التطورات التي ظهرت في العقد الثامن من هذا القرن لم يتطرق لها كل من بيكر وسروكن وكولدنر وهذه ميزة واضحة في طرحه ميزته عن باقي المنظرين الذين تناولهم هذا الفصل .

مراجع الفصل

1. Fletcher, Ronald. 1971. "The Making of Sociolgy" Thomas Nelson and Sons, Ltd. London, P. 27.
2. Boundon, Raymond. 1981. "The Logic of Social Action" Translated by David Silverman, Routledge and Kegan Poul, London, pp. 39 - 42.
3. Gouldner, Alvin W. 1970. "The Coming Crisis of Western Sociology" EQuinox Books, New York, pp. 88 - 156.
4. Sorokin, Pitirim A. 1966. "Sociological Theories of Today" Harper and Pub. New York, pp. 3 - 10.
5. Backer, Howard and Barnes H. E. 1961. "Social Thought From Love To Science" Dover Pub. Inc. New York, pp. ii - eii.
6. Alexander, Jeffrey. 1988. "The New Theoretical Movement" Smelser, Neil (ed.) Handbook of Sociology. SAGE, London, pp. 77 - 92.
7. Lipset, S and Smelser, N 1964. "Change and Controversy" Barron, Milton (ed.) Contemporary Sociology. The Press, New York, pp. 49 - 56.

جدول رقم (١)
يبين مصادر الانشطارات الرئيسية في علم الاجتماع

مصدر الثورة الفرنسية	مصدر الثورة الصناعية	مصدر الحرب العالمية الثانية
قاروية	قاروية	مريكية
اقليمية	اقليمية	—
بعيدة المدى	بعيدة المدى	قريبة المدى
نوعية	نوعية	كمية
		جامعية (شيكاغو وكولومبيا)

بشكل مختصر ان الثورة الفرنسية والثورة الصناعية عملتا على بلورة علم اجتماع يخضع لظروف القارة الاوربية (فظهر علم اجتماع اوربي و بالوقت ذاته عملتا على ظهور علم اجتماع خاص بانكلترا واخر بفرنسا (اقليمي) مستخدم المنهج

التاريخي والمقارن وليس الاحصائي ومتناولا مشكلات نسبية شرق ودرنج المجتمعات والديان والمدنيات والحضارات والثقافات ا بعيده لمدى ا يمه بلور مصدر الحرب العالمية الثانية علما اجتماعيا خاص بمشكلات المجتمع الامريكي ولا يمثل الاقليمية القطرية فيه متناولاً مشكلاته السلوكية والاجرامية الجزئية بعيدا عن المجتمعات والحضارات والثقافات الانسانية (قريبة المدى) ومتأثرا بالاتجاهات والمناهج التي سادت كل من جامعة شيكاغو وكولومبيا وهذا المصدر لم نجد له مثيلا في اورب

جدول رقم (٢)
يمثل تأثيرات الانشطار القاروي على المصطلحات

علم اجتماع اوربي	علم اجتماع امريكي
متصافية	متناقضة
متناقضة	استدراكية
نوعية	كمية
بعيدة المدى	قريبة المدى
تضمنتها دراسات	تضمنتها دراسات جامعة
جامعة كولومبيا	شيكاغوا

تصمر علم الاجتماع الاوربي مصطلحات مشطرة من النوع المتناقص والمتصافي معه وقد غاب الاستدركي فيه ومثل المصطلحات التي عكست المجتمع الانساني والثقافة المجتمعية دون تمييز بين بلد او اخر وقد ظهرت مثل هذه المصطلحات في دراسات جامعة كولمبيا ما علم الاجتماع الامريكي فقد ظهرت انشطارات تختلف عما ظهرت في علم الاجتماع الاوربي اذ جاءت استدراكية وتمثل مشكلات والظواهر الجزئية التي حدثت في المجتمع الامريكي وظهرت معظمها في دراسات جامعة شيكاغو

جدول رقم (٣)

يمثل انواع الانشطارات الاصطلاحية في علم الاجتماع

الانشطارات الرئيسية	الانشطارات الفرعية			
قارية	اوربية	امريكية		
اقليمية	فرنسية	بريطانية		
فكرية	فردية	جمعية		
جامعية	شيكاغو	كولومبيا		
تنظيرية	بعيدة المدى	قريبة المدى		
منهاجية	نوعية	كمية		
اصطلاحية	متناقضة	متنافرة	متضافية	استدراكية
انفلاقات	متصافية			
ضمنية				

يوضح هذا الجدول الانشطارات بشكل عام اذ صنفناها الى رئيسية حسب محاورها العامة واستنادا اليها حددت الانشطارات الفرعية حسب القارة والدولة والجامعة والفكر والمنهج ونوع المصطلح

